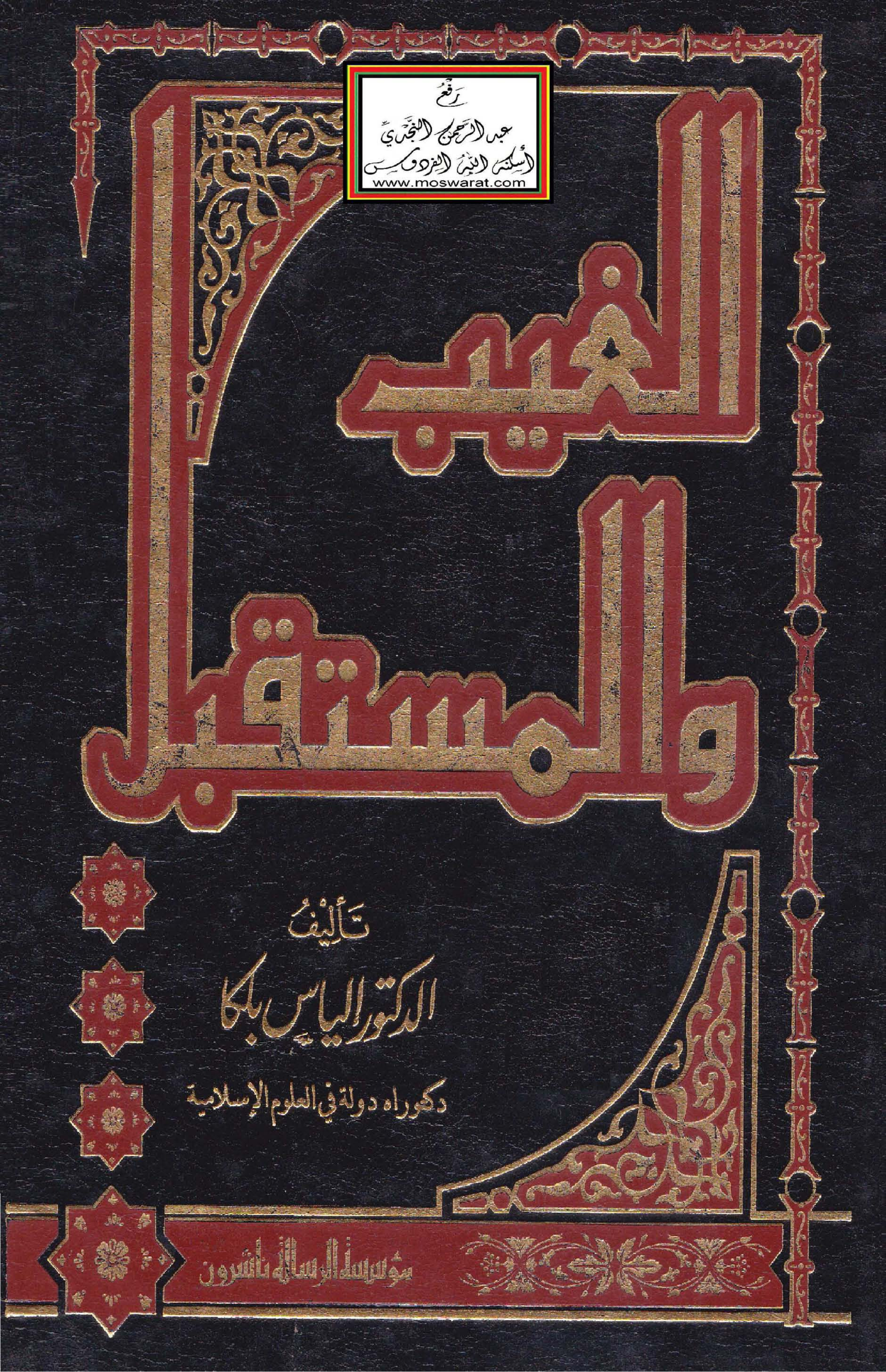


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
الغيب
والمستقبل
تأليف
الدكتور الياس بلكا
دكتوراه دولة في العلوم الإسلامية
مؤسسة الرسالة ناشرون


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



بسم الله الرحمن الرحيم

انتشار بألوان الطيف

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

ISBN:9953-32-281-3

مؤسسة الرسالة ناشرون

دمشق - سوريا

ص.ب : 30597

بيروت - لبنان
هاتف : ٥٤٦٧٢٠ - ٥٤٦٧٢١
فاكس: ٥٤٦٧٢٢ ١ (٩٦١)
ص.ب : ١١٧٤٦٠

Resalah Publishers

Tel: 546720 - 546721
Fax: (961) 1 546722
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon

E-mail:
resalah@resalah.com
Web site:
Http://www.resalah.com



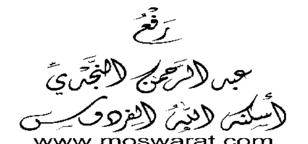
الغيب والمستقبل

تأليف

الدكتور إلياس بلكا

مؤسسة الرسالة ناشرون





مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه، وبعد،

فهذا الإنسان ـ منذ وجد على الأرض وإلى آخر الدنيا ـ شديد الانشغال بالغيب، كثير الاهتمام به، قوي اللهف على استكشافه وإدراكه، فهذا طبع بشري عميق، عرفته القبائل البدائية الأولى، والمجتمعات الحديثة المتطورة، سواء بسواء.

ورغم أن كل واحد يعرف من تجاربه الخاصة والبسيطة في الحياة أن حجاباً غليظاً يقف بينه وبين المستقبل، إلا أن هذا لم يمنع الإنسان من محاولة اختراق هذا الحجاب والتلصص على ما وراءه، ولذلك يظل القلق من المستقبل وما يحمله من مفاجآت إحدى أبرز العواطف البشرية وأقواها.

لكن عصرنا يمتاز ـ بخصوص هذه القضية ـ بدرجة غير مسبوقة في التاريخ من الاهتمام بشؤون المستقبل، وأكاد أزعم أن "إنسان الحداثة" يعيش المستقبل وللمستقبل أكثر مما يعيش الحاضر المباشر. فلم يعد أحد يرضى بما قُدر له في يومه ولا بمستوى العيش الذي حققه.. والجميع في سباق محموم وجهد مضن ليكون الغد أفضل، ولذلك فإنسان الحداثة يُسقِط آماله ومخاوفه ـ أمانيه وهواجسه ـ على المستقبل. وهذا سر الانبعاث المفاجئ لعدد كبير من فنون التنبؤ والعرافة في مختلف بقاع العالم، خاصة بالشمال.[1] وكتاب عالِم المستقبليات الأمريكي ألفن توفلر، والمسمى: "صدمة المستقبل"، يتناول هذه الناحية بتفصيل جيد، أعني شدة الاهتمام بالمستقبل.

والحقيقة أن هذا الانشغال المعاصر بقضية المستقبل تجاوز الإطار الفردي، وغدا وظيفة من وظائف الدول وهَمّاً من أخطر همومها. إن كثيرا من المعارك الدولية الكبيرة لا تجري على الحاضر أو بسبب منه، بل تجري في المستقبل ولأجله، فمثلاً ما يتعرض له جزء هام من العالم العربي والإسلامي اليوم، بغرض السيطرة عليه، ليس لأجل الحاضر، فهذه السيطرة تحققت فعلاً وتتحقق في هذا الحاضر، لقد انتهى الأمر، إنما هذا الصراع يقصد المستقبل، بغرض التحكم فيه وتوجيهه، ولذلك وضع المفكر المستقبلي المرموق المهدي المنجرة ـ من المغرب ـ مفهوم "استعمار المستقبل"، وبيَّن أن بعض أهم الاستراتيجيات

---

(١) تعرضت لهذه الظاهرة مفسراً ومعللاً في كتابي عن التنجيم، وبدرجة أقل في كتابي الآخر عن الكهانة.

الدولية الكبرى تسعى إلى استعمار مستقبل الشعوب الأخرى، بعد أن تحقق لها استعمار حاضرها[١].

ولعل أبرز نموذج لهذا الاهتمام العملي بالمستقبل هو ظهور ما يسمى بـ "الدراسات المستقبلية"، أو "علم المستقبل"، باعتباره فرعاً مستقلاً من العلوم الإنسانية الحديثة[٢].

لهذا ـ ولغيره ـ رأيت أن أدرس قضية المستقبل في الدين، وأن أحرر البحث فيها، وذلك من خلال مفهوم قرآني كبير اسمه: الغيب.

هذه الكلمة تطلق ويراد بها معنيان: الأول هو العالم المحجوب عنا والذي لا تستطيع حواسنا إدراكه، كالله سبحانه، وملائكته، وملكوته الأعلى، وكالجنة والنار، وشؤون الآخرة. والغيب بهذا المعنى ليس مراداً هنا، وقد خصَّصتُ له كتاباً مستقلاً عنوانه: "الغيب والعقل، حدود المعرفة البشرية". والمعنى الثاني هو الزمان الذي لا ندركه، وخصوصاً الزمان الآتي، أو المستقبل، وهو المقصود بكتابي هذا.

إذن ما هو الغيب، هل يمكن إدراك بعضه، وبأية شروط وضوابط؟ ما هي المذهبية الإسلامية في الاهتمام بالمستقبل: هل تمنعه أم تشجعه ؟ هل وضعت له حدودا، وما موقع "مفاتح الغيب الخمسة" من الموضوع ؟ وما الغيب في علم الله تعالى، وإلى أي مدى أطْلَعَ عليه نبيَّه ؟ ولماذا يسعى الإنسان إلى إدراك المستقبل؟ وهل في مقدوره ذلك ؟ وما هي الأساليب التي استحدثها لهذه الغاية؟ وما هو الموقف الفقهي منها ؟ ثم ما هي آراء علمائنا في هذه القضايا ونحوها ...؟

قد عالجت هذه الأسئلة ونحوها في بابين: الأول عن الغيب، بصفة عامة. قسمته إلى فصول، الأول في مفهوم الغيب، بحسب الاصطلاح الشرعي، والثاني عن الغيب في العلم الإلهي. ثم خصصت الفصل الثالث لبحث مفاتح الغيب الخمسة. وكان الفصل الرابع عن موقع الغيب في العلم النبوي. أما الفصل الأخير فكان عن علاقة الإنسان بالغيب واستكشاف المستقبل.

أما الباب الثاني فخصصته للحديث عن بعض الفنون الخفية التي تزعم أنها تكشف عن المستقبل، أو يعتقد بعض الناس أنها كذلك، وذلك كالسحر والخط والأزلام. ولم أتعرض هنا لفنين كبيرين من فنون التنبؤ، وهما الكهانة أو العرافة، والتنجيم. ذلك لأنني صنَّفت فيهما كتابين:

---

(١) وذلك في عدد من كتبه مثل: Première guerre civilisationnelle, p 176

(٢) انظر: نحن والمستقبل، لقسطنطين زريق.

١ ـ النظرية الإسلامية في الكهانة.

٢ ـ مقدمة في التنجيم وحكمه في الإسلام.

وكلاهما صدر عن مؤسسة الرسالة سنة ٢٠٠٣ م.

ثم إنني جعلت الفصل الثاني من هذا الباب في البحث الفقهي عن حكم هذه الفنون الخفية، وذلك بالاعتماد على المصادر الفقهية المعروفة.

والنتيجة التي أتصور أن القارئ سيخرج بها بعد انتهائه من قراءة الكتاب هي أن يفهم جيداً موقف الإسلام من استكشاف المستقبل، وأن يعي الضوابط والقواعد التي نظّم بها هذا الدين الجهدَ البشري الطامح إلى إدراك ما يسميه علماؤنا بـ "الغيب النسبي، أو الإضافي"، ومنه بعض المستقبل.

وأخيراً لابد أن أنبّه القارئ إلى الفرق بين موضوع هذا الكتاب وموضوع كتابي الآخر الذي سيصدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وعنوانه: "الوجود بين مبدئي السببية والنظام. بحث في الأساس الشرعي والنظري لاستشراف المستقبل". فهذا الكتاب الأخير يدرس مسألة هل بالإمكان إدراك المستقبل؟ وإذا كان الجواب: نعم، فما هو الأساس الشرعي والفلسفي لهذا الإمكان؟ ولهذا احتلت قضايا العلية والعلاقة السببية والنظام والسننية والفوضى ... أكثر مساحة الكتاب. بينما هذا التأليف الذي بين يديك ـ "الغيب والمستقبل" ـ يدرس قضايا أخرى. فكأن الكتاب الأول يتعلق بـ "المستقبل النظري"، والثاني بـ "المستقبل العملي". فهذان تأليفان متكاملان، لكنهما مستقلان، لا وجود البتَّة لمباحث مكررة فيهما. والحمد لله رب العالمين.

وكتبه: إلياس بِلْكَا





الباب الأول

الغيـب والمستقبـل

مدخل: الغيب المقصود هنا.

الفصل الأول: مفهوم الغيب.

الفصل الثاني: الغيب في العلم الإلهي.

الفصل الثالث: المفاتح الخمسة.

الفصل الرابع: النبي والغيب.

الفصل الخامس: الإنسان والغيب.



مدخل

الغيب المقصود هنا

الكلام في الغيب ـ خصوصاً المستقبل ـ شحيح في تراثنا، يكفيك لتدرك ذلك أن تراجع أمهات التفاسير ومطولاتها، في أهم آية في الموضوع: مفاتح الغيب الخمسة، في سورتي الأنعام ولقمان، وستجد أن المفسرين يختصرون الكلام فيه جدًا؛ حتى الذين من عادتهم التفصيل، كالرازي مثلاً، قلَّلوا كثيراً من البحث في الموضوع، وأكثرهم ـ في تفسير آيتي مفاتح الغيب ـ كتبوا صفحة أو أقل. وكنت أتوقع أن يكون للمحدَثين والمعاصرين من علماء التفسير، اهتمام زائد بالموضوع، ولكن ذلك لم يكن فيما اطلعت عليه من تفاسيرهم[١].

وهذه الملاحظة لا تخص الغيب من حيث نسبتُه إلى الوجود، بل الغيب من حيث علاقته بالزمان.

عالم الغيب:

العالم يستعمل فيما يعلم به الخالق، وهو ما سوى الله تعالى من الموجودات، وجمعه على عوالم، وهذا يُجمع على عالمين، والعوالم وإن لم تنحصر جزئياتها أمكن حصر كلياتها وأصولها، ولذلك ينقسم العالم إلى عالمي الغيب والشهادة[٢].

فعالم الغيب هو العالم الذي لا ندركه، وإنما أخبرنا عنه الوحي، وذلك كالجنة والنار، وملكوت السماء والملائكة، والآخرة وما بعد الموت. فهذا ما يطلق عليه الغيبيات أو السمعيات في العقائد الإسلامية.

زمان الغيب:

وحين نربط الغيب بالزمان، فإننا في الأكثر نعني به حدثاً معيناً[٣]، لا واقعاً مستقراً، أي حدثاً مضى، أو هو بصدد الحدوث، أو هو آت.

والإشكال في هذا الحدث إشكال معرفي بالدرجة الأولى، فالسؤال: هو هل ندرك هذا الحدث ونعلمه، أم نجهله؟ وهذا الإدراك يقين أم تغليب أم احتمال؟

---

(١) راجعت تفاسير: جمال الدين القاسمي، ومحمد عبده ورشيد رضا (أي تفسير المنار)، وابن عاشور، وسيد قطب، وسعيد حوى، ووهبة الزحيلي.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي، ٣/ ١٠٥٣.

(٣) في الفرنسية الحدث المقصود هو: .Evénement

والذي يعنينا في هذا البحث هو الغيب في علاقته بالزمان، وبالأخص بالمستقبل. أما الغيب الذي هو عالم قائم، فليس موضوعاً لبحثي هذا، لا من قريب ولا من بعيد، ولذا لن أتعرض له، إلا ما جاء عرضاً بحكم تداخل المفهومين أحياناً، ولسبب آخر وهو أن موضوع الغيب باعتباره عالماً قد دُرس، حيث اطلعت على بحث للماجستير تقدم به السيد محمد العلمي إلى كلية الآداب بالرباط، وعنوانه: "الغيب في القرآن الكريم"، فوجدته يسير في هذا المنحى، أعني أمور الألوهية والجنة والنار والآخرة والملائكة... والإيمان بذلك، وبغيرها من الغيوب، وموقع ذلك في العقيدة، وأهميته للإنسان. فلا داعي إذن لتكرار هذه البحوث[1].

إذن سيكون موضوع هذه المباحث هو: "زمان الغيب"، وهذا هو الذي قلت: إن كلام علمائنا فيه قليل، بخلاف موضوع "عالم الغيب"، فالمادة العلمية فيه متوافرة.



(١) راجع مبحث الغيبيات، أو السمعيات، في كتب العقائد. انظر مثلا: كبرى اليقينيات الكونية، من ص ٣٠١ إلى آخر الكتاب تقريباً. وانظر حديثاً مهماً لسيد قطب عن عالم الغيب في كتابه: في ظلال القرآن، ٣/ ٢٤٨ إلى ٢٦٤، الأنعام ٥٩.

الفصل الأول

مفهوم الغيب

في اللغة:

الغيب مصدر غاب يغيب، وكل ما غاب عنك وما اطمأن من الأرض، والشحم[(١)]. وغاب عنك الأمر إذا بطن. وكل مكان لا يدرى ما فيه فهو غيب، وكذلك الموضع الذي لا يدرى ما وراءه[(٢)]. ويجمع على غيوب.

والشهادة خبر قاطع، وشاهده مشاهدة عاينه وحضره، فهو شاهد. والشهيد الحاضر، وكذا الذي لا يغيب عن علمه شيء[(٣)].

الغيب والشهادة في القرآن:

أما في الاستعمال القرآني فالغيب يرد مقروناً مع كلمة الشهادة في حالات كثيرة جدًّا؛ والذي يتحصل من أقوال أهل التفسير وشروحهم لبعض الآيات التي ورد فيها ذكر الغيب والشهادة هو الآتي:

١ ـ الغيب: هو الآخرة، والشهادة هي الدنيا[(٤)]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢].

٢ ـ الغيب: هو ما تسرُّه النفوس، وتنطوي عليه الصدور، والشهادة: ما يظهره الناس ويبرزونه. ولذلك قال بعضهم: الغيب هو السر، والشهادة العلانية[(٥)].

٣ ـ الغيب: ما لا يعرفه الخلق، والشهادة: ما يعرفونه[(٦)]. أو الغيب: ما لم يعلم العباد ولا عاينوه، والشهادة ما علموا وشاهدوا[(٧)].

---

(١) القاموس المحيط، مادة غيب.

(٢) تاج العروس، كلمة غيب.

(٣) القاموس المحيط، تاج العروس، مادة شهد.

(٤) الكشاف ٤/ ٨٧. مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٢٩٣. المحرر الوجيز، ١٥/ ٤٧٩.

(٥) الكشاف، ٤/ ٨٧، سورة الحشر ٢٢ . مفاتيح الغيب، ١٦/ ١٩٤، التوبة ١٠٥؛ و٢٢/ ٢٩٣، الحشر ٢٢. إرشاد العقل السليم، ٥/ ١٥٥، التغابن ١٨.

(٦) مفاتيح الغيب، ١٩/ ٢٢، الرعد ٩.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٣٠، الحشر ٢٢.

٤ ـ الغيب: ما غاب عن حواس الإنسان ومداركه، والشهادة ما حضره الحس[١]. قال الأصفهاني: الغيب "استعمل في كل غائب عن الحاسة وعما يغيب عن علم الإنسان، بمعنى الغائب"[٢]. ولذلك "فالشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة، إما بالبصر أو بالبصيرة. وقد يقال للحضور مفرداً"[٣].

قال الطبري ـ في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] ـ: المعنى "والله عالم ما غاب عنكم وعن أبصاركم فلم تروه، وما شاهدتموه فعاينتم بأبصاركم، لا يخفى عليه شيء"[٤].

٥ ـ الغيب: هو المعدوم، والشهادة: هي الموجود[٥].

تحليل الأقوال المذكورة في معنى الغيب والشهادة:

وأضعف هذه الأقوال هو الخامس، ولذلك حكاه الرازي وأبو السعود بصيغة التضعيف[٦]، وذلك فيما ظهر لي؛ لأنه قول ملتبس، بل يجوز أن نخطّئ صاحبه، فعالَم الملائكة ـ مثلاً ـ من الغيب بلا شك، وهو موجود لا معدوم، وما يحدث في هذه اللحظة في الكون مما لا نعرفه من الغيب بلا خلاف، وهو موجود قائم. وإنما قلت إنه ملتبس ـ في أقل أحواله ـ، لأن صاحبه ربما عنى أن الغيب معدوم بالنسبة إلى حواس الإنسان، فكأنه لما كان لا يقع تحتها كان بالنسبة إليها معدوماً. ولكن هذا المحمل لا يستقيم، والأولى الإعراض عن هذا القول جملة، كما هو صنيع بعض المفسرين الذين لم يذكروه أصلاً.

وأما القولان الثاني والثالث فمتقاربان، فما تسرُّه النفوس لا يعرفه الخلق، وما يظهر على الجوارح معروف للخلق، لكن هذا أحد أفراد ما لا يعرفه الخلق، فهم ـ كما لا يعرفون أسرار النفوس ـ لا يعرفون أيضاً أمور الآخرة وحقائقها، إلا قليلاً مما حكاه الوحي، ولولاه ما عرفوا عنها شيئاً. ولذلك فإن القول الرابع شديد الصلة هو أيضاً بالقول الثالث.

---

(١) جامع البيان، ٧/ ١٤٥، الأنعام ٧٨. المحرر الوجيز، ١٤/ ٩١، الزمر ٤٦؛ و١٥/ ٤٧٩، الحشر ٢٢. الكشاف، ٤/ ٨٧، الحشر ٢٢. مفاتيح الغيب، ١٩/ ٢٢، الرعد ٩. الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٦٠، السجدة ٦؛ و١٨/ ٩٧، التغابن ١٨. مدارك التنزيل، ٢/ ١٤٤، التوبة ١٠٥. إرشاد العقل السليم، ٣/ ٩٩، الرعد ٩؛ و٥/ ١٥٤ ـ ١٥٥، التغابن ١٨. التحرير والتنوير، ٢٤/ ٣١، الزمر ٤٦.

(٢) مفردات غريب القرآن، ٣/ ١٩٢، كلمة غيب.

(٣) مفردات غريب القرآن، ٢/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩، كلمة شهد.

(٤) جامع البيان، ١٣/ ٦٦، الرعد ٩ ـ ١٠.

(٥) الكشاف، ٤/ ٨٧، الحشر ٢٢. مفاتيح الغيب، ١٩/ ٢٢، الرعد ٩، و٢٩/ ٢٩٣، الحشر ٢٢. إرشاد العقل السليم، ٣/ ٩٩، الرعد ٩؛ و٥/ ١٥٥، التغابن ١٨. المنتقى، ١/ ٣٣٤.

(٦) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٢٩٣. إرشاد العقل السليم، ٣/ ٩٩.

ما الذي يجمع بين الأقوال الثلاثة: الأول، والثاني، والثالث؟ يجمع بينها أن ما يعلمه الخلق ـ أو يمكن لهم علمه ـ يعد من عالم الشهادة، أما ما لا يعرفونه، ولا سبيل لهم إلى أن يعرفوه، فهو من عالم الغيب.

وهذا معنى القول الرابع، ولذلك اختاره كثير من المفسرين، وكثير منهم اقتصر عليه، فهو القول الراجح، وهو حدّ ما بين مفهومي الغيب والشهادة.

قاعدة هامة في تمييز الغيب عن الشهادة:

إذن معيار التفرقة بين الغيب والشهادة هو الإنسان نفسه، ولذلك قال الراغب: "يقال للشيء غيب وغائب، باعتباره بالناس، لا بالله تعالى، فإنه لا يغيب عنه شيء"[١]. وعالما الغيب والشهادة هما عالما "ما غاب عن الحواس من الجواهر القدسية وأحوالها، وما حضر من الأجرام وأعراضها"[٢]. أو كما قال ابن عطية. "الغيب ما غاب عن البشر، والشهادة ما شاهدوه"[٣].

فالغيب هو الأمر الذي غاب وخفي جدًّا[٤]، فهو مجموع الأشياء الغائبة مما لا تصل إليه أعين الناس، وكذا العوالم التي لا تبلغها حواس المخلوقات الأرضية[٥].

أما الشهادة فما يشاهده الناس[٦]. أو هي الأشياء المشهودة، أي الظاهرة المحسوسة من المرئيات وغيرها[٧].

وليس معنى هذا ـ كما هو ظاهر بعض التعاريف[٨] ـ أن الإبصار هي آلة التمييز الوحيدة بين الغيب والشهادة، بحيث كان ما أدركته شهادة، وما لم تدركه غيباً، وما يقع من ذلك في كلام بعض المفسرين هو تجوز، ليس إلَّا، بحكم أن الإبصار أقوى حواس الإنسان في الإحاطة بالموجودات، ولذلك يقول العلماء: الغيب ما غاب عن الحسِّ، ومرادهم الحواس التي بها يدرك الإنسان أشياء هذا الوجود، من الإبصار وغير الإبصار. قال ابن عاشور: "الشهادة ما يعلمه الناس مما يدخل تحت الإحساس، الذي هو أصل كل العلوم"[٩].

---

(١) مفردات غريب القرآن، ٣/ ١٩٢.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٥/ ١٥٤ ـ ١٥٥، التغابن ١٨.

(٣) المحرر الوجيز، ١٤/ ١٩١، الزمر ٤٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٠٠.

(٥) التحرير والتنوير، ١٤/ ٢٢٩، النحل ٧٧.

(٦) المحرر الوجيز، ١٥/ ٤٧٩، الحشر ٢٢. مدارك التنزيل، ٢/ ١٤٤، التوبة ١٠٥.

(٧) التحرير والتنوير، ١٣/ ٩٨، الرعد ٩.

(٨) مثل تعريف الكفوي: الغيب كل ما غاب عن العيون. الكليات ٦٦٣.

(٩) التحرير والتنوير، ٢٤/ ٣١.

لكن الحواس ليست هي الطرق الوحيدة التي يُكتسب بها العلم، إذ توجد مجموعة كبيرة من الحقائق الوجودية توصل إليها الإنسان بالعقل فقط، فهي ليست من الغيب، ولهذا جمع بعض المفسرين بين ذين الطريقين في تعريف الغيب، فقال البيضاوي: الغيب الأمر الخفي الذي لا يدركه الحس ولا تقتضيه بديهة العقل[١]. وقال أبو السعود: الغيب "ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يدرك بواحد منهما ابتداء بطريق البداهة"[٢]. وقال القاسمي: المراد بالغيب ما لا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بداهة العقول[٣].

ولو فرضنا كان للإنسان مقدرة على استشعار بعض الغيوب، فإن ما يصل إلى معرفته منها لا يدخل تحت مسمى الغيب. إذن فالغيب ليس فقط ما غاب عن حواس الإنسان، ولا فقط ما غاب عن عقل الإنسان، هو ذلك وغيره مما عبر عنه ابن عطية في أحكم كلمة وأدقها، فقال: "الغيب ما غاب عن مدارك الإنسان"[٤].

وكأن الزمخشري أراد هذا، فقال "الشهادة: الموجود المدرك، كأنه يشاهده"[٥]. فليس لازماً أن يشاهده، بل أن يدركه، بحيث كأنه يشاهده.

ومن هذا الباب تعريف ابن عاشور للغيب بما غاب عن علم الناس، وبالشهادة ما علموه[٦].

وهذه القاعدة تعم عالم الغيب وزمانه، قال ابن عاشور أيضا: "الغيب ما غاب على علم الناس بحيث لا سبيل لهم إلى علمه، وذلك يشمل الأعيان المغيبة كالملائكة والجن، والأعراض الخفية، ومواقيت الأشياء"[٧].

وهذا التعريف يحيلنا على المعيار الذي نميز به بين الغيب والشهادة، وهو الدليل.

الدليل معيار التفرقة بين الغيب والشهادة:

ولذلك يقول النسفي: "الغيب هو ما لم يقم عليه دليل، ولا اطلع عليه مخلوق"[٨]. وكل "ما يدرَك بالدليل لا يكون غيباً"[٩]. وقال الكفوي: "الغيب هو ما لم يقم عليه دليل، ولم ينصب له أمارة، ولم يتعلق به علم مخلوق"[١٠].

---

(١) أنوار التنزيل، ١/ ٥٥.

(٢) إرشاد العقل السليم، ١/ ٢٤، البقرة ٣.

(٣) محاسن التأويل، ٢/ ٣٥، البقرة ٣.

(٤) المحرر الوجيز، ٣/ ٨٥، آل عمران ٤٤. وانظر ١٠/ ١٧، الرعد ٩.

(٥) الكشاف، ٤/ ٨٧، الحشر ٢٢.

(٦) التحرير والتنوير، ١٣/ ٦٠، يوسف: ١٠٢ و٢٤/ ٣١، الزمر ٤٦.

(٧) التحرير والتنوير، ٧/ ٢٧٠، الأنعام ٥٩ .

(٨) مدارك التنزيل، ٣/ ٢١٩، النمل ٦٥.

(٩) مدارك التنزيل، ٣/ ٢٨٦ .

(١٠) الكليات، ص ٦٦٧.

وهذا هو السبب الذي من أجله كانت الغيوب الخمسة من العلم الذي استأثر الله تعالى به، قال ابن العربي: لأنه لا أمارة عليها، ولا علامة، ولذلك يكفر من ادعى علم شيء من هذه الخمس[1].

قال: أما إن وجدت أمارة، كالتجربة مثلاً، فلا يكون ذلك من الغيب، كالطبيب الذي يقول: إذا كان الثدي الأيمن للحامل مسود الحلمة، فالجنين ذكر، وإن كان ذلك في الثدي الأيسر فهو أنثى؛ أو إن كانت تجد الجنب الأيمن أثقل فهو ذكر، وإن كان الأيسر أثقل فهي أنثى. قال: "فإذا ادعى ذلك عادة لا واجباً في الخلقة لم نكفره ولم نفسقه"[2]. وقال أيضاً ـ في موضع آخر ـ: إن قال الأطباء: "إنها تجربة وجدناها تركوا وما هم عليه ولم يقدح ذلك في التمدح"[3]. أي تمدح الله تعالى بعلمه الغيب.

وكذلك في موضوع توقع كسوف الشمس والقمر، فهو ممكن؛ لأنه أمر يدرك بالحساب[4]. وقد نقل القرطبي كلام ابن العربي وأقرَّه[5].

وكما أن ما يدرك بالتجربة لا يكون غيباً، كذلك ما يدرك بصحيح النظر لا يكون غيباً حقيقة.[6] فالعبرة بالدليل، عقلياً كان أم تجريبياً أم خبراً عن الوحي.

يقول التفتازاني: "العلم بالغيب أمر تفرد به الله تعالى، لا سبيل إليه للعباد، إلا بإعلام منه تعالى، وإلهام بطريق المعجزة أو الكرامة، أو إرشاد إلى استدلال بالأمارات، فيما يمكن ذلك فيه"[7].

وقال ابن حزم: "كل ما قام عليه دليل، من خطٍّ أو كفٍّ، أو زجر، أو تطيُّرٍ، فليس غيباً، لو صح وجه ذلك. وإنما الغيب وعلمه هو أن يخبر المرء بكائنة من الكائنات دون صناعة أصلاً من شيء مما ذكرنا، ولا من غيره، فيصيب الجزئي والكلي. وهذا لا يكون إلا لنبي، وهي معجزة حينئذ"[8].

---

(١) أحكام القرآن، ٢/ ٢٥٩، الأنعام ٥٩، في الفصل المقبل بيان مفصل لهذه الغيوب الخمسة.

(٢) أحكام القرآن، ٢/ ٢٥٩. الذي يهم هنا هو المنطق الذي يتكلم به ابن العربي، لا صحة هذه المعلومات الطبية أو خطأها.

(٣) أحكام القرآن، ٣/ ٧٩، الرعد ٨.

(٤) أحكام القرآن، ٢/ ٢٥٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٤، الأنعام ٥٩.

(٦) أحكام القرآن، ١/ ١٦، البقرة ٣.

(٧) شرح العقائد النسفية، ص ١٠٨.

(٨) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٥/ ١٥٠.

ويقول العلامة ابن عاشور: "مفاتح الغيب جمع مضاف يعم به كل المغيبات؛ لأن علمها كلها خاص به تعالى. وأما الأمور التي لها أمارات مثل أمارات الأنواء، وعلامات الأمراض عن الطبيب، فتلك ليست من الغيب، بل من أمور الشهادة الغامضة، وغموضها متفاوت، والناس في التوصل إليها متفاوتون، ومعرفتهم بها من قبيل الظن لا من قبيل اليقين، فلا تسمى علماً "[١].

ولما كان الاعتبار - في التمييز بين الغيب والشهادة - للدليل، فقد قسم العلماء الغيب إلى قسمين[٢]:

الأول: الغيب الذي لا دليل عليه، لا عقلي ولا سمعي، وهذا هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

الثاني: قسم نصب عليه دليل، عقلي أو سمعي، وهو المقصود في نحو قوله جل جلاله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢ - ٣].

قال الرازي: "الغيب ينقسم إلى ما عليه دليل، وإلى ما ليس عليه دليل. أما الذي لا دليل عليه، فهو سبحانه وتعالى العالم به لا غيره، وأما الذي عليه دليل فلا يمتنع أن نقول: نعلم من الغيب ما لنا عليه دليل، وعلى هذا الوجه قال العلماء: الاستدلال بالشاهد على الغائب أحد أقسام الأدلة"[٣]. فالقسم الأول - في كلام الرازي - الذي عليه دليل يمكن معرفته، بخلاف القسم الثاني[٤].

الغيب قسمان: مطلق ومقيد:

وهنا سؤال: هل العبرة في هذا التمييز هو تحصيل الدليل، أعني هل هذا من شرطه؛ أم المعتبر هو الإمكان، مجرد إمكان الدليل، لا تحصيل وقوعه، فيكون المقصود مطلق الدليل، حتى ذلك الذي لا نعرفه ولا نتوفر عليه الآن؟

الجواب هو أن توفر الدليل ليس شرطاً في اعتبار بعض الغيب من القسم الثاني القابل للإدراك البشري، فيكفي أن هذا الدليل ممكن، وقائم.

وفائدة هذا الأمر أن الغيب الذي عليه دليل هو الغيب المدرك أو القابل للإدراك، وبعد

---

(١) التحرير والتنوير، ٧/ ٢٧١، الأنعام ٥٩.

(٢) أنوار التنزيل، ١/ ٥٥. إرشاد العقل السليم، ١/ ٢٤. كلاهما في أول البقرة. كشاف اصطلاحات الفنون، ٣/ ١٠٩٠. الكليات، ص ٦٦٨. روح المعاني، ١/ ١١٤.

(٣) مفاتيح الغيب، ٢/ ٣٢، البقرة ٣.

(٤) الكليات، ص ٦٦٨.

هذا لا يهم إن كنا نعرف هذا الدليل، أو لا نعرفه، فجهلنا به لا يخرجه عن القسم الثاني من الغيب.

ولذلك كان هذا النوع من الغيب نسبياً أو إضافياً أو مقيداً، بخلاف النوع الأول الذي هو غيب مطلق أو حقيقي.

هذا أصل تقسيم العلماء الغيب إلى قسمين: مطلق ومقيد[1]. فما عرفه الإنسان أو أمكن له معرفته هو الغيب المقيد، وما لا سبيل للإنسان إلى علمه فهو الغيب المطلق. فالقرآن يسمي قصص الأنبياء القدامى ـ مثلاً ـ غيباً، وهي لمن شهدها وحضرها من هؤلاء الأنبياء ومن أقوامهم المؤمنين والكافرين ليست غيباً. فهذا الغيب النسبي، أي نسبة إلى قوم دون قوم؛ أو الإضافي، أي هو غيب بالإضافة إلى ناس دون ناس؛ أو المقيد.

وهذا تعريف قسمي الغيب:

أ ـ الغيب المطلق: هو الذي لا يعرفه إلَّا الله عز وجل، وغاب عن جميع خلقه.

ب ـ الغيب المقيد: هو ما عَلِمَهُ بعض خلق الله وخَفِيَ عن البعض الآخر. ويدخل في بعض الخلق الذي يعلمه: الملائكة والإنس والجن... وغيرهم مما لا نعرفه. وهذه المعرفة بالغيب المقيد تتم بإذن الله سبحانه، فيرجع الأمر ـ أمر الغيب ـ إلى الله سبحانه؛ لأنه تعالى إما أن يختص بالغيب لنفسه، وإما أن يأذن بكشفه لبعض عباده، فمعرفة الغيب لا تخرج عن إرادته. ويسمى أيضاً بالغيب الإضافي، قال الكفوي: هو "كنزول مطر في مكة، في حق من كان غائباً عن مكة"[2].

قال ابن تيمية ـ حين تكلم عن قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ـ [النمل: ٦٥]: "هذا هو الغيب المطلق عن جميع المخلوقين الذي قال فيه: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]. والغيب المقيد ما علمه بعض المخلوقات من الملائكة أو الجن أو الإنس وشهدوه، فإنما هو غيب عمن غاب عنه، ليس هو غيباً عمن شهده، والناس كلهم قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا، فيكون غيباً مقيداً، أي غيباً عمن غاب عنه من المخلوقين، لا عمن شهده، ليس غيباً مطلقاً غاب عن المخلوقين قاطبة. وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الرعد: ٩] أي عالم ما غاب عن العباد مطلقاً ومعيناً، وما شهدوه، فهو سبحانه يعلم ذلك كله"[3].

---

(١) انظر هذا التقسيم في: بهجة النفوس، شرح مختصر البخاري، لابن أبي جمرة، ٤/ ٢٧٢. فتح الباري، ١٥/ ٣١٥. والكليات، لأبي البقاء الكفوي، ص٦٦٨. الغيب، لمحمد متولي الشعراوي، ص٩، ١١، ١٥. تفسير المنار، ٧/ ٤٢٢، الأنعام.

(٢) الكليات، ص ٦٦٨.

(٣) الفتاوى، ١٦/ ١١٠. وانظر أيضاً: ١٤/ ٥١ ـ ٥٢.

ولذلك حين ذكر بعض الصحابة وقت الكسوف وتوقعه، وأنكر عليه، أجاب: إنما الغيب خمس - وتلا آية: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] -، وماعدا ذلك غيب يعلمه قوم ويجهله قوم[١].

ويقول القرضاوي: "الغيب المطلق، الذي لم يجعل الله له دلائل ترشد إليه، أو علامات تدل عليه، ويستوي كل الناس في الجهل بِه، مثل العلم بما يكنه ضمير المستقبل للإنسان: هل يعيش الطفل؟ حتى يكبر؟ وإذا كبر هل يتزوج؟ وإذا تزوج هل ينجب؟ وإذا أنجب هل يكونون ذكوراً أو إناثاً؟ وهل يكونون أذكياء أم أغبياء؟ سعداء أو أشقياء؟ وكم يعيش هو؟ ومتى يموت؟ وأين يموت؟ إلى آخر تلك الأسئلة التي لا تكاد تتناهى.

هذه الأسئلة وما شابهها لا يستطيع الإنسان أن يعرف إجابتها على وجه القطع والتفصيل، فهي من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى"[٢].

وأشهر الغيوب المطلقة هي مفاتيح الغيب الخمسة - كما سيأتي في الفصل الثاني والذي بعده - لكن إذا أطلع الله تعالى بعض خلقه على بعضها، ولو كان مخلوقاً واحداً، خرج ذلك الغيب المعين عن الإطلاق إلى التقييد. قال ابن كثير - في آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]: "هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعِلمُ وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، لكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، أو شقياً أو سعيداً، علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه"[٣]. فيصير غيباً مقيداً.

ولذلك فإن مفهوم الغيب مفهوم جد مرن، دائم التحول والتغير، بعكس النظرة السائدة بين الناس التي تجعل منه معنى جامداً مقفلاً أمام العقل الإنساني تماماً. ومن مظاهر هذه المرونة في مفهوم الغيب: قبوله لعنصر الاحتمال.

فرق جليل بين علم الغيب وظن الغيب:

والمقصود بالغيب هنا: المقيد، ولا كلام لنا في الآخر - المطلق - الذي استأثر الله

(١) أورده ابن حجر في فتح الباري، ١/ ١٦٩، في حديث جبريل من كتاب الإيمان، وقال أخرجه حميد بن زنجويه عن بعض الصحابة. وانظر: تفسير المنار، ٧/ ٤٢٢.

(٢) العقل والعلم في القرآن الكريم، ص ١٧٢.

(٣) تفسير ابن كثير، ٣/ ٥٥٩ - ٥٦٠.

تعالى بعلمه. وقد اعتبر علماؤنا أن الكلام في الغيب ـ المقيد ـ والبحث فيه أمر ممكن، وقالوا: إن الفرق بين العلم الإلهي به والعلم البشري، هو أن الأول علم يقين لا يخطئ أبداً، والثاني ظن، يصيب ويخطئ، ويقوى ويضعف.

قال النسفي: "... وأما المنجِّم الذي يخبر بوقت الغيث والموت فإنه يقول بالقياس والنظر في الطالع، وما يدرك بالدليل لا يكون غيباً، على أنه مجرد الظن، والظن غير العلم"[1]. ولذلك اعتبر ابن العربي توقعات الطبيب في أمور الحمل ـ على سبيل المثال ـ توقعات صحيحة، أي سائغة في العلم والشرع؛ لأن مبناها على العادة والتجارب، والعادة يجوز انكسارها، والعلم لا يجوز تبدله"[2]. أي علم الباري.

يقول سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧]. قال الرازي: "العلم بحدوث الحوادث المستقبلة في أوقاتها المعينة ليس إلا عند الله سبحانه. فإن قيل: أليس المنجمين قد يتعرفون من طالع سنة العالم أحوالاً كثيرة من أحوال العالم، وكذلك قد يتعرفون من طوالع الناس أشياء من أحوالهم، وهاهنا شيء آخر يسمى علم الرمل، وهو كثير الإصابة، وأيضاً علم التعبير بالاتفاق قد يدل على أحوال المغيبات، فكيف الجمع بين هذه العلوم المشاهدة وبين هذه الآية؟

قلنا: إن أصحاب هذه العلوم لا يمكنهم القطع والجزم في شيء من المطالب البتَّة، وإنما الغاية القصوى ادعاء ظن ضعيف، والمذكور في هذه الآية أن علمها ليس إلا عند الله، والعلم هو الجزم واليقين، وبهذا الطريق زالت المنافاة والمعاندة والله أعلم"[3].

وهذا الفرق الكبير من المواضع التي زل فيها ناس، حين خلطوا بين الأمرين. قال أحمد القرطبي ـ في مفاتح الغيب الخمسة ـ: "من ادعى علم شيء من هذه الأمور كان في دعواه كاذباً إلا أن يسند ذلك إلى رسول بطريق تفيد العلم القطعي، ووجود ذلك متعذر، بل ممتنع. وأما ظن الغيب فلم يتعرض شيء من الشرع لنفيه ولا لإثباته، فقد يجوز أن يظن المنجِّمُ، أو صاحب خطِّ الرمل، أو نحو هذا، شيئاً مما يقع في المستقبل، فيقع على ما ظنه، فيكون ذلك ظناً صادقاً إذا كان عن موجب عادي يقتضي ذلك الظن، وليس بعلم، فيفهم هذا منه، فإنه موضع غلط بسببه رجال، وأُكلت به أموال"[4].

---

(١) مدارك التنزيل، ٣/ ٢٨٦، لقمان ٣٤.

(٢) أحكام القرآن، ٣/ ٧٩، الرعد ٩.

(٣) مفاتيح الغيب، ٢٧/ ١٣٧.

(٤) المفهم، ١/ ١٥٦، حديث جبريل. وأبو العباس أحمد القرطبي: محدث، وهو شيخ أبي عبد الله القرطبي المفسر.

وقد نقل هذا الكلام جماعة من العلماء وأقروه، منهم: ابن حجر[1]، ومحمد ميارة[2]، والألوسي[3]، وأحمد القباب، والونشريسي. وهذا الأخير نقل نص القرطبي بشيء من الاختلاف، وفيه: "الذي استأثر الله به إنما هو علم الغيب، وأما ظنه فليس في الشرع ما يدل على منعه، فيجوز أن يظن المنجم وخاطُّ الرمل ظنًّا يظهر صدقه في المستقبل، إذا استند في ذلك إلى طريق عادي. فتفهَّم هذا، فقد غلط فيه كثير..."[4].

القذف أو الرجم بالغيب:

وأحسب ـ والله تعالى أعلم ـ أن هذه التفرقة بين علم الغيب وظنه هي التي تفسر بعض الآيات، مثل قوله جل جلاله عن عدد أهل الكهف: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢].

فالغيب المقصود هنا هو الظن، ولذلك عبر عنه بالرجم؛ لأنه يصيب ويخطئ، قال البغوي: "﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، أي: ظنًّا وحدساً من غير يقين"[5].

ولذلك أضاف الله سبحانه الغيب الحقيقي. أي الذي هو علم لا ظن. إلى ذاته القدسية، فقال: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٢٦]، فالله عز وجل لا يغيب عن إدراكه شيء، وقال: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦]، "أي ما أبصر الله بكل موجود، وأسمعه بكل مسموع! أي: لا يغيب عن سمعه وبصره شيء"[6].

وكذلك قوله عز من قائل: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٣]. أي "يرجمون بظنونهم، ويرمون بها الرسل وكتاب الله..."[7] فالغيب هنا هو الظن؛ لأنهم ما رجعوا فيما قالوا إلى حجة صحيحة بل إلى ظنون فقط، فيما لا ينفع فيه

---

(١) فتح الباري، ١/ ١٦٩.

(٢) في كتابه: الدر الثمين، شرح المرشد المعين، ص ٦٦.

(٣) في روح المعاني، ٢٢/ ١١٢. وللبرهان البقاعي رأي يشبه ما قاله القرطبي، انظر تفسيره: نظم الدرر في تناسب الآي والسور، ١٥/ ٢١٥ ـ ٢١٧.

(٤) المعيار المعرب، ١٢/ ٥٦. وأحمد القباب هو أبو العباس ابن قاسم، فقيه مالكي تولى الفتيا بفاس. من تصانيفه: شرح مسائل ابن جماعة في البيوع، وشرح قواعد عياض. توفي سنة ٧٧٩ هـ. معجم المؤلفين، ٢/ ٤٩.

(٥) معالم التنزيل، ٥/ ١٦١.

(٦) معالم التنزيل، ٥/ ١٦٥.

(٧) المحرر الوجيز، ١٣/ ١٥١.

الظن. قال البغوي: "معنى الغيب هو الظن؛ لأنه غاب علمه عنهم"[1]. ولذلك كانوا يقولون: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

أقسام الغيب من حيث الزمان:

وكما أن الغيب ينقسم من حيث إمكان العلم به إلى مطلق ومقيد، كذلك ينقسم من حيث زمانه إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ غيب الماضي: فالماضي الذي انقضى، ولم نشهده ولم نعرفه، ولم يقم عندنا دليل على شيء منه يعتبر غيباً. وغاية علم التاريخ هي إدراك بعضه.

٢ ـ غيب الحاضر: فكل شيء يقع الآن لا نعرفه ولم نشاهده. يعتبر غيباً. من ذلك ما يقع داخل البيوت وما يتناجى به الناس، ونحو ذلك مما هو بالنسبة للذي لا يعلمه غيب. وكذلك شؤون الملكوت وما يقع في السماوات العُلى، وفي أعماق البحار والمحيطات، وفي الصحاري والبراري، كل ذلك غيب.

٣ ـ غيب المستقبل.

أ ـ الغيب الماضي:

ليس الغيب الذي استأثر الله تعالى ببعضه هو علم المستقبل فقط، بل أيضاً علما الماضي والحاضر؛ ولذلك يأمر القرآن برد أشياء مضت اختلف فيها الناس إلى الله تعالى، إما عن طريق نبيِّه، وذلك في زمن الوحي؛ أو إلى ما بعد القيامة، بعد ارتفاع الوحي وانتهائه.

لقد قص الله تعالى اختلاف قوم زكريا عليه السلام في أيهم يكفل مريم التي وهبتها أمها للمعبد، وكيف اضطروا إلى الاقتراع فيما بينهم لأجل ذلك، ثم ختم تعالى القصة بقوله لنبيه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

قال الطبري: "يعنى جل ثناؤه بقوله ذلك الأخبار التي أخبر بها عباده عن امرأة عمران وابنتها مريم وزكريا وابنه يحيى، وسائر ما قص في الآيات من قوله إن الله اصطفى آدم ونوحاً، ثم جمع جميع ذلك تعالى ذكره بقوله ذلك فقال: هذه الأنباء من أنباء الغيب، من أخبار الغيب، ويعني بالغيب أنها من خفي أخبار القوم التي لم تطلع أنت يا محمد عليها ولا

---

(١) معالم التنزيل، ٦/٤٠٧. وراجع للتوسع في هذا المعنى: جامع البيان، ٢٢/ ٦٥. الكشاف، ٣/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧. مفاتيح الغيب، ٢٥/ ٢٧١ فما بعدها. تفسير ابن كثير، ٣/ ٦٦٨. إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٣٦. الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣. التحرير والتنوير، ٢٢/ ٢٤٤.



قومك، ولا يعلمها إلا قليل من أحبار أهل الكتابين ورهبانهم. ثم أخبر تعالى ذكره نبيَّه محمداً ﷺ أنه أوحى ذلك إليه حجة على نبوته وتحقيقاً لصدقه، وقطعاً منه عذر منكري رسالته من كفار أهل الكتابين، الذين يعلمون أن محمداً لم يصل إلى علم هذه الأنباء مع خفائها ولم يدرك معرفتها مع خمولها عند أهلها إلا بإعلام الله ذلك إياه إذ كان معلوماً عندهم أن محمداً ﷺ أميٌّ لا يكتب فيقرأ الكتب فيصل إلى علم ذلك من قبل الكتب، ولا صاحب أهل الكتاب فيأخذ علمه من قبلهم"[١].

وقال سيد قطب: "وكل ذلك من الغيب الذي لم يكن الرسول ﷺ حاضره، ولم يبلغ إلى علمه، فربما كان من أسرار الهيكل التي لا تفشى ولا تباح للإذاعة بها، فاتخذها القرآن ـ في مواجهة كبار أهل الكتاب وقتها ـ دليلاً على وحي من الله لرسوله الصادق. ولم يَرِد أنهم ردوا هذه الحجة، ولو كانت موضع جدال لجادلوه، وهم قد جاؤوا للجدال"[٢].

وحين كلم موسى فرعونا ودعاه إلى التوحيد، انعطف به هذا الملك إلى الماضي السحيق وسأله عنه، كما في سورة طه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [آيات ٤٩ ـ ٥٢]. قال القاسمي: "وهذا السؤال إما لصرف موسى عليه السلام عما يدعوه إليه أمام ملئه، وإشغاله بما لا يعني ما أرسل به، وإما لتوهم أن الرسول يعلم الغيب، فأراد أن يقف على نبأ ما مضى، ويفتح باباً للتخطئة والتكذيب، بالعناد واللجاج. فأجابه موسى عليه السلام بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به، فلا يعلمه إلا هو، وليس من وظيفة الرسالة، وإنما علمها مكتوب في اللوح المحفوظ، محصي غير منسي"[٣]. فالسؤال إما تهرُّبٌ من الموضوع الأصلي الذي هو الدعوة إلى التوحيد، أو هو تعجيز بأمور الماضي البعيد[٤].

يقول الزمخشري: "سأله عن حال من تقدم وخلا من القرون وعن شقاء من شقي منهم وسعادة من سعد، فأجابه بأن هذا سؤال عن الغيب، وقد استأثر الله به، لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علّام الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، لا يجوز على الله أن يخطئ شيئاً أو ينساه.

ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه في إحاطة الله بكل شيء وتبينه لكل معلوم، فتعنت

---

(١) جامع البيان، ٣/١٦٦. وراجع مفاتيح الغيب، ٨/٥٠ ـ ٥١.

(٢) في ظلال القرآن، ١/ ٥٨٤.

(٣) محاسن التأويل، ١١/ ٤١٨٤.

(٤) راجع: مفاتيح الغيب، ٢٢/ ٦٧ ـ ٦٨. التحرير والتنوير، ١٦/ ٢٣٤.

وقال: ما تقول في سوالف القرون وتمادي كثرتهم وتباعد أطراف عددهم كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم؟ فأجاب بأن كل كائن محيط به علمه وهو مثبت عنده في كتاب، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان كما يجوزان عليك أيها العبد الذليل، والبشر الضئيل"(١).

وبهذا أيضاً قال القرطبي والنسفي(٢).

وكذلك حين حكى الرب تعالى قصة نوح، وهي من الماضي الغابر الأقدم، ختمها بقوله عز من قائل: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]. قال ابن عطية: "أي: هذه من الغيوب التي تقادم عهدها ولم يبق علمها إلا عند الله تعالى، ولم يكن علمها أو علم أشباهها عندك ولا عند قومك"(٣). وللعلامة ابن عاشور بعض التفصيل في الآية: "أنباء الغيب: الأخبار المغيبة عن الناس أو عن فريق منهم، فهذه الأنباء مغيبة بالنسبة إلى العرب كلهم؛ لعدم علمهم بأكثر من مجملاتها، وهي أنه قد كان في الزمن الغابر نبي يقال له: نوح ـ عليه السلام ـ أصاب قومه طوفان، وما عدا ذلك فهو غيب كما أشار إليه قوله: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]، فإنهم لم ينكروا ذلك ولم يدعوا علمه. على أن فيها ما هو غيب بالنسبة إلى جميع الأمم مثل قصة ابن نوح الرابع وعصيانه أباه وإصابته بالغرق، ومثل كلام الرب مع نوح ـ عليه السلام ـ عند هبوطه من السفينة، ومثل سخرية قومه به وهو يصنع الفلك، وما دار بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه من المحاورة، فإن ذلك كله مما لم يذكر في كتب أهل الكتاب"(٤).

الإخبار بالماضي من إعجاز القرآن:

وليس من وجوه الإعجاز في الكتاب الكريم ذِكْره لبعض الأخبار المستقبلة فقط، قال الله سبحانه ـ في نهاية قصة يوسف الطويلة ـ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

قال الزمخشري: يعني أن النبي "إذا أخبر به وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي"(٥). وقال الرازي ـ في وجه

---

(١) الكشاف، ٢/ ٥٣٩ ـ ٥٤٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ١٣٧. مدارك التنزيل، ٣/ ٥٥. وقارن بـ: إرشاد العقل السليم، ٣/ ٣٠٩.

(٣) المحرر الوجيز، ٩/ ١٦٦.

(٤) التحرير والتنوير، ١٢/ ٩٢. وراجع: الكشاف، ٢/ ٢٧٤. جامع البيان، ١٢/ ٣٢. إرشاد العقل السليم، ٣/ ٢٧.

(٥) الكشاف، ٢/ ٣٤٦. وانظر: جامع البيان، ١٣/ ٤٣ ـ ٤٤.

هذا الإعجاز الذي تشير إليه الآية ـ: "اعلم أن المقصد من هذا إخبار عن الغيب فيكون معجزاً. بيان أنه إخبار عن الغيب أن محمداً ﷺ ما طالع الكتب ولم يتتلمذ لأحد وما كانت البلدة بلدة العلماء فإتيانه بهذه القصة الطويلة على وجه لم يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم، ومن غير أن يقال إنه كان حاضراً معهم، لابد وأن يكون معجزاً"[١].

أكثر الماضي غيب:

لاشك أن الكتابة هي الوسيلة الأهم لحفظ التواريخ وتدوينها، لكنها وسيلة حديثة لا تتجاوز بضعة آلاف من السنين، بينما يقدر عمر البشرية بعشرات الآلاف، وربما بمئات الآلاف من السنوات؛ ولذلك فإن القسم الأكبر من تاريخ الإنسان لم يدون منه شيء، ويعتمد علماء الآثار ـ في هذه الحالة ـ على الرسوم والمنحوتات وما نجا من الأدوات والأواني ونحو ذلك، وكل هذه الأشياء محدودة الفائدة، ولا تمدنا إلا بمعلومات بسيطة عن ذلك الماضي السحيق.

لكن رغم اكتشاف الإنسان للكتابة وبدئه تدوين بعض أحداث حياته العامة والخاصة، فإن الماضي يعتبر أيضاً غيباً في الأكثر، نعرف منه القليل، ونجهل عنه الشيء الكثير. إن للمعرفة التاريخية مشكلاتها الكبيرة التي تجعل منها مجرد معرفة نسبية محدودة لا ترقى ـ إلا نادراً ـ إلى الإحاطة التامة بالماضي الذي تدرسه.

وللأستاذ إبراهيم أبراش ـ أحد الباحثين المغاربة في التاريخ ـ كلمة جميلة وبليغة في التعبير عن هذا الذي أشرت إليه من قصور المعرفة التاريخية، قال: "لم يتذكر أولئك الذين شهدوا الماضي سوى جزء منه، ولم يسجلوا سوى جزء مما يتذكرونه، ولم يبق مع الزمن سوى جزء مما سجلوه، ولم يسترع نظر المؤرخين سوى جزء مما بقي من الزمن، وجزء فقط مما استرعى نظر المؤرخين صادق، وما أمكن فهمه كان جزء فقط مما هو صادق، وجزء فقط مما فهم يمكن للمؤرخ تفسيره أو روايته.. "[٢].

وليس الحاضر أحسن حالاً، ومن ذا الذي يمكن أن يدَّعي أنه يعرف كل ما يقع في أرجاء الأرض. لقد رأينا باحثين يتفرغون أعواماً لدراسة حدث محدود في الزمان والمكان، مما وقع منذ سنوات قليلة، أو هو بصدد الحدوث، ثم ينهي بحثه بكثير من الإشكالات التي تظل معلقة

---

(١) مفاتيح الغيب، ١٨/٢٢٦. وراجع: تفسير المنار، ١٢/ ٣٤ فما بعدها. وانظر في قيمة الإخبار القرآني عن ماضي البشرية: منهج البحث الاجتماعي، لمحمد أمزيان، ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) من مقال له بصحيفة الاتحاد الاشتراكي، عدد ٢١ ـ ١٩٩٤، من سلسلة مقالات تحت عنوان: "قواعد المنهج العلمي في الدراسات التاريخية".

ومجهولة، وقد تبقى كذلك إلى الأبد. وأذكر لهذا مثالاً من التاريخ القريب، وهو الانقلاب العسكري الذي شهدته إسبانيا في ٢٣ شباط ١٩٨١م، فأكثر شهوده مازالوا على قيد الحياة، وهو يشغل المجتمع الإسباني لحد الآن ـ كما بينته الذكرى العشرون للانقلاب في سنة ٢٠٠١ ـ ورغم ذلك قليل من الناس يعرف ما حدث جيداً، وربما لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، ويبقى الجمهور الأوسع جاهلاً بهذا الماضي القريب الذي كان ـ ذات يوم ـ شاهداً عليه.

بل إن كثيراً مما يعرفه هذا الجمهور ليس من الحقيقة في شيء، وهذه المعرفة الناقصة بالحاضر، والمحرفة في كثير من الأحيان، تجعل بعض الناس لا يصدقون بالتاريخ الماضي، ومن هؤلاء الكورونيل خوان ألبيرطو بيروطي، الذي كان أحد أقرب الناس إلى الانقلاب العسكري المذكور، فقد وضع كتاباً في الموضوع في الذكرى العشرين للانقلاب، وصدّره بعبارة تحمل دلالات عميقة هي: "لم أعد أؤمن بالتاريخ القديم، عندما رأيت كيف يكتب التاريخ المعاصر"[1].

وهذا المعنى هو نفسه الذي عبر عنه الشاعر العربي القديم حين قال:

فما كتب التاريخ من كل ما روت ... لقرائها إلا حديث ملفق

نظرنا لأم الحاضرين فرابنا ... فكيف بأمر الغابرين نصدق

وليس معنى هذا أن كل معرفة تاريخية مستحيلة أو مغلوطة، فنحن نعرف كثيراً من أحداث الماضي، حتى البعيد منه؛ ولذلك تجد أن المؤرخ عالم الآثار يجزم أحياناً بحدوث أشياء، فهي عنده يقين، وينفي وقوع أخرى[2]. وأحياناً يحكم بظن قوي، وأحياناً باحتمال[3]. فهذا كله بحسب الأدلة المتوافرة.

يقول القرضاوي ـ عن الأقدمين ـ:

"إذا خلف القوم وراءهم من المعالم والآثار المشهودات، أو من الخطوط والجلود والأوراق المكتوبات ما يمكن استنطاقه بما كان عليه القوم، فينبغي الاستفادة منه بلا ريب، استجابة لقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٣]. وقد يدخل في ذلك السير في الأرض للنظر في قضية بدء الحياة وكيف كان، وإلى هذا يشير القرآن: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]"[4].

---

(١) عن جريدة: الاتحاد الاشتراكي، يوم الجمعة عدد ٩ آذار ٢٠٠١، ص ٤. وفيها ملخص لكتاب الكورونيل بيروطي.

(٢) انظر نماذج لهذا في: Les premiers temps de la Grèce, p 100, 108

(٣) مثال لذلك في: Les premiers temps de la Grèce, p 105

(٤) العقل والعلم في القرآن الكريم، ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

إن للوجود نظاماً مستقراً، فكل معرفة تنبني على هذا النظام وتكتشفه وتستخدمه، تكون معرفة صحيحة من حيث المبدأ. وعِلْما التاريخ والآثار محاولتان لاكتشاف هذا النظام.

ولكن المقصود أننا لن نعرف الماضي أبداً، على وجه الإحاطة الشاملة، ولا حتى الأكثرية؛ ولذلك فهو من الغيب الذي لا يعلمه الآن إلا الله، من الغيب الذي غاب مع موت أصحابه واندثار معالمه.

من الغيب الماضي الذي لا يبحث فيه:

ولما كان الماضي بهذا الغموض والاشتباه، فقد أُمرنا بالإعراض عنه، حين لا يكون بين أيدينا طريق إلى دركه، أو حين لا يكون في علمه فائدة دينية أو دنيوية، وهو الذي يسميه القرآن الكريم: الرجم بالغيب، أو القذف بالغيب.

من ذلك:

١ ـ الأنساب البعيدة، فهذه لا سبيل إلى معرفتها، ومهما علم أحد نسب أحد، فلابد أن ينتهي هذا العلم إلى حد ما، يكون ما بعده مجرد تخرص لا حجة عليه، وهذا معنى نهي النبي ﷺ أن يُتجاوز في نسبه إلى من فوق عدنان[١]. فهذا هو الجد الأعلى المعروف له عليه السلام، ولا ينبغي البحث وراءه، احتراماً لكلام النبي الكريم.

ولو التزم المسلمون بعدم الدخول في هذه الغيوب المحجوبة ما وجدنا اليوم ـ مثلاً ـ أن نصف المغاربة ينتهون بنسبهم إلى النبي ﷺ، حتى إنك أنى توجهت وجدت قوماً "من الشرفاء". ومازلت أتساءل وأنا أرى كل من حولي يدعي النسب النبوي، لِمَ لا نجد أحداً ينسب نفسه إلى أبي جهل وأبي لهب وأمية بن خلف وأضرابهم، وأين ذهب أبناء هؤلاء وأحفادهم، أم لم يكن لهم نسل؟ وبعض الناس الذين يزعمون أنهم يتصلون بالنبي الكريم من جهة أمهاتهم، أرادوا بأي طريق أن يثبتوا لأنفسهم "النسب الشريف"، وأحدثوا لذلك معركة فكرية، عرفت ـ في القرون الأخيرة، بالغرب الإسلامي ـ بـ "مسألة ثبوت شرف النسب من قبل الأم"؛ وفيها فتاوى ورسائل وأخذ ورد.

٢ ـ مصير أبوي النبي ﷺ، وهذا أيضاً من الغيب الماضي الذي حُجب عنا، لكن بعض الناس يريد كشفه بأي سبيل، وقد قرأت في هذا الموضوع، فوجدت أن الأدلة فيه من العقل وظواهر الآيات والأحاديث متعارضة، ويكفيك أن تقرأ ما كتبه البيهقي والنووي وابن كثير

---

(١) راجع في موضوع النسب النبوي بين إسماعيل وعدنان: السيرة النبوية لابن هشام، مع شرحها للسهيلي: الروض الأنف، انظر أول السيرة. وكذا: السيرة النبوية، لابن كثير، ١/ ٧٤ فما بعدها. وانظر في موضوع الأنساب البعيدة على العموم: شرح ابن حجر للأبواب الثلاثة من كتاب المناقب من صحيح البخاري.



في الموضوع، وتقارنه بكتاب السيوطي: "مسالك الحنفا في والدي المصطفى"[1]. فالصواب الإعراض عن هذا الموضوع، واعتباره من غيب الماضي الذي لا سبيل إلى علمه، فالله تعالى أعلم بحال أبوي النبي ﷺ في الجاهلية، وهو أعلم بما سيكون منهم يوم القيامة إذا امتحنهم.

ثم في هذا الموضوع شيء آخر، وهو أنه مظنة لإيذاء النبي ﷺ في أبويه، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]. فالاحتياط هو إمساك اللسان عن هذا الموضوع، ورد الأمر إلى الله سبحانه رأساً.

ب ـ غيب المستقبل بين مبدئي النظام والسببية[2]:

وكل غيب من هذه الغيوب الثلاثة ـ الماضي والحاضر والمستقبل ـ ينقسم إلى مطلق ومقيد، فغيب المستقبل ـ مثلاً ـ منه المقيد، ومنه المطلق، ومعرفة القسم المقيد منه هي من جهة ممكنة، ومن جهة أخرى لا تكون يقينية أبداً، وذلك لأن هذه المعرفة تنبني على مبدأي النظام والسببية، أو أحدهما.

١ ـ فمن يقول بوجود علاقة سببية حقيقية بين أشياء الوجود يستطيع أن يعتبرها أساس المعرفة المستقبلية، ولذلك فسَّر ابن رشد مفاتح الغيب بأنها العلم الإلهي بالأسباب والمسببات، قال: "النظام المحدود الذي في الأسباب الداخلة والخارجة، أعني التي لا تحل، هو القضاء والقدر الذي كتبه الله تعالى على عباده، وهو اللوح المحفوظ، وعلم الله تعالى بهذه الأسباب وبما يلزم عنها هو العلة في وجود هذه الأسباب، ولذلك كانت هذه الأسباب لا يحيط بمعرفتها إلا الله وحده ولذلك كان هو العالم بالغيب وحده، وعلى الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. وإنما كانت معرفة الأسباب هي العلم بالغيب؛ لأن الغيب هو معرفة وجود الموجود في المستقبل أولا وجوده. ولما كان ترتيب الأسباب ونظامها هو الذي يقتضي وجود الشيء في وقت ما أو عدمه في ذلك الوقت وجب أن يكون العلم بأسباب شيء ما هو العلم بوجود ذلك الشيء وعدمه في وقت ما، والعلم بالأسباب على الإطلاق هو العلم بما يوجد منها أو ما يعدم في وقت من أوقات جميع الزمان، فسبحان من أحاط اختراعا وعلما بجميع أسباب

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ٢٤/ ١٧٤ ـ ١٧٥. الشعراء، آية ٢١٤. السيرة النبوية، لابن كثير ١/ ٢٣٦ إلى ٢٣٩. المعيار للونشريسي، ١٢/ ٢٥٧ إلى ٢٦٢. "مسالك الحنفا في والدي المصطفى"، ضمن الحاوي للفتاوي، ٢/ ٣٥٣ إلى ٤٠٤.

(٢) راجع في الموضوع كتابي: "الوجود بين مبدئي السببية والنظام"، عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي.



جميع الموجودات. وهذه هي مفاتح الغيب المعنية في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩]" [١].

ولذلك قال ابن خلدون: "الكائنات المستقبلة إذا لم تعلم أسباب وقوعها ولم يثبت لها خبر صادق عنها فهو غيب" [٢]. مفهومه أنه إذا علمت أسبابها، أو ثبت عنها خبر صادق، لم تكن غيباً.

ولهذا كانت كثير من فنون التنبؤ تستند إلى سلسلة من الأسباب، مثلها مثل علوم الطب والفلاحة. ونحوها، وإن كانت دلالة تلك الفنون أضعف بكثير، قال ابن القيم: "علم تقدمة المعرفة لا تختص بما ذكره المنجمون، بل له عدة أسباب تصيب وتخطئ، ويصدق الحكم معها ويكذب، منها الكهانة، ومنها المنامات، ومنها الفال والزجر، ومنها السانح والبارح، ومنها الكف، ومنها ضرب الحصى، ومنها الخط في الأرض، ومنها الكشوف المستندة إلى الرياضة، ومنها الفراسة، ومنها الجزاية، ومنها علم الحروف وخواصها، إلى غير ذلك من الأمور التي ينال بها جزء يسير من علم الكهان. وهذا نظير الأسباب التي يستدل بها الطبيب والفلاح والطبائعي على أمور غيبية بما تقتضيه تلك الأدلة، مثاله الطبيب إذا رأى الجرح مستديراً حكم بأنه عَسِرُ البُرء، وإذا رآه مستطيلاً حكم بأنه أسرع برءاً، وكذلك علامات البحارين وغيرها. وكذلك ما علم به الربان في أمور تحدث في البحر والريح بعلامات تدل على ذلك من طلوع كوكب أو غروبه أو علامات أخرى، فيقول: يقع مطر، أو يحدث ريح كذا وكذا، أو يضطرب البحر في مكان كذا ووقت كذا، فيقع ما يحكم به. وكذلك الفلاح يرى علامات فيقول هذه الشجرة يصيبها كذا وتيبس في وقت كذا، وهذه الشجرة لا تحمل العام وهذه تحمل، وهذا النبات يصيبه كذا وكذا لما يرى من علامات، يختص هو بمعرفتها" [٣].

فالمقصود إذن أن شؤون المستقبل تنبني على نظام الأسباب والمسببات، يستوي في ذلك فنون التنبؤ الخفية كالعرافة والتنجيم والخط، وعلوم التوقع الظاهرة، كالأرصاد الجوية والزلازل والدراسات المستقبلية المعاصرة وغيرها.

ولذلك اعتبر كثير من العلماء أن توقع الكسوف أمر ممكن وعمل سليم، وليس من الغيب المحجوب في شيء. قال ابن تيمية: "يمكن المعرفة بما مضى من الكسوف وما يستقبل، كما يمكن المعرفة بما مضى من الأهِلَّة وما يستقبل؛ إذ كل ذلك بحساب، كما قال

---

(١) مناهج الأدلة، ص ١٠٨.

(٢) المقدمة، ص ٩٠.

(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٨. وقارن بكلمة الرواقي بوزيدونيوس في الموضوع نفسه التي نقلها صاحب كتاب: Devins et oracles grecs, p 112

تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦] وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]. ومن هنا صار بعض العامة إذا رأى المنجِّم قد أصاب في خبره عن الكسوف المستقبل يظن أنَّ خبره عن الحوادث من هذا النوع؛ فإن هذا جهلٌ، إذ الخبر الأول بمنزلة إخباره بأن الهلال يطلع: إما ليلة الثلاثين، وإما ليلة إحدى وثلاثين. فإن هذا أمر أجرى الله به العادة لا يخرم أبدا"[١].

٢ ـ ومن لا يقول بالعلاقة العلية، يمكن له أن يبني معرفة غيب المستقبل على مبدأ النظام. إن الله سبحانه إذا خلق ظاهرة معينة على سنن معين، ثم جهز عقولنا بالقدرة على اكتشاف هذا السنن، فهذا معناه أنه ليس من الغيب الذي استأثر الله به، بل معناه أنه أذن لنا في إدراكه.

ولذلك يؤكد القرطبي على "أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب، وأن أحداً لا يعلم ذلك إلا ما أعلمه الله، أو يجعل على ذلك دلالة عادية يعلم بها ما يكون على جري العادة، وقد تتخلف"[٢].

والله سبحانه لا يطلع عباده على الغيب بطريق مباشر، بل جعل الوجود قائما على نظام مستقر، وعن طريق هذا النظام يتكشف للناس بعض ما كان غائبا عن علمهم. قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال ابن كثير: "أي: أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يُميِّز لكم المؤمن من المنافق، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك"[٣]. وقال ابن عاشور: "إنما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، لأنه تعالى جعل نظام هذا العالم مؤسساً على استفادة المسببات من أسبابها، والنتائج من مقدماتها"[٤].

معرفة غيب المستقبل ظنية أبداً:

إذن فإدراك الغيب المقبل ممكن نظرياً، وكثير منه يتحقق عملياً، لكن هذا الإدراك لا يمكن أن يصل إلى مرتبة اليقين التام والقطع الحاسم، بل لابد أن يقع هذا المستقبل كما توقعناه ليكون يقيناً، وهنا لا يصبح مستقبلاً، بل ماضياً أو حاضراً.

---

(١) الفتاوى، ٣٥/ ١٧٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ١٢١، الأحقاف، ١ ـ ٤.

(٣) تفسير ابن كثير، ١/ ٥٢٨.

(٤) التحرير والتنوير، ٤/ ١٧٩. وراجع: جامع البيان، ٤/ ١١٦ ـ ١١٧. مفاتيح الغيب، ٩/ ١١١، (نسخة المطبعة البهية).



وتعليل هذا الأمر أن المعرفة المستقبلية البشرية ليست معرفة رياضية ولا منطقية، حتى تتنوع إلى مستحيلة وممكنة وواجبة، بل هي معرفة استقرائية، والاستقراء مادام لم يعم جميع أفراده، لا يكون قطعياً، حتى إنه لو بقي فرد واحد خارج دائرة الاستقراء لم يجز أن نقول فيه بالقطع؛ لأنه مهما رأينا من أفراد هذا الاستقراء، يمكن أن يكون الفرد الأخير مخالفاً لغيره، وهذا الاحتمال قائم مهما كان ضعيفاً؛ ولهذا يقول محمد القرطبي ـ بعد أن بيَّن أنه يمكن إدراك الغيب الذي جعل الله تعالى عليه دلالة عادية ـ: إن هذه الدلالة قد تتخلف، "مثاله إذا رأى نخلة قد أطلعت؛ فإنه يعلم أنها ستثمر، وإذا رآها قد تناثر طلعها علم أنها لا تثمر. وقد يجوز أن يأتي عليها آفة تهلك ثمرها فلا تثمر، كما أنه جائز أن تكون النخلة التي تناثر طلعها يطلع الله فيها طلعاً ثانياً فتثمر. وكما أنه جائز أيضاً ألا يلي شهرَه شهر ولا يومَه يوم إذا أراد الله إفناء العالم ذلك الوقت"[1].

وهذا ما بيَّنه أبو حامد الغزالي ـ لأول مرة في التاريخ العلمي المعروف ـ، ثم زاده الإنجليزي دافيد هيوم إيضاحاً، بما لا مزيد عليه. وهو يشكل ما يسمى بـ "مشكلة العلاقة السببية"، أو قضية الاستقراء.

إن معرفة المستقبل معرفة احتمالية، قد تكون في بعض الحالات قريبة من القطع، ولكنها تبقى احتمالية بالأساس، ولا نستطيع أن نجزم بوقوع حتى أقرب الأشياء المستقبلة، وهو ـ مثلاً ـ طلوع الشمس غداً، فتوقع هذا الطلوع رأي ينبني على العادة، أو نقول هو مشروط بالإذن الإلهي الذي يسمح باستمرار هذا النظام. يقول القرطبي: "قد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته، إلى غير ذلك، وقد تتخلف التجربة وتنكسر العادة، ويبقى العلم لله تعالى وحده"[2].

وهذا أحد أهم الفروق بين العلم الإلهي والعلم البشري، فالأول يقين لا يخطئ، والثاني ظني أغلبي، ويظل التوقع المستقبلي ـ حتى في أقوى حالاته ـ مشروطاً بشروط لها أول، وليس لها آخر: إذا لم يتغير شيء، إذا لم يتدخل عامل خارجي، إذا مرت كل الأمور كما نتوقع سيكون كذا... ستطلع الشمس، أو تثمر الأرض، أو يشفى المريض... .

هل هذا يقلل من أهمية الجهد العلمي في دراسة المستقبل وتوقع بعض أحداثه؟ هل ظنية هذه المعرفة تلغي قيمتها وتضعف من جدواها؟ هذا ما تجيب عنه نظرية كبرى في إبستيمولوجيا العلوم الإسلامية.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ١٢١، أول الأحقاف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٥٥. لقمان.

المستقبل في إطار نظرية التقريب والتغليب:

هذه نظرية هامة، كان للدكتور أحمد الريسوني[1] فضل إبرازها، وكشف معالمها، وضبط مسائلها، في بحث خاص، عنوانه: "نظرية التقريب والتغليب، وتطبيقاتها في العلوم الإسلامية". ولا أملك أن أفصل الحديث في هذه النظرية في بحثي هذا، ولكنني سأشرح للقارئ فكرتها الجنينية، كما قال صاحبها:

جاء في المدخل: "الفكرة الأساسية لهذه النظرية ... هي أننا، فيما نسعى إليه من أمور علمية أو عملية، قد نحقق مبتغانا، وننجز مطلوبنا على أكمل الوجوه وأتم الصور، وقد لا نصل إلى ذلك، فإذا وصلنا إلى الكمال والتمام واليقين، فبها ونعمت، وإذا لم نصل، فهاهنا تأتي (نظرية التقريب والتغليب).

وبمقتضى هذه النظرية، فإنه يصح لنا، ويتعين علينا ـ حين نفتقد اليقين والكمال ـ أن نتمسك بما تدل عليه الأدلة، وتهدي إليه القواعد وتتيحه الإمكانات الميسورة، مما هو قريب من درجة اليقين والكمال، ومما هو أمثل بها وأشبه، فإذا لم تتأت درجة التقريب هذه، صرنا إلى التغليب، وهو الأخذ بما غلب صوابه، وبما غلب احتمال صدقه وصحته، وبما غلب من المقادير والأحوال والأوصاف.

هذه هي الفكرة الجنينية لنظرية التقريب والتغليب، وهي فكرة تبدو صغيرة وبسيطة، ولكنها تسري في كافة العلوم، وفي كافة مجالات الحياة، وتخضع لها معظم المسائل العلمية، والممارسات العملية. والذي يعنيني منها الآن، هو دخولها والعمل بها في نطاق العلوم الإسلامية خاصة"[2].

هذه النظرية ضخمة، وهي معرفية وعملية في آن؛ ولذلك فهي ليست خاصة بالعلوم الإسلامية، بل تشمل أكثر المعارف البشرية، وربما جميعها، وهذا علم الرياضيات ـ أقرب العلوم إلى اليقين المعرفي ـ يلجأ كثيراً إلى استخدام الاحتمال، لكن كان لابد للأستاذ الريسوني أن يحصر البحث في مجال معين، فاختار مجال العلوم الإسلامية.

والمشكلة أنه ليس من السهل على القارئ العادي، ولا حتى المثقف في العلوم الشرعية، أن يدركا أهمية هذه النظرية وخطورتها وتشعباتها وآثارها الكثيرة، ولذلك فإن قلة

---

(١) ولد الأستاذ أحمد الريسوني سنة ١٩٥٣، بمدينة القصر الكبير، بالمغرب. يعمل حالياً أستاذاً لأصول الفقه ومقاصد الشريعة بكلية الآداب بالرباط. له عدد من الكتب، منها: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي. الفكر المقاصدي: قواعده وفوائده، وعدد آخر من المقالات المتخصصة بمجلات مغربية وعربية.

(٢) نظرية التقريب والتغليب، ص ٩.



فقط من الباحثين هي التي يمكن أن تعي أهمية عمل الأستاذ الريسوني، بخلاف عمله الأول حول نظرية المقاصد عند الشاطبي الذي حظي باهتمام أكبر من جمهور القراء؛ لهذا بدأت منذ فترة في الاشتغال على موضوع "اتجاه الإبستيمولوجيا المعاصرة لإعادة الاعتبار لعنصر الاحتمال في المعرفة"، والقطع مع الموقف الفلسفي اليوناني القديم الذي لم يكن يحفل بغير اليقين التام في كل موضوع، وقد عزَّ عليَّ أن يُصور علماء فلسفة المعرفة الغربيون ـ ومعهم بعض المسلمين ـ هذا الاتجاه الجديد بأنه إحدى أهم الثورات العلمية للقرن العشرين، بينما نملك نحن هذا المنهج منذ قرون، حتى إن أكثر علومنا الإسلامية واللغوية تحكمها هذه النظرية: التقريب والتغليب [1].

والآن بعد صدور دراسة الأستاذ الريسوني حول هذه النظرية، يمكن أن نصحح دعوى اختصاص القرن العشرين بهذا التحول المعرفي من اليقين إلى الاحتمال، أو ـ بتعبير الأستاذ الريسوني ـ من القطع إلى التغليب. وسأبين هذه الأمور جيداً في عمل آخر، بإذن الله تعالى.

قلت ـ في الفقرة قبل هذه ـ: إن المعرفة المستقبلية لا تكون يقينية، فهي إذن ظنية، أو ـ بالتعبير الذي يقترحه الأستاذ الريسوني ـ تغليبية. ولا إشكال في هذا، مادام أن أنواعاً كثيرة من العلوم تحفل بكثير من القواعد والنتائج الأغلبية، ومنها العلوم الإسلامية.

وقد بيَّن بحث: "نظرية التقريب والتغليب" جملة أمور، أختار منها:

١ ـ إن هذه الصفة ـ التغليب ـ ثابتة لكل العلوم الإسلامية، ومن هذه العلوم: مصطلح الحديث، والفقه، وأصول الفقه.

٢ ـ وصف التغليب لا يمنع مشروعية هذه العلوم، ولا يقلل من أهميتها، ولا من قيمة نتائجها. قياساً على ذلك تكون المعرفة المستقبلية جائزة ومشروعة، مادامت كثير من أساليبها ونتائجها أغلبية، أي: مبنية على أدلة تنتج ظنًّا بشريًّا، هو على درجات من القوة، بحيث يضعف حتى ينزل إلى مجرد احتمال مستبعد جدًّا، ويقوى حتى يصل إلى رتبة تقارب اليقين.

خاتمة في قواعد تخص غيب المستقبل:

يمكن أن نختصر البحوث السابقة في عدد من القواعد تتعلق بالغيب عموماً، وغيب المستقبل خصوصاً، وهي:

١- الغيب ما خفي عن مدارك الإنسان.

---

(١) كتبت عرضاً موسعاً للكتاب بمجلة إسلامية المعرفة، عدد شتاء ٢٠٠٤، فليراجع هناك.

٢- الغيب المطلق ما لا دليل عليه.

٣- لا يعلم الغيب المطلق إلا الله سبحانه.

٤- ليس من الغيب ما يدرك بالدليل، والدليل: وحي، أو عقل، أو تجربة.

٥- مبدئياً يعتبر الغيب المقيد قابلاً للإدراك البشري.

٦- قد يكون العلم بالغيب المقيد يقينياً إذا تعلق بالماضي أو الحاضر؛ لكنه لا يكون إلا أغلبياً، أو ظنياً، إن تعلق بالمستقبل.

٧- مبدأ النظام الكوني - أو العلاقة السببية - هو الأساس الإبستيمولوجي للمعرفة المستقبلية، ونظرية التغليب هو أساسها الشرعي والعملي.



الفصل الثاني

الغيب في العلم الإلهي

المبحث الأول: علم الله تعالى بالغيوب في القرآن الكريم.

وصف الله تعالى نفسه بعلم الغيب:

في الكتاب الكريم عدد كبير من الآيات التي تثبت لله تعالى علم الغيب، وتصفه بعالم الغيب، وهذا من المواضيع البارزة في القرآن، أعني إلحاحه المتكرر على وصف الله تعالى بمعرفة الغيب، بجميع أقسامه وأنواعه:

عالم الآخرة والملكوت:

فهذا من الغيب الذي يعلمه الله، قال سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٥ ـ ٦].

قال بعض المفسرين: أراد بالغيب الآخرة، وبالشهادة الدنيا. وكذلك قالوا في قوله عزَّ من قائل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢][(١)].

وبعضهم فسر الغيب بمعنى أعم يشمل الآخرة، وعالم الملكوت القائم الآن، والذي لا نعرفه، كالملائكة وأحوالها في السماوات. قالوا ـ في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] ـ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: الغائب عن الحس، و﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: الحاضر له. أي: علم ما غاب عن الخلق وما حضرهم[(٢)].

الباطن الذي استسر:

وبه فسر بعض العلماء قول الباري: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]، فالغيب هو السر، والشهادة هي العلانية[(٣)].

علم غيب الصدور:

ومما يتكرر في الكتاب الكريم كذلك أن الله سبحانه يعلم ما يسرُّه الإنسان، وما يبطنه ويخفيه، ويذكر ذلك في مقام التنبيه على عظمة الله وسعة قدرته، فمن ذلك:

---

(١) انظر: الكشاف، ٤/ ٨٧. المحرر الوجيز، ١٣/ ٣٢. مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٢٩٣. الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٣٠. التحرير والتنوير، ٢١/ ٢١٤.

(٢) المحرر الوجيز، ١٣/ ٣٢. الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٦٠. إرشاد العقل السليم، ٣/ ٩٩.

(٣) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٢٩٣. الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٣٠.



١ ـ ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه خافية منهم، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والآنات واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما في السماوات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي وقدرته نافذة في جميع ذلك. وهذا تنبيه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معالجتهم بالعقوبة، وإن أَنْظر من أنظر منهم، فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]"[١].

٢ ـ ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠]. أي: "إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في إجهارهم وإسرارهم، وسيجزيهم على ذلك، على القليل والجليل"[٢].

٣ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤][٣].

٤ ـ ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣ ـ ١٤][٤].

وهذا البيان القرآني يحتاجه الناس في كل زمان، ففيهم دائماً من لا يعرف أن الله الذي خلق كل شيء، وبحفظه تقوم السماوات والأرض، يعلم كل شيء ويطلع على كل ظاهر وخفي، حتى ما انطوت عليه الصدور، وضاع في أعماق النفوس. يروي عبد الله بن مسعود أنه: "اجتمع عند البيت ثقفيَّان وقرشي ـ أو قرشيان وثقفي ـ كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت: ٢٢]"[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير، ١/ ٤٤٠.

(٢) تفسير ابن كثير، ٣/ ٢٥٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ٢٠/ ٢٨ ـ ٢٩.

(٤) راجع: التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٩.

(٥) أخرجه البخاري: ٧٥٢١ .

علم المستقبل، والحاضر المحجوب، والماضي المنقرض:

قال الطبري . في قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٦ ـ ٧]. "يقول تعالى ذكره هذا الذي يفعل ما وصفت لكم في هذه الآيات هو عالم الغيب، يعني عالم ما يغيب عن أبصاركم أيها الناس فلا تبصرونه، مما تكنه الصدور وتخفيه النفوس، وما لم يكن بعد مما هو كائن؛ والشهادة، يعني ما شاهدَتْه الأبصار فأبصرتْهُ وعاينته، وما هو موجود"[1].

وقال الرازي: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ إشارة إلى ما لم يكن بعد، و﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ إشارة إلى ما وجد وكان[2]. فالأشياء إما سبق لها الوجود، وهذا يشمل الماضي والحاضر، أو لم توجد بعد ولكنها ستوجد، وهذا يشمل المستقبل؛ والأشياء الأولى من عالم الشهادة، والثانية من الغيب. ولذلك قال القاسمي: "﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: ما غاب عن العباد وما يكون، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ما علمه العباد وما كان"[3].

العموم:

قال تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤]. وفي السورة نفسها: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٠٥].

يقول ابن عطية: "الغيب والشهادة معناه ما غاب وما شوهد، وهما حالتان تعمَّان كلَّ شيء"[4]. فكأن الله سبحانه حصر بهذين اللفظين ـ الغيب والشهادة ـ جميع الأشياء[5].

أسلوب الحصر والاختصاص: الغيب لله وحده:

وفي آيات أخرى يجيء الكلام عن علم الله سبحانه بالغيب بطريق الحصر:

١ ـ ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

وسبب نزول هذه الآية: أن المشركين أرادوا استفزاز النبي ﷺ وتحدِّيه، فطلبوا منه ـ

---

(١) جامع البيان، ٢١/ ٥٤.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ١٧٤.

(٣) محاسن التأويل، ١٣/ ٤٨١١.

(٤) المحرر الوجيز، ٨/ ٢٦٩.

(٥) المحرر الوجيز، ١٣/ ٣٢. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٧٧ ـ ٧٨ .



على سبيل العناد لا ابتغاء الهداية ـ أن يأتي بآية معجزة[1].

قال الزمخشري في معنى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾، "أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به، لا علم لي ولا لأحد به: يعني أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو، ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ نزول ما اقترحتموه"[2].

وقال ابن عطية: "وقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، لا يطلع على غيبه أحد. وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ وعيد قد صدقه الله تعالى بنصرته محمدا ﷺ"[3].

بينما قال ابن عاشور: المراد بالغيب هنا ما يتكون من مخلوقات غير معتادة في العالم الدنيوي من المعجزات، وتفسير هذا قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩][4].

٢ ـ قال جل من قائل: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

ومما قال ابن عاشور في تفسير الآية: : "اللام في لله للملك وهو ملك إحاطة العلم، أي لله ما غاب عن علم الناس في السماوات والأرض. وهذا كلام يجمع بشارة المؤمنين بما وعدوا من النعيم المغيب عنهم، ونذارة المشركين بما توعدوا به من العذاب المغيب عنهم في الدنيا والآخرة.

وتقديم المجرورين في ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود: ١٢٣] لإفادة الاختصاص، أي: الله لا غيره يملك غيب السماوات والأرض؛ لأن ذلك مما لا يشاركه فيه أحد، وإلى الله لا إلى غيره يرجع الأمر كله"[5].

٣ ـ ويقول رب العزة: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].

وفسَّره الزمخشري بقوله: "أي: يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفي عليهم علمه"[6]. وزاد أبو السعود هذا المعنى إيضاحاً، فقال: "ولله تعالى خاصة لا لأحد غيره استقلالا ولا اشتراكاً ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة بحيث لا سبيل لهم إليها لا مشاهدة ولا استدلالاً. ومعنى الإضافة إليهما التعلق بهما،

---

(١) راجع: جامع البيان، ١١/ ٦٢ ـ ٦٣. التحرير والتنوير، ١١/ ١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) الكشاف، ٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١. محاسن التأويل، ٩/ ٣٣٣٦.

(٣) المحرر الوجيز، ٩/ ٢٣.

(٤) التحرير والتنوير، ١١/ ١٣١.

(٥) التحرير والتنوير، ١٢/ ١٩٤.

(٦) الكشاف، ٢/ ٤٢١.



إما باعتبار الوقوع فيهما حالاً أو مآلاً، وإما باعتبار الغيبة عن أهلهما. والمراد بيان الاختصاص به تعالى من حيث المعلومية حسبما ينبئ عنه عنوان الغيبية لا من حيث المخلوقية والمملوكية، وإن كان الأمر كذلك في نفس الأمر، وفيه إشعار بأن علمه سبحانه حضوري فإن تحقق الغيوب في أنفسها علم بالنسبة إليه تعالى ولذلك لم يقل ولله علم غيب السماوات والأرض"[١].

٤ ـ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وقد قيل: إن سبب نزول الآية أن المشركين سألوا النبي ﷺ عن قيام الساعة. قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لسائليك من المشركين عن الساعة متى هي قائمة: لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب الذي قد استأثر الله بعلمه وحجب عنه خلقه غيره، والساعة من ذلك"[٢].

ويقول ابن عاشور ـ في السياق العام للآية ـ: "لما أبطلت الآيات السابقة إلهية أصناف المشركين بالأدلة المتظاهرة فانقطع دابر عقيدة الإشراك، ثني عنان الإبطال إلى أثر من آثار الشرك، وهو ادعاء علم الغيب بالكهانة وأخبار الجن، كما كان يزعمه الكهان والعرَّافون وسدنة الأصنام. ويؤمن بذلك المشركون ... وإذ قد كانت المخلوقات لا يعدون أن يكونوا من أهل السماوات أو من أهل الأرض لانحصار عوالم الموجودات في ذلك كان قوله: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ﴾ في قوة لا يعلم أحد الغيب، ولكن أطنب الكلام لقصد التنصيص على تعميم المخلوقات كلها، فإن مقام علم العقيدة مقام بيان يناسبه الإطناب"[٣].

٥ ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨][٤].

فوائد هذا الحصر:

وهي متعددة، يمكن أن نجتهد في كشفها، فمن ذلك:

١ ـ الغيب أمر عظيم يعجز الإنسان عن إدراكه، فمن يعلمه يستحق التعظيم فعلاً، وهو الله سبحانه، فكأن هذا استدلال بجلال شأن الغيب على عظمة العالم بالغيب.

ويظهر لي أن مما يؤدي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

---

(١) إرشاد العقل السليم، ٣/١٨٦.

(٢) جامع البيان، ٢١/٤.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٠/١٩. وراجع أيضاً: المحرر الوجيز، ١٢/١٢٦. الجامع لأحكام القرآن، ١٣/١٥٠. إرشاد العقل السليم، ٤/١٣٩.

(٤) راجع في تفسير الآية: إرشاد العقل السليم، ٤/٢٤٥. التحرير والتنوير، ٢٢/٣٢١ ـ ٣٢٢.

٢ ـ عكس هذا، أي: الاستدلال بأهمية شأن الغيب على جلال الله وعظمته وواسع علمه وقدرته:

قال ابن عطية ـ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]: "هذه آية تعظيم وانفراد بما لا حظَّ لمخلوق فيه، وهو علم الغيب، وتبيين أن الخير والشر، وجليل الأشياء وحقيرها، مصروف إلى أحكام مالكه، ثم أمر البشر بالعبادة والتوكل على الله تعالى، وفيها زوال همه وصلاحه ووصوله إلى رضوان الله"(١).

٣ ـ تخصيص الباري بعلم الغيب من دون العالمين، فهذا الحصر تأكيد على استقلال الإله بالإحاطة بعالمي الغيب والشهادة على وجه الشمول والعموم التامَّين.

اقتران ذِكر الغيب والشهادة:

وفي القرآن الكريم كثيراً ما يقترن ذِكر الغيب بذكر الشهادة، فمن ذلك قوله سبحانه:

ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التغابن: ١٨].

ـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

والمراد في هذه الآيات: الجنس، واستغراقه لكل غيب(٢).

ومما قيل في تفسير هذا الاقتران المتكرر: إن التعبير بـ "الغيب والشهادة" لفظ يعمُّ جميع الأشياء(٣).

وعلَّلوا تقديم الغيب على الشهادة، فقالوا:

ـ لأن علم الغيب هو الذي فارق به علم الله تعالى علم غيره؛ وذكر معه علم الشهادة احتراساً، حتى لا يتوهم أحدٌ أنه لا يعرف أمورها(٤).

ـ لأن الغيب متقدم في الوجود(٥).

---

(١) المحرر الوجيز، ٩/٢٤٣.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٨/٢٦٦، النجم ٤١.

(٣) المحرر الوجيز، ٨/٢٥٥، التوبة ٩٤.

(٤) التحرير والتنوير، ٢٨/١١٩. الحشر ٢٢. الغيب، للشيخ الشعراوي، ص ١٠٤.

(٥) إرشاد العقل السليم، ٥/١٥٥.

- لأن عالم الغيب أوسع وأهم من عالم الشهادة[1].

- لأن "الموجودات الغائبة عن الحواس عِلل - أو كالعلل - للموجودات المحسوسة، والعلم بالعلل علّة للعلم بالمعلولات، فوجب سبق العلم بالغيب على العلم بالشهادة"[2].

لفظة "الغيوب" في القرآن، وسبب استعمالها:

وإذا كان القرآن الكريم يذكر الغيب كثيراً، فإنه أحياناً يستعمل لفظة الجمع، وذلك في مواضع قليلة، منها:

١ - ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

٢ - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

٣ - ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٧ - ٤٨].

ولم أجد - فيما اطلعت عليه من التفاسير - تعليلاً لذكر الغيوب بدل الغيب، في هذه الآيات ونحوها، وهي قليلة، فالغيوب جمع غيب[3]، وقيل جمع غائب[4].

ويبدو لي أنه يصح أن نعلل هذا الاستعمال بأحد وجهين:

١ - إن استعمال كلمة غيوب بدل غيب، يدل على سعة علم الله تعالى بطريق سعة معلوماته، وكذلك على أننا - نحن البشر - نجهل كل شيء تقريباً، فهو إشارة إلى أن في الوجود عوالم وأكواناً كثيرة، لا يعلمها إلا الله، فهو ليس غيباً واحداً لا نعرفه، بل هي غيوب متعددة.

٢ - ومن جهة أخرى لاحظت شيئاً مشتركاً بين هذه الآيات، وهو رد أمر القلوب وخفايا الضمائر إلى الله تعالى، الذي هو علام الغيوب:

أ - آية المائدة: قال الزمخشري: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] "تقرير للجملتين معاً؛ لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب؛ ولأن ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهي إليه علم أحد"[5].

---

(١) إرشاد العقل السليم، ٢/ ٢٩٥.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٢/ ٢٩٥.

(٣) لسان العرب، مادة غيب. التحرير والتنوير، ١٠/ ٢٧٤.

(٤) الكليات، ص ٦٦٩.

(٥) الكشاف، ١/ ٦٥٥.

وصحّح الرازي أن قول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] معناه: لا علم لنا لأنك تعلم ما أظهروا وما أضمروا، ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا، فعلمك فيهم أنفذ من علمنا، فلهذا نفوا العلم عن أنفسهم؛ لأن علمهم عند الله كلا علم[1]. فهم علموا منهم بعض الظاهر، أما باطنهم الذي يخفى فلا يعرفون عنه شيئاً، وردوا علمه إلى "علّام الغيوب".

ب ـ آية التوبة: وهي موجهة للمنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون. قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يكفرون بالله ورسوله سرًّا، ويظهرون الإيمان بهما لأهل الإيمان جهراً، أن الله يعلم سرهم الذي يسرونه في أنفسهم من الكفر به وبرسوله ونجواهم. يقول: ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ إذا تناجوا بينهم بالطعن في الإسلام وأهله... ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، يقول: ألم يعلموا أن الله علام ما غاب عن أسماع خلقه وأبصارهم وحواسهم مما أكنته نفوسهم، فلم يظهر على جوارحهم الظاهرة فينهاهم ذلك عن خداع أوليائه بالنفاق والكذب، ويؤخرهم عن إضمار غير ما يبدونه وإظهار خلاف ما يعتقدونه"[2].

ج ـ آية سبأ: قال ابن عاشور: "تخصيص وصف ﴿عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ من بين الأوصاف الإلهية للإشارة إلى أنه عالم بالنوايا، وأن القائل يعلم ذلك، فالذي يعلم هذا لا يجترئ على الله بادعائه باطلاً أنه أرسله إليكم"[3]. وأشار الرازي إلى هذا باعتباره وجهاً في التفسير[4].

فكأن كل ضمير، وكل نفس، وكل باطن عالَمٌ لوحده، وغيب مستقل، فهذه الغيوب كثيرة جدًّا بعدد النفوس البشرية، والله سبحانه يطلع عليها جميعاً، ويعرف ما يدور فيها من مشاعر واختلاجات وآمال وآلام وأفكار ونوايا، فتبارك الله علام الغيوب.

ولا أدل على أن عالم النفس غيب من سعي علوم النفس منذ قرن من الزمان إلى اكتشاف هذا العالم الباطن، فلم تصل إلى شيء سوى أنها كشفت عن سعة مجاهل هذا العالم وعمقه وتعقده، كما فعلت مدرسة التحليل النفسي مثلا. قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. فتصور كيف أن الباري جل جلاله يعرف أسرار كل نفس إنسانية في أدق تفاصيلها، وهي أصلاً كثيرة، تكوّن عالماً غيبياً قائماً بذاته.

الغيب باعتباره علماً:

وتجيء كلمة الغيب أحياناً فتدل على العلم والمعرفة:

---

(١) مفاتيح الغيب، ١٢/ ١٢٣ (نسخة المطبعة البهية).

(٢) جامع البيان، ١٠/ ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٢/ ٢٣٨.

(٤) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ٢٧١.

١ ـ قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ ـ ٨٠].

وسبب نزولها كما روى الأئمة: أن خباب بن الأرت عمل للعاص بن وائل عملاً، فآتاه يتقاضاه، فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقال خباب: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. فقال العاص: فإني إذا متُّ ثم بعثتُ جئتني ولي ثَمَّ مالٌ وولد، فأقضيك. فنزلت الآية[١].

والمعنى أو قد بلغ من عظم شأنه ـ أي العاص ـ أنه ارتقى إلى علم الغيب الذي توحَّد به الواحد القهار[٢]. أو ـ كما قال الطبري ـ أعَلِمَ هذا القائل هذا القول عِلْمَ الغيب، فعلم أن له في الآخرة مالاً وولداً، باطّلاعه على علم ما غاب عنه، أم اتخذ عند الرحمان عهداً [٣]، أي موثقا.

قال ابن عباس: أنَظَر في اللوح المحفوظ؟ وقال مجاهد: أعَلِم الغيب حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟[٤].

وكلمة "أطَّلع" ألفها ألف استفهام لمجيء "أم" بعدها، ومعناها التوبيخ[٥].

٢ ـ قال عز من قائل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٣ ـ ٣٨]. قال الطبري: "ذكر أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة من أجل أنه عاتبه بعض المشركين، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه، فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الآخرة، ففعل، فأعطى الذي عاتبه على ذلك بعض ما كان ضمن له، ثم بخل عليه ومنعه تمام ما ضمن له"[٦]. ومعنى أكدى هنا: أعطى قليلاً ثم بخل ومنع[٧].

---

(١) أخرجه البخاري: ٢٠٩١، ومسلم: ٢٧٩٥ (٣٥) (٣٦)، وأحمد: ٢١٠٦٨ .

(٢) مفاتيح الغيب، ٢١/ ٢٥٠.

(٣) جامع البيان، ١٦/ ٨١. وانظر: تفسير ابن كثير، ٣/ ١٧٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٩٧. عمدة القاري، للعيني، تفسير سورة مريم، ١٩/ ٥٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٩٨.

(٦) جامع البيان، ٢٧/ ٣٧.

(٧) جامع البيان، ٢٧/ ٣٧. مفاتيح الغيب، ٢٩/ ١٣.

وقوله: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٥]: "أي: أعند هذا المكدي علم ما غاب عنه من أمر العذاب؟ ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي: يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة، وما يكون من أمره حتى يضمن حمل العذاب عن غيره، وكفى بهذا جهلاً وحمقاً"(١).

"والاستفهام في ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ إنكاري على توهمه أن استئجار أحد ليتحمل عنه عذاب الله ينجيه من العذاب، أي: ما عنده علم الغيب. وهذا الخبر كناية عن خطئه فيما توهَّمه"(٢).

"وعلم الغيب: معرفة العوالم المغيبة، أي: العلم الحاصل من أدلة، فكأنه شاهد الغيب بقرينة قوله ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾. وفرع على هذا التعجب قوله ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي: فهو يشاهد أمور الغيب، بحيث عاقد على التعارض في حقوقها. والرؤية في قوله ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ بصرية ومفعولها محذوف، والتقدير: فهو يرى الغيب"(٣).

٣ ـ ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الطور: ٤١].

قال القرطبي: "أي يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب. وقيل: أي: أم عندهم علم ما غاب عن الناس حتى علموا أن ما أخبرهم به الرسول من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل. وقال قتادة: لما قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، قال الله تعالى ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ حتى علموا متى يموت محمد أو ما يؤول إليه أمره. وقال ابن عباس: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه"(٤).

والتعريف في "الغيب" للعهد، فيراد به نوع من الغيب، كذا قال الرازي. وقال ابن عاشور هو للجنس(٥).

فالمعنى: "الذي يملك أمر الغيب وما يقدر فيه وما يدبر، هو الذي يملك أن يدبر فيه وأن يكيد. فمالهم وهم عن الغيب محجوبون، وفي سجله لا يكتبون، يكيدون لك ويدبرون، ويحسبون أنهم قادرون على شيء من أمر المستقبل، فيقولون: ﴿يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]"(٦).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٧/ ٧٣ ـ ٧٤.
(٢) التحرير والتنوير، ٢٧/ ١٢٨.
(٣) التحرير والتنوير، ٢٧/ ١٢٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٧/ ٥١. وانظر: المحرر الوجيز، ١٥/ ٢٤٨. معالم التنزيل، ٧/ ٣٩٣. مفاتيح الغيب، ٢٨/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧. التحرير والتنوير، ٢٧/ ٧٦ ـ ٧٧.
(٥) مفاتيح الغيب، ٢٨/ ٢٦٦. التحرير والتنوير، ٢٧/ ٧٦.
(٦) في ظلال القرآن، ٧/ ٦٠٨.



٤ ـ ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [القلم: ٤٧]. وتفسيرها كآيتي النجم والطور. قال المفسرون: معناه: هل لهم علم بما يكون، وبما غاب عنهم، فيدعون مع ذلك أن الأمر على اختيارهم جار(١)، وحتى إنهم يكتبون على الله، أي: يحكمون عليه بما شاؤوا وأرادوا(٢). أو نقول: أم عندهم علم الغيب، فهو يكتبون ذلك للناس، فينبؤونهم بما شاؤوا، ويخبرونهم بما أرادوا(٣).

الغيب باعتباره حالاً:

لفظة الغيب ـ فيما سبق من هذا المبحث ـ تجيء على تسمية المصدر، بمعنى الغائب. لكن توجد في القرآن الكريم آيات أخرى ورد فيها ذكر الغيب بمعنى الحال، أي: الغيبة. كما توجد بعض الآيات التي تحتمل الاستعمالين معاً، ومنها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣](٤).

قال النسفي: "﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ بما غاب عنهم مما أنبأهم به النبي عليه السلام من أمر البعث والنشور والحساب وغير ذلك، فهو بمعنى الغائب تسمية بالمصدر من قولك: غاب الشيء غيباً، هذا إن جعلته صلة للإيمان. وإن جعلته حالاً كان بمعنى الغيبة والخفاء، أي: يؤمنون غائبين عن المؤمن به وحقيقته متلبسين بالغيبة"(٥).

وقال الماتريدي ـ في توجيه تفسير كلمة الغيب بالحال ـ: "والإيمان إنما يكون بالغيب؛ لأنه تصديق، والتصديق والتكذيب إنما يكونان عن الخبر، والخبر يكون عن غيب لا عن مشاهدة"(٦).

ولذلك قال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]. فحظر سبحانه على المؤمنين أن يصيدوا حيواناً في حالة الإحرام، حتى لو انفردوا به وغابوا عن الأبصار. وعلق على ذلك سيد

---

(١) المحرر الوجيز، ١٦/ ٨٩. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ١٦٤. التحرير والتنوير، ٢٩/ ١٠٣.

(٢) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٩٩.

(٣) جامع البيان، ٢٧/ ١٩.

(٤) راجع التفاصيل في: جامع البيان، ١/ ٧٧ ـ ٧٨. الكشاف، ١/ ١٢٨. الجامع لأحكام القرآن، ١/ ١١٥. التحرير والتنوير ١/ ٢٢٨ إلى ٢٣٠.

(٥) مدارك التنزيل، ١/ ١٣.

(٦) تأويلات أهل السنة، ص ٣٨.

قطب، فقال: "إنه صيد سهل، يسوقه الله إليهم، صيد تناله أيديهم من قريب، وتناله رماحهم بلا مشقة. ولقد حكي أن الله ساق لهم هذا الصيد حتى لكان يطوف بخيامهم ومنازلهم من قريب! إنه الإغراء الذي يكون فيه الابتلاء، إن الناس لا يرون الله، إنه تعالى بالنسبة لهم غيب، ولكن قلوبهم تعرفه بالغيب وتخافه. إن استقرار هذه الحقيقة الهائلة ـ حقيقة الإيمان بالله بالغيب ومخافته ـ والاستغناء عن رؤية الحس والمشاهدة، والشعور بهذا الغيب شعوراً يوازي ـ بل يرجح ـ الشهادة، حتى ليؤدي المؤمن شهادة: بأن لا إله إلا الله، وهو لم ير الله. إن استقرار هذه الحقيقة على هذا النحو يعبر عن نقلة ضخمة في ارتقاء الكائن البشري، وانطلاق طاقاته الفطرية، واستخدام أجهزته المركوزة في تكوينه الفطري على الوجه الأكمل، وابتعاده ـ بمقدار هذا الارتقاء ـ عن عالم البهيمة التي لا تعرف الغيب، بالمستوى الذي تهيأ له الإنسان. بينما يعبر انغلاق روحه عن رؤية ما وراء الحس، وانكماش إحساسه في دائرة المحسوس، عن تعطل أجهزة الالتقاط والاتصال الراقية فيه، وانتكاسه إلى المستوى الحيواني في الحس (المادي) ! "(١).

وتزداد هذه المعاني وغيرها اتضاحاً وبياناً حين نواصل تفسير الآيات الأخرى التي جاء فيها ذكر "الغيب" بمعنى الحال:

١ ـ قال تعالى في وصف الصالحات من النساء المسلمات: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

قال النسفي: " ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ لمواجب الغيب وهو خلاف الشهادة، أي: إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن حفظن ما يجب عليهن حفظه في حال الغيبة من الفروج والبيوت والأموال. وقيل للغيب: لأسرارهم "(٢).

وهذا الحفظ يشمل حتى حالة حضور الزوج، وليس فقط غيابه وبعده بسفر ونحوه، فكل ما لم يطلع عليه مما يتعلق بشؤون زوجه هو أيضاً من الغيب بالنسبة إليه، ولذلك يقول ابن عطية ـ في قوله: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ ـ: "معناه كل ما غاب عن علم زوجها مما استرعته، وذلك يعم حال غيب الزوج وحال حضوره "(٣).

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها

---

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ٤١ ـ ٤٢.

(٢) مدارك التنزيل، ١/ ٢٢٣.

(٣) المحرر الوجيز، ٤/ ١٠٤. وانظر: أحكام القرآن، لابن العربي، ١/ ٥٣١ ـ ٥٣٢. مفاتيح الغيب، ١٠/ ٨٨ ـ ٨٩. (نسخة المطبعة البهية).

سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها، ثم قرأ رسول الله هذه الآية»[1].

وقد يتساءل المرء لِمَ لم يقل ـ مثلاً ـ: (حافظات بالغيب)، بالباء، وجوابه عند ابن عاشور: "علق الغيب بالحفظ على سبيل المجاز العقلي؛ لأنه وقته. والغيب مصدر غاب ضد حضر. والمقصود غيبة أزواجهن، واللام للتعدية لضعف العامل، إذ هو غير فعل، فالغيب في معنى المفعول، وقد جعل مفعولاً للحفظ على التوسع؛ لأنه في الحقيقة للحفظ، فأقيم مقام المفعول ليشمل كل ما هو مظنة تخلف الحفظ في مدته: من كل ما شأنه أن يحرسه الزوج الحاضر من أحوال امرأته في عرضه وماله"[2].

٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤].

وعلم الله تعالى أزلي سابق على كل حادث، ولذلك قال ابن عطية: "(ليعلم) معناه ليستمر علمه عليه، وهو موجود، إذ علم الله تعالى ذلك في الأزل"[3]. وقال العلامة ابن عاشور: "وقوله: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ علة لقوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾؛ لأن الابتلاء اختبار، فعلّته أن يعلمَ اللهُ منه من يخافه. وجعل علم الله علة للابتلاء إنما هو على معنى ليظهر للناس من يخاف الله من كل من علم الله أنه يخافه، فأطلق علم الله على لازمه، وهو ظهور ذلك وتميزه؛ لأن علم الله يلازمه التحقق في الخارج إذ لا يكون علم الله إلا موافقاً لما في نفس الأمر، كما بيناه غير مرة؛ أو أريد بقوله: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ التعلق التنجيزي لعلم الله بفعل بعض المكلفين، بناء على إثبات تعلق تنجيزي لصفة العلم.."[4]. وقيل غير ذلك[5].

فالمقصود هو الابتلاء، قال ابن كثير: "﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ﴾ يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرًّا وجهراً، لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره"[6].

(١) أخرجه أحمد: ٧٤٢١ بنحوه.

(٢) التحرير والتنوير، ٥/ ٤٠.

(٣) المحرر الوجيز، ٥/ ١٨٨.

(٤) التحرير والتنوير، ٧/ ٤٠.

(٥) انظر التحرير والتنوير نفسه. مفاتيح الغيب، ١٢/ ٨٦، (نسخة المطبعة البهية). إرشاد العقل السليم، ٢/ ٥٨.

(٦) تفسير ابن كثير، ٢/ ١٢٦. وانظر كلمة في هذا الابتلاء في: التحرير والتنوير، ٧/ ٣٧ إلى ٣٩. في ظلال القرآن، ٣/ ٤١ ـ ٤٢.

ومن شرط تحقق هذا الابتلاء أن يكون حيث لا رقيب ولا شهيد ظاهرين؛ ولذلك فسر بعضهم الغيب هنا بالخلوة عن الناس، فمن خاف الله تعالى انتهى عن الصيد من ذات نفسه، ولو كان وحده[1].

ومنهم من فسر الغيب بالدنيا، كالطبري[2]. وهذا يعم حالتي الخلاء والاجتماع بالناس. ورأي ابن عاشور أقرب إلى مراد الطبري؛ لأنه قال: ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، "أي من يخاف الله وهو غائب عن الله، أي غير مشاهد له. وجميع مخافة الناس من الله في الدنيا هي مخافة بالغيب، وفائدة ذكره أنه ثناء على الذين يخافون الله، أثنى عليهم بصدق الإيمان وتنور البصيرة، فإنهم خافوه ولم يروا عظمته وجلاله ونعيمه وثوابه ولكنهم أيقنوا بذلك عن صدق استدلال. وقد أشار إلى هذا ما في الحديث القدسي: إنهم آمنوا بي ولم يروني فكيف لو رأوني"[3].

٣ ـ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١].

يقول تعالى ذكره: هذه الجنات هي الجنات التي وعد الرحمان عباده المؤمنين أن يدخلوها بالغيب؛ لأنهم لم يروها ولم يعاينوها، فهي غيب لهم[4].

٤ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨ ـ ٤٩]. وفي هذه الآية ثلاث تأويلات[5]:

أ ـ يخشون ربهم في غيبتهم وخلواتهم وحيث لا يطلع عليهم أحد. وهذا التفسير رجحه ابن عطية والرازي[6].

ب ـ يخشون الله تعالى، وهم لم يروه، فإيمانهم به تعالى غيبي استدلالي. قاله أبو السعود والقرطبي[7].

ج ـ يخشون ربهم بما أعلمهم به مما غاب عنهم من أمر آخرتهم ودنياهم.

٥ ـ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١٠ ـ ١١]. فمعنى ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾،

---

(١) المحرر الوجيز، ٥/ ١٨٩.

(٢) جامع البيان، ٧/ ٢٥.

(٣) التحرير والتنوير، ٧/ ٤٠. وانظر: مفاتيح الغيب، ١٢/ ٨٦.

(٤) راجع: جامع البيان، ١٦/ ٦٧. مفاتيح الغيب، ١/ ٢٣٧. تفسير ابن كثير، ٣/ ١٦٤. إرشاد العقل السليم ٣/ ٢٨٧.

(٥) المحرر الوجيز، ١١/ ١٤١. مفاتيح الغيب، ٢٢/ ١٨٠.

(٦) المحرر الوجيز، ١١/ ١٤١. مفاتيح الغيب، ٢٢/ ١٨٠.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ١٩٥. إرشاد العقل السليم، ٣/ ٣٤٤.

أي: بالخلوات عند مغيب الإنسان عن عيون البشر[1].

٦ ـ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

في الآية وجهان: يخشون الله، وهو بحال غيبة عنهم[2]. أوهم يخافونه في الخلاء[3]. وقد جمعهما الزمخشري بقوله: (بالغيب) "حال من الفاعل أو المفعول: أي يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائباً عنهم. وقيل بالغيب في السر، وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ من أصحابه، فكانت عادتهم المستمرة أن يخشوا الله، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوها مناراً منصوباً وعلماً مرفوعاً: يعني إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك، وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم دون متمرديهم وأهل عنادهم"[4].

٧ ـ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٤].

وفيه الوجوه المتقدمة نفسها، قال الزمخشري: "(بالغيب) حال من المفعول، أي: خشيه وهو غائب لم يعرفه، وكونه معاقباً إلا بطريق الاستدلال، أو صفة لمصدر خشي خشية ملتبسة بالغيب حيث خشي عقابه وهو غائب، أو خشيه بسبب الغيب الذي أوعده به من عذابه، وقيل في الخلوة حيث لا يراه أحد. فإن قلت: كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ قلت: للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته مع علمه أنه الواسع الرحمة، كما أثنى عليه بأنه خاش مع أن المخشى منه غائب ونحوه "[5].

٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٢ ـ ١٤]. وتفسيره كتفسير ما سبق[6].

---

(١) المحرر الوجيز، ١٣/ ١٩٠. الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٩. تفسير ابن كثير، ٣/ ٦٩٢. مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٤٨.

(٢) المحرر الوجيز، ١٣/ ١٦٦.

(٣) مدارك التنزيل، ٣/ ٨١. التحرير والتنوير، ٢٢/ ٢٩١.

(٤) الكشاف، ٣/ ٣٠٥.

(٥) الكشاف، ٤/ ١٠ ـ ١١. وانظر: المحرر الوجيز، ١٥/ ١٨٦. الجامع لأحكام القرآن، ١٧/ ١٥. محاسن التأويل، ١٥/ ٥٥١٣.

(٦) راجع: المحرر الوجيز، ١٦/ ٦٥. مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٦٧. الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ١٣٩. تفسير ابن كثير، ٤/ ٤٦٩. التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٩.

وفي الحديث:

وكذلك جاء في كلام النبي ﷺ استعمال "الغيب" في معنى الحال، فمن ذلك: روى أبو الدرداء أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل ».

وعنه في رواية أخرى: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل». وعن عمران بن الحصين ـ مرفوعاً ـ: «دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب لا يرد»[1].

قال النووي: "أما قوله: بظهر الغيب، فمعناه في غيبة المدعو له وفي سره، لأنه أبلغ في الإخلاص"[2]. وقال القرطبي ـ المحدث ـ: "إنما خص حالة الغيبة بالذكر لبعدها عن الرياء، والأغراض المفسدة أو المنقصة؛ فإنه في حال الغيبة يتمحض الإخلاص، ويصح قصد وجه الله تعالى بذلك، فيوافقه الملك في الدعاء، ويبشره على لسان رسوله ﷺ بأن له مثل ما دعا به لأخيه. والأخوة هنا: هي الأخوة الدينية، وقد تكون معها صداقة ومعرفة وقد لا تكون، وقد يتعين، وقد لا يتعين.." [3] أي تكون الدعوة مطلقة، أو عامة للمسلمين.

وفي هذا المعنى أيضاً ما رواه بعض أصحاب عبد الله بن مسعود، قال: كنا عند عبد الله جلوساً، فذكرنا أصحابَ رسول الله وما سبقوا به، فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بينا لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيمانا أفضل من إيمان بغيب. ثم قرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣][4].

ولما كان الإيمان عن غيب بهذه المثابة، كان من السبعة الذين يظلهم الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله: رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، أي في خلوة من الناس. وهو حديث مشهور في الصحيحين وغيرهما.

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٧٣٢ (٨٦)، وأحمد: ٢١٧٠٧.

(٢) المنهاج، ١٧/ ٤١. وانظر أيضا: دليل الفالحين، ٤/ ٣٠٨.

(٣) المفهم، ٧/ ٦١.

(٤) قال السيوطي: أخرجه سفيان بن عيينة وسعيد بن منصور وأحمد بن منيع في مسنده وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه وابن مردوية عن الحارث بن قيس. كذا في الدر المنثور، ١/ ٢٦. وانظر تفسير ابن كثير، ١/ ٥٧.

المبحث الثاني: العلم الإلهي وسعته:

من حقائق الاعتقادات العالية أن علم الخالق سبحانه واسع لا يحده شيء، فهذا من صفات الألوهية وكمالاتها، قال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾(1) [آل عمران: ٥]. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

وقد ضرب لنا الباري مثلاً يقرب هذه الحقيقة الضخمة إلى أذهاننا المحدودة، فقال عز من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقال أيضاً: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

والغرض من هذه الآيات "الإعلام بكثرة معاني كلمات الله وهي في نفسها غير متناهية، وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى؛ لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة؛ لا أنها تنفذ بأكثر من هذه الأقلام والبحور"(2). ولذلك كان قوله سبعة أبحر كناية عن الكثرة، وليس لهذا العدد مفهوم(3).

وقال الرازي ـ في سعة العلم الإلهي ـ: "المعلومات قسمان: المعدومات والموجودات، والمعدومات منها معدومات يمتنع وجودها، ومنها معدومات لا يمتنع وجودها. والموجودات ـ أيضاً ـ قسمان: موجودات يمتنع عدمها، وموجودات لا يمتنع عدمها، وكل واحد من هذه الأقسام الأربعة له أحكام وخواص، والكل معلوم لله تعالى. وحكى الشيخ الإمام الوالد عن أبي القاسم الأنصاري عن إمام الحرمين رحمهم الله تعالى أنه كان يقول: لله تعالى معلومات لا نهاية لها، وله في كل واحد من تلك المعلومات معلومات أخرى لا نهاية لها، لأن الجوهر الفرد يعلم الله تعالى من حاله أنه يمكن وقوعه في أحياز لا نهاية لها على البدل، وموصوفاً بصفات لا نهاية لها على البدل، وهو تعالى عالم بكل الأحوال على التفصيل، وكل هذه الأقسام داخل تحت قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الرعد: ٩] "(4).

لا يقال للباري علّامة:

ويوصف الله سبحانه بالعلم، فيقال: عالم، وعليم، وعلّام. كما جاء في الكتاب

---

(١) راجع: مفاتيح الغيب، ٧/ ١٧٦ ـ ١٧٧. التحرير والتنوير، ٣٠/ ١٥١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٥١ ـ ٥٢.

(٣) التحرير والتنوير، ٢١/ ١٨٢. وانظر في تفسير آية الكهف: ١٦/ ٥٢ ـ ٥٣.

(٤) مفاتيح الغيب، ١٩/ ٢٢ ـ ٢٣ .

العزيز. قال الرازي: "فأما وصف الله بالعلَّامة فإنه لا يجوز؛ لأنه مشعر بنوع تكلُّف فيما يعلم، والتكلف في حق الله محال"[١].

اللوح والقلم:

ومن أمور الغيب التي أخبرنا الوحي بها أن كثيراً من علوم الباري سبحانه كتبها فيما يسمى بـ "اللوح المحفوظ" الذي يشتمل على الكوائن منذ خلق الله هذا الوجود إلى يوم القيامة، أو إلى الأبد؛ ولأجل ذلك خلق الله تعالى القلم.

قال الطحاوي في عقيدته:

"ونؤمن باللَّوحِ والقلم، وبجميع ما فيه قد رقم"[٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أوَّل ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يا رب ما أكتب؟ قال: اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد»[٣]. وهذا حديث صحيح، ورد من رواية جماعة من الصحابة، كما قال السيوطي[٤].

وفي رواية أخرى أن القلم حين قال: ما أكتب؟ قال رب العزة: بما أنا خالق وكائن في خلقي من قطر أو نبات أو نفس أو أثر أو رزق أو أجل، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة[٥].

فهذا المكتوب حفظه الله تعالى في اللوح، وهو الذي يسمى في القرآن بالكتاب وأحياناً بأمِّ الكتاب. وذلك أن للكتاب معنيين[٦]: ١ ـ القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢]. ٢ ـ اللوح المحفوظ.

---

(١) مفاتيح الغيب، ١٦/ ١٤٧.

(٢) العقيدة الطحاوية، ص ١٨. وانظر شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز، ٢/ ٣٤٥ فما بعدها. وراجع أيضا اليواقيت والجواهر، ١/ ١١٠ إلى ١١٣. وإن كان كلامه في اللوح هناك مبني على الكشف والذوق الصوفيين. والطحاوي هو أحمد بن سلامة الأزدي الحجري، المصري، الحنفي. مجتهد ومحدث. له: أحكام القرآن. التاريخ الكبير. توفي سنة ٣٢١هـ. عن معجم المؤلفين، ٢/ ١٠٧. وهو صاحب مشكل الآثار، وشرح معاني الآثار.

(٣) أخرجه الترمذي: ٢١٥٥، وأحمد: ٢٢٧٠٥ .

(٤) الحاوي للفتاوي، للسيوطي، ١/ ٥٥٤.

(٥) قال السيوطي: رجاله ثقات إلا الضحاك بن مزاحم، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة. وذكر السيوطي روايات أخرى، يتحصل منها صحة هذا الحديث. انظر: الحاوي للفتاوي، ١/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥. وعند الحاكم والطبري والطبراني أحاديث متقاربة فيها أن الكتابة تكون إلى يوم القيامة. راجع: الدر المنثور، ٦/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٦) وتوجد معان أخرى كالرسالة: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩]، وقد أعرضت عن ذكرها في الصلب، لأن الذي يهمنا هناك هو أن نفرق بين الكتاب الذي هو القرآن، والكتاب الذي هو اللوح المحفوظ.



وقد فسَّر العلماء عدداً من الآيات التي جاء فيها ذكر الكتاب بأنه اللوح المحفوظ[1]، فمن ذلك:

أ ـ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

ب ـ مما جاء في محاورة فرعون لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [2] [طه: ٥١ ـ ٥٢].

ج ـ وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [3] [الأنعام: ٥٩].

قال الطبري: "ولا شيء أيضاً مما هو موجود أو مما سيوجد ولم يوجد بعد إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ مكتوب ذلك فيه، ومرسوم عدده ومبلغه، والوقت الذي يوجد فيه، والحال التي يفنى فيها. ويعني بقوله ﴿مُّبِينٍ﴾ أنه يبين عن صحة ما هو فيه بوجود ما رسم فيه على ما رسم. فإن قال قائل: وما وجه إثباته في اللوح المحفوظ والكتاب المبين ما لا يخفى عليه، وهو بجميعه عالم لا يخاف نسيانه؟ قيل له: لله تعالى فعل ما شاء، وجائز أن يكون كان ذلك منه امتحاناً منه لحفظته واختباراً للمتوكلين بكتابة أعمالهم، فإنهم فيما ذكر مأمورون بكتابة أعمال العباد ثم تعرضها على ما أثبته الله من ذلك في اللوح المحفوظ، حتى أثبت فيه ما أثبت كل يوم. وقيل: إن ذلك معنى قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]. وجائز أن يكون ذلك لغير الله مما هو أعلم به، إما بحجة يحتج بها على بعض ملائكته، وإما على بني آدم، وغير ذلك"[4].

د ـ ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

لكن بعض أهل التفسير ـ وهو أبو مسلم الأصفهاني ـ قال: الكتاب ـ كما في آية الحج ـ معناه الحفظ والضبط، فقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ كناية، معناه أنه محفوظ عنده[5].

---

(١) انظر: جامع البيان، ٢٠/٧ ـ ٨. الجامع لأحكام القرآن، ١٢/٦٣ ـ ٦٤. وقال رشيد رضا: وعليه اتفق العلماء. راجع: تفسير المنار، ٧/٤٧١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ١١/١٣٧. مدارك التنزيل، ٣/٥٥. إرشاد العقل السليم، ٣/٣٠٩.

(٣) راجع: المحرر الوجيز، ٦/٦٥. مفاتيح الغيب، ١٣/١٢.

(٤) جامع البيان، ٧/١٢٧. ولرشيد رضا بحث جيد في موضوع اللوح والقلم، وحكمة كتابة مقادير الأشياء. راجعه في: المنار، ٧/٤٦٩ فما بعدها.

(٥) مفاتيح الغيب، ٢٣/٦٧. وانظر: إرشاد العقل السليم، ٣/٣٠٩. طه ٥٢. وأبو مسلم محمد بن علي المعتزلي أديب ومفسر. من أهم كتبه: التأويل لمحكم التنزيل. ناسخ الحديث ومنسوخه.. توفي سنة ٤٥٩ ﻫ. معجم المؤلفين، ١١/٤٩.

وقال ابن عاشور ـ في آية النمل ـ: الكتاب يعبر به عن علم الله، استعير له الكتاب لما فيه من التحقق وعدم قبول التغيير[1].

وعلق الرازي على هذا الرأي قائلاً: القول التالي: "وهو قول الجمهور أن كل ما يحدثه الله في السماوات والأرض فقد كتبه في اللوح المحفوظ. قالوا وهذا أولى؛ لأن القول الأول ـ أي: قول أبي مسلم ـ وإن كان صحيحاً نظراً إلى الاشتقاق، لكن الواجب حمل اللفظ على المتعارف، ومعلوم أن الكتاب هو ما تكتب فيه الأمور فكان حمله عليه أولى. فإن قيل: فقد يوهم ذلك أن علمه مستفاد من الكتاب، وأيضاً فأي فائدة في ذلك الكتاب. والجواب عن الأول: أن كَتْبَهُ تلك الأشياء في ذلك الكتاب مع كونها مطابقة للموجودات من أدل الدلائل على أنه سبحانه غنيٌّ في علمه عن ذلك الكتاب. وعن الثاني: أن الملائكة ينظرون فيه ثم يرون الحوادث داخلة في الوجود على وفقه، فصار ذلك دليلاً لهم زائداً على كونه سبحانه عالماً بكل المعلومات. أما قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فمعناه أن كَتبه جملة الحوادث مع أنها من الغيب مما يتعذر على الخلق، لكنها بحيث متى أرادها الله تعالى كانت، فعبر عن ذلك بأنه يسير، وإن كان هذا الوصف لا يستعمل إلا فينا من حيث تسهل وتصعب علينا الأمور، وتعالى الله عن ذلك" [2].

ولذلك استدرك ابن عاشور على نفسه، فقال: الكتاب يعبر به عن علم الله، ويجوز أن يكون مخلوقاً غيبياً يسجل فيه ما سيحدث[3].

اللوح وعاء علم الغيب:

فكل أمور الغيب وشؤونه مثبتة في اللوح، محفوظة فيه. وهكذا فسر عبد الله بن عباس قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾، في سورتي [الطور: ٤١]، و[القلم: ٤٧]، بأن المعنى: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به[4]. ولذلك يقتصر بعض المفسرين على شرح "الغيب" بأنه اللوح المحفوظ[5].

شبهات حول العلم الإلهي:

وهذا الذي تقدم عن علم الله سبحانه، وسعته وشموله، وأنه فوق الزمان والمكان، لا

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٠/ ٢٩.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٣/ ٦٧. وانظر: المحرر الوجيز، ٦/ ٦٥، الأنعام ٥٩.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٠/ ٢٩.

(٤) المحرر الوجيز، ١٥/ ٢٤٨. معالم التنزيل، ٧/ ٣٩٣. الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ١٦٤.

(٥) كالزمخشري في الكشاف، ٤/ ٢٦، و٤/ ١٤٨. وأبي السعود في إرشاد العقل السليم، ٥/ ١٠٨، و٥/ ١٨٧. والرازي ـ في أحد وجهين ـ في مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٩٩.

يشذ عنه شيء، ولا تخفى عنه ذرة. هذا الذي يؤمن به المؤمن ويقتنع به ويراه هو اللائق بربوبية الإله وجلاله، غير ظاهر عند الكثير من الناس.

ولذلك تجد فيهم مذاهب أخرى بعضها ينكر علم الله بالجزئيات، وبعضها يقول: إن الله سبحانه لا يعلم المستقبل، وبعضها يقول: إن علم الله يتغير، بل من الناس من أنكر كل علم للباري، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا[1]. فهذه ثلاثة أقوال، أخص كل قول منها بكلمة مختصرة، وأبدأ بأشهرها:

علم الباري بالجزئيات:

فقد زعم بعض الفلاسفة أن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، قالوا: لأنه لو علم كون زيد في الدار ـ مثلاً ـ، فعند خروجه عنها إن بقي العلم الأول كان جهلاً، وإن لم يبق كان تغيراً[2]. ولا أدري لم يحيلون أن يكون علم الله سبحانه أن زيداً في الدار إلى أجل ما، وأنه بعده سيخرج منها، فيعرف الباري أحواله كلها علماً واحداً أزلياً. فلا تغير هنا، إنما التغيير في الأحوال الإضافية[3].

وشأن الإنسان عجيب فعلاً، هو ذا مخلوق ضعيف بئيس ضائع في هذا الكون الفسيح الصامت، كما قال باسكال في "أفكاره"[4]، ومع ذلك يتطاول إلى علم الخالق العظيم، يحكم له أو عليه. وكان الأولى بهذا الإنسان أن يدرك أولاً طبيعة علمه هو. وهذا علم النفس الحديث ـ منذ أكثر من قرن من الزمان ـ يدرس قضايا التعلم والذكاء والذاكرة، فما فك طلاسمها بعد.

ولابن عاشور كلمة جيدة في هذا المعنى ـ في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] ـ: "جملة ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ عطف على جملة ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ لقصد زيادة التعميم في الجزئيات الدقيقة، فإحاطة العلم بالخفايا مع كونها من أضعف الجزئيات مؤذن بإحاطة العلم بما هو أعظم أولى به، وهذه من معجزات القرآن، فإن

---

(١) راجع ـ لكي تدرك كم تخبط كثير من الناس في مسألة علم الله تعالى ـ: المحصل للرازي، ص ٢٥٤ إلى ٢٥٦. المواقف، ٣/٩٦ ـ ٩٧، (وفيها ذكر الإيجي ستة فِرق ضلَّت في موضوع العلم الإلهي).

(٢) المحصل في أفكار المتقدمين والمتأخرين، ص ٢٥٥. المواقف وشرحها، ٣/٩٨، ١٠٨ إلى ١١١.

(٣) فتح الباري، ١٥/٣١٣، عند باب عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا... من كتاب التوحيد.

(٤) Blaise Pascal : Pensées, p 34 et après.. وهو رياضي وفيلسوف فرنسي كبير، له اكتشافات في الفيزياء والرياضيات، وفلسفته الدينية مميزة، وما زالت "أفكاره" مفيدة إلى اليوم. كان باسكال من الجنسينيين، وتوفي سنة ١٦٦٢م. عن معجم: petit Robert.

الله علم ما يعتقده الفلاسفة، وعلم أن سيقول بقولهم من لا رسوخ له في الدين من أتباع الإسلام، فلم يترك للتأويل في حقيقة علمه مجالاً، إذ قال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٥٩]"[١].

إن الحق الواضح البسيط والذي يقنع الفطرة السليمة ما نطق به القرآن الكريم:

١ ـ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

ويعزب: معناه يغيب حتى يخفى. والمثقال: هو الوزن. والذر: صغار النمل، جعلها الله تعالى مثالاً إذ لا يعرف في الحيوان المتغذي المتناسل المشهور النوع والموضع أصغر منه[٢]. ويطلق الذر أيضاً على الهباءة التي ترى في ضوء الشمس كغبار دقيق جدًّا، والظاهر أن المراد في الآية الأول[٣].

قال القاسمي: "المراد بالآية البرهان على إحاطة علمه بحال أهل الأرض، بأن من لا يغيب عن علمه شيء كيف لا يعرف حال أهل الأرض، وما هم عليه، مع نبيه ﷺ"[٤].

٢ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ: ٣ ـ ٥].

يقول سيد قطب في طريقة القرآن لبيان مدى شمول علم الباري وإحاطته لكل شيء: "إن طبيعة هذا التصور ليست بشرية، وإنه ليست لها سابقة في كلام البشر شعره ونثره على السواء، فعندما يتحدث البشر عن شمول العلم ودقته وإحاطته لا يخطر على بالهم أن يصوروه في هذه الصورة الكونية العجيبة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ ولست أعرف في كلام البشر اتجاهاً إلى مثل هذا التصور للعلم الدقيق الشامل، فهو الله سبحانه، الذي يصف نفسه، ويصف علمه، بما يعلم من الأوصاف التي لا تخطر للبشر! وبذلك يرفع تصور المسلمين لإلههم الذي يعبدونه فيعرفونه

---

(١) التحرير والتنوير، ٧/ ٢٧٢.

(٢) المحرر الوجيز، ٩/ ٦٠.

(٣) التحرير والتنوير، ١١/ ٢١٤.

(٤) محاسن التأويل، ٩/ ٣٣٦٤. وراجع للتوسع في شرح الآية: مفاتيح الغيب: ١٧/ ١٢٨ إلى ١٣١. جامع البيان، ١٢/ ٨١ إلى ٨٣. تفسير ابن كثير، ٢/ ٥٢٠ ـ ٥٢١.

بصفته في حدود طاقتهم البشرية المحدودة على كل حال"[1].

٣ ـ ومما حكاه القرآن على لسان لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

"وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عددا، سبحانه لا شريك له"[2].

وليس في الأديان والفلسفات مثل الإسلام في بيانه لشمول علم الله وإحاطته بكل شيء، ومن ثَمَّ ما عظَّم اللهَ أحدٌ مثل هذا الدين، حتى إن بعض العلماء قالوا: ليس في القرآن آية عامة إلا وخصت إلا نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

فإحاطة علم الباري بكل شيء مما أجمع عليه المسلمون، ولذلك حين سئل الرملي عن القائل بخلق القرآن، ومنكر العلم بالجزئيات، هل يكفران أم لا؟ أجاب بأن الراجح تكفير الثاني[3].

وفي هذا القدر كفاية، وإن أحب القارئ الاطلاع على تفاصيل هذه القضية فليراجعها من كتب الكلام خاصة[4].

---

(١) في ظلال القرآن، ٦/ ٦٢٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٤٥. وانظر: التحرير والتنوير، ٢١/ ١٦٢.

(٣) فتاوي الرملي، ٤/ ٣٧٨. هو أبو العباس شهاب الدين أحمد، الشافعي الفقيه، تلميذ زكرياء الأنصاري. له: شرح الزبد لابن أرسلان. شرح منظومة البيضاوي في النكاح.. توفي سنة ٩٧١هـ. معجم المؤلفين، ١/ ١٤٧.
وما ينسب إلى الغزالي من أنه نفى علم الباري بالجزئيات، وذلك في كتاب "المضنون به على غير أهله"، فكذب من القول وزور، لا ينبغي التعويل عليه، فإن كل من كانت عنده سلعة فاسدة أراد أن تنفق نسبها إلى الأكابر من العلماء والصالحين وآل البيت. وذلك شأن الكذابين في كل عصر. ويكفيك ما في كتب الغزالي التي صح نسبتها إليه كالإحياء، والاقتصاد في الاعتقاد، والمستصفى، بل يكفيك. لتعرف أن هذا شيء مدسوس على حجة الإسلام. أن تعرف أن الغزالي هو أشهر من أطلق تكفير الفلاسفة القائلين بأن الله لا يعلم الجزئيات.. وذلك في كتبه: "تهافت الفلاسفة". المسألة ١٣. والاقتصاد في الاعتقاد، ص ١٥٧. والمنقذ من الضلال، ص ٣٢. وتلك إحدى مسائل ثلاثة كفرهم بها أبو حامد.
راجع في نسبة هذا الأمر إلى الغزالي كتاب: "الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامي"، لمحمد جلال شرف، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧، ٤٢١ فما بعدها. وانظر من كتب الغزالي التي صرح فيها بعموم علم الله تعالى لكل شيء صغير أو كبير: الاقتصاد في الاعتقاد، ص ١٥٧. إحياء علوم الدين، ١/ ١٢٩.

(٤) راجع: الفصل، لابن حزم، ٢/ ٢٩٣ إلى ٣٠٨. شرح العقيدة الطحاوية، ١/ ١٢٤ إلى ١٢٦، ٣١٧. فتح الباري، ١٥/ ٣١٢، ٣١٣ (كتاب التوحيد). رسالة التوحيد، لمحمد عبده، ص ٢٠ فما بعدها. مقدمة محقق "لباب الإشارات والتنبيهات"، ص ٤ إلى ٦. وانظر: الفصل الرابع: مشكلة الألوهية، ومسألة علم الله =

البداء:

انفردت بعض فرق الشيعة بهذه العقيدة الخاطئة، وهي تعني أن علم الله سبحانه يتغير، حتى إنه يعلم شيئاً ثم يبدو له ـ سبحانه ـ غيره، وهذا تشبيه علم الله بالعلم الإنساني.

وأهم الفرق الشيعية التي قالت بالبداء هي الإمامية. وهو أيضاً قول الكيسانية[(١)]. وأصل هذا الاعتقاد مشكل تاريخي قديم، ولذلك فإن فكرة "البداء" تعود ـ في الأظهر ـ إلى القرن الثاني الهجري، حين توفي إسماعيل في حياة أبيه جعفر الصادق رضي الله عنه، فساق الإمامية الإمامة إلى ابنه موسى الكاظم، وهو أصغر من إسماعيل، وهذا يخالف قواعد انتقال الإمامة ـ إن كانت هناك فعلاً قواعد ـ؛ لكنهم عللوا ذلك بتغير مشيئة الباري، وقالوا: قد بدا لله تعالى أن ينزع الإمامة عن إسماعيل ويعطيها لموسى[(٢)].

يحكي النوبختي عن سليمان بن جرير الزيدي ـ أحد رؤوس الشيعة بالنصف الآخر من القرن الثاني ـ أنه قال لأصحابه: "إن أئمة الرافضة وضعوا لشيعتهم مقالتين لا يظهرون معهما من أئمتهم على كذب أبداً، وهما القول بالبداء، وإجازة التقية. فأما البداء: فإن أئمتهم لما أحلُّوا أنفسهم من شيعتهم محلَّ الأنبياء من رعيتها في العلم فيما كان ويكون، والإخبار بما يكون في غد وفي غابر الأيام كذا وكذا، فإن جاء ذلك الشيء على ما قالوه، قالوا لهم: ألم نعلمكم أن هذا يكون، فنحن نعلم من قبل الله عز وجل ما علمته الأنبياء، وبيننا وبين الله مثل تلك الأسباب التي علمت الأنبياء بها عن الله ما علمت. وإن لم يكن ذلك الشيء الذي قالوا إنه يكون على ما قالوا، قالوا لشيعتهم: بدا لله في ذلك فلم يُكوّنه"[(٣)].

إذن فهؤلاء الشيعة وضعوا عقيدة البداء لكي يتخلصوا من الورطات الكثيرة التي يقعون فيها حين لا تصدق إخباراتهم عن المستقبل، فهذا ابتداع وافتراء على الله سبحانه، والصواب أن: "علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم، وعلمه لا يتغير، وهو في

= للكليات والجزئيات. أو الصلة بين الله والعالم، من كتاب: "الله والعالم والإنسان"، ص ٣١٧ إلى ٤٧٥. وراجع في موقف ابن رشد من هذا الموضوع: تهافت التهافت، ص ٢٥٨ إلى ٢٦٣. وقارن برسالته: "ضميمة العلم الإلهي"، ص ٧١ فما بعدها، وهي مطبوعة مع "فصل المقال"، لابن رشد أيضا.

(١) الفصل، لابن حزم، ٥/ ٤٠.

(٢) راجع: فرق الشيعة، للنوبختي، ص ٧٦.

(٣) فرق الشيعة، للحسن بن موسى النوبختي، ص ٧٦ ـ ٧٧، وهو من متكلمي الإمامية على رأس الثلاثمائة للهجرة. انظر: معجم المؤلفين، ٣/ ٢٩٨. وكتابه هذا من أقدم وأهم مصادر فرق الشيعة ومقالاتها. وانظر أيضا: المحصل، للرازي، ص ٣٦٥، وبهامشه شرح نصير الدين الطوسي. والرافضة اسم يطلق على الإمامية، وفي كتاب النوبختي حكاية أصل هذا الاسم.

كونه عالماً لا يتغير، ولكن يتغير تعلق علمه. فإن العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما في نفس الأمر" [1]. ولا يتجدد لله سبحانه علم، وإنما علمه يختلف متعلقه[2].

المبحث الثالث: المستقبل في علم الله:

وكما أنكر بعض الفلاسفة علم الباري بالجزئيات أنكر آخرون علمه بالمستقبل. والمستقبل ـ هنا ـ هو بالنسبة إلينا نحن. وقد قدمت أن خبط بعض الناس في هذا الموضوع كثير، حتى قال بعضهم: إن الإله لا يعلم شيئاً أصلاً. وهذا كله من أثر الوثنية القديمة، والفلسفات اليونانية[3]، الأفلاطونية والأرسطية خاصة.

قال بعض الشيعة: إن الله تعالى لا يعلم الشيء حتى يكون، أي: لا يعرف مستقبل الأشياء مقدماً. فأوجبوا حدوث علمه كما يجب حدوث علم العالم منا[4]. وكذلك أنكر بعض غلاة المعتزلة أن الله تعالى كان عالماً في الأزل، وقالوا: إن الله تعالى لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوا! [5]

وحكى الرازي هذا القول، وذكر أنهم احتجوا عليه بوجهين: الأول: أن المعلوم متميز، والشخص قبل وجوده نفي محض، فلا يكون متميزاً، فلا يصح أن يكون معلوماً. الثاني: أنه تعالى لو علم الأشياء قبل وقوعها، فكل ما علم فهو واجب الوقوع؛ لأن عدم الوقوع يفضي إلى انقلاب العلم جهلاً، وهو محال.

قال الرازي: والجواب عن الأول أنه منقوض بعلمنا بالمعدومات الشخصية قبل وقوعها، كعلمنا بطلوع الشمس غداً. وعن الوجه الثاني أنا نلتزم أن ما علم الله تعالى وقوعه، فهو واجب الوقوع[6].

وقصارى ما في الوجه الأول أنه ينكر معرفة المعدوم، وهي مسألة كلامية خلافية، قال ابن العربي ـ في قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤] ـ: "ذكره بصيغة الاستقبال؛ لأن الأعمال مستقبلة، والباري يعلم ما يعمل قبل أن يعمل، ويراه إذا عمل؛ لأن العلم بالموجود والمعدوم، والرؤية لا تتعلق إلا بالموجود"[7].

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ٢٥٤، سبأ ٢١.

(٢) فتاوى ابن الصلاح، ١/ ١٥٧.

(٣) انظر: علم الغيب في العالم القديم، لشيشرون، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٤) الفرق بين الفرق، ص ١٧٣.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، ٢/ ٣٥٣.

(٦) المحصل، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٧) أحكام القرآن، ٢/ ٥٦٤ .

أما الثاني، فلأن علم الله بالمستقبل يشمل علم ما يكون وما لا يكون. قال ابن حجر: "فالله سبحانه وتعالى عالم بما كنا عليه أمس، وبما نحن عليه الآن، وبما نكون عليه غداً، وليس هذا خبراً عن تغير علمه، بل التغير جار على أحوالنا، وهو عالم في جميع الأحوال على حد واحد"[1].

ولا يحسبن القارئ أن إنكار علم الخالق بالمستقبل بدعة كفرية قديمة، فهي لا تزال حية إلى يومنا هذا، بل إن أصحابها يدعمونها الآن ببعض النظريات العلمية الجديدة، فهذا ـ مثلاً ـ بييتر يقول: إن الخالق الذي خلق الكون أول مرة لا يعلم جميع مستقبله، وذلك لأن الفيزياء الكوانتية ورياضيات الفوضى بينت حدود التنبؤ وأنه في بعض الأحوال يكون بالغ التعقيد لدرجة استحالة التوصل إلى توقع صحيح، خصوصاً في الأنساق غير الخطية حيث احتمالات التطور غير متناهية[2].

فهذا نوع من قياس العلم الإلهي على العلم البشري، وشتان ما بين العلمين.

والذي يعتقده المسلمون هو أن الباري جل جلاله يعلم المستقبل كله، بتفاصيله جميعها، ولا يعزب عنه منه شيء. وكثيراً ما نقول: إن الله يعلم الغيب، أو هو عالم الغيب. ونقصد غيب المستقبل.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»[3]. قال ابن كثير: "وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها، وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه، يسير لديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠]"[4].

على أننا حين نقول: إن الله يعلم المستقبل، فإنما نعني بهذا: النسبةَ إلينا. أما بالنسبة للباري تعالى فلا يوصف علمه بالزمنية، والماضي والحاضر والمستقبل كل ذلك سواء عنده. نقل الإيجي عن بعضهم أن علم الله بأنه وجد وسيوجد شيء واحد؛ لأن "علمه تعالى ليس زمانياً، فلا يكون ثمَّة حال وماض ومستقبل، إذ الحال معناه زمان حكمي هذا، والماضي زمان قبل زمان حكمي هذا، والمستقبل زمان بعد زمان حكمي هذا. فمن كان علمه أزلياً

---

(١) فتح الباري، ١٥/٣١٣.

(٢) راجع: Philosophie et science du temps, p 86 à 89

(٣) أخرجه مسلم: ٢٦٥٣.

(٤) تفسير ابن كثير، ٣/٢٩٥.

محيطاً بالزمان لا يتصور في حقه حال، ولا ماض، ولا مستقبل"[1].

وشرحه الجرجاني، فقال: "الله سبحانه وتعالى عالم بجميع الحوادث الجزئية وأزمنتها الواقعة هي فيها، لا من حيث إن بعضها واقع الآن، وبعضها في الماضي وبعضها في المستقبل، فإن العلم بها من هذه الحيثية يتغير، بل يعلمها علماً متعالياً عن الدخول تحت الأزمنة ثابتاً أبد الدهر. وتوضيحه أنه تعالى لما لم يكن مكانياً، كانت نسبته إلى جميع الأمكنة على سواء، فليس فيها بالقياس إليه قريب وبعيد ومتوسط. كذلك لما لم يكن هو وصفاته الحقيقية زمانياً، لم يتصف الزمان مقيساً إليه بالمضي والاستقبال والحضور، بل كان نسبته إلى جميع الأزمنة سواء. فالموجودات من الأزل إلى الأبد معلومة له، كل في وقته، وليس في علمه كان وكائن وسيكون، بل هي حاضرة عنده في أوقاتها، فهو عالم بخصوصيات الجزئيات وأحكامها، لكن لا من حيث دخول الزمان فيها بحسب أوصافها الثلاثة، إذ لا تحقق لها بالنسبة إليه. ومثل هذا العلم يكون ثابتاً مستمراً لا يتغير أصلاً، كالعلم بالكليات"[2].

وهذا ما يفسر حديث القرآن عن عالم الآخرة بالأزمنة الثلاثة، ولا يخصه بألفاظ المستقبل.

وعلم المستقبل بالخصوص هو الذي يضفي على العلم الإلهي صفة "اللانهاية"، قال الغزالي: "فإن قيل: فهل لمعلوماته نهاية؟ قلنا: لا، فإن الموجودات في الحال وإن كانت متناهية، فالممكنات في الاستقبال غير متناهية"[3].

ولهذا كله كان من أنواع الإعجاز القرآني: الإخبار عن بعض المستقبلات.

فائدة: نقل ابن حجر عن أبي إسحاق الإسفراييني أنه كان يقول: "معنى العليم: يعلم المعلومات، ومعنى الخبير: يعلم ما كان قبل أن يكون، ومعنى الشهيد: يعلم الغائب كما يعلم الحاضر، ومعنى المحصي: لا تشغله الكثرة عن العلم"[4].

الإخبار بالمستقبل من وجوه الإعجاز القرآني:

والكلام في إعجاز القرآن كثير، والمذاهب فيه متفرقة، ولعلها تنقسم ـ بالنسبة إلى ما نحن فيه ـ إلى قسمين:

---

(١) المواقف في علم الكلام، ٣/ ٩٨.

(٢) شرح المواقف، ٣/ ١٠٩.

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد، ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٤) فتح الباري، ١٥/ ٣١٢ .

١ ـ فمن العلماء من يقصر الإعجاز على ناحية اللغة فقط، أي: الإعجاز البياني والبلاغي. ولعل نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني من أهم ما يفسر هذا الإعجاز[١].

٢ ـ ومن العلماء من جعل إعجاز القرآن ثابتاً من وجوه كثيرة، وليس فقط من ناحية اللغة والبيان؛ ولذلك لما حكى الزركشي أقوال العلماء في مسألة بأي شيء وقع إعجاز القرآن، قال: القول "الثاني عشر: وهو قول أهل التحقيق: إن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال، لا بكل واحد على انفراده؛ فإنه جمع ذلك كله، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع، بل وغير ذلك مما لم يسبق"[٢]. "فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني، من توحيد الله تعالى وتنزيهه في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لطريق عبادته في تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساويها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الماضية من الزمان، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه. ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، ومناقضته في شكله"[٣].

وممن صرح بأن الإخبار عن الغيبيات من الإعجاز القرآني: ابن حزم، والقاضي عياض، ورشيد رضا[٤].

ولا شك ـ كما قال أستاذي عبد الكريم مشهداني ـ أن التحدي التام إنما كان بالسمو البياني للقرآن، فهو أظهر وجوه الإعجاز[٥].

---

(١) راجع المقدمة العاشرة من المقدمات التي صدر بها ابن عاشور تفسيره. وانظر للتوسع دراسة الدكتور مشهداني: "الإعجاز بالنظم، وأثره في الدراسات القرآنية"، خصوصاً الفصل الأول، ص ١٥ إلى ٤٦، وبالأخص مبحث النظم وجه الإعجاز، ص ١٩ إلى ٢٩.

(٢) في كتابه: البرهان في علوم القرآن، ٢/ ١١٤.

(٣) البرهان في علوم القرآن، ٢/ ١١١ ـ ١١٢. وانظر: التحرير والتنوير، ١/ ١٢٩ ـ ١٣٠، المقدمة العاشرة.

(٤) راجع التفاصيل في: الفصل، ٣/ ٢٦. الشفا، ١/ ٢٦٨ إلى ٢٧٢. تفسير المنار، ١/ ٢٠٤، ١١/ ١١٤.

(٥) الإعجاز بالنظم، ص ٦٩٩. والمؤلف يعمل حالياً أستاذاً بكلية الآداب بوجدة. تخرج من دار الحديث الحسنية بالرباط، حيث قدم عملين: الأول عن "العلمانية وأثرها في تطور الأوضاع الإسلامية بتركيا". والثاني هو دراسته الواسعة والقيمة عن الإعجاز بالنظم.

ومع ذلك يظهر لي أنه لا ينبغي إنكار أن الإخبار بالغيب من وجوه إعجاز الكتاب الكريم، وذلك للأسباب التالية:

١ ـ إن القرآن حين يذكر بعض الغيوب تجده ينفي علمها عن النبي ﷺ وسائر العرب، ويمتن الله تعالى ببيانها على عباده، فيظهر واسع علمه، ويعجز العرب حين يثبت أنهم يجهلون هذه الغيوب.

٢ ـ إن التعجيز بعلم الغيب والتحدي به سبيل سلكه ـ قبل محمد ـ بعض الأنبياء كيوسف وعيسى، صلى الله وسلم على الجميع.

٣ ـ إن التعلق بمعرفة الغيب المحجوب من أقوى الفطر البشرية، ويشهد التاريخ كيف كان الناس يتهافتون على هذه المعرفة ويطلبون من حصلها ويعظمونه(١).

فالتحدي بالغيب له أثر وقيمة، في ماضي البشرية بالخصوص.

وإخبار القرآن الكريم بالغيوب على ثلاثة أنحاء:

١- الإخبار عن الغيوب المستقبلة والتي لم تقع بعد.

٢- قصص الأولين وأخبارهم التي اندثرت، أولا يعرفها إلا قلة قليلة من الناس.

٣- الإخبار عن الضمائر والسرائر(٢).

فالأول إخبار عن المستقبل، والثاني عن الماضي، والثالث عن الحاضر، والإعجاز يقع بكل واحد من هذه الأنواع.

إخبار الله سبحانه في كتابه ببعض المستقبلات:

فمن ذلك قوله عز من قائل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ١ ـ ٥].

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة، خلاصتها أن الفرس غلبوا الرومان، أيام دعوة النبي ﷺ بمكة، ففرح بذلك المشركون وحزن المسلمون؛ لأن الروم كانوا أهل كتاب، والفرس أقرب إلى مشركي قريش. فنزل هذا الإخبار الإلهي بأن الروم سينتصرون في معركة قادمة مع الفرس، فتراهن أبو بكر مع بعض المشركين على تحقق ما وعدت به الآية، وكان ذلك قبل تحريم الرهان، وصدق الله تعالى، فغلب الروم بعد حوالي

(١) انظر كتابي: النظرية الإسلامية في الكهانة.

(٢) البرهان في علوم القرآن، ٢/١٠٦.

سبع سنوات ـ والبضع من ثلاث إلى تسع سنين ـ وكان ذلك سبباً لإسلام الكثيرين[1].

قال العلامة ابن عاشور: "وهذا الغلب الذي ذكر في هذه الآية هو انهزام الروم في الحرب التي جرت بينهم وبين الفرس سنة ٦١٥ مسيحية. وذلك أن خسرو بن هرمز ملك الفرس غزا الروم في بلاد الشام وفلسطين، وهي من البلاد الواقعة تحت حكم هرقل قيصر الروم، فنازل أنطاكية ثم دمشق وكانت الهزيمة العظيمة على الروم في أطراف بلاد الشام المحاذة بلاد العرب بين بصرى وأذرعات" [2].

وفائدة قوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾، مع قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، وقوله ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾. التنبيه على كمال علم الله تعالى وسعة قدرته، فقد هزم الروم هزيمة عظيمة، والمهزوم يكون في العادة ضعيفاً، ولا يسترد قوته إلا بعد زمان متطاول، فالوعد بأنهم سيغلبون ـ بعد هذا الانهزام ـ في أمد غير طويل تحدٍّ تحدى به القرآن المشركين، فمثل هذا الإخبار بالمستقبل يكون أدل على العلم والقدرة[3].

وفي القرآن الكريم إخبارات أخرى عن المستقبل غير ما تقدم، منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]. قال ابن عطية: "هذه عِدَة من الله تعالى لرسوله أن جَمْع قريش سيُهزم نصرةً له، والجمهور على أن الآية مكية"[4]. وأن هذه العدة تحققت يوم بدر.

٢ ـ قال جل جلاله: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].

وفيه وجوه: الأول أن القوم أولي البأس الشديد هم قبائل بني حنيفة ومن حالفهم، حين تابعوا مسيلمة الكذاب، وحاربهم أبو بكر رضي الله عنه. الثاني: هم فارس والروم الذين غزاهم عمر. الثالث هم هوازن وثقيف الذين غزاهم النبي ﷺ.

وأشهر هذه الوجوه وأظهرها ـ كما قال الرازي ـ هو الأول[5]، وقد كانت كثير من معارك المسلمين مع الروم والفرس قاسية، ولكن لم تكن في شدة حروب الردة، التي سقط

---

(١) راجع التفاصيل في: جامع البيان، ٢١/ ١٠ إلى ١٤. مفاتيح الغيب، ٢٥/ ٩٦ إلى ٩٨. الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٣ إلى ٦.

(٢) التحرير والتنوير، ٢١/ ٤٣.

(٣) راجع: التحرير والتنوير، ٢١/ ٤٤. مفاتيح الغيب، ٢٥/ ٩٧.

(٤) المحرر الوجيز، ١٥/ ٣١٤.

(٥) مفاتيح الغيب، ٢٨/ ٩٣.

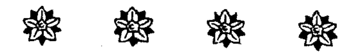
فيها مئات من الصحابة الكرام، وارتد الكثيرون حتى إنه لم يبق للمسلمين إلا المدائن الثلاثة: مكة والمدينة والطائف.

والمقصود أن ما أخبر به الباري من أمور المستقبل شيء كثير، تحقق بعضه، فيما ينتظر البعض الآخر أن يتحقق؛ ولذلك قال ابن مسعود: خمس قد مضين: الدخان، واللزام، والبطشة، والقمر، والروم[1].

وليس غرضي أن أفصل الحديث في هذه الأخبار، وذلك لأن "المستقبل" الذي أبحث فيه هنا هو المستقبل البشري، أعني استشراف المستقبل من حيث هو نشاط إنساني، فالله سبحانه يعلم المستقبل، والغيب بأنواعه، فإذا أخبر به فذلك مقتضى ألوهيته، وإنما غرضي أن أعرف هل يمكن للبشر أن يعرفوا بعض المستقبل بناء على قدراتهم الخاصة، دون إخبار إلهي بالوحي، أو عن طريق رسوله، وإذا صح ذلك، فكيف؟

ولهذا لم أشأ أن أستطرد كثيراً في بحث إخبارات الله تعالى ونبيه المصطفى بأمور عديدة عن المستقبل. ومن جهة أخرى من المهم جدًّا أن أنتقل بالقارئ إلى قضية أخرى، وهي مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها. وأكثرها يتعلق بالمستقبل.

وهذه "المفاتح" بيان هام لحدود العلم الإنساني في تعاطيه مع قضية معرفة المستقبل.



(١) أسنده الطبري عنه في: جامع البيان، ١١/٢١.

الفصل الثالث

مفاتح الغيب الخمسة

تقديم عام:

قال جل من قائل وعز: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٥٩ ـ ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤][١].

فهاتان الآيتان من أجلّ ما ورد في القرآن الكريم عن العلم الإلهي، وفيهما تنبيه بليغ على قصور المعرفة الإنسانية؛ ولذلك وصف الرازي آية: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ بأنها شريفة عالية[٢]، وقال ابن العربي: "هذه الآية أصل من أصول عقائد المسلمين، وركن من قواعد الدين، معظمها يتفسر بها..."[٣].

أقوال العلماء في المقصود بـ "مفاتح الغيب":

وهي، مما يذكره أهل التفسير:

١ ـ مفاتح الغيب هي الخمس التي لا يعلمها إلا الله عز وجل، فالآية التي في سورة لقمان هي التي تفسر قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

٢ ـ مفاتيح الغيب هي الخزائن: خزائن الغيب. وهو قول الطبري والخطابي[٤].

٣ ـ هي خزائن الرزق. وهو مروي عن الحسن البصري[٥].

---

(١) انظر في السياق العام للآية: جامع البيان، ٢١/ ٥٠ ـ ٥١.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٣/ ١١.

(٣) أحكام القرآن، ٢/ ٢٥٥. راجع في سياق الآية ومعانيها العامة: جامع البيان، ٧/ ١٢٦ ـ ١٢٧. الكشاف، ٢/ ٢٤ ـ ٢٥. معالم التنزيل، ٣/ ١٥١. المحرر الوجيز، ٦/ ٦٤. الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٥. مفاتيح الغيب، ١٣/ ١١. إرشاد العقل السليم، ٢/ ١٠٦.

(٤) جامع البيان، ٧/ ١٢٦. أحكام القرآن، ٢/ ٢٥٨. أعلام السنن، ٢/ ١٠١٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٣.



٤ ـ خزائن الأرض. وهو قول مقاتل والضحاك. وهذا مجاز عبر عنها بما يتوصل إليها به، وقالا أيضاً: علم نزول العذاب(١).

٥ ـ الآجال ووقت انقضائها(٢).

٦ ـ عواقب الأعمار وخواتم الأعمال، وأحوال العباد من السعادة والشقاوة(٣).

٧ ـ مفاتح الغيب، ما غاب عنا من الثواب والعقاب(٤).

٨ ـ المستقبل خاصة(٥).

والذي عول عليه الجمهور هو القول الأول، وذلك لسببين:

الأول: قد صح عن النبي ﷺ أنه فسر مفاتح الغيب بالخمس التي ذكرها الله تعالى في سورة لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [٣٤].

وإذا أفتانا النبي ﷺ في أمر، وصح ذلك عنه، ولم يكن شيء معتبر يعارضه، وجب المصير إليه.

وهذه أهم الأحاديث التي رواها الأئمة:

١ ـ الخبر الذي رواه عمر، وهو مشهور بحديث جبريل، وذلك حين جاء عليه السلام إلى النبي ﷺ فسأله عن أشياء، آخرها عن زمان الساعة. فقال له النبي ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ﴾[لقمان: ٣٤]»(٦).

٢ ـ روى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: مفاتح الغيب خمس، ثم قرأ آية لقمان بتمامها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[٣٤]. كذا في باب "وعنده

---

(١) معالم التنزيل، ٣/ ١٥٠. الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٤.

(٢) معالم التنزيل، ٣/ ١٥٠. الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٤.

(٣) معالم التنزيل، ٣/ ١٥٠. الجامع لحكام القرآن، ٧/ ٤.

(٤) و(٥) معالم التنزيل، ٣/ ١٥٠.

(٥) هذا لفظ البخاري، في باب قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ . .﴾، من كتاب التفسير، حديث ٤٧٧٧، ورواه أيضاً في كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبيَّ ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان وعلم الساعة، حديث ٥٠ و٥١ . . وفي الزكاة. . ورواه مسلم في الإيمان، والنسائي في الإيمان والعلم. وأبو داود في شرح السنة، باب القدر. وابن ماجه في السنة والفتن .

مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو"، من كتاب التفسير، باب سورة الأنعام، من صحيح البخاري. وفيه أيضاً رواية أخرى عن ابن عمر - في باب "لا يدري متى يجيء المطر إلا الله"، من كتاب الاستسقاء - عن النبي ﷺ قال: "مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غد، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، وما يدري أحد متى يجيء المطر".

السبب الثاني: أن كثيراً من الأقوال المذكورة ترجع إلى القول الأول، فهو يشملها:

أ - فالقول الثاني قريب من الأول، كما سيظهر في تفسير معنى "المفاتح".

ب - و"علم نزول العذاب" يرجع إلى علم الله تعالى بما يكون في غد.

ج - وأحوال العباد، وآجالهم وعواقب أعمارهم، كل ذلك من معاني قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]. بل الله تعالى هو من يعلم ذلك كما يعلم سواه.

د - وكذلك الأمر بالنسبة إلى القول بأن مفاتح الغيب هي المستقبل.

فذلك علم اختص الله تعالى بكثير من مواضيعه، كالساعة ومآل ما في الأرحام، وأوقات نزول الغيث وكسب العباد... .

ولذلك اقتصر الجمهور على القول الأول، ومال إليه ابن العربي[(١)]. وقال القرطبي: وهو المختار[(٢)]. وقال ابن كثير: قد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب، ثم ذكر بعض الأحاديث[(٣)].

وسأسير في هذا المبحث على رأي الجمهور، فآية لقمان - إذن - هي التي تفسر آية الأنعام.

معنى "مفاتح الغيب":

المفاتح - في اللغة - جمع مفتح، وفيه احتمالان ذهب إلى كل واحد منهما طائفة من العلماء:

١ - مِفتح، بكسر الميم، أي: الآلة التي يفتح بها. وهذه لغة قليلة، والمشهور في الآلة أن يقال لها: مفتاح، ويجمع على مفاتيح[(٤)].

---

(١) أحكام القرآن، ٢/ ٢٥٦. وكذلك الخطابي في: معالم السنن، ٢/ ١٠١٣. والبقاعي في: نظم الدرر، ٥/ ٢٢٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٤.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، ٣/ ٥٦٠ - ٥٦١.

(٤) فتح الباري، ٩/ ١٧٧. التحرير والتنوير، ٧/ ٢٧٠.

٢ ـ مَفتح، بفتح الميم، وهو المكان، كالمخزانة مثلاً، فكل خزانة كانت لصنف من الأشياء هي مفتح(١). ولهذا قال السدي والطبري والبغوي: مفاتح الغيب هي خزائنه(٢). وعلى هذا يكون المراد من الآية القدرة على كل الممكنات، كما في قوله عز من قائل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] (٣).

فهذه استعارة مكنية ـ ترجع إلى المكان ـ، أي: أن قوله: المفاتح، مستعار لمكان الغيب، كأنها مخازن خزنت فيها الأمور الغيبية، يغلق عليها ويفتح(٤).

وجه التعبير بالمفاتح:

وأكثر العلماء يميل إلى الاحتمال الأول؛ لأنه أظهر في اللغة وأشهر. وقرأ: "وعنده مفاتيح الغيب"، ولكنها قراءة شاذة(٥).

والمفتاح هنا ـ وهو واحد مفاتح ـ هو في اللغة عبارة عن كل ما يحل غلقاً، محسوساً كان كالقفل على البيت، أو معقولاً كالنظر(٦)، كما جاء في الحديث: "إن من الناس مفاتيح للخير، مغاليق للشر..."(٧).

ووجهه في الآية، كما بينه الزمخشري:

"جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة؛ لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن المتوثق منها بالأغلاق والأقفال، ومن علم مفاتحها كيف تفتح توصل إليها، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره، كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها، فهو المتوصل إلى ما في المخازن"(٨).

---

(١) الكشاف، ٢/ ٢٤. فتح الباري، ٩/ ١٧٧.

(٢) جامع البيان، ٧/ ١٢٦. معالم التنزيل، ٣/ ١٥٠. المحرر الوجيز، ٦/ ٦٤. مدارك التنزيل، ٢/ ١٥ ـ ١٦.

(٣) مفاتيح الغيب، ١٣/ ١٠.

(٤) الكواكب الدراري، للكرماني، ٦/ ١٢٥، كتاب الاستسقاء. عمدة القاري، ٢٥/ ٨٦، كتاب التوحيد. إرشاد العقل السليم، ٢/ ١٠٦.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٣. فتح الباري، ٩/ ١٧٧. وهي قراءة ابن السميقع.

(٦) أحكام القرآن، لابن العربي، ٢/ ٢٥٥. الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٣. فتح الباري، ٩/ ١٧٧.

(٧) رواه ابن ماجة: ٢٣٧ عن أنس. وضعفه السيوطي في الجامع الصغير، ١/ ٣٧٧.

(٨) الكشاف ٢/ ٢٤. قال أحمد بن المنير في "الانتصاف"، وهي حاشيته على الكشاف: "إطلاق التوصل على الله تعالى ليس سديداً، فإنه يوهم تجدد وصول بعد تباعد، إذ قول القائل: يوصل زيد إلى كذا. يفهم أنه وصل بعد تكلف وبعد، والله تعالى مقدس عن ذلك، والغائب كالحاضر في علمه، والعلم بالكائن هو العلم بما سيكون لا يتغاير ولا يختلف، وليس لنا أن نطلق مثل هذا الإطلاق إلا عن ثبت". ٢/ ٢٤.

فهذه "استعارة عبارة عن التوصل إلى الغيوب، كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان"[(١)]. فالطرق الموصلة إلى علم الغيب هي بمثابة المفاتح؛ ولذلك قيل: إن هذه الاستعارة مثل قول الناس: افتح علي كذا، أي: أعطني أو علمني ما أتوصل به إليه[(٢)].

الحكمة في هذه الاستعارة:

قال الشيخ ابن أبي جمرة: الحكمة هي تقريب الأمر على المخاطب؛ لأن أمور الغيب لا يحصيها أحد إلا عالمها. وكل ما حيل بينك وبينه، وجعل بينك وبينه حجاب، فهو غيب بالنسبة إليك، وأقرب الأشياء إلى الاطلاع على هذا الغيب هو الأبواب، والمفاتيح هي أيسر الأشياء لفتح الباب، فإذا كان أيسر الأشياء التي يعرف بها الغيب لا يعرف أحد لها موضعاً، فكيف يقدر أن يعرف ما هو أكبر من ذلك، ومن ذلك أن يعرف ما وراء الباب[(٣)].

ولذلك قال النبي ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله». وهذا لفظ البخاري[(٤)].

وعلق ابن أبي جمرة على هذا الحديث، فقال: "فلما كانت تلك الأمور ـ أي: أمور الغيب ـ غائبة عنا لا نقدر على العلم بها ولا الوصول إليها، وهي محصورة بالكتاب بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ولقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١ ـ ٥٢]. فلما كان جميع الوجود محصوراً في علمه سبحانه، شبهه عليه السلام بالمخازن، وكل مخزن لابد له من باب، وكل باب لابد له من مفتاح، فاستعار عليه السلام له المفاتيح. يشهد لهذا التوجيه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]. فإذا كانت الخزائن عنده

---

(١) المحرر الوجيز، ٦/ ٦٤. ومثله في: الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٣. وانظر: الكواكب الدراري، ٦/ ١٢٥. عمدة القاري، ٢٥/ ٨٦. مفاتيح الغيب، ١٣/ ١٠. مدارك التنزيل، ٢/ ١٥ ـ ١٦. إرشاد العقل السليم، ٢/ ١٠٦. التحرير والتنوير، ٧/ ٢٧٠.

(٢) أحكام القرآن، لابن العربي، ٢/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩. وعنه نقل القرطبي في: الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٣.

(٣) بهجة النفوس، ٤/ ٢٧١ ـ ٢٧٢، لابن أبي جمرة، وهو أبو بكر الأموي، فقيه ومحدث أندلسي، وتولى القضاء. وكان أسند من بقي بالأندلس. توفي سنة ٥٩٩ﻫ. عن معجم المؤلفين، ٣/ ٧٠.

ونقل ابن حجر ملخص هذا الكلام في: فتح الباري، ٦/ ٤٦٧، و١٥/ ٣١٥. كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ...﴾.

(٤) البخاري: ٧٣٧٩.



سبحانه، والمفاتيح واحد، لا نعلم المفاتيح أين هي، فكيف يخبر بما في المخازن، هذا لا يتعقل. وإذا كانت هذه التي هي أثر قدرته سبحانه، ولا يقدر أحد أن يعلم منها شيئاً إلا أن يخبره سبحانه بها، كما قال تعالى في كتابه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧]، فكيف بقدرته جل الله أو بصفة من صفاته على ما هي عليه من الجلال والكمال، فكيف بذاته التي (ليس كمثلها شيء). هذا ممنوع عقلاً وشرعاً"[١].

الإجماع على اختصاص الباري بعلم الغيوب الخمسة على وجه التفصيل والإحاطة:

وذلك لأنه تعالى قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وفي حديث جبريل حين سأله عن الساعة، استعفاه النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل... ثم قال: في خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا آية لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤][٢].

ولذلك جاء في الآية التعبير عن هذا الاختصاص بالعندية: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾. قال أبو السعود: وهو "بيان لاختصاص المقدورات الغيبية به تعالى من حيث العلم، إثر بيان اختصاص كلها به تعالى من حيث القدرة"[٣]. وقدم لذلك: الظرف "عنده"، لإفادة الاختصاص، أي عنده لا عند غيره، وهي عندية علم واستئثار لا عندية مكان[٤]. وهذا التأكيد على الاختصاص بظرف العندية جاء أيضاً في آية لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ ثم أكد الله جل جلاله هذا الاختصاص بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾. قال أبو السعود: الآية "تأكيد لمضمون ما قبله وإيذان بأن المراد هو الاختصاص من حيث العلم"[٥]. وقال ابن عاشور: إن جملة ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ مُبيِّنة لمعنى ﴿عِندَهُۥ﴾، لرفع احتمال أن يكون تقديم الظرف لمجرد الاهتمام[٦].

ولهذا يقول أبو العباس القرطبي: الخمس من الغيب انفرد الله بعلمها فلا مطمع لأحد في علم شيء منها، ولا طريق له إلى ذلك[٧].

---

(١) بهجة النفوس، ٤/ ٢٧٢.

(٢) أخرجه البخاري: ٤٧٧٧

(٣) إرشاد العقل السليم، ٢/ ١٠٦. يشير بالاختصاص بالقدرة إلى الآية قبلها: (ما عندي ما تستعجلون به. إن الحكم إلا لله).

(٤) التحرير والتنوير، ٧/ ٢٧٠. وراجع أحكام القرآن، لابن العربي، ٢/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٥) إرشاد العقل السليم، ٢/ ١٠٦. وانظر كذلك كلام البقاعي في ظرف العندية في: نظم الدرر، ١٥/ ٢١٤.

(٦) التحرير والتنوير، ٧/ ٢٧١.

(٧) المفهم، ١/ ١٥٥. عند شرحه حديث جبريل.



فهذا عن اختصاص الحق تعالى بمفاتيح الغيب، وأنه لا يعلمها غيره. أما اختصاصه سبحانه بعلم الغيوب الخمسة، ونفي علم الناس بها، فهو أمر دليله - كما قال الفراء - أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ على النفي، وفيه معنى النفي. بينما قال أبو جعفر النحاس: إنما صار فيه معنى النفي والإيجاب بتوقيف الرسول ﷺ على ذلك؛ لأنه ﷺ قال في قول الله عز وجل: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾: إنها هذه. وأيد القرطبي طريق النحاس[1].

ولعلك لاحظت في آية لقمان أنها بدأت بإضافة علم الغيب إلى الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾. ثم عطفت بنفي الدراية عن العبد: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾. وتعليل ذلك - كما قال الصاوي -: الحكمة في كونه تعالى أضاف العلم إلى نفسه في الثلاثة الأول، ونفى العلم عن العباد في الأخيرتين منها، مع أن الخمسة سواء في اختصاص الله تعالى بعلمها ونفي علم العباد بها، أن الثلاثة الأول أمرها عظيم، لا يتوهم في الخلق علمها، بخلاف الأخيرتين، فهما من صفات العباد، فربما يتوهمون علمها، فإذا انتفى عنهم علمها، كان انتفاء علمهم بغيرها أولى[2].

ورأى بعض العلماء - كالألوسي - أن الذي اختص الله سبحانه به من هذه الغيوب الخمس هو العلم بها على وجه الإحاطة والشمول لأحوال كل منها وتفاصيلها؛ ولذلك يمكن لبعض الخلق أن يعرف بعض الأشياء من الخمس على وجه الإجمال، كما يطلع الله ملائكته على المطر والولادة عند الخلق. قال الألوسي: "المراد بالعلم الذي استأثر الله سبحانه به: العلم الكامل بأحوال كل على التفصيل. فما يعلم به الملك ويطلع عليه بعض الخواص.. دون ذلك العلم"[3]. ثم قال: ومن هذا الباب إخبارات الفلكي والطبيب. ولهذا قال ابن حجر: "المراد بالاطلاع على الغيب: علم ما سيقع قبل أن يقع على تفصيله"[4]. يعني أن العلم الإجمالي ممكن، وليس باطلاع على الغيب.

ثم يوجد خلاف آخر، وهو هل حصر مفاتح الغيب في الخمسة يقتضي أنه يجوز لبعض الخلق علم ما سواها من الغيوب. قال الألوسي - بعد ذكره لأحاديث في مفاتح الغيب -: "ظاهر هذه الأخبار يقتضي أن ماعدا هذه الخمس من المغيبات قد يعلمه غيره عز وجل، وإليه ذهب من ذهب"[5]. بينما قال ابن رشد الجد: "ليس في قوله: لا يعلمهن إلا الله،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٥٥.

(٢) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ٣/ ٤١١.

(٣) روح المعاني، ٢٢/ ١١٢. لقمان.

(٤) فتح الباري، ١٥/ ٣١٥. كتاب التوحيد.

(٥) روح المعاني، ٢٢/ ١١١.



دليل على أنه يعلم سواها من المغيبات من عداه، بل لا يعلم أحد شيئاً من الغيب إلا الله، قال الله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]" [١]. وهذا الاختلاف ينبني على تسليم أنه توجد غيوب أخرى، غير الخمس، وهذا بدوره موضع خلاف.

الاختلاف في انحصار الغيوب الإلهية في الخمسة المذكورة:

ولئن اتفق العلماء على أن الله سبحانه قد استأثر بالأمور الخمسة، فلا يعلم غيبها غيره؛ فإنهم اختلفوا هل آية لقمان قصدت إلى هذا الحصر، فهو حقيقي؛ أم لا؟ ولهم في ذلك رأيان رئيسيان:

الرأي الأول: الحصر حقيقي. قال ابن عطية: "نزلت الآية حاصرة لمفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى" [٢].

ولا وجود لأنواع أخرى من الغيوب الإلهية غير هذه التي وردت في الآية، وما توهمتَه ليس منها، هو في الحقيقة لابد يرجع إلى بعضها. قال ابن عطية: "لن تجد من المغيبات شيئاً إلا هذه، أو ما يعيده النظر والتأويل إليها" [٣]. أي: إلى الخمس.

الحكمة في الحصر الحقيقي:

قال النبي عليه السلام: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله...» [٤].

ولابن أبي جمرة كلام في حكمة هذا الحصر، قال: هذه الخمس حصر بها النبي ﷺ العوالم. ففي قوله: «وما تغيض الأرحام» إشارة إلى ما يزيد في النفس وينقص، وخص الأرحام بالذكر لكون أكثر الناس يعرفونها بالعوائد، وعلى ذلك تقررت بعض الأحكام الشرعية. فإذا كانت هذه الأرحام لا يعلم أحد حقيقتها ولا متى تزيد ولا متى تنقص، فغيرها من باب أحرى. قال تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]. فدل بهذا أن غيره سبحانه لا يعلم ذلك؛ ولذلك قال جل جلاله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، فإذا كان الشيء الذي هو فيك لا تعرفه فكيف غيره، من باب أحرى.

---

(١) البيان والتحصيل، لابن رشد، ١٧/ ٣٣٤.

(٢) المحرر الوجيز، ١٣/ ٢٧.

(٣) المحرر الوجيز، ١٣/ ٢٧. وانظر: البيان والتحصيل، ١٧/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٤) **هذا لفظ البخاري في كتاب التوحيد، قول الله تعالى عالم الغيب... حديث ٧٣٧٩، عن ابن عمر. وقد سبق الحديث تاماً في صفحة ٧٠ .**

ودل بقوله: «ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله» على أمور العالم العلوي، وذكر منها المطر؛ لأن لها أسباباً قد تدل عليه، ونجدها في بعض المرار يجري فيها ما يغلب على الظن من جري العادة المتقدمة في مثلها.

ودل بقوله: «و ما تدري نفس بأي أرض تموت» على الجهل بهذه الأمور الأرضيات، وذكره موضع الموت منها؛ لأن العادة قد جرت غالباً أن أكثر الناس موتهم بالأرض التي هم بها، والحكم في الأمور يعطى للغالب. وإن مات بها لا يدري حقيقة ضريحه منها أين هو؟

فإذا كان هذا المقدار الذي يخصه منها على قلته وندارته لا يعلمه، فمن باب أحرى غيره من رزق، أو خير أو ضده؛ ولذلك قال عز وجل في كتابه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

ودل بقوله: «ولا يعلم ما في غد إلا الله» على أنواع الزمان، وما فيه من التقلبات والعوالم الطارئة فيه والحوادث، وخص منه غداً على غيره؛ لأنه أقرب الأزمنة من يومك، فإن ما تعرفه في يومك بظهوره كان أوله أو آخره كأنه شيء واحد؛ لأن عادة العرب ما يكون في ساعة واحدة أو في بعضها ينسبونه كله إلى يوم، فإذا كنت في أقرب الأزمنة - وهو غد - لا تعرفه فمن باب أحرى غيره.

ودل بقوله: «ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله» على علم الآخرة بأجمعها. وذكر يوم القيامة منها، لأنه أولها وأقربها. فإن كنت لا تعلم أقرب الأشياء منها، وهو يوم ظهورها وبدايتها، فمن باب أحرى غير ذلك.

فهذا من أبدع الكلام وأبلغه الذي حصر فيه جميع أنواع الغيوب[1].

فعلى طريقة ابن أبي جمرة هذه تكون الغيوب محصورة في خمسة، على معنى أن كل غيب منها نوع يدل على غيوب أخرى أبعد وأدخل في الاستتار، فالقرآن والحديث حين ذكرا هذه الغيوب فإنما ذكرا أقربها إلينا وأدناها.

وهذه الطريقة توافق ظاهر الوحي؛ لأنه عبر عن هذه الغيوب بالمفاتح، أي بأقرب الآلات وأيسر الأشياء التي تفتح بيوتاً وخزائن من الغيوب العظيمة المحجوبة عنا.

وقد رضي بعض العلماء كلام ابن أبي جمرة، فنقلوه مختصراً فيما كتبوه[2].

الرأي الثاني: الحصر غير حقيقي.

---

(١) بهجة النفوس، ٤/ ٢٧٢ إلى ٢٧٤، بتصرف يسير.

(٢) منهم: ابن حجر في فتح الباري، ١٥/٣١٦، والعيني في عمدة القاري، ٢٥/٨٦ - ٨٧. كلاهما في كتاب التوحيد من الصحيح.

قال الألوسي: "ما في الأخبار يحمل على بيان البعض المهم لا على دعوى الحصر، إذ لا شبهة في أن ماعدا الخمس من المغيبات لا يعلمه أيضاً إلا الله تعالى"(١).

ويقول الرازي: "يقول بعض المفسرين: إن الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره، وهو كذلك، لكن المقصود ليس ذلك؛ لأن الله يعلم الجوهر الفرد الذي كان في كثيب رمل في زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة، ويعلم أين هو ولا يعلمه غيره، ولأنه يعلم أنه يوجد بعد هذه السنين ذرة في برية لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره. فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر، وإنما الحق فيه أن نقول لما قال الله: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان: ٣٣]، وذكر أنه كائن بقوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]، كأن قائلا قال: فمتى يكون هذا اليوم؟ فأجيب بأن هذا العلم مما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن. ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرناهما مرارا على البعث: **أحدهما** إحياء الأرض بعد موتها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ۝٤٩ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ [الروم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]. وقال: هاهنا يا أيها السائل إنك لا تعلم وقتها، ولكنها كائنة، والله قادر عليها كما هو قادر على إحياء الأرض حيث قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾، وقال ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾.

وثانيهما الخلق ابتداء، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، إلى غير ذلك. فقال هاهنا: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ [لقمان: ٣٤] إشارة إلى أن الساعة وإن كنت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها، وكما هو قادر على الخلق في الأرحام كذلك يقدر على الخلق من الرخام، ثم قال لذلك الطالب علمه: يا أيها السائل إنك تسأل عن الساعة أيان مرساها، فلك أشياء أهم منها لا تعلمها، فإنك لا تعلم معاشك ومعادك، ولا تعلم ماذا تكسب غداً مع أنه فعلك وزمانك، ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك، فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون، فالله ما أعلمك كسب غدك مع أن لك فيه فوائد تبني عليها الأمور من يومك، ولا أعلمك أين تموت مع أن لك فيه أغراضاً تهيئ أمورك بسبب ذلك العلم، وإنما لم يعلمك لكي تكون كل وقت بسبب الرزق راجعاً إلى الله تعالى متوكلاً على الله، ولا أعلمك الأرض التي تموت فيها كي لا تأمن الموت وأنت في غيرها، فإذا لم يعلمك ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه، وهي الساعة، وإنما الحاجة إلى العلم بأنها تكون وقد أعلمك الله على لسان أنبيائه.

---

(١) روح المعاني: ٧/ ١٧١، الأنعام.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ لما خصص أولاً علمه بالأشياء المذكورة، بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ، ذكر أن علمه غير مختص بها، بل هو عليم مطلقاً بكل شيء، وليس علمه علماً بظاهر الأشياء فحسب، بل خبير علمه واصل إلى بواطن الأشياء، والله أعلم بالصواب"[1].

وابن عاشور أيضاً ممن يقول بأن الحصر غير مراد، غير أن رأيه يختلف قليلاً عن رأي الرازي، فهو يقسم الغيوب إلى نوعين: نوع يتعلق بالإنسان في حياته الدنيا، ونوع آخر لا علاقة له بالحياة البشرية، والمقصود في الآية الذي يقع عليه الحصر هو النوع الأول فقط. هذا ما فهمته من تفسيره لآية لقمان. قال: "معنى حصر مفاتح الغيب في هذه الخمسة أنها هي الأمور المغيبة المتعلقة بأحوال الناس في هذا العالم، وأن التعبير عنها بالمفاتح أنها تكون مجهولة للناس، فإذا وقعت فكأن وقوعها فتْح لما كان مغلقاً. وأما بقية أحوال الناس فخفاؤها عنهم متفاوت ويمكن لبعضهم تعيينها مثل تعيين يوم كذا للزفاف ويوم كذا للغزو وهكذا مواقيت العبادات والأعياد، وكذلك مقارنات الأزمنة مثل: يوم كذا مدخل الربيع؛ فلا تجد مغيبات لا قِبل لأحد بمعرفة وقوعها من أحوال الناس في هذا العالم غير هذه الخمسة، فأما في العوالم الأخرى وفي الحياة الآخرة فالمغيبات عن علم الناس كثيرة، وليست لها مفاتح عِلم في هذا العالم"[2].

ويدل على أن الحصر غير مراد في الآية أن من الغيوب التي اختص الله تعالى بعلمها: أكثر الماضي، وهو غير مذكور في الآية، ولا مشار إليه فيها.

الحكمة في هذا الحصر المجازي:

قال الألوسي: "ليس المغيبات محصورة بهذه الخمس، وإنما خصت بالذكر لوقوع السؤال عنها، أو لأنها كثيراً ما تشتاق النفوس إلى العلم بها"[3].

وقال الكرماني: "فإن قلت الغيوب التي لا يعلمها إلا الله كثيرة ولا يعلم مبلغها إلا الله تعالى، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، فما وجه التخصيص بالخمس؟ قلت:

١- التخصيص بالعدد لا يدل على نفي الزائد.

٢- أو ذكر هذا العدد في مقابلة ما كان القوم يعتقدون أنهم يعرفون من الغيب هذه الخمس.

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٥/١٦٥ ، آية لقمان .

(٢) التحرير والتنوير، ٢١/١٩٨.

(٣) روح المعاني، ٢٢/١١٢ ، آية لقمان .

٣- أو لأنهم كانوا يسألونه عن هذه الخمس.

٤- أو لأن أمهات الأمور هذه؛ لأنها إما أن تتعلق بالآخرة، وهو علم الساعة، وإما بالدنيا، وذلك إما متعلق بالجماد أو بالحيوان، والثاني إما بحسب مبدأ وجوده أو بحسب معاده أو بحسب معاشه"(١).

فالوجه الأول مآله إلى أنه لا مفهوم للعدد. والثاني أن العرب كانت تعتقد أنها تعرف الغيوب الخمسة، كما كانوا يستدلون بالأنواء على المطر. والثالث يؤيده ما يرويه بعض المفسرين أن أعرابياً من أهل البادية أتى النبي ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها، وقال: إن أرضنا أجدبت فمتى ينزل الغيث؟ وتركت امرأتي حبلى، فمتى تلد؟ وقد علمت أين ولدتُ فبأي أرض أموت؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[لقمان: ٣٤](٢).

ومعنى الوجه الرابع أن الآية اقتصرت على أهم الغيوب وأمهاتها، فالأمر المتعلق بالجماد هو المطر، والمتعلق بالحيوان بحسب مبدأ وجوده هو علم الأرحام، وبحسب معاشه هو علم كسب ما في غد، وبحسب معاده هو علم زمان الموت ومكانه. وقد اقتصر الكرماني ـ في موضع آخر من شرحه لصحيح البخاري ـ على ذكر الوجهين الثالث والرابع(٣).

ولعل من أسباب ذكر هذه الغيوب الخمسة دون غيرها أن أكثرها يتعلق بالمستقبل، وهذا أهم الغيوب التي يعتني بها الإنسان ويتشوف إلى علمها، وأشدها استعصاء على الإدراك والمعرفة، بخلاف الغيب الماضي أو الحاضر، فهو أقرب إلى العلم البشري.

البحث التفصيلي للمفاتح الخمسة:

سأخص الآن كل واحد من هذه الغيوب بكلام، وهو متفاوت بحسب ما في كل غيب ـ من الخمسة ـ من البحث والإشكال. ونبدأ بما بدأ الله تعالى به:

علم الساعة:

القيامة ـ في المذهبية الإسلامية ـ هي نهاية النظام الكوني القائم الآن، وبداية قيام نظام بديل وجديد.

---

(١) الكواكب الدراري، ٦/ ١٢٥. كتاب الاستسقاء. وهذا الترقيم في النص مني. ونقل العيني كلام الكرماني في شرحه للبخاري وأقره: عمدة القاري، ٧/ ٦٠، ١٨/ ٣١٣. وذكر رشيد رضا تفسيراً يشبه ما قال الكرماني، لكنه تفسير مختلف: تفسير المنار، ٧/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨.

(٢) معالم التنزيل، ٦/ ٢٩٤. وهذا الخبر أسنده الطبري عن مجاهد في جامع البيان، ٢١/ ٥٠.

(٣) الكواكب الدراري، ١/ ١٩٩. حديث جبريل في كتاب الإيمان.

ولما كانت بهذه الأهمية فقد اعتنى الدين ببيان أمرها، وكشف بعض حقائقها وشؤونها، وأكد ـ ضمن ذلك ـ على قضيتين:

الأولى: إنه لا يعلم متى تقوم القيامة بالضبط أحد إلا الله سبحانه وحده.

الثانية: إن بين يدي القيامة أمارات وعلامات، سماها الشارع بـ "أشراط الساعة".

وساعد على هذا البيان أن الناس كثيراً ما كانوا يسألون النبي ﷺ عن الساعة متى تجيء؟ وكانت أغراض السائلين مختلفة، فالمؤمنون يحبون معرفتها بدافع الفضول وحب الاطلاع، أو إشفاقا منها. والمشركون والمنافقون يسألون تهكماً أو تعجيزاً. قال الحافظ القرطبي ـ في حديث جبريل لما سأل النبي ﷺ عن موعد الساعة ـ: "مقصود هذا السؤال امتناع السامعين من السؤال عنها، إذ قد كانوا أكثروا السؤال عن تعيين وقتها، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧] و﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾[الأحزاب: ٦٣]، وهو كثير في الكتاب والسنة. فلما أجابه النبي ﷺ بأنه لا يعلمها إلا الله، يئس السائلون من معرفتها، فانكفوا عن السؤال عنها، وهذا بخلاف الأسئلة الأخرى"[1].

وغرضي في هذا المبحث أن أبين باختصار القضية الأولى في شأن الساعة، أما الحديث عن أشراطها وعلاماتها، فلذلك كُتُبه ومظانُّه[2]، ثم هو ليس بالغ الفائدة بالنسبة إلى موضوع بحثي هذا.

والأشراط هي بعض أمور الساعة التي يمكن إدراكها، أما زمان قيام الساعة فغيب محض لا سبيل أبداً إلى تعيينه. قال ابن عطية ـ في آية لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ـ: "وعلم الساعة مصدر مضاف إلى المفعول، أي: كل ما شأنه أن يعلم من أمر الساعة، ولكن الذي استأثر الله تعالى به هو علم الوقت، وغير ذلك قد أعلم ببعض منه"[3]. ولذلك لما سئل النبي الكريم عن الساعة أمره الله تعالى أن يرد علمها إليه، فإنه هو الذي يجلّيها لوقتها، أي يعلم جلية أمرها، ومتى يكون على التحديد[4]: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

---

(١) المفهم، ١/ ١٥٤.

(٢) راجع التذكرة في أحوال الموتى وأهل الآخرة، ٢/ ٣٠٧ فما بعدها. شرح العقيدة الطحاوية، ٢/ ٧٥٤ فما بعدها. وعامة كتب الحديث تعقد باباً أو كتاباً مستقلاً لموضوع القيامة وعلاماتها.

(٣) المحرر الوجيز، ١٣/ ٢٨. وانظر: الكشاف، ٣/ ٢٣٨. إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٩٤.

(٤) تفسير ابن كثير، ٢/ ٣٤٠. ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي: كأنك عالم بها، أو كأنك كثير السؤال عنها شديد الطلب لمعرفتها. انظر: جامع البيان، ٩/ ٨٩. مفاتيح الغيب، ١٥/ ٨٦.



ومع ذلك فإن الساعة قادمة لا ريب في ذلك، فهي المستقبل الأخير. يقول الله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]. قال النسفي: إنما أقسم الباري فقال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ "لأن عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وبشدة ثباته واستقامته؛ لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلما كان المستشهد به أرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد والمستشهد عليه أثبت وأرسخ، ولما كان قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها في الخفية كان الوصف بما يرجع إلى علم الغيب أولى وأحق..."(١).

والساعة أيضاً قريبة: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

وهي حين ستأتي يكون ذلك فجأة وبغتة، لا يتوقعها أحد: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦]. ولذلك يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].

واللمح هو النظر بسرعة، وفي هذا التشبيه وجهان: الأول: المعنى: وما أمر قيام القيامة في السرعة إلا كطرفة العين، والمراد من هذا تقرير القدرة الإلهية، وذلك لأن حركة البصر تكون في زمان مكون من آنات متعاقبة، والله تعالى قادر على إقامة القيامة في آن واحد من تلك الآنات، ولذلك قال: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، بمعنى: بل هو أقرب، وإنما ذكر لمح البصر لأنه عندنا ـ نحن البشر ـ أسرع الحوادث والأحوال(٢). الثاني: وجه الشبه هو كون أمر إقامة الساعة مقدوراً بدون كلفة؛ لأن لمح البصر هو أمكن وأسرع حركات الجوارح، فهو أيسر. وعلى هذا فالمراد بالقرب هنا القرب المكاني كناية عن كون الساعة في المقدورية بمنزلة الشيء القريب التناول، كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] (٣).

ولذلك لا يحس أحد باقتراب الساعة حتى قبل قيامها بدقائق معدودات.

وهذه الصفات الأربعة كلها تجعل من أمر قيام الساعة أحد أشد الغيوب خفاء وخطراً:

١ ـ الحدوث، فالساعة آتية لا ريب فيها.

---

(١) مدارك التنزيل، ٣/٣١٧.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٠/٩١.

(٣) التحرير والتنوير، ١٤/٢٣١.

٢ ـ القرب، وهذا الحدوث قريب من حيث الزمان.

٣ ـ الفجاءة، فالساعة إذا جاءت، كان ذلك بغتة، بلا إعلام سابق ولا استشعار.

٤ ـ السرعة، فالساعة ستأتي في أقل من لمح البصر.

ولا يوجد غيب أقوى من هذا الأمر الذي جمع هذه المواصفات الأربعة، وفيه مع ذلك هول كبير، ولذلك كان هذا الغيب ثقيلاً على الإنسان، بل على الوجود كله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ومعنى ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى قيامها ومنتهاها[١]. قال الرازي: "لما كان أثقل الأشياء على الخلق هو الساعة، بدليل قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، لا جرم سمى الله تعالى وقوعها وثبوتها بالإرساء"[٢]. لأن الرسو اسم لثبات الشيء إذا كان ثقيلاً.

الزلزال أشبه شيء في الدنيا بالساعة:

وقد ظهر لي ـ والله تعالى أعلم ـ أن بالدنيا الآن شيئاً يشبه قيام الساعة، مجرد شبه؛ لأن حقيقة الأمرين مختلفة جدًّا، وذلك الشيء هو الزلزال، فهذا له الصفات نفسها التي للقيامة، لكن في مستوى أقل بكثير:

١- الفجاءة.

٢- السرعة والقوة.

٣- الحدوث، فنحن نعرف أن بعض المناطق سيضربها الزلزال لا محالة.

٤- القرب، وكثير من التجمعات السكنية هي قائمة على مناطق زلازل، أي: أن أهلها يعيشون بالقرب منها، وهو قرب مكاني وزماني.

والزلزال شيء رهيب حقًّا، يأتي بغتة ودون سابق إنذار، وفي ثوان معدودات يغير وجه المنطقة التي ضرب فيها، فإذا الأرض غير الأرض، والناس غير الناس.

وظني أن هذا الشبه هو السبب في أن القرآن الكريم يذكر الساعة مقرونة بالزلزال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ سورة الزلزلة.

بل إن القرآن يسمي القيامة أحياناً بالزلزلة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

(١) جامع البيان، ٩/ ٨٧.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٥/ ٨٥.



﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[الحج: ١ ـ ٢]. وفي الحديث أن من أشراط الساعة كثرة الزلازل وتتابعها[1].

التوقع في علم الزلازل:

ورغم أن كون زمن الساعة غيب لا يمكن توقعه أمر واضح في نفسه، إلا أنني رأيت أن أقدم للقارئ فكرة عن موضوع التنبؤ بالزلزال، لما بين القيامة والزلزلة من التشابه الذي ذكرت، فالصعوبات القائمة في مجال توقع الزلازل تعطينا فكرة عن بعض أسباب استحالة التنبؤ بدقة بالزلزال الكبير: القيامة.

البداية الحقيقية لعلم الزلازل كانت في الستينيات من القرن العشرين. وتوجد اليوم حوالي عشرة آلاف محطة منتشرة في أرجاء العالم، تختص بمراقبة الزلازل ودراستها وتوقعها، وكثير منها يرتبط فيما بينها بشبكة من الاتصال تسمح بتبادل المعلومات[2].

وفي البلدان التي تعاني من كثرة الزلازل المدمرة تحتل مسألة التوقع أهمية فائقة، إذ ترتبط بها حياة ملايين الأشخاص. والصين من أهم هذه البلدان، ولذلك جندت أكثر من مائة ألف مشتغل بعلم الزلازل، والذين يستخدمون الطرق التقنية المعروفة في دراسة الزلازل، ويضيفون إليها استقراء كل شيء يمكن أن يدل على قدوم زلزال ما، مثل السلوك غير الطبيعي لبعض الحيوانات، والأصوات تحت الأرض، وتغيرات مستويات المياه الجوفية... .

هذه الجهود تنجح أحياناً في توقع بعض الزلازل، وأشهر هذه التوقعات الناجحة زلزال إقليم لياونينغ في ٤ شباط ١٩٧٥، حيث تم إنذار السكان بخمس ساعات وستة وثلاثين دقيقة قبل وقوعه.

لكن تعتبر هذه الحالات الناجحة استثناء من القاعدة العامة التي يقررها المختصون لحد الساعة، وهي أنه لا يمكن التنبؤ بزمن الزلزال ومكانه، وأن هذا متروك لمستقبل بعيد جداً. إذ بعد سنة من هذا النجاح الصيني ضرب زلزال مدمر إقليم طانك شان بالصين أيضاً، وترك حوالي سبعمائة ألف قتيل. وفي سنة ١٩٨٠م أنذر المختصون بزلازل ثلاثة ستضرب ليما عاصمة البيرو، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، باستثناء الفوضى العامة وتوقف الاقتصاد

---

(١) راجع حول زلزلة الساعة: التذكرة، للقرطبي، ١/ ٢٤١ فما بعدها. وانظر: الدر المنثور، للسيوطي، ٤/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤، أول الحج. وفي باب "ما قيل في الزلازل والآيات" حديث النبي: لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل... انظر كتاب الاستسقاء من صحيح البخاري.

(٢) Les Sciences de la prévision, p 168- 169 .



الوطني اللذان ترتبا على ذلك الإنذار[١].

يقول الأستاذ مادارياكا: الزلازل ثمرة للانكسارات التي تحدث بالطبقات الأرضية الباطنية، والمشكلة في توقعها أن الانكسار ـ الذي يؤدي إلى الزلزال ـ يبدأ في باطن الأرض، على عمق ١٠ إلى ١٥ كيلومتر، حيث لا يمكن لنا ولا لآلاتنا أن تصل، فنضطر إلى الاعتماد على ملاحظات ودراسات من سطح الأرض، ولكنها ـ في مجال التوقع ـ محدودة القيمة[٢].

وتعتبر منطقة سان آندرياس ـ بولاية كاليفورنيا الأمريكية ـ إحدى أهم مناطق الزلازل، حيث توجد إحدى أكبر الانكسارات الأرضية في العالم. وفي هذه المنطقة آلاف الآلات والأجهزة من مختلفة الأنواع. ويقول مادارياكا: إن من المُحبط فعلا أنها لم تستطع أبداً ملاحظ علامة ما تؤذن بانكسار أو زلزال قادمين[٣].

ومما يساهم في الصعوبة البالغة لتوقع الزلازل: عنصر المفاجأة. ففي العادة لا يكون الزلزال الكبير مسبوقاً بالهزات الأرضية[٤]. بل يأتي في نوع من الهدوء الذي يسبق العاصفة.

ونعرف الآن أن شبه جزيرة طوكاي جنوب طوكيو، ومدينة لوس أنجلس التي هي قريبة من انكسار سان أندرياس بعشرين كيلومتراً، وهي إحدى أهم المدن الأمريكية، نعرف أن زلازل مدمرة ستضرب هاتين المنطقتين، فلوس أنجلس ـ مثلاً ـ مبنية على منطقة ملأى بالانكسارات تحت الأرضية. ولكننا لا نعرف شيئاً عن عددها، ولا قوتها، ولا زمانها، ولا أين سيبدأ انكسار الأرض بالضبط[٥]. كل ذلك غيب تام بالنسبة إلينا.

ولهذا تحولت الأكثرية الساحقة من علماء الزلازل إلى البحث الوقائي لا التنبؤي، فهم الآن يدرسون المناطق القريبة من الأماكن المحتملة لضربات الزلازل، فيحللون طبيعة القشرة السطحية للأرض ويسجلون حركاتها وتغيراتها. وهدف هذه الدراسة هو معرفة هل يمكن بناء شيء في هذه المناطق أم لا؟ وإن أمكن فأي نوع من البناء يجب أن يكون، وكم ارتفاعه الأقصى؟ ونحو ذلك مما يدخل في مجال الوقاية والاحتياط[٦].

---

(١) هذا الكلام كله من مقال: الزلازل وعلم الزلازل، بالموسوعة: Encyclopaedia Universalis, article séismes et sismologie 20/843 ,. والمنطقتان بالصين هما : Schan _ Liaoning. Tang

(٢) Les sciences de la prévision, p 170. والقائل Raoul Madariaga اختصاصي في الزلازل، وأستاذ بالمعهد الجامعي لفرنسا.

(٣) Les Sciences de la prévision, p 169.

(٤) Ency. Uni. Art, séismes. 20/843.

(٥) Les Sciences de la prévision, p 170, 173.

(٦) Les Sciences de la prévision, p 171.



ولذلك تبقى الوسيلة الوحيدة الفعالة في هذا المجال هي تطوير البناء المقاوم للزلازل. وستبقى هذه الوسيلة وحيدة زماناً طويلاً في المستقبل[1].

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾:

قال سيد قطب: "والله ينزل الغيث وفق حكمته، بالقدر الذي يريده؛ وقد يعرف الناس بالتجارب والمقاييس قرب نزوله؛ ولكنهم لا يقدرون على خلق الأسباب التي تنشئه. والنص يقرر أن الله هو الذي ينزل الغيث؛ لأنه سبحانه هو المنشئ للأسباب الكونية التي تكونه والتي تنظمه. فاختصاص الله في الغيث هو اختصاص القدرة، كما هو ظاهر من النص. وقد وهم الذين عدوه في الغيبيات المختصة بعلم الله، وإن كان علم الله وحده هو العلم في كل أمر وشأن، فهو وحده العلم الصحيح الكامل الشامل الدائم الذي لا يلحق به زيادة ولا نقصان"[2].

وليس الأمر كما قال سيد قطب رحمه الله تعالى، بل إن اختصاص الله سبحانه في الغيث هو اختصاص العلم والقدرة معاً. وهذا دليله:

١- إن في سبب نزول الآية أن الأعرابي سأل النبي الكريم عن وقت نزول المطر لا عمَّن ينزله. ولم يكن يخفى على العرب أن الله تعالى هو الذي ينزل الغيث، وما كانوا ينكرون ذلك.

٢- إن سياق الآية هو بيان علم الله تعالى، ولذلك ذكر الساعة وكسب الغد، ونحو ذلك؛ ولذلك يقول ابن عاشور: "وجملة ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ عطف على جملة الخبر. والتقدير: وإن الله ينزل الغيث، فيفيد التخصيص بتنزيل الغيث، والمقصود أيضاً عنده علم وقت نزول الغيث وليس المقصود مجرد الإخبار بأنه ينزل الغيث؛ لأن ذلك ليس مما ينكرونه، ولكن نظمت الجملة بأسلوب الفعل المضارع ليحصل ـ مع الدلالة على الاستئثار بالعلم به ـ الامتنان بذلك المعلوم الذي هو نعمة، وإذ قد جاء هذا نسقاً في عداد الحصر كان الإتيان بالمسند فعلاً خبراً عن مسند إليه مقدم مفيداً للاختصاص بالقرينة، فالمعنى: وينفرد بعلم وقت نزول الغيث من قرب وبعد وضبط وقت"[3].

ويقول ابن عطية ـ بعد إشارته إلى اختصاص الباري بعلم الساعة ـ "... وكذلك نزول الغيث أمر قد استأثر الله تعالى بتفصيله، وعلم وقته الخاص به"[4].

---

(١) Encyclopaedia, 20/843, art séismes.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/ ٤٩٩.

(٣) التحرير والتنوير، ٢١/ ١٩٧.

(٤) المحرر الوجيز، ١٣/ ٢٨.



٣ ـ ثم إن في الحديث الصحيح الذي رواه عبد الله بن عمر تصريح النبي ﷺ بهذا الذي قلته، فإنه قال ضمن الغيوب الخمس: ... ولا يدري أحد متى يجيء المطر(١).

٤ ـ والظاهر أن هذا هو قول أكثر العلماء، أي أن اختصاص الله تعالى بالغيث هو اختصاص العلم والقدرة معاً، لا القدرة فقط(٢).

٥ ـ وكذلك يدل الواقع على أن الإنسان لا يعرف وقت الإمطار، على جهة اليقين والتفصيل.

ولعل الذي دفع بسيد قطب إلى ما قال هو ما أصبح معروفاً اليوم من أن العلم قادر على كشف أشياء كثيرة من الغيوب المتعلقة بأحوال الجو والتنبؤ بها، ومنها المطر.

توقعات الأرصاد الجوية:

لكن العلماء لا يرون أن تعارضاً يقوم بين ما قررته الآية من اختصاص الله جل جلاله بعلم أمور الغيث، ومتى يكون، وبين التوقعات العلمية.

يقول يوسف القرضاوي: إن الإنسان "لا يعلم بدقة وتفصيل متى ينزل الغيث؟ وعلى أي مساحة من الأرض ينزل؟ وكم يستمر نزوله؟ وما مدى قوته؟ وهل يتحول إلى سيل جارف وفيضان مدمر؟ كل ذلك لا يعلمه إلا الله جل وعلا. قد تستطيع الأرصاد الجوية أن تتوقع ما يحدث، بناء على ظواهر جوية طبيعية نشاهدها، ونستنتج منها ما يمكن أن يحدث في الغد، ولكن هذا لا يعدو أن يكون توقعاً واستنتاجاً، كثيراً ما يحدث خلافه تماماً، وكثيراً ما فوجئ أهل الأرصاد بما لم يكن في حسبانهم. وكثيراً ما توقعوا الأمر هيناً فإذا هو يباغتهم بالخطورة، وقد يكون بالعكس. ويسميها بعضهم مفاجآت الطبيعة، وربما قال: غدر الطبيعة.

والمؤمن يرد ذلك إلى مشيئة الله الذي يُجري كل شيء في الكون بقدر وحساب، وليس شيء فيه يجري اعتباطاً، أو يمضي عبثاً. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]"(٣).

وفي هذا الموضوع ـ أعني توقعات الأرصاد الجوية ـ عناصر أخرى يقتضي بيانها أن نعود قليلاً إلى ما يذكره المختصون أنفسهم في هذه التوقعات، فهم ـ كما سيتبين للقارئ

---

(١) أخرجه البخاري: ٤٦٩٧ .

(٢) راجع بحث الألوسي في هذه المسألة بالذات في: روح المعاني، ٢٢/١٠٩ ـ ١١٠، لقمان.

(٣) العقل والعلم في القرآن الكريم، ص ١٨٢، للشيخ يوسف القرضاوي، وهو عالم مصري ولد سنة ١٩٢٨، تخرج من الأزهر، له عدد هام من التآليف، منها: فقه الزكاة. فتاوى معاصرة. الحلال والحرام في الإسلام. يعمل حالياً بقطر.



الكريم ـ أقدر الناس على كشف بعض دلالات الآية، حتى وإن لم يقصدوا إلى ذلك:

علم الأرصاد الجوية:

غاية هذا العلم هو دراسة الجو وطبقاته وصولاً إلى توقع ظواهره(١)؛ ولذلك فإنه يعتمد على أسس تقنية ثلاثة:

١ ـ محطات المراقبة، حيث يتم ـ على رأس كل عدد محدد من الساعات ـ تسجيل مجموعة من المعلومات، مثل الضغط الجوي، والحرارة، والرطوبة، والرياح، وهذه المحطات منها ما يوجد على الأرض ـ وهي الأكثر ـ ومنها ما يكون في المرتفعات.

٢ ـ وسائل الاتصال السريع، والتي تسمح بنقل كل المعلومات الورادة من محطات المراقبة إلى مركز موحد يقوم بجمعها وتحليلها. ومن مصادر المعلومات أيضاً: الطائرات، والسفن، والأقمار الصناعية... .

٣ـ الحواسيب الآلية القادرة على إنجاز ملايير العمليات في أقصر وقت ممكن(٢).

ويميز علماء الأرصاد بين أربع مراحل في التوقع الجوي:

١- التوقع المباشر، وزمانه من اللحظة الآنية إلى الساعة السادسة، أي: ست ساعات.

٢- التوقع القصير المدى، من ست ساعات إلى ثلاثة أيام.

٣- التوقع المتوسط المدى، من ثلاثة أيام إلى خمسة.

٤- التوقع البعيد المدى من خمسة أيام إلى بضعة شهور، بحسب الظاهرة المدروسة(٣).

والتوقع الجوي مشكلة ترجع إلى الفيزياء الرياضية، حيث يعتبر الجو بمثابة مائع Fluide، يخضع في حركاته لميكانيكا الموائع، والتي تحددها معادلات رياضية وفيزيائية معينة(٤).

---

(١) (الأرصاد الجوية) André Berroir :La Météorologie, p 3 .

يوجد فرق بين علم الجو وعلم الطقس، وأكثر كلامي هنا عن الجو؛ لأنه الأكثر تعلقاً بالتنبؤ المقبول. وعلم الطقس هو Climatologie.

(٢) La météorologie, p 84 _ Article de « Futuribles » : La prévision numérique du temps et du climat p 33.

(٣) انظر: (الكوارث الجوية) Pierre Pagney : Les catastrophes climatiques, p 94

(٤) Prévision numérique, article de Futuribles، p 33. وانظر هذه المعادلات في: Ency. Uni. Article : prévision météorologique, 18/970.

وقد شهد علم التوقعات الجوية تحسناً كبيراً، خصوصاً في العقد السبعيني من القرن العشرين[١]. وكلما كان مدى التوقع أقصر، ومجاله المكاني أصغر، كانت جودته أفضل[٢].

حدُّ التنبؤ الجوي:

هل يستطيع الإنسان أن يطور توقعاته - في مجال الطقس - إلى حدود بعيدة جدًّا؟ وإذا لم يستطع فلم؟

لحسن الحظ، نحن نملك اليوم جواباً على هذا السؤال وتفسيراً له. إن السبب باختصار هو ما يسمى بـ : الحساسية تجاه الشروط الأولية للنسق. أي أن نسقاً ما يتطور في الزمان بحسب ظروفه الأولى، بحيث إن اختلافاً بسيطاً في هذه الظروف يقلب النسق في النهاية رأساً على عقب[٣]، إذن:

إن مشكلة التوقع الجوي هي مشكلة الأنساق الفيزيائية غير الخطية، والتي نبه عليها بوانكاري منذ حوالي قرن من الزمان، حين لاحظ أن الأنساق التي تضبطها المعادلات غير الخطية أنساق بالغة التعقيد، ثم جاء لورنز فدلل على أنه يكفي أن يحدث في هذه الأنساق تغير بسيط - في البداية - حتى نشاهد كيف يتطور النسق بسرعة كبيرة مغايرة تماماً للتطور الأول الذي كان سيحدث لولا ذلك التغير البسيط، وهنا يستحيل أن نتنبأ بهذا التطور السريع. والتغيرات البسيطة كثيرة في نسق الجو، بحيث يستحيل ضبطها وتجنبها: بعضها يعود إلى الظواهر الجوية، حيث تغير محدود في الزمان والمكان يمكن أن يؤثر على الظواهر الكبرى، وبعضها يعود إلى النقص البشري، مثل عدم الدقة الكافية للموازين والآلات المستعملة في القياس والحساب، فإن هامش الخطأ في تشخيص الظروف الأولى حاضر دوماً[٤].

ولذلك يقول سادورني: لا يمكن لنا أن نتوقع المكان والزمان المحددين لظهور تغيير في الجو، يأتي - مثلاً - بالمطر أو بطقس جميل، لأن هذا التغيير ينشأ - بكل بساطة - من لا شيء[٥].

---

(١) Ency. Uni. Art, prévision météorologique, 18/972.

(٢) La Météorologie, p 105.

(٣) راجع: "مبحث الفوضى" في كتابي: الوجود بين مبدئي السببية والنظام. أو انظر أي مرجع عن نظرية الفوضى الفيزيائية.

(٤) (مقال التنبؤ الرقمي للجو والطقس، بمجلة مستقبلات) André Zebeau, Michel Rochas : Prévision numérique du temps et du climat. Un Article de la revue Futuribles, Mai 1991. p 38.

(٥) Article : prévision numérique, p 33. Robert Sadourny : entretien n° 11 intitulé : la météo et les climats, in : les Sciences de la prévision, p 149.

وسادورني مدير مختبر علم الجو الديناميكي بالمركز الوطني للبحث العلمي، بمدرسة البوليتكنيك بباريس.

وهذا ما عبر عنه الفيزيائي لورنز - مكتشف نظرية الفوضى - بأثر الفراشة، ويعني به أن تغيراً محدوداً يقع بالصين يمكن أن يؤدي إلى ظهور إعصار هائل بنيويورك.

التوقع الممكن:

وقد بينت دراسات نظرية وتجريبية متنوعة وجود هذا الحد، وله اصطلاح خاص بعلم الأرصاد الجوية، وهو ما ترجمتُه بـ "حد التنبؤ الجوي" : Limite de prédicibilité. فهذا الحد موجود، وبعده يستحيل التوقع ويصبح لا معنى له(١). وهذه الاستحالة ليست تجريبية فقط، بل هي نظرية أيضاً.

ما هو هذا الحد - إذن - الذي يبين متى يبدأ التوقع الممكن، ومتى يكون مستحيلاً؟

هو في الحقيقة غير معروف - على وجه الدقة - إلى الآن، وإنما يخمن العلماء المختصون أنه قريب من هذا الشكل:

١- بالنسبة للظواهر على مستوى المقياس الإجمالي - أي الظواهر الكبرى -(٢)، فإن حد التنبؤ ينبغي ألا يتجاوز أسبوعين، وهو عند بعض الاختصاصيين عشرة أيام.

٢- وبالنسبة للظواهر الأقل أهمية، فالحد أقل بكثير من الحد الأول؛ ولذلك فاليوم لا يتجاوز التوقع المقبول الذي يخص الأعاصير الاستوائية، وإعصار التيفون - والتي تضرب مناطق جنوب شرق آسيا وغرب الولايات المتحدة - اثني عشر ساعة، بعدها لا نعرف شيئاً عن اتجاهاتها(٣). أما حد توقع مجيء المطر فهو بضع ساعات(٤).

بل إن حد التنبؤ لبعض ظواهر الجو لا يتجاوز ساعة واحدة(٥).

وشرط نجاح هذا التوقع الممكن - في أقصى حالاته - هو وضع نظام للمراقبة والقياس يتكون من محطات أرضية وفضائية تغطي البحار والمحيطات والصحاري والقطبين، أي تشمل كامل الكرة الأرضية، وهذا اليوم أمل بعيد المنال(٦).

هذا من الناحية النظرية. أما ما عليه الحال عملياً اليوم، فهو أن التنبؤ المقبول - أعني

---

(١) (مقال التنبؤ الجوي بالموسوعة الكونية La Météorologie, p 102. Encyclopaedia, art Prévision météorologique, 18 / 972.

(٢) تسمى بالفرنسية: Phénomènes à l'échelle synoptique

(٣) La Météorologie, p 78.

(٤) Encyclopaedia Universalis, article Prévision météorologique, 18/972.

(٥) Article de Futuribles : la prévision numérique... p 38.

(٦) Les Sciences de la prévision, p 149. وانظر: La Météorologie, p 99.



الذي له حظوظ جيدة لكي يتحقق ـ يصل إلى خمسة أيام[١].

ولذلك هجرت أكثر دول العالم المتقدمة دراسات التوقع على المدى الطويل، فهي الآن تركز جهودها على تطوير وتحسين المقدرة على التنبؤ في المدى المتوسط[٢]. وأهم مؤسسة دولية في هذا المجال هي: المركز الأوربي لتوقعات الأرصاد الجوية على المدى المتوسط، CEPMMT، هو يختص بالتوقعات التي يقع مداها بين ثلاثة أيام وخمسة أيام.

التوقعات الاحتمالية:

لهذه الأسباب ـ وغيرها مما لا يمكن بسطه هنا ـ فإن التنبؤ الجوي احتمالي بالدرجة الأولى. يقول سادورني: كل ما نستطيعه هو التنبؤ بالاحتمال، ولما كان متوسط عمر التغير الجوي هو عشرة أيام، فلا يمكن أن نتوقع شيئاً بطريقة حتمية أكثر من هذه المدة[٣].

وأكثر ما يقع فيه توقع شبه مؤكد: بعض الظواهر الكبرى التي تمتاز بشيء من الاستقرار، مثل الظاهرة المسماة بـ: الحصر Blocage، وهو إعصار معاكس بجزر الآسور حيث يحتل أعالي الطبقة الجوية فوق المحيط الأطلسي وغرب أوربا وشرق أمريكا، وقد يستمر على ذلك شهراً كاملاً[٤].

لكن مثل هذه الأوضاع ـ في الطقس ـ قليلة، ولذلك فإن نظام التنبؤات الجوية الآن لا يضع توقعاً واحداً، بل مجموعة من التوقعات المحتملة، وذلك بحصر بعض التغيرات الطفيفة الممكنة في الظروف الأولى للنسق، ومن ثم تتوفر عندنا مجموعة أنساق متشابهة في البداية، ولكنها سريعاً ما تختلف. وهذه الطريقة تسمى بـ: توقعات مونتي كارلو[٥].

وحين يهتم عالِم الجو بالمدى البعيد ـ أي أكثر من عشرة أيام ـ، فإن دراسته تكاد تقتصر على اكتشاف التطورات الممكنة للنسق الجوي، ووضع احتمالاتها[٦].

أسباب أخرى تحد من قيمة التوقع الجوي ومداه:

منها أن الجو نسق غير مستقر بطبيعته، فهو دائم التقلب والتغير، وهذا أمر واضح في

---

(١) Ency. Uni. Art, Prévision météorologique, 18/972. Futuribles: article: La prévision numérique...p 38.

(٢) Ency. Uni. Art, Prévision météorologique, 18/972.

(٣) Les Sciences de la prévision, p 149.

(٤) انظر: La Météorologie, p 109. والإعصار هو: Anticyclone des Açores. والآسور جزر في المحيط الأطلسي بين أوربا وأمريكا.

(٥) Les Sciences de la prévision, p 151 واسم هذه التوقعات. Les prévisions de Monté - Carlo

(٦) La Météorologie, p 110. وانظر ص ١٠٣.

ميكانيكا المائعات. فأدنى شيء يمكن أن يقلب النسق رأسا على عقب[١].

ومنها أن للمحيطات دوراً ضخماً جدًا في تشكلات الجو. ورغم ذلك فنحن لا نعرف شيئاً هاماً عنها، ولذلك لا تزال العلاقة بين البحار والطقس مجهولة لدينا، على العموم. ودراسة هذه العلاقة أمر يحتاج إلى عشرات من السنين، وإلى تعاون دولي واسع، وإلى تطوير التكنولوجيا المناسبة لهذا البحث. وللقارئ أن يتصور حجم المشكلة إذا عرف أن المحيطات تشكل ٨٠٪ من مساحة الكرة الأرضية[٢].

ومنها أن علم الأرصاد ينبني على بعض النظريات الاختزالية، وهي لذلك تقريبية. وهذا الاختزال ضروري لبناء نظام للتوقع، ولكنه في الوقت نفسه يحد من مداه[٣].

ولهذه الأسباب ـ وغيرها ـ[٤] لا يكفي الاعتماد فقط على الحساب والنمذجة ونتائج الكومبيوتر، فلابد ـ إلى ذلك ـ من رأي المختص وتفسيره لهذه المعلومات، وهو تخمين ينبني على التجارب والخبرة، فيصيب ويخطئ.

حدود التوقع: نموذج الكوارث الجوية:

وسنرى الآن مصداق ما سبق في مثال واحد من عشرات الظواهر الجوية المتنوعة، أعني حالة الكوارث الجوية. ومن أفرادها: الأمطار الفيضانية، والعواصف، والأعاصير، والثلوج الكثيرة. . . ونحو ذلك.

وبعض الدول تعاني كثيراً من هذه الكوارث، وخصوصاً العواصف المدمرة؛ ولذلك توجد أربع مراكز في العالم متخصصة في فهم ظاهرة الإعصار وتوقعها، لتحذير السكان منها في الوقت المناسب[٥].

وأحياناً ينجح العلماء في توقع قدوم كارثة ما، كالإعصار مثلاً، وذلك بالخصوص إذا لاحظها مركز مراقبة بعيد نسبياً فأنذر بها البلاد التي يتجه إليها الإعصار[٦].

---

(١) Les Sciences de la prévision, p 148-149 .

(٢) . Les Sciences de la prévision, p, 159. Prévision numérique p 49, article de Futuribles .

(٣) Encyclopaedia, article prévision météorologique, 18/970.

(٤) انظر حول المشاكل الأخرى للتوقع الجوي: Futuribles : Prévision numérique, p 44, 45, 49

(٥) (الكوارث الجوية) Les catastrophes climatiques, p 95 .

وهذه المراكز توجد بـ: ميامي بجنوب الولايات المتحدة، وطوكيو باليابان، ونيودلهي بالهند، ومركز رابع بجزر لارينيون في جنوب المحيط الهادي.

(٦) انظر مثالا لهذا في: Les catastrophes climatiques, p 97. وهو إعصار هوغو Hugo في ١٠ أيلول ١٩٨٧.

لكن هذا النجاح لا يزال محدوداً، ويذكر باني مثالاً على ذلك الأمطار الطوفانية الهائلة التي أصابت فرنسا سنة ١٩٨٧، ويطلق عليها "حادثة نيم". فرغم وجود مراكز مراقبة جيدة ومحطات للقياس كثيرة في حوزة الفرنسيين، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يتوقعوا شيئاً، وكانت المفاجأة كاملة. وحتى حين رجع المختصون ـ بعد وقوع الكارثة ـ إلى دراسة وثائق الرادارات والأقمار الصناعية، وسائر المعلومات الممكنة، ليروا لماذا لم ينجحوا في توقع حادثة نيم، وجدوا أنه لم يكن ممكنا لهم أن يتصوروا مقدماً حجم الكارثة والمكان الذي ستضربه[١].

ولهذا أيضاً يعجز العلماء عن توقع حدوث أحد أخطر الأعاصير التي تضرب جنوب آسيا، وهو إعصار "النينيو"، الذي يعتبر هناك مشكلة وطنية وإقليمية كبيرة[٢]. وهناك أمثلة أخرى كثيرة[٣].

ولهذا يقول باني: لا يمكن أن نتوقع كارثة قادمة فنعرف أين ستقع، وكيف ستقع، وما حجمها وأهميتها، و"إن هذا الحاجز بين التنبؤ والذي يحدث فعلاً ربما لن يتحطم أبداً". حتى إن علماء الأرصاد الجوية يعتبرون أنه ربما لن نصل أبداً إلى التنبؤ بعاصفة آتية قوية جدًّا، ولذلك لأنها تكون سريعة جدًّا ودقيقة[٤].

ما العمل إذن؟ العمل هو الوقاية والاحتياط. يقول باني: ينبغي على المجتمعات البشرية أن تعرف أن للعلم حدوده أمام حوادث الطبيعة، فلا يطلبوا الكثير من علماء الأرصاد واختصاصيي التوقع؛ ولذلك يجب الاحتياط لوقوع الكوارث، لتقليل الخسائر[٥].

ثم عاد باني في خاتمة الكتاب، فلخص الموضوع في قوله: إن للتنبؤ حدوداً. ولهذا فالخطر الطبيعي سيوجد دائماً، رغم التوقع العلمي، وأيضاً رغم الوقاية والاحتياط. وينبغي أن يتقبل الناس وقوع الكوارث الجوية، وأن نهيئهم لذلك، فهي ـ من بعض النواحي ـ كوارث عادية، بمعنى أنها جزء طبيعي من الوجود، ليس في استطاعة الإنسان منع كل خطر، بل فقط التقليل منه[٦].

---

(١) Les catastrophes climatiques, p 98. حادثة نيم: P. Pagney. Evénement de Nîmes. أستاذ علم المناخ بالسوربون، له مؤلفات كثيرة في هذا المجال.

(٢) راجع: Article : Drought and famine... in : Saudi Gazette, 9 Avril 1998, p 5.

(٣) Les catastrophes climatiques, p 97 à 101.

(٤) Les catastrophes climatiques, p 99.

(٥) Les catastrophes climatiques, p 100.

(٦) Les catastrophes climatiques, p 125-126 .

لا تعارض بين الآية الكريمة وتوقعات الأرصاد الجوية:

لعل القارئ ـ الآن ـ فهم طبيعة التنبؤ الجوي وأنه لا يتعارض مع عقيدة أن الله سبحانه هو الذي يعرف متى يأتي المطر، وسواه من الظواهر السماوية، ولذلك يمكن أن نسجل هذه الفروق بين المعرفتين:

ـ إن علم الله تعالى ـ فيما يتعلق بالجو ـ علم شامل يحيط بكل شيء، فهو تعالى يعلم كل الأوضاع الماضية للطقس الأرضي، وكذا الأوضاع الحاضرة، وكذلك المقبلة، فيعرف كل نقطة ماء من أين جاءت، وأين ستنزل، وكل حركة للرياح صغيرة أو كبيرة يعلمها، وكل غيم، وكل ذرة ثلج، وكل موج، كل شيء له علاقة بالجو يعلم الباري سبحانه ماضيه وحاضره ومستقبله.

وهكذا يظهر الفرق جلياً بين هذا العلم الواسع الذي لا يشذ عنه شيء، وبين العلم البشري المحدود.

ـ ثم إن علم الله تعالى يقين لاشك فيه، أما العلم الإنساني ـ في ميدان التوقعات الجوية ـ فعلم نسبي قائم على الاحتمال؛ لهذا لا تصدق دائماً توقعات علماء الأرصاد، بل هي تخطئ وتصيب.

ـ وعلم الباري لا نهاية له في الزمان، أما علم التوقعات الجوية فمحدود فيه، إذ يوجد ما يسمى بـ "حد التنبؤ الجوي"، ووراءه يستحيل التوقع.

ولهذا كان علم الباري بشؤون الجو من الغيب الذي استأثر به، أعني العلم المحيط واليقيني والذي لا حد له في الزمان، أما غيره من العلوم الجزئية والاحتمالية والمحدودة بالزمان والمكان فليس من الغيب المحجوب، ولا من المفاتح الخمس، ويمكن للإنسان أن يحصله، بل هو مدعو إلى ذلك.

إن علم الأرصاد حين يتوقع أن يكون يوم غد ممطراً مثلاً، يتبع في ذلك طريقاً علمياً واضحاً ليس هو من الاطلاع على الغيب في شيء، وسأشرح هذا بمثال من نشأة علم التوقعات الجوية نفسه:

مثال من نشأة علم الأرصاد الجوية:

في ١٤ تشرين الثاني ١٨٥٤، أثناء حرب القرم، بينما كان الأسطول الفرنسي ـ الإنجليزي راسياً بالبحر الأسود إذا بعاصفة شديدة القوة تمر فوق المنطقة، وتحطم هذا الأسطول الحربي عن آخره.

طلب الماريشال "في يون" من العالمِ "لوفوريي" أن يبحث هل كان من الممكن تجنب



هذه الكارثة، بالإنذار المبكر بقدومها. وبعد مجموعة من البحوث والاتصالات مع المراكز العلمية بأوربا تبين للوفوريي أن هذه العاصفة مرت فوق عدد من البلدان، بل استطاع ـ من خلال المعلومات التي حصل عنها ـ أن يرسم طريقها. وكان واضحا أنها تسير نحو البحر الأسود؛ لذلك وضع لوفوريي أول شبكة من محطات المراقبة، ووصل فيما بينها بالتلغراف الكهربائي ـ وكانت هي وسيلة الاتصال المناسبة آنذاك ـ ، وأنشأ مصلحة خاصة بباريس تتلقى الملاحظات اليومية من هذه المحطات، وتقوم بإنذار الدول الأوربية في حالة احتمال ظهور عواصف خطرة[1]. فهذا كمن شاهد قطارا يمر أمامه، يمكن له ـ إذا كان على علم بسرعة القطار وظروف السكة... ونحو ذلك ـ أن يقدر متى سيصل إلى المدينة الفلانية.

فهذه التوقعات كلها تنبني على نظام للظواهر الجوية يحاول علماء الأرصاد فهمه وكشفه، وبعض هذه التوقعات لا تحتاج إلى علم كثير، فتكفي التجربة، ولهذا كان العرب يعرفون أشياء كثيرة من ظروف نزول المطر، فيستدلون عليه بمواضع السحاب وكثافتها ولونها.. ونحو ذلك.

ومن علامات المطر التي أشار إليها القرآن: الرياح، قال عز من قائل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

ولذا قال حاجي خليفة: علم نزول الغيث يبحث عن كيفية الاستدلال بأحوال الرياح والسحاب والبرق على نزول المطر[2].

فهذا ليس من الغيب المحجوب: إذا جاءت كتل هوائية من المحيط، وعرفنا بالقياس درجة رطوبتها، ثم عرفنا من دراسة الرياح اتجاه هذه الكتل، وقلنا: حين ستصل إلى البلد الفلاني ستمطر. هذا علم قائم على نظام الأسباب والمسببات، وإنما الغيب المذكور في الآية أن تتوقع مجيء المطر، حيث لا كتل ولا سحاب، ولا أدلة ولا علامات، لا عادة تستند إليها، ولا حساب تستعمله، فهذا لا سبيل لأحد إليه أبداً، إلا الله جل جلاله.

وأظن أن ذكر المطر ضمن مفاتح الغيب أمر وراءه حكم كثيرة، فهو من الظواهر الجوية

---

(١) Encyclopaedia, La Météorologie, p 81. Prévision numérique p 32, l'article de Futuribles 18/970 article prévision météorologique .

والحرب المقصودة. Crimée. وقعت سنتي ١٨٥٤ و١٨٥٥ بين روسيا من جهة، وبريطانيا وفرنسا وتركيا من جهة ثانية، وانتهت بهزيمة الروس. وكريمي اسمها الحقيقي شبه جزيرة القرم، كانت على البحر الأسود، وهي مملكة إسلامية.

(٢) كشف الظنون، ٢/ ١٩٣٨.



الأقرب إلى احتمال التوقع؛ لأن لها علامات متعددة. فنزول المطر يختلف ـ مثلاً ـ عن بعض الأعاصير الجبارة التي تظهر بغتة من لا شيء، وتضرب بقوة ودقة، في مفاجأة تامة، فكأن الله تعالى يقول: إن مِن علمه الذي لن تصلوا إليه ـ أيها البشر ـ علم المطر، وهو أقرب شيء في الجو وأسهله، وهو ـ مع ذلك ـ مفتاح فقط من مفاتيح غيوبه التي استأثر بها، فكيف بما بعده، وكيف بما في خزائن الغيب نفسها.

إن من شروط معرفة مستقبل الظواهر الجوية الإحاطة بكل تغير، وبكل حركة، في الأرض وفي السماء، وعلم ذلك وتسجيله (الحساسية المرهفة تجاه الظروف الأولى).

ولذلك يقول دوجوفنيل: إن علم الأرصاد الجوية يوقفنا على حجم التطور الذي راكمه الإنسان في هذا المجال، كما يعلمنا أيضاً التواضع الذي يفرضه التعقد الكبير للظواهر الجوية، وهو التعقد الذي بدأنا نكتشفه بوسائل هائلة من البحث والعلم[١].

ولنكتف بهذا القدر. أما ما يقال عن التحكم في المطر وإنزاله بطرق صناعية، فهذا كلام بعيد، والإنسان لا يملك بعد تأثيراً حقيقياً على الجو، وعلى ظواهره، ومنها المطر، فهذا ما قرأته عند أهل الاختصاص[٢]. وحين يتحقق هذا التحكم في المطر وصناعة الطقس بحسب الطلب، حين يكون ذلك سننظر في الأمر. أما الآن فتوجد مباحث أخرى أهم في انتظاري.

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ [لقمان: ٣٤]:

الآية واضحة، وتفيد أن من علوم الله سبحانه علم ما في أرحام الإناث، لكن عرض فيها لبعض الناس إشكال، وذلك لأن الطب اليوم يستطيع أن يكشف عن جنس الجنين ـ بعد بضعة شهور من الإخصاب ـ، بواسطة جهاز الإيكوغرافيا، وإن كان هذا الكشف لا يصل ـ الآن ـ إلى درجة اليقين.

سبب وقوع هذا الإشكال:

والعلة التي لأجلها توهم التعارض بين الآية والطب الحديث هي ـ كما نبه عليها القرضاوي ـ[٣] أن بعض المفسرين القدماء فسروا قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ [لقمان: ٣٤]، أي: أذكر أم

---

(١) من تقديمه لمقال التنبؤ الرقمي Préface d'article de Futuribles : La prévision numérique, p31. وهو Hugues de Jouvenel مختص فرنسي في الدراسات المستقبلية، والمدير الحالي لمجلة "مستقبلات".

(٢) اقرأ: La Météorologie, p 118 à 124

(٣) العقل والعلم في القرآن الكريم، ص ١٨٢.

أنثى؟ أتام أم ناقص؟ ومن هؤلاء: النسفي، وأبو السعود، والبيضاوي، والسيوطي[1].

وهذا لا يلزم، لوجوه:

١ ـ هناك فرق بين القرآن ـ كلام الله تعالى ـ وبين أقوال المفسرين، فالأول حق لا يخطئ، وشروح أهل التفسير هي آراء بشرية، محكومة بظروف الزمان والمكان، وحدود العلم المتوفر لهم، ولذلك فقد تخطئ بعض هذه الآراء، وهي ليست ديناً علينا التزامه.

٢ ـ إن مفسرين آخرين فسروا الآية بأعم من علم جنس الجنين، فابن عطية ـ مثلاً ـ أطلق علم الباري بأمر الأجنة[2]، أي بكل شؤونها، ولم يقيد.

وقال القرطبي في آية شبيهة بآية لقمان ـ وهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرعد: ٨] ـ: "أي من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح..."[3].

وقال ابن كثير: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾، "أي ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره"[4].

٣ ـ إن الذين قالوا بأن العلم المعني في الآية هو جنس الجنين أكثرهم تبع في ذلك صاحب الكشاف. ولكن عبارة الزمخشري عامة وفيها احتياط، وليس فيها حصر العلم في جنس الجنين فقط، قال: "﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى؟ أتام أم ناقص؟ وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال"[5]. فالجنس هنا مجرد تمثيل لأحوال الجنين المتنوعة.

اختيار العلماء المعاصرين القول بعموم الآية:

وهؤلاء لا يفسرون علم ما في الأرحام بأنه معرفة جنس الجنين فقط، فهذا أحد أفراد هذا العلم الذي يحيط بكل شيء يتعلق بحاضر هذا الجنين ومستقبله.

يقول ابن عاشور: "﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾، أي ينفرد بعلم جميع أطواره من نطفة وعلقة ومضغة، ثم من كونه ذكراً أو أنثى، وإبان وضعه بالتدقيق. وجيء بالمضارع لإفادة

---

(١) مدارك التنزيل، ٣/ ٢٨٦. إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٩٤. أنوار التنزيل، ٤/ ٣٣. تفسير الجلالين بحاشية الصاوي، ٣/ ٤١١.

(٢) المحرر الوجيز، ١٣/ ٢٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ١٨٨ .

(٤) تفسير ابن كثير، ٢/ ٦١٨ ـ ٦١٩ .

(٥) الكشاف، ٣/ ٢٣٨.

تكرر العلم بتبدل تلك الأطوار والأحوال. والمعنى: ينفرد بعلم جميع تلك الأطوار التي لا يعلمها الناس"[1].

ويقول سيد قطب: "هو سبحانه الذي يعلم وحده علم يقين ماذا في الأرحام في كل لحظة وفي كل طور، من فيض وغيض، ومن حمل، حتى حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم، ونوع هذا الحمل ذكراً أم أنثى، حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئاً في اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة، وملامح الجنين وخواصه وحالته واستعداداته"[2].

ولذلك قال القرضاوي: "(ما) في الآية لفظ عام، يشمل جنس الجنين، ويشمل ما هو أكثر من ذلك وأوسع: هل يعيش الجنين حتى ينزل مكتملاً؟ أو ينزل قبل اكتماله أو يجهض؟ وهل يكون ضعيفاً أو قوياً؟ ذكياً أو غبياً؟ جميلاً أو قبيحاً، وما صورة وجهه ولون عينيه، ونوع شعره؟... إلى آخر تلك الأسئلة، التي لا يقدر على الإجابة عنها بدقة إلا الله تعالى"[3].

وكذلك قال الشيخ الشعراوي: "إن معنى كلمة ﴿مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ واسع جدًّا. فكلمة (ما) هنا تعني حياة المولود من لحظة ولادته إلى لحظة وفاته. هل هو شقي أم سعيد؟ طويل أم قصير؟ ما هو لونه؟ هل هو صحيح أو مريض؟ ما هي الأمراض التي ستصيبه؟ ما هو عمره؟ وماذا سيفعل؟ ما هي الأحداث التي ستقع له؟ والتي ستقع عليه؟ والتي ستقع منه؟ ماذا سيعمل؟ وأي مهنة سيحترفها؟ وأي البلاد سيسافر إليها؟ ومن سيتزوج؟ وما هو رزقه؟ وهل سيرزق بأولاد أم لا؟

إننا نستطيع أن نمضي في هذه الأسئلة بلا نهاية. إن كلمة (ما) تعني شريط حياة ذلك الذي لم يخلق بعد في رحم أمه، فأين هذا كله من نوع الجنين أذكر أم أنثى؟"[4].

لكنني لا أظن أن قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ يشمل كل هذه الأمور التي ذكرها الشعراوي، فهو قد توسع كثيراً في مشمولات الآية. والذي يظهر لي أن الآية تقصد شؤوناً تتعلق بالأرحام خاصة، ومنها أحوال الجنين، أما مستقبله فداخل تحت الآية الأخرى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤].

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١/ ١٩٧.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/ ٥٠٠.

(٣) العقل والعلم في القرآن الكريم، ص ١٨٢.

(٤) الغيب، ص ٨٨ ـ ٨٩. الشيخ الشعراوي من علماء مصر ووعاظها المشهورين. برز في التفسير خاصة. وتوفي منذ سنوات قليلة.

اختلافهم في الزمان الممكن لمعرفة جنس الجنين:

أي هل يجوز أن نعرف جنس الجنين وبعض أحواله قبل نفخ الروح فيه؟ بل وحتى منذ اللحظة الأولى التي يحصل فيها التلاقح بين الحيوان المنوي للرجل، وبويضة الأنثى، أم أن معرفة جنس الجنين قبل النفخ من الغيب الذي استأثر الله تعالى به، بحيث يستحيل قبله على الإنسان أن يدركه؟ فهذان رأيان:

الرأي الأول: جنس الجنين ليس من الغيب المطلق، وفي جميع الأحوال، هذا هو الأصل، وهذا رأي جماعة منهم: الشيخ رشيد رضا، قال: مما قد يستشكله في هذا المقام من لم يقف على حقيقة علم الغيب ما اكتشفه بعض الأطباء من سنة الله تعالى في سبب الذكورة والأنوثة في الحمل، وملخصه أن البويضة التي يحصل الحمل بتلقيحها في الرحم بماء الذكر منها ما يخلقه الله تعالى في جانب الرحم الأيمن، ومنه يتكون الذكور، ومنها ما يخلقه في جانب الرحم الأيسر ومنه يولد الإناث، وهذه البويضة توجد بالتناوب في أثناء حيض المرأة، فحيضة تنتهي بخلق بويضة الذكور في الجانب الأيمن فإذا حصل التلقيح عقبها كان الجنين ذكراً، وحيضة أخرى بضد ذلك، فمعرفة نوع الحمل في الرحم بهذه الطريقة يعد من العلوم البشرية الكسبية، وهو لا يتعارض مع أن ما في الأرحام حقيقة لا يعلمها إلا الله، إذ معنى الحصر أن ما سيحدث في عالم الحيوان من التكوين في المستقبل هو من خزائن الغيب التي لا يحيط بما فيها إلا الله، ومفاتح العلم بأي شيء منها عنده، فإذا هدى عباده إلى سننه التي هي مفتاح موصل إلى الاطلاع على بعض ما تحويه هذه الخزانة، فذلك لا ينافي ما ذكر، ومع ما سبق فإن العلم بالذكورة والأنوثة ليس علماً قطعياً، بالرغم من الشروط التي اشترطوها، وإنما هو الظن الغالب[1]. وتفسير رشيد رضا لكيفية تعين جنس الجنين اعتقاد سابق، وقد تكشف اليوم خطؤه، فنحن نعرف أن الحيوان المنوي للذكر هو الذي يحدد جنس الجنين، فإذا كان يحملX[2]، واتحد بالبويضة التي تحمل X، كان للجنين XX، وهذا أنثى. وإذا كان يحمل Y، اتحد بالبويضة، وأعطى XY، وهذا ذكر. ولكن ما يهمنا في كلام رشيد رضا هو تعليله لجواز معرفة جنس الجنين من البداية، أما تفسيره الخاطئ فلا يضر هنا.

ومن المجيزين أيضاً الأستاذ البوطي، قال: "ولعلك قد سمعت بأن بعض الأطباء في الغرب يأمل في اقتراب اليوم الذي يتمكن فيه الطب أن يعلم منذ اليوم الأول لظهور الحمل

---

(١) مختصراً من: تفسير المنار، ٧/ ٤٦٤ إلى ٤٦٧.

(٢) X رمز الصبغيات الأنثوية، وY رمز الصبغيات الذكرية. والصبغيات هي التي تحمل الجينات.

نوع الجنين أذكر هو أم أنثى؟ وإننا نقول..: إن هذا ممكن، وإنما سبيله تتبع القرائن والأسباب التي جعلها الله شرطاً لذكورة الجنين ولأنوثته، وهي قرائن لم يستأثر الله بعلمها، بل ندب الناس إلى التنبه إليها. ولكن هل ترقى معرفة ذلك إلى اليقين الجازم بأن الجنين سيكون ذكراً أو إلى القدرة على التحكم بنوع الجنين؟ لا، لا يمكن أن ترقى هذه المعرفة إلى اليقين الحتمي، ولا إلى أي تحكم بالنوع؛ لأن الإله الذي أقام ذكورة الجنين على الأسباب التي شاءها قادر على أن يبطل سببيتها في الوقت الذي يشاء، لا جرم أن الأمر يقف إذن عند حدود الظن الراجح وحده"[(١)].

الرأي الثاني: ما قبل نفخ الروح من الغيب المطلق، وما بعده لا. فعند هؤلاء تفيد الآية اختصاص الله تعالى بالعلم بالجنين على سبيل العموم، لكن جاءت السنة فخصصت هذا العموم، وذلك لأنه في الحديث أن الملك يوكل بالجنين بعد استيفائه أربعين يوماً، فيكتب رزقه وأجله وما إذا كان سعيداً أو شقياً[(٢)]. فهنا يخرج الغيب عن الإطلاق إلى التقييد، ولا يكون من الخمسة التي استأثر الباري بعلمها، مادام أن بعض الملائكة يعلمه؛ ولذلك قال ابن كثير: "وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه"[(٣)].

وهذا رأي الشيخ ابن عُثيمين، فقد سئل عن كيفية التوفيق بين علم الأطباء بذكورة الجنين وأنوثته، وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾، فقال ـ بعد أن بين أنه لا يمكن أن يتعارض صريح القرآن مع الواقع أبداً ـ: "إذا تبين ذلك، فقد قيل: إنهم الآن توصلوا بواسطة الآلات الدقيقة للكشف عما في الأرحام، والعلم بكونه أنثى أو ذكرا. فإن كان ما قيل باطلاً فلا كلام، وإن كان صادقاً فإنه لا يعارض الآية، حيث إن الآية تدل على أمر غيبي هو متعلق علم الله تعالى، في هذه الأمور الخمسة، والأمور الغيبية في حال الجنين هي: مقدار مدته في بطن أمه، وحياته، وعمله، ورزقه، وشقاوته أو سعادته، وكونه ذكراً أم أنثى قبل أن يخلق، أما بعد أن يخلق فليس العلم بذكورته أو أنوثته من علم الغيب؛ لأنه بتخليقه صار من علم الشهادة، إلا أنه مستتر في الظلمات الثلاث التي لو أزيلت لتبين أمره، ولا يبعد أن يكون في خلق الله تعالى، من الأشعة أشعة قوية تخترق هذه الظلمات حتى

---

(١) مجلة "العربي" الكويتية، عدد ٢٤٢ لشهر صفر عام ١٣٩٩، ص ٥٣.

(٢) أخرجه مسلم: ٢٦٤٥، وأحمد: ١٦١٤٢ .

(٣) تفسير ابن كثير، ٢ / ٦١٩.

يتبين الجنين ذكراً أم أنثى، وليس في الآية تصريح بذكر العلم بالذكورة والأنوثة، وكذلك لم تأت السُّنة بذلك..."[1].

فالحاصل إذن أن علماءنا متفقون على أن جنس الجنين بعد نفخ الروح فيه قابل للإدراك البشري، وليس من الغيب المستأثر به في شيء، لكنهم يختلفون قبل النفخ، هل هو غيب مطلق أم مقيد؟.

إن الفرق بين علم الله تعالى بما في الأرحام وعلم البشر بها فرق هائل، ومن وجوه عدة:

فعلم الله تعالى يحيط بما تحمله كل أنثى، من البشر والحيوان. قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧]. وذلك أيضا قوله جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، [الرعد: ٨]. قال سيد قطب: أية قضية تجريدية، وأية حقيقة كلية في هذا المجال تعبر عنها هذه الآية: "حين يذهب الخيال يتتبع كل أنثى في هذا الكون المترامي الأطراف، كل أنثى، كل أنثى في الوبر والمدر، في البدو والحضر، في البيوت والكهوف والمسارب والغابات. ويتصور علم الله مطلاً على كل حمل في أرحام هذه الإناث، وعلى كل قطرة من دم تغيض أو تزداد في تلك الأرحام"[2].

وهذا العلم الإلهي لا يحيط فقط بما تحمله الأرحام من أجنة، بل بكل شيء فيها من أنسجتها وتركيبها ووظائفها وأحوالها وأوضاعها...

ولا أدري لم يظن بعض المفسرين أن لفظة "ما" في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، تدل على الأجنة تحديداً، بل هي لفظة عامة تدل على كل شيء يوجد داخل هذه الأرحام، وليس فقط الجنين، بل كل شيء من الأنسجة والخلايا المتنوعة والدم والهرمونات والبويضات، وعدد ذلك وحجمه وما نقص منه وما زاد، وما نعلم، وما لا نعلم، كل ذلك في الأرحام. وبعض ذلك يعلمه الله تعالى وحده.

ولهذا جاء في آية أخرى في أول سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾. حتى حار المفسرون في معنى قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، وقرأت أقوالهم فيها،

---

(١) نقله يوسف السعيد في مقدمة تحقيقه لكتاب الخطيب عن النجوم، ص ٩٨، ٩٩. والشيخ محمد بن عثيمين هو أحد العلماء السعوديين المبرزين اليوم، له كتب وفتاوي منشورة. وهذه الفتوى رقم ٣٦٢ نقلها السعيد عن مجموع فتاويه ٣/ ٧٦.

(٢) في ظلال القرآن، ٥/ ٧٦.

ولم أرجع منها بطائل[1]. ثم إن علم الباري يقين، وعلمنا نحن تقريب وتغليب، ما أكثر ما يخطئ.

والذي أعتقده أن لله جل جلاله أسراراً في الأرحام لن يبلغها عقل بشري أبداً. فهي محضن سر الحياة، وفيها مبدأ الروح، وكل ذلك لا نعلم عنه شيئاً. وما أدرانا أن ما نعرفه عن الأرحام هو الموجود فقط، لا وجود لغيره. وكيف يطلب منا أن نحدد ما في الأرحام، وذلك مما اختص الله تعالى بعلمه؛ وظني أن في الأرحام أشياء تقع ليس لنا أي فكرة عنها، أشياء من الغيب، والقرآن يبين لنا بإلحاح أن أمور الخلق في الأرحام لله وحده: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠] ولذلك توجه الأنبياء إبراهيم وزكريا عليهما السلام إليه وحده ليرزقهما ولداً.

حتى لو شرَّح الإنسان الرحم قطعة قطعة، وحتى لو اطلع على كل خلية من خلاياه، وكل حركة من حركاته، وأحاط بكل ما يقع فيه، بحسب ما يظهر له، حتى لو تم ذلك سأستمر في الاعتقاد أن أشياء أخرى توجد في الأرحام، لم ينتبه لها الإنسان؛ لأنه لا يستطيع أن ينتبه إليها.

ألم يشرِّح الأطباء جسم الإنسان كله، بما في ذلك قلبه ودماغه، أخبرني ـ بربك ـ أين الروح في هذا الجسم، وأين العقل فيه؟ أفي الرأس، أم في الرجلين، أم في البطن، أم في الصدر؟ أم أنه ليس للإنسان عقل ولا روح أصلاً... !إذن لا يعلم ﴿مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ على الحقيقة إلا خالقها، تبارك في السماء والأرض.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤] [2]:

قال الألوسي والبقاعي: "أي في الزمان المستقبل"[3].

والمعنى: "ماذا تكسب من خير وشر، ومن نفع وضر، ومن يسر وعسر، ومن صحة ومرض، ومن طاعة ومعصية، فالكسب أعم من الربح المالي وما في معناه؛ وهو كل ما تصيبه النفس في الغداة"[4].

---

(١) راجع: جامع البيان، ١٣/ ٦٤ إلى ٦٦. المحرر الوجيز، ١٠/١٦. مفاتيح الغيب، ١٩/ ٢١ ـ ٢٢. الجامع لأحكام القرآن، ٩/١٨٨. تفسير ابن كثير، ٢/٦١٩. فتح الباري، ١٥/ ٣١٥ . كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ . . .﴾ في ظلال القرآن، ٥/ ٧٦. التحرير والتنوير، ١٣/ ٩٧.

(٢) انظر: أحكام القرآن، لابن العربي، ٢/ ٢٥٠. الكشاف، ٣/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩. إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٩٤. مدارك التنزيل، ٣/ ٢٨٦. التحرير والتنوير، ٢١/ ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٣) روح المعاني، ٢٢/ ١٠٩. نظم الدرر، ٥/ ٢١٨.

(٤) في ظلال القرآن، ٦/ ٥٠٠.

وعبر بالكسب؛ لأنه أخص أحوال النفس، فكل واحد يعتقد أنه يسيطر جيداً على أعماله التي يقوم بها بنفسه، ثم حدد هذا الكسب بالذي يكون في الغد، لا بعده، لأنه أقرب الأزمنة إلى الإنسان، وأولاها بالعلم.. ثم نبه على أن هذا الكسب الذي يكون في الغد لا يعرفه الإنسان، فهو لا يستطيع أن يعلم بيقين ماذا سيفعل غدا. وهذا تعبير قرآني بليغ، لأنه إذا لم يحط خبرا بكسبه هو، فكيف بأفعال غيره، ممن يعرف ولا يعرف. وإذا لم يعلم ما في غد، فكيف بما بعده، وكيف بالمستقبل البعيد. قال النسفي: "المعنى أنها (أي النفس) لا تعرف ـ وإن أعملت حيلها ـ ما يختص بها، ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان معرفة ماعداهما أبعد"[1].

وما أكثر ما خطط الإنسان لغده، وقرر أن يفعل أشياء حددها بنفسه، وإذا بخبر يتلقاه أو حادث بسيط يعرض له يقلب كل شيء رأساً على عقب، وإذا يومه كأنه ما عرفه لبعده عما كان رسمه في ذهنه عنه.

فهذه الآية إشارة إلى أن علم المستقبل، على وجه اليقين والتفصيل، مما استأثر الله تعالى به، وليس ذلك لأحد من بني البشر، ولا حتى لنبي مرسل أو لملك مقرب.

ولوضوح هذا المعنى عاب بعض النقاد قول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى في معلقته:

وأعـلـمُ عِـلْـم الـيـومِ والأمـسِ قـبـلَـه ... ولـكـنـني عـن عِـلْـم مـا فـي غـدٍ عَـمِ

قال الشارح: "يقول: أعلم ما في يومي لأني مشاهدُه، وأعلم ما كان بالأمس لأني عهدتُه، وأما علم ما في غد فلا يعلمه إلا الله؛ لأنه من الغيب. وقوله: عمي، أي جاهل، يقال عَمِيَ الرجل عن كذا، إذا غاب عنه وجهله"[2].

قالوا: لأن كل واحد يعرف أنه لا يدري ما سيقع غداً، وعلى الشاعر أن يذكر في شعره معاني خفية بعض الشيء لا ظاهرة بينة؛ كما قال أحدهم في كلام سماه شعراً، وما هو بشعر:

الـلـيـل لـيـل والـنـهـار نـهـار ... والأرض فـيـهـا الـمـاء والأشـجـار

لكن يظهر لي أن لبيت زهير هذا قيمته في بيئته العربية التي كثر فيها الكهان والعرافون والمنجمون والزاجرون، فلعل زهيراً وجد أن عليه أن يذكر قومه بهذه الحقيقة البسيطة، التي ينساها الناس في أحيان كثيرة، فيحتاجون إلى تذكير متكرر.

---

(١) مدارك التنزيل، ٣/٢٨٦. وانظر أيضاً: نظم الدرر، ٥/٢١٨.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، بصنعة الأعلم الشنتمري، وهو الشارح، ص ٢٦.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]:

بعد أن أشار الله سبحانه ـ في صدر الآية ـ إلى أنه يختص بعلم وقت الساعة، ختمها بأنه يختص أيضاً بعلم قيامة كل إنسان، أعني موته، وفي الحديث: من مات فقد قامت قيامته[١]. قال الشيخ الشعراوي: "وذلك أنه يرى الجنة والنار والملائكة، ويصبح الغيب عنده مشاهداً"[٢].

والقرآن بليغ فعلاً، ألا ترى أن فيه: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، ولم يقل: (وما تدري نفس متى تموت). وذلك لأن معرفة مكان الموت أقرب إلى الإنسان من معرفة زمانه. فأكثر الناس لا يعلمون متى سيموتون، ويعترفون بذلك، ولكنهم قد يتوهمون أنهم سيتوفون بأرضهم التي ولدوا بها وتزوجوا فيها وعاشوا، وربما لم يتركوها يوماً، والقرآن يدفع هذا التوهم، ويقرر حقيقة أن الإنسان لا يعرف حتى مكان موته، فكيف بزمانه، وكيف بظروفه: أبحادث، أم مرض، أم بأجل؟ ولذلك قال أبو السعود: "(وما تدري نفس بأي أرض تموت) كما لا تدري في أي وقت تموت..."[٣] بطريق الأولى.

هذا عن زمان الموت، ويقول الزمخشري عن مكانه: "(وما تدري نفس) أين تموت، وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت لا أبرحها وأقبر فيها، فترمي بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ولا حدثتها به ظنونها. والمعنى أنها لا تعرف وإن أعملت حيلها ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها، ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته، فإذا لم يكن له طريق معرفتهما كان من معرفة ماعداهما أبعد"[٤].

وفي هذه المسألة حديث جليل، وهو قول النبي ﷺ: إذا أراد الله قبض عبد بأرض، جعل له إليها حاجة[٥]. والقصة الآتية تبين هذا المعنى.

قصة الهارب من الموت:

أسند ابن أبي شيبة عن الأعمش عن خيثمة قال: دخل ملك الموت إلى سليمان، فجعل

---

(١) قال الحافظ العراقي: حديث أنس بن مالك: "الموت القيامة، فمن مات فقد قامت قيامته"، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت، بإسناد ضعيف. المغني عن حمل الأسفار، ٤/ ٥٢٧.

(٢) الغيب، ص ٦٧. وانظر: العقل والعلم في القرآن الكريم، للقرضاوي، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

(٣) إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٩٤. وانظر: حاشية الصاوي، ٣/ ٤١١.

(٤) الكشاف، ٣/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩. وكذلك قال النسفي في: مدارك التنزيل، ٣/ ٢٨٦.

(٥) ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣/ ٥٦٢، أن الحديث رواه الترمذي وصححه، وعبد الله بن أحمد، والطبراني في الكبير، وابن أبي حاتم، والبزار، وابن ماجه، عن أسامة بن زيد، ومطر بن عكامس وآخرين.

ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فلما خرج، قال الرجل: من هذا؟ قال هذا ملك الموت، قال: رأيته ينظر إلي كأنه يريدني. قال: فما تريد؟ قال أريد أن تحملني على الريح حتى تلقيني بالهند. قال فدعا بالريح فحمله عليها فألقته في الهند. ثم أتى ملك الموت سليمان فقال: إنك كنت تديم النظر إلى رجل من جلسائي؟ قال ملك الموت: كنت أعجب منه، أمرت أن أقبضه بالهند، وهو عندك[1].

فائدة في لفظ الدراية في الآية:

نقل ابن حجر عن الطيبي أنه قال: "النكتة في العدول عن الإثبات إلى النفي في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، وكذا التعبير بالدراية دون العلم: للمبالغة والتعميم، إذ الدراية اكتساب علم الشيء بحيلة؛ فإذا انتفى ذلك عن كل نفس مع كونه من مختصاتها ولم تقع منه على علم كان عدم اطلاعها على علم غير ذلك من باب أولى"[2].

ختم الفصل الثالث بقصة:

"عن المنصور أنه أهمه معرفة مدة عمره، فرأى في منامه كأن خيالاً أخرج يده من البحر وأشار إليه بالأصابع الخمس. فاستفتى العلماء في ذلك، فتأولوها بخمس سنين، وبخمسة أشهر، وبغير ذلك، حتى قال أبو حنيفة رحمه الله: تأويلها أن مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه"[3].

بين يدي الفصل الآتي:

وإذ انتهينا من بيان سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل غائب وشاهد أدركت ـ أيها القارئ ـ أنه لا أحد يشارك ـ أو يمكن أن يشارك ـ الباري في هذا العلم، لا أحد، حتى لو كان أفضل الخلق أجمعين، وأكرمهم على رب العالمين: نبينا محمد ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الزهد، باب كلام سليمان بن داود عليهما السلام ٧/ ٧٠، وأبو بكر عبد الله بن أبي شيبة، محدث ومؤرخ، حدث ببغداد، وتوفي سنة ٢٣٥هـ. من كتبه الأخرى: السنن في الفقه. الفتن. التأريخ. معجم المؤلفين، ٦/ ١٠٧. وخيثمة لعله يزيد بن عبد الرحمن، تابعي جليل توفي سنة ٨٠هـ. انظر تهذيب التهذيب، ٣/ ١٧٩.

(٢) فتح الباري، ١/ ١٦٩، حديث جبريل في كتاب الإيمان. وانظر في المعنى نفسه: نظم الدرر، ١٥/ ٢١٨. مدارك التنزيل، ٣/ ٢٨٦. أنوار التنزيل، ٤/ ٣٣. عمدة القاري، ٧/ ٦٠، كتاب الكسوف. التحرير والتنوير، ٢١/ ١٩٧ ـ ١٩٨. والطيبي هو شرف الدين الحسين بن محمد، عالم مشارك. له: الكاشف عن حقائق السنن النبوية. أسماء الرجال. مقدمة في علم الحساب... واشتهر بتفسيره: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب. توفي سنة ٧٤٣هـ. عن معجم المؤلفين، ٤/ ٥٣.

(٣) عن الكشاف، ٣/ ٢٣٩. والمنصور هو الخليفة العباسي أبو جعفر.



لكن هذا الذي أعتقده أمراً بدهياً، ولاشك أنك أيضاً تعتقده كذلك، لم يكن كذلك عند بعض أهل العلم.

كيف ذلك؟

الجواب يقتضي أن أفصل لك الحديث عن إحدى المعارك العلمية التي عرفها تراثنا الإسلامي، إنها خصومة عالمين هما: اليوسي والتجموعتي فيما أطلق عليه: "مسألة العلم النبوي". وإليك البيان:



الفصل الرابع

الغيب والعلم النبوي

وقد كان هذا الموضوع سبباً لخصومة فكرية واجهت بين عالمين من علماء المغرب في نهاية القرن الحادي عشر، أيام حكم السلطان إسماعيل العلوي، وهما:

أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي:

اليوسي من كبار علماء المغرب في القرون الأخيرة، وأصله من منطقة سوس بالجنوب المغربي، لكنه جال في بلاد المغرب حاضرة وبادية لطلب العلم، حتى فاق فيه كثيراً من علماء عصره، وترك تآليف كثيرة، في العقيدة والتصوف والمنطق والتربية والأدب... وقد توفي رحمه الله تعالى سنة ١١٠٢.

كانت لليوسي مشيخة في أسرة التجموعتي، حيث درس على أخوين لأبي مروان عبد الملك.

أبو مروان عبد الملك بن محمد السجلماسي التجموعتي:

بيت التجموعتي بسجلماسة بيت علم ورياسة، وقد أنجب علماء أجلاء، لعل أشهرهم هو أبو العباس أحمد، الفقيه المحدث، المتوفى سنة ١٠٨٣هـ، وهو أخ أبي مروان عبد الملك.

أخذ عبد الملك ـ أو عبد المالك ـ مبادئ العلوم ببلده، ثم حج وجاور بالحرمين، وحصَّل هناك علماً كثيراً، خصوصاً الحديث النبوي الذي تحمله عن جماعة أهمهم الشيخ أبو إسحاق الكوراني. ثم عاد إلى بلده، وولي قضاء سجلماسة. كان عبد الملك عالماً فاضلاً ومهيباً، وتوفي سنة ١١١٨ هـ[1].

كيف حدثت هذه الخصومة؟

جرى في مجلس إقراء صحيح البخاري ـ بالجامع الكبير بفاس الجديد ـ مناقشة في "الغيب"، هل يعلمه النبي ﷺ أم لا؟ وكان ذلك بين يدي الأمير محمد بن السلطان إسماعيل، وحضر المجلس علماء من فاس ومن خارجها. فذكر أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي أنه ﷺ يعلم الغيب، وأُنكر عليه ذلك، وآل الأمر ببعضهم إلى القول بكفره. فسأل الأمير محمد شيخه أبا مروان التجموعتي، فأجابه بأن النبي الكريم لم يمت حتى

---

(١) راجع: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد مخلوف، ص ٣١٢ ـ ٣١٣. أبو علي اليوسي، نموذج من الفكر المغربي في فجر الدولة العلوية، لعبد الكبير العلوي المدغري، ص ٩٨، ٣٦٥، ٣٦٦.

أطلعه الله تعالى على الغيب، وأن الدلائي محق فيما قال، لا يكفر بذلك، بل يؤجر عليه. وأن القائل بكفره هو القريب إلى الكفر. وشاع هذا بفاس، واختلف فيه الناس من أهل العلم وغيرهم. فكتب أحد أدباء الشام وفقهائها ـ وهو أبو العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي ـ إلى التجموعتي في هذا الأمر، فأجابه بهذه الرسالة[١]، وهذا نصها الكامل بعد الحمدلة[٢]:

نص رسالة عبد الملك التجموعتي: "ملاك الطلب في جواب أستاذ حلب".

أعلى من امتص ضروع الأدب وحلب، وأحلى الناس شعراً ونثراً أستاذ حلب، أبقاه الله ومدائحه على المصطفى تتلى وتقرأ، ومنحه اللدنية تفوت عدّاً وحصراً، سلام عليكم والرحمة والبركة[٣].

مقدمة: [٤]

أما بعد، فقد اتصل بنا مكتوبكم الأنور ملتمسين الإفادة بحقيقة العلم النبوي ومخبرين بأن ما أجبنا به حضرة النخبة العليا وبهجة هذه الدنيا الذكي النحرير، الناقد البصير، مولانا محمد بن مولانا إسماعيل أدام الله تأييده وتسديده من أنه ﷺ لم يفارق الدنيا حتى علم كل شيء استقر به، وأنكره طلبة فاس وبالغوا في التشنيع بين عوام الناس. فإنا لله وإنا إليه راجعون على ضياع العلم وفقدان أهله. هيهات ما هذا بعشك فادرجي. وإنني لم أنكر ذلك الخوض في أمثال هذه المسالك، وغالب ما يتعاطاه وشيوخه من قبل في الدرس: (ندب لقاضي الحاجة جلوس). ورحم الله الولي ابن خلدون حيث قال: لم نشاهد في هذه المائة الثامنة من سلك طريق النظار بفاس لأجل انقطاع ملكة التعليم عنهم، ولم يكن قبلهم من له عناية بالرحلة، بل قصرت همتهم واقتصرت على طريق تحصيل القراءة بالمطالعة ودرس التقريب، نعم أخذوا شيئاً من مبادئ العربية من أهل الأندلس القادمين عليهم من سبتة وغيرها باستدعاء ملوك بني مرين. قال: ولهذا لم يقصد بها من الفاسيين من يقرأ الكتاب كما هو متداول بين أهل الأندلس، مثل ابن أبي الربيع والشلوبي وغيرهما، لوجود ملكة النحو في نظر الأندلس بسبب رحلة علمائهم إلى تلقيه من أربابه من المشرق، كما ارتحل أعلامهم

---

(١) رسالة التجموعتي وجواب اليوسي كلاهما مخطوط، ولا أعلم أن أحداً طبعهما. وقد اعتمدت على ثلاث نسخ، تجد وصفها في لائحة المصادر والمراجع.

(٢) انظر في هذه القصة: تصدير الناسخ لرسالة "ملاك الطلب"، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩، وكذا: "أبو علي اليوسي"، لعبد الكبير العلوي، ص ٩٨.

(٣) التقدير: سلام على من امتص ضروع الأدب وحلبها... .

(٤) هذه العناوين ليست في الأصل، ووضعتها لتنظيم الرسالة.

إلى بغداد في تحصيل الفقه على الأبهري، وكذا يحيى بن يحيى عن مالك، وغير واحد، وكذا علوم الحديث كرحلة الإمام أبي بكر ابن العربي. انتهى الغرض منه. وسقناه حجة على كثير ممن يغلط منهم ويرى الفضل لنفسه بمجرد سكنى فاس، كالحاكم في مسألة العلم النبوي بتكفير القائل بعلم النبي ﷺ كل شيء على ما أخبرنا به الفرع الذكي مولانا محمد ابن السلطان أدامه الله، لما سألنا عن ذلك، فأجبناه بأن القول بعلم النبي ﷺ كل شيء صحيح، والتكفير بعيد وجهل من القائل به، وإني لأتقضى العجب من المنكرين لذلك والمستغربين له مع ورود الأحاديث الصحيحة بذلك.

الأحاديث الدالة على علم النبي كل شيء، حتى المفاتح الخمسة:

ففي الكبير للطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما عنه ﷺ: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أوتي نبيكم ﷺ علم كل شيء سوى هذه الخمس. وهو وإن لم يرفعه له حكم الرفع ضرورة أن مثل هذا لا يقال بالرأي. ولا شبهة أن الاستثناء ـ كما تحرر في أصول الفقه ـ معيار العموم، وعليه فعلمه ﷺ محيط بكل شيء سوى الخمس.

والخمس قد علمها النبي ﷺ بعدُ، على ما عليه المحققون، إذ هو ﷺ مولده من بعثته إلى أن قبضه الله في الترقيات والتجليات حسبما ورد: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، لا تفضلوا في الأنبياء. ثم ورد بعد أنه ﷺ علم الخمس، وأنه سيد ولد آدم ولا فخر، وسيد لواء الحمد ولا فخر. وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه، إلا تحت لوائه. ولا خلاف بين أهل السنة والجماعة أنه ﷺ أفضل من جميع الخلق على الإطلاق من مَلَك أو إنس أو غيرهما. وما يوجد من الخلاف فإنما هو في غيره ﷺ. والذي عليه عامة العلماء رضي الله عنهم جواز إطلاق أفضليته ﷺ على التعميم وعلى التعيين:

فمبلغُ العِلْم فيه أنَّه بشرٌ ... وأنه خيرُ خَلْق اللهِ كُلِّهِمِ

أقوال بعض العلماء:

وقال الحافظ الجلال السيوطي: أوتي ﷺ علم كل شيء إلا الخمس، وقيل: إنه أوتيها أيضاً ﷺ وأمر بكتمها، والخلاف جار في الروح. هذا لفظ البرنامج، وهو متداول بين صبيان الكُتاب. وفي شرح الصدور له أيضاً لما تكلم على الروح: علمها وأطْلَعه الله عليها، ولم يأمره أن يطلع عليها أمته. وهو نظيرُ الخلاف في علم الساعة. قال شيخ الإسلام أبو الأمداد الأجهوري: الأصح أنه ﷺ علمها. وقد اشتهر وانتشر أمره ﷺ بين أصحابه في الاطلاع على الغيوب، حتى كان بعضهم يقول: اسكت، فوالله لو لم يكن عندنا من يخبره لأخبرته حجارة البطحاء. وإليه يشير قول ابن رواحة رضي الله عنه وأرضاه:

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقناتٌ أنَّ ما قال واقع



وقول حسان رضي الله عنه:

نبي يرى ما لا يرى الناسُ حولَه ... ويتلو كتابَ اللهِ في كلِّ مَشْهد

فإن قال في يوم مقالَة غائبٍ ... فتصديقها في ضحوة اليوم أو غد

إذا تقرر هذا عُلم وثبت أنه ﷺ أحاط بكل شيء علماً فِضلاً من الله تعالى

فما يقال لفضل الله ذا بكم ... لك ذات العلوم من عالم الغيب

ومنها لآدم الأسماء

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

فتصبح إضافة علمه إلى الله تعالى باعتبار أنه منحة وفضل منه، وإليه ﷺ باعتبار أنه قائم به. قال العارف القرطبي ـ بعد كلام له في أن العلوم النظرية في حقه ﷺ ضرورية ـ ما نصه: ثم إن الله سبحانه أطلعه من العلوم بصفاته وأحكامه وأحوال العالم كله على ما لم يطلع عليه غيره. اهـ

من الكرامات الاطلاع على الغيوب.

وإنكار هذه الخصوصية ملزوم لإنكار سائر الخصوصيات، ضرورة تساويها، وإنكار مساوي الشيء إنكار لذلك الشيء، فالمنكر إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان. ويلزمه أيضاً بطريق أولى إنكار كرامات الصالحين، إذ هو ﷺ مستمدهم، وكلهم من رسول الله ملتمس. فإذا امتنع ذلك بزعم المنكر ـ وحاشا وكلا في حقه ﷺ ـ فبالأولى أن يمتنع في حق غيره. والقول بإنكار الكرامات اعتزال كما بين في محله. وقد ثبت عن كثير منهم الإخبار بالمغيبات وارتفاع الحجب بينهم وبينها، وكأني بالمنكرين لوَّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون، ويتمشدقون بأن لا تنازع في الاطلاع على بعض الغيب وعلمه، وإنما هو في الإحاطة والعلم بكل شيء، وجوابه في حق غير المصطفى ﷺ ـ إذ ذاك مفروغ منه في حقه ـ بما أسلفناه أنه إذا سلم في البعض لزمه بالضرورة في الكل، إذ لا فرق من حيث وصف الإمكان.

استطراد في إمكان رؤية النبي يقظة:

قال حجة الإسلام في «المنقذ من الضلال»: وهم ـ يعني أرباب القلوب ـ في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم ويقتبسون منهم فوائد. قال الحافظ الجلال: ثم ترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق. قال القونوي: السبب القوي في اجتماع الناس بعضهم مع بعض من حيث صورهم في هذا العالم، ومن حيث نفوسهم في العوالم العلوية يقظة ومناماً وجود المناسبة، وما به الاتحاد

وكثرة الاجتماع وقلته راجعة إلى قوة آثارها وضعفها، فإن المناسبة قد ثبتت، وهي ما ثبت ما بين اثنين من حيث الصفات والأفعال والأحوال، وقد ثبتت من حيث الأفعال فحسب، وإن انضم إلى ذلك علم الاشتراك في المرتبة كان أقوى، فإن قدر مع ذلك ثبوت المناسبة من حيث الذات فقد تم الأمر. فمن ثبتت المناسبة بينه وبين أرواح الكل من الأنبياء والأولياء اجتمع بهم متى شاء يقظة ومناماً. وقد كان شيخنا الأكمل متمكنا من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء والأولياء على ثلاثة أنحاء: إن شاء استبدل روحانيته في هذا العالم وأدركه متجسداً في صورة مثلية شبيهة بصورته الحسية العنصرية التي كانت في حياته الدنيوية لا ينخرم منها شيء. وإن شاء أحضره في نومه. وإن شاء انسلخ من هيكله واجتمع معه ولا يستبعد مثل هذا. إلى هنا كلامه .

وحكى ابن أبي جمرة ـ نفعنا الله به ـ في «بهجة النفوس» والفازري في «وثيق عرى الإيمان» واليافعي في «روض الرياحين»، وغيرهم، عن جماعة من الصالحين أنهم رأوا النبي ﷺ يقظة وسألوه عن تشوشهم من أشياء، فأخبرهم بوجوه تفريجها، فكان كذلك بلا زيد ولا نقص. قال: ومنكر ذلك إن كان صادقاً كمن يكذب بكرامات الأولياء، فلا بحث معه؛ لأنه مكذب لما أثبتته السنة، وإلا فهذه منها، إذ يكشف لهم بخرق العادة عن أشياء في العالم العلوي والسفلي. وحكيت رؤيته ﷺ كذلك عن أماثل، كالإمام سيدي عبد القادر الجيلاني، كما في «عوارف المعارف» والإمام أبي الحسن الشاذلي حكاه عنه التاج ابن عطاء الله، وكصاحبه أبي العباس المرسي، والإمام سيدي علي الوفا، والقطب القسطلاني .

قال الحافظ الجلال في «إنارة السالك» في إمكان رؤية النبي ﷺ والملائك ـ نقلاً عن الشيخ عبد القادر في بعض مؤلفاته ـ: كان للشيخ أبي العباس المرسي وصلة بالنبي ﷺ، إذا سلم على النبي ﷺ رد عليه السلام، ويجاوبه إذا تحدث معه. قال التاج ابن عطاء الله: قال رجل للشيخ أبي العباس المرسي صافحني بكفك هذه، فقد صافحت أبانا، فقال والله ما صافحت بكفي هذه إلا رسول الله ﷺ. وقد ثبت عنه رضي الله عنه أنه قال: لو حجب عني النبي ﷺ ما عددت نفسي مسلماً. وما يقال: ما بال ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة ولا عن من بعدهم، وأن السيدة البتول رضي الله عنها اشتد حزنها عليه ﷺ حتى ماتت كمداً بعده بستة أشهر، وبيتها مجاور لضريحه الشريف ﷺ، ولم تنقل رواية تلك المدة؛ فمنظور فيه بأن عدم النقل لا يدل على عدم الوقوع، فلا حجة في ذلك كما تقرر في محله، على أن المفضول قد يكرم بما لا يكرم به الفاضل. وقوله في قول العارف أبي العباس: لو حجب عني. هذا فيه تجوز، أي: لم يحجب عني حجاب غفلة، ولم يرد أنه لم يحجب عن الروح الشخصية طرفة عين، فقولك: مستحيل. يقال عليه: مادعوى الاستحالة في ذلك، وللقرطبي أيضاً في المسألة كلام فيه ما فيه .

وقال الحافظ ابن حجر لما ذكر كلام ابن أبي جمرة السابق: وهذا مشكل جدًا، ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة، ولأمكن أن يقال: الصحبة إلى يوم القيامة اهـ. ولا إشكال في المسألة وما ادعاه من الملازمة ممنوع ضرورة لاشتراط الرؤية في حياته ﷺ الأولى، فهي مناط التكليف في مسمى الصحابي، حتى اختلفوا فيمن رآه بعد موته وقبل دفنه هل يسمى صحابياً أم لا؟ لأن هذا أمر خارق للعادة، والأمور التي كذلك لا تغير لأجلها القواعد الكلية.

لم يُطلع النبي أمته على جميع ما يعلمه من الغيب:

وجملة الأمر أنه ﷺ كان معتنياً بالتبليغ، وله من العلوم الغيبية ما لديه، ويُعلم الأمة من ذلك بقدر الاستعداد، فإذا أراد أن يعلمهم بما لا عهد لهم به من تلك العلوم ضرب لهم مثلاً محسوساً في عالم الشهادة ليعرفوا بما شاهدوا ما لم يشهدوه. ولما سأله الصحابة رضي الله عنهم عن كيفية إتيان الوحي، وكان ذلك من المسائل العويصة الغريبة، مثَّله في الشاهد بالصوت الذي يسمع ولا يفهم منه شيء، فنبه على أن هيئة الخطاب الواردة في هيئة الجلال وهيئة الكبرياء تأخذ بمجامع القلوب، ويبقى من ثقل المقول ما لا علم له بالقول مع وجود ذلك، فإذا سرى عنه ذلك وجد القول المنزل مثبتاً ملقى في الروع واقعاً موقع المسموع. وعن بعض الصوفية في قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ما تتعلق به مصالح العبد وأمر بإطلاعهم عليه، فهو ﷺ منزه عن كتمانه، وأما ما خص به ﷺ من الغيب، ولم يتعلق به مصالح أمته فلابد عليه كتمانه.

علم النبي بالغيب خصوصية له ومعجزة:

وفي الصحيح عن أبي موسى رضي الله عنه أنه ﷺ قال: سلوني عما شئتم. وعن أنس رضي الله عنه أنه ﷺ كثَّر أن يقول سلوني. ولاشك أنه كالنص في التحدي. وهذه الخصوصية تلحق بالمعجزات، ويلزم منكرها ما يلزم منكر شيء من معجزاته ﷺ. وما في الكتاب العزيز من الآيات الدالات على أنه لا يعلم الغيب إلا الله، محمول على الغيب بغير واسطة. وأما الاطلاع على ذلك بإعلام الله تعالى فأمر متحقق؛ لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

معنى قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ .

قال التاج ابن عطاء الله: اطلاع العبد على غيب من غيوب الله بنور منه، بدليل: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، لا يستغرب، وهو معنى قوله: كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به. فمن كان الحق بصره اطّلاعُه على الغيب غير مستغرب. وقال بعض العارفين: قوله ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ لا ينافي قول المرسي في تفسيرها: إلا من



ارتضى من رسول أوصديق أو ولي، ولا زيادة على النص، فإن السلطان إذا قال: لا يدخل علي اليوم إلا الوزير، لا ينافي دخول أتباع الوزير معه. فكذلك الولي إذا أطلعه الله على غيبه لم يره بنور نفسه، وإنما رآه بنور متبوعه، ولم يكلفنا الله الإيمان بالغيب إلا وقد فتح لنا باب غيبه. وقد أشار حجة الإسلام في أماليه على الإحياء إلى هذا. ثم قال: ويحتمل أن يكون المراد بالرسول في الآية ملك الوحي الذي بواسطته تنكشف الغيوب، فيرسل للإعلام بمشافهة أو إلقاء في روع، أو ضرب مثل في يقظة أو منام ليطلع من أراد، وفائدة الإخبار الامتنان على من رزقه الله ذلك، وإعلامه بأنه لم يصل إليه بحوله وقوته، فلا يظهر على غيبه أحداً من عباده إلا على يد رسول من ملائكته أرسله لمن فرغ قلبه لانصباب أنهار العلوم الغيبية في أوديته حتى يصل إلى أسرار الغيب المكتوبة في خزائن الألوهية.

الأدلة من الحديث:

وفي الصحيح وسنن أبي داود عن أبي وائل عن حذيفة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، ما ترك شيئاً يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء. وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه، فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه. اهـ واللفظ لأبي داود.

وفي جامع الترمذي، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً صلاة العصر ثم قام خطيباً، فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبر به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه. وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه، فيما أخرجه الإمام أحمد والطبراني وغيرهما: قد تركنا رسول الله ﷺ وما تحرك طائر بجناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً. وفي الطبراني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله رفع لي الدنيا، فأنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة، كما أنظر إلى كفي هذه ».

خلاصة الرأي في هذه المسألة:

ولولا توالي الموانع الوقتية لأردفنا المسألة بتأليف يأتي على ما فيها تفصيلاً وإجمالاً. والقول الفصل فيها أنه ﷺ أوتي علم كل شيء قبل أن يفارق الدنيا. وقد وقفت على كلام في المسألة معزو لشيخ المالكية بالديار المصرية الشيخ إبراهيم اللقاني حاصله: أنه ﷺ لم يفارق الدنيا حتى علم كل شيء من الخمس والروح. فاتضح أن المنكر إما جاهل فيعلَّم، وإما ملحد فيُولم. ثم ليت شعري ما وجه الإنكار والاستغراب، فإن المسألة لم تخرج عن دائرة الإمكان، وكل ما كان سبيله كذلك، وأخبر الصادق المصدوق بوقوعه وجب المصير إليه اعتقاداً واعتماداً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل. وكتب العبد الضعيف عبد المالك بن محمد، وفقه الله بمنه. (انتهت رسالة ملاك الطلب).



نص رد اليوسي المعروف بـــ : "رسالة في العلم النبوي".

الحمد لله على ما ألهم وعلَّم، مما لولا فضله لم نكن نعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه الأكرم، وعلى آله وصحبه بدور الظلم.

مقدمة في كيفية تعرف المؤلف على الموضوع: [1]

أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى مولاه الغني به عمن سواه الحسن بن مسعود اليوسي: إنه قد بلغني منذ عامين أنه وقعت في حاضرة فاس حرسها الله مباحثة بين طلبة العلم في علم النبي ﷺ هل هو عام بحيث يعلم كل شيء أم لا؟ وأعلمني بها سلطان الوقت المظفر المؤيد أبو الوفاء مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف ـ أصلح الله له سعيه وسدد رأيه ـ في كتاب له إليَّ من سوس الأقصى، فأجبته عن فصول الكتاب، إلا عن هذه فأضربت عنها صفحاً لأمرين: أحدهما أنه لم يقصدني بالسؤال عنها، وإنما استطردها في ضمن كلام تعرض له آخر.

الاشتغال بهذه المسألة فضول لا ينبغي:

الثاني: إني رأيت الكلام فيها والبحث عنها من الفضول الذي ينبغي اتقاؤه، والإمساك عن أمثالها بعد عقد التعظيم هو سبيل النجاة إن شاء الله، فإنا كما أمرنا بالإمساك عن القرآن العظيم عند الاختلاف اتقاء ما ينجر إليه الكلام ـ وفي الحديث: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم عنه فقوموا». وأمرنا بالتفكر في آيات الله تعالى، ونهينا عن التفكر في الكنه ـ فكذلك ينبغي أن نعتقد تعظيم نبينا ﷺ، ونعتقد أنه أعطي من العلم والنور وسائر مراتب الكمالات اللائقة به ما لم يعطَ أحد من العالمين؛ لأنه خير الخلق أجمعين. ثم نكتفي بهذا وما أشبهه، ولا نطالب بالبحث عن إحصاء ما علم؛ فإنه لا تبلغه عقولنا وليس مطلوباً منا، فالاشتغال به فضول من ثلاثة أوجه: الأول: أنه غير مطلوب منا، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. الثاني: أنا لا نبلغ إلى تحقيقه، ولو اجتهد أحد في أن يحصي ما في قلب عشيره وجليسه من العلم لعجز، فكيف بما في قلب سيد البشر، ومن هو نور الوجود، وسائر الكائنات. وطلب ما لا يحصى وتكلف المحال ساقط، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

يخشى أن يوقع هذا الاشتغال في سوء أدب مع الباري أو مع نبيه:

الثالث: أن البحث والخلاف فيه ملزوم لأحد عثرتين عظيمتين ـ إلا من عصمه الله ـ فإن الباحث فيه إما أن يقع في استنزال صفوة الله من خلقه عن مكانته الرفيعة؛ وإما في سوء الأدب مع المولى العظيم في تشبيه خلقه به، وفي ذلك أيضاً سوء أدب مع النبي ﷺ، إذ لا

---

(١) عناوين الرسالة من عندي.



يحب ذلك ولا يرضاه لنفسه، فيكون على كل حال بحث على حتفه بظلفه، فرأيت الإمساك أولى.

تلخيص كلام التجموعتي:

ثم إني عثرت على كراسة منسوبة لأخينا الفقيه النبيه قاضي سجلماسة وأعمالها في الوقت أبي مروان عبد المالك بن محمد ـ هدانا الله وإياه سواء السبيل، وجنَّبنا وإياه كل مرمى وبيل ـ فرأيته تكلم على المسألة وصحح أنه ﷺ لم يفارق الدنيا حتى علم كل شيء، وذكر الخلاف في الخمس التي استأثر الله بها، ثم صحح أيضاً أنه علمها، فقدْ عَلِم كل شيء. هذا حاصل كلامه، فإذا هو كلام غير محرر، قد عضده بأدلة لا يقوم منها شيء على ساق، وبنصوص لا تسمن ولا تغني من جوع، وإذا هو قد وقع في ورطة لا مخلِّص له منها، وفي جهالة يُتضاحك منها. فرأيت حينئذٍ الكلام يتعين، ليتخلص الحق ويتبين، فأتيت بهذه الأحرف في غاية الاختصار من غير تعرض لما في الكراسة؛ لأن الحق إذا تبين فما سواه بالضرورة باطل، وحدُّه عن التحقيق عاطل.

ما المقصود بأن النبي يعلم كل شيء:

فأقول ـ وبالله القوة والحول ـ: إن القائل بتعميم علم لابد أن يقال له: ما تريد بهذا التعميم: الحقيقي بحيث يكون علم النبي ﷺ على حد علم الله تعالى بلا فرق من الإحاطة بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات والموجودات والمعدومات، الحاضرة والماضية والآتية، جملة وتفصيلاً؛ أم تعميماً إضافياً دون ذلك؟.

إن كان المراد التعميم الحقيقي:

فإن أردت الأول فقد وقعت في الورطة العظمى، وأشركت مع الله غيره، وذهبت تبني دارا فهدمت أمصاراً، ووقعت في نحو ما وقع فيه القائلون باتحاد اللاهوت والناسوت، فإن الله تعالى كما أنه لا تشبه ذاته الذوات لا تشبه صفاته الصفات، وكما أنه لا شريك له في ذاته لا شريك له في صفاته. والوحدانية نفي الكم المتصل والمنفصل في الذات والصفات، ومعلوم أن الكم المنفصل في الصفات هو أن يكون لغير الله تعالى علم كعلمه، أو قدرة كقدرته، وهذا واضح. فإن أجاب بأنه يندفع التماثل المحذور بأن العلم هنا حادث وهناك قديم، والعموم هنا جائز وهناك واجب، قلنا بعد تسليم ذلك: فليس كل جائز واقعاً. ومن ادعى وقوعه فعليه الدليل، فهاتنا دليلاً على وقوع هذا العموم على ما فسرنا.

الاستدلال بالعمومات لا يفيد هنا:

وما تجد في حديث أو أثر من علم كل شيء ـ على هذا الإجمال ـ لا يفيد شيئاً؛ لأن

العمومات تقع حقيقية وإضافية بحسب صنف أو نوع أو جنس متوسط أو سافل. وقد قال تعالى في حق نبيه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ثم قال له بعد ذلك: «عبداً لنا بمجمع البحرين هو أعلم منك». ولما لقي الخضر قال له: يا موسى إني على علم من الله لا تعلمه. وقال له: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا ما نقص هذا العصفور من البحر. وقال في كتاب نبينا ﷺ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ثم قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

الدليل العقلي على بطلان العموم الحقيقي:

ومن الدليل عقلاً على ما ذكرنا أن يقال: علم الحادث حادث متعلق القدرة الأزلية. ومعلوم أن المقدورات لا تتناهى لاستحالة التخصيص، لا بالأعداد ولا بالأزمان، فالعلوم الحادثة لا تتناهى، ولو علم كل شيء على ما فسرنا لتناهت بحيث لا يمكن خلق علم آخر وراء ما علم، ضرورة بطلان تحصيل الحاصل، فيلزم التخصيص والعجز، وهو باطل.

والأدلة من الكتاب والسنة:

وأما النقل فكثير كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا يعلمون من المعلومات إلا ما شاء أن يعلموه، وهذا عام، ومن ادعى التخصيص فعليه الدليل. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[السجدة: ١٧]. فهذا القدر من التعميم حكمت الآية أنه لم تطلع عليه نفس من النفوس على العموم، وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤]، فالزيادة ممكنة أبداً وما يزاد لم يعلم قبل. وقال ﷺ في نفسه يوم الناقة: لا أعلم إلا ما علمني ربي. وهو إن احتمل العموم نظراً إلى العبارة مع التعامي عن الفحوى والسياق فمع الاحتمال يصار إلى الأصل، وهو عدم الحصول، وذلك ما قلناه. وفي حديث آخر: كل يوم لا أزداد فيه علماً لا بورك لي في شمس ذلك اليوم. إلى غير ذلك من الأدلة. وقد سمعت ما وقع في حق نبينا موسى عليه السلام. والأنبياء كلهم في عين الكمال يخوضون في بحار العلوم التي لا تنزفها الدلاء، وتفاوت الدرجات لا يقضي بالتمايز الحقيقي، والزائد على القدر المتناهي بقدر متناهٍ متناهٍ.

إن كان المراد التعميم الإضافي:

وإن أراد الثاني فنقول: ما تريد بهذا البعض الذي زعمته؟ فإن أردت بعضاً مبهماً فقد قلبت الجزئية كلية، وناهيك بذلك غلطاً، وإن أردت بعضاً مخصوصاً فبيِّنه ليستفاد الحكم على الكلية بحسبه، وقل ـ مثلاً ـ: يعلم كل شيء من الشرعيات أو من العقليات أو من



العاديات أو من الحكميات، أو علم كل شيء يطلب علمه من الكمالات الإلهية أو نحو هذا من التقديرات، ليعلم الحكم ويحصل له فائدة، وإلا فهو كلام مجهول لا تحصل منه فائدة. فمن العجب العجيب المباحثات والاستدلالات والأسئلة والأجوبة في حكم لم يتصور بعد حتى لا يحصل في شيء منها فائدة يحسن السكوت عليها. فإنا لله وإنا إليه راجعون على فقد العقول بعد فقد العلم، وذهاب العقل هو المتكفل بكل ضلال، إذ لا طماعية في المشروط عند عدم شرطه، نسأل الله العصمة.

ما يجب علينا اعتقاده فيما يتعلق بفضل الأنبياء:

فإن قيل: على أي شيء المعول في هذه النازلة حيث وقع التعرض لها؟ قلت: ما صُدر به فيما سطرنا هو المعول عليه غير أنا اختصرناه وسنبسطه إن شاء الله بعض البسط. فنقول: من الواجب أن يعلم أن وصف صفوة الخلق من الأنبياء والمرسلين فيما يتحلون به من العلوم والمعارف وسائر الكمالات يكون على ثلاثة أضرب:

الأول: أن يسلك بهم مسلك العامة من الخلق، وأن ليس لهم من العلم والمعرفة والنور ونحو ذلك إلا ما لسائر الناس، فهذا استخف بهم وهضمهم عن خصوصيتهم التي منَّ الله بها عليهم، وحطهم عن الرتبة الشريفة التي أحلهم الله تعالى بها. وهذا لا يجوز.

الثاني: أن يخرجوا عن البشر ويشبهوا بالإله الحق، شبه ما وقع للنصارى أهلكهم الله. فهذا أيضاً لا يجوز. دع ما ادعته النصارى في نبيهم.

الثالث: التوسط، وخير الأمور أوسطها بأن يعلم أنهم بشر، ولكن ليسوا كالبشر بما خصهم الله تعالى به من المنح والمنن من غير أن يكونوا بذلك آلهة ولا أمثال الآلهة. وهذا هو الحق في نفس الأمر، فإن الرب سبحانه منفرد بملكه وعظمته وأوصافه وأسمائه، لا شبيه له ولا مثيل ولا عون ولا وزير، وله سبحانه أن يفاوت بين عباده ويفضل بعضهم على بعض عموماً وخصوصاً. قال تعالى في الأول: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وقال في الثاني: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[البقرة: ٢٥٣]. فإذا اعتقدنا في الأنبياء والرسل أن الله تعالى فضلهم على سائر البشر، وأعلى مقاماتهم على كل مقام، وقرَّب منازلهم على كل منزلة، فقد تأدبنا معهم إذ رفعناهم عن عوام الخلق قياماً بحق الاختصاص. ولا بد أن نتأدب مع الله تعالى، فلا نثبت لهم شبهاً به قياماً بحق التوحيد. وكذا إن اعتقدت في بعضهم ارتفاعاً على من سواه منهم فلا بأس به قياماً بحق الاختصاص كما أثبته المولى سبحانه.

حدود افضيلة نبينا على سائر الأنبياء:

إذا عُلم هذا، فنقول نبينا ومولانا محمد ﷺ، قد فضله الله تعالى على سائر الرسل، وقيل: إنه المعني بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. والرسل في الجملة أفضل

من غيرهم. فنبينا ﷺ أفضل الخلق قاطبة. فنعتقد بهذا بمقتضى التفضيل العام أن الله تعالى أعطى نبينا ﷺ من شفوف المنزلة وقرب المكانة وشريف الحظوة ما لم يعط أحداً من خلقه، وكذلك نعتقد أنه أعطاه من العلوم الشرعية والإشهادية والمعارف الربانية ما لم يعط أحداً غيره. وذلك كما نقله صاحب هذه الكراسة عن الإمام القرطبي أن الله سبحانه أطلعه من العلم بصفاته وأحكامه وأحوال العالم كلها ما لم يطلع غيره عليه. فهذا كلام حق ليس في الكراسة أنصع منه. وقد جاء به صاحبه استدلالاً لإثبات الخصوصية عن الخلق والشفوف عنهم، ليثبت له بذلك ما بزعمه من الإحاطة. وما أبعد ما بين الدليل والمدلول، فإن الخصوصية تثبت بمقدار يزداد، وإن لم يحصل عموماً، وهذا كما لو قيل: زيد يعرف رجال بني زهرة كلهم، وعمرو إنما يعرف عشرة منهم، ثم قيل: وخالد يعرف منهم أكثر من عمرو، فلا يقتضي ذلك أن يكون كزيد. فلا إشكال في كون نبينا ﷺ قد فضله الله على الخلق بالعلم بمقتضى تفضيله في الدرجة مع أن التفضيل بالحكم[1]. وفي هذا من البحث ما لا يليق أن يقع إلا بين أهله، فلنمسك العنان.

العلوم النبوية على وجه التفصيل:

وأما الكلية فإن شئنا أجريناها مع إرادة التقيد بجنس أو نوع أو صنف كما مر، فنقول: إنه يعلم جميع ما ينبغي لمثله، أو كل ما تبلغه عقول البشر، أو كل ما لم يستأثر الله بعلمه، أو نحو هذا، وكله صحيح. ونعتقد أن كل علم ليس فيه نقص غير لائق به في حاله، فهو حاصل له ﷺ؛ لأنه ﷺ عين الكمال. وإنما قيدنا بالوصف؛ لأن النقص المعتبر بالقياس إلى الألوهية نقص في العبد، ولا يمكن جبره، فإنه كذلك، فافهم.

وهذا بحسب الإجمال، وأما بحسب التفصيل فلنا أن نقول: العلوم الشرعية أصلاً وفرعاً، ظاهراً وباطناً، كلها حاصلة له، ولا يصح أن لا تحصل له ﷺ؛ لأنه مرجع الخلق فيها. وهذا أيضاً لا يخلو من إجمال، إلا أن ما كان منها ضرورياً للفطرة وللقوام الديني وإصلاح الحالة فهو حاصل دفعة، وما وراءه كان بقدر الحاجة والسؤال، ولم يمت حتى علم جميع ما نزل بالفعل.

وأما ما سينزل إلى قيام الساعة فيمكن أن يقال: علِمَه أيضاً، إما بعلم أصوله من كتاب الله تعالى كما هو إشارة قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة: ٣]، أو بالوحي بذلك. والاحتمال الواقع في الكتاب الذي استدعى ﷺ أن يكتبه لهم في مرضه، وأن المراد به نوازل

---

(١) كذا بالنسخ الثلاثة، وظني أن هذه بداية جملة لمبحث استطرادي، حاول أن يبدأه ثم انصرف عنه، ولهذا قال: فلنمسك العنان.

الأحكام، يصح على كل من الاعتبارين. ويمكن أن يتوقف في ذلك؛ لأن عدم الاطلاع على النازلة حتى يسأل أو يوحى إليه فيها ليس فيه غضاضة عليه، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم : ٤]. وهذا كله لا يخلو عن فضول واشتغال بما لا يعني، وتطلب ما لا يدرك ولا يلزم، ولا يوقف بالتحقيق عليه، فرحم الله امرءاً عرف قدره، وكذا النظر في تفاصيل سوى هذا من الحكم والمصالح الدنيوية وأنه لا نقص في عدم علم بعض ذلك، كما قال ﷺ في قصة تأبير النخل: أنتم أعلم بشؤون دنياكم. وكذا في عظمته تعالى وجلاله وملكوت أرضه وسمائه.

وصية اليوسي فيما ينبغي اعتقاده في هذه المسألة:

فالاشتغال بهذا كله إثباتاً ونفياً فضول يسقط المشتغل به في العشاء على سرحان[1]، وكذا البحث في خصوص الخمس، فعليك بالتعظيم جملة، واعتقاد أن الله تعالى أعطى نبيه المصطفى ﷺ من العلوم الشرعية، والمعارف اللدنية، والحكم النظرية، والمصالح الدينية، والمحاسن الأدبية، واللطائف الملكوتية ما يغرف من أدنى بحره علوم الأولين والآخرين، ويلتمس منه كل بحر في علمه، وذو فكر في نظره، وذو صنعة في صنعته.

وكلُّهم من رسول الله ملتمسٌ غرفاً من البحر أو رشفاً من الدِّيم

وقف هاهنا وراجع "الشفا"، ففيه الغنيمة والشفاء، ودع عنك الجدال والمراء لعلك تتنور بصيرتك وتسلم عقيدتك. والله الموفق، آمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين. انتهى بحمد الله.

خلاصة رد التجموعتي المسمى: "خلع الأطمار البوسية بدفع الأسطار اليوسية".

بيّن رد اليوسي أن في رسالة "ملاك الطلب" مواضع مجملة تحتاج إلى بيان وتحرير. وقد كان هذا الرد مناسبة للتجموعتي ليوضح جيداً رأيه في المسألة. وهذا ما قام به في كتاب "خلع الأطمار البوسية"[2].

وقد رأيت أن أقدم للقارئ خلاصة لهذا الكتاب المخطوط، بعد تجريده من الاستطراد والجمل الانفعالية الغضبية، كقوله: و"قوله ـ أي اليوسي ـ: أعلمني بها سلطان الوقت،

(١) "يسقط المشتغل به في العشاء على سرحان". هذا مثل أصله أن رجلاً خرج يبغي العشاء فلقي أسداً فأكله. ثم صار يضرب مثلاً لمن أراد شيئاً فلقي شيئاً آخر يضره. وسرحان من أسماء الأسد. انظر لسان العرب، مادة سرح.

(٢) الأطمار جمع الطِّمر، وهو الثوب الخلق، أو البالي. "والبوسية" نسبة إلى بَسَّ، وهي هنا بمعنى فتَّتَ. فالمعنى: الثياب البالية التي تفتت. والأسطار جمع سطر، و"اليوسية" نسبة لليوسي. انظر: لسان العرب، مادتا: طمر، وبس.



هذه ثرثرة بربرية لا طائل تحتها "[1].

فإليك البيان، وهو من كلام التجموعتي بالحرف أو بالمعنى، وهو يغنيك عن الرجوع إلى الأصل.

ليس الكلام في هذه المسالة من الفضول:

فقد ألف العلماء في خَلق النبي ﷺ وخُلقه، ولذا يجوز التفكر في كمالاته وخصوصياته، وعلم النبي بالغيب أمر أثبته لنفسه مخبراً عن ربه [2]، وكل من يقتدى به من أهل العلم والنور أبقى هذا الإخبار على ظاهره، فليس تصديق النبي والعناية بما جاء به من باب: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[3].

المقصود بقولنا: إن النبي الكريم يعلم كل شيء:

إن المراد بهذا القول: التعميم الحقيقي[4]. فعلمه ﷺ يتعلق أيضاً بغير المتناهي، ولذلك فهو غير متناه[5].

وأما علمه ﷺ بما لا يكون أن لو كان كيف يكون، فمما لا تردد فيه أيضاً. وهو ثابت بحديث: «لو عاش إبراهيم ـ أي ابن النبي ـ لكان نبياً» وحديث: «لو قال سليمان بن داود: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون». قال التجموعتي: "الإرادة القديمة خصصت إبراهيم عليه السلام بعدم العيش، وخصصته مع ذلك على تقدير العيش بالنبوة"[6].

ولا يمكننا أن نحيط بهذا العلم النبوي الواسع، ولا أن نحصي وجوهه ولا أنواعه، وإنما نبحث فقط في ثبوت هذه الخصوصية النبوية، وهي الاطلاع على جميع الغيب[7].

الفرق بين علم نبينا وعلم غيره من الأنبياء:

قال القاضي أبو مروان: "قيام دليل التخصيص في عموم موسى عليه الصلاة والسلام لا يلزم منه التخصيص في عموم المصطفى عليه الصلاة والسلام، لتفاوت المرتبتين وبعد ما بين المنزلتين... والدعاة إلى الله تعالى وإن تعددوا فهم جزئيات من كليته ﷺ، ولذلك قال

---

(١) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٧٦. واليوسي بربري من منطقة سوس جنوب المغرب، وعاصمتها اليوم أكادير.

(٢) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٨١ ـ ٣٨٢.

(٣) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٨٣.

(٤) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٩١ ـ ٣٩٣.

(٥) خلع الأطمار البوسية، ص ٤١٢.

(٦) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٧٩.

(٧) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٨٤.

بعض العارفين: لا داعي حقيقي من الابتداء إلى الانتهاء إلا هذه الحقيقة الأحمدية التي هي أصل جميع الأنبياء، وهم كالأجزاء والتفاصيل لحقيقته ﷺ"[1].

علم النبي بالغيب كله كان في آخر حياته:

فهذا ما رجحه التجموعتي، قال: "قال أهل العلم: حصلت له هذه الفضيلة في آخر أحواله بعد انقطاع إيحاء جبريل عنه عليه السلام، وأنكر بعضهم هذه الزيادة. ثم اختلف القائلون بذلك، فطائفة منهم قالت: هذه الحالة حصلت له ﷺ، أعني حالة العلم بكل شيء، إلا أنها غير دائمة. وقالت طائفة: هي نعمة من الله اختصه بها، والكريم لا يقطع عوائده، كما أنعم الله فيما مضى كذلك ينعم فيما بقي. ثم أورد سؤال عن احتياجه ﷺ إلى الوحي، بمعنى أنه إذا كان ﷺ بحالة العلم بكل شيء، فما فائدة الوحي، وهل ذلك إلا من تحصيل الحاصل؟ فكان الجواب: أن ذلك مقتضى العبودية وإظهار الافتقار من لوازمها. هذا كلامهم باللفظ"[2].

أهم أدلة القاضي التجموعتي:

للقاضي دليلان على دعواه علم النبي لجميع الغيب: الأول عقلي، وهو الإمكان. والثاني نقلي، وهو ظواهر بعض الأحاديث والأخبار.

دليل الإمكان:

يقول: مادمنا نتفق وإياكم على أن النبي ﷺ يعلم بعض المغيبات، يبقى النزاع في عموم هذا العلم هل وقع أم لا؟ لكن إذا تحقق علم البعض جاز تحقق علم الكل، بجامع الإمكان. فهذا لا استحالة فيه ولا منع، بل هو في نفسه ممكن[3].

الدليل من الحديث:

وهذه الأحاديث نوعان:

١ ـ أخبار آحاد تدل بمجموعها على علم النبي الكريم بكل غيب، قال: "قد تقرر من الأحاديث الدالة على عموم علمه ﷺ ما بلغ القدر المشترك فيه حد التواتر، وأفاد القطع بنسبة معناه إليه، وإن كانت تفاصيله آحاداً..." وقد جاء في الرسالة الأولى بعضها، مثل حديث أبي ذر: تركنا رسول الله ولا طائر يطير بجناحيه إلا وذكر لنا منه علماً...[4].

---

(١) خلع الأطمار البوسية، ص ٤٠٧، ٤١٠.
(٢) خلع الأطمار البوسية، ص ٤٠٣، وانظر: ص ٣٠٨.
(٣) انظر: خلع الأطمار البوسية، ص ٣٧٨.
(٤) خلع الأطمار البوسية، ص ٤٠١ ـ ٤٠٢.

٢ ـ ثم قال: "وهذا على سبيل الاستئناس والتقريب، وإلا فالحجة الكبرى حديث: «أوتيت علم كل شيء، وتجلى لي علم كل شيء» بصيغتي الجزم بوقوع ذلك وحصوله.." [(١)].

عموم هذه الأحاديث:

وهذه الأحاديث الأخيرة عامة، والدلالة فيها ثابتة من وجوه:

١ ـ إن لفظة "كل" في حديث: «أوتيت علم كل شيء...» من ألفاظ العموم والاستغراق[(٢)].

٢ ـ وللفظة الشيء أربع إطلاقات في اللغة:

أ ـ الممكن: الموجود والمعدوم.

ب ـ الممكن: الموجود في الخارج.

ج ـ الموجود مطلقاً، عند مثبتي الوجود الذهني.

د ـ ما يصح أن يعلم ويخبر عنه من موجود أو معدوم، واجباً كان أو جائزاً أو مستحيلاً[(٣)].

قال القاضي التجموعتي: "الحاصل من ذلك كله أنه لا خلاف في إطلاقه على الموجود والمعدوم مجازاً، وهو قول أهل السنة، أو حقيقةً، وهو قول المعتزلة في المعدوم والممكن. والخلاف في هذه المسألة راجع للإطلاق فقط، والمقصود من الأحاديث الإطلاق الرابع، فإنه الموافق لحاله ﷺ"[(٤)].

لا يعدل عن عموم النص:

ولا ينبغي العدول عن عموم هذه النصوص إلى المجاز، ولا عن معناها في الإحاطة والشمول، فإن ألفاظ الشارع تفهم على ظاهرها، ولا يجوز قصرها على صفة أو نوع... ما لم يمنع من ذلك مانع، ولا مانع هنا[(٥)].

وفائدة هذه الأحاديث لا تتحقق إلا بإرادة التعميم الحقيقي؛ لأن المقام مقام إظهار ما اختص به ﷺ ربه. ولو كان المراد علم بعض الغيب فقط ما امتاز نبينا في ذلك بفضيلة على غيره من الأنبياء والملائكة وبعض الصالحين، ولم يكن له هذا العلم خصوصية[(٦)].

---

(١) خلع الأطمار البوسية، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٢) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٣) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(٤) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٩٦.

(٥) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤، ٤٠٥.

(٦) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٩١، ٣٩٣، ٤٠٥، ٤٠٦.

الفرق بين العلم الإلهي والعلم النبوي:

وهذا أهم إشكال يرِد على رأي التجموعتي وسائر من ذهب مذهبه، إذ فيم يختلف علم الباري عن علم نبيه، إذا كان محمد ﷺ يعلم جميع الغيب والشهادة، بلا استثناء؟

يقول عبد الملك التجموعتي: هو ليس كعلم الله؛ لأن التباين في اللوازم دليل على التباين في الملزومات، ولازم علم الله تعالى القدم، ومن لازم علمه ﷺ - وكل حادث - الحدوث[1]، وهذا تفصيل الفرق:

١ - كمالات النبي وخصوصياته - ومنها علمه - مخلوقة لله تعالى، أما صفات الله سبحانه فغير مخلوقة، فلا مماثلة[2].

٢ - الباري هو الذي أعطى لنبيه علم كل شيء ووهبه له، تفضلاً منه وتكرماً، و "جلت الذات القديمة أن تكون لها صفة حادثة، كما استحال أن تكون للذات المحدثة صفة قديمة"[3].

٣ - علم الله تعالى قديم أزلي، وعلم نبيه مجعول حادث[4].

فلا خلاف - إذن - في كفر من اعتبر أن علم النبي هو علم الباري بالكنه والحقيقة، لكن الاشتراك في الإطلاق اللفظي لا يلزم منه الاشتراك بالكنه والحقيقة، ككلامنا النفسي ليس بحرف ولا صوت، ولا يلزم من ذلك مساواته بكلام الله تعالى، ومن هذا الباب أيضاً تسمية الباري لنبيه بالرؤوف الرحيم[5].

ويكرر القاضي هذا الفرق بين العلمين، ولا يكاد يذكر غيره: إن علم الله سبحانه قديم، وعلم نبيه مجعول حادث[6].

حول استدلال اليوسي ببعض النصوص والعمومات:

يسلك التجموعتي أسلوباً فريداً في الرد على هذا الاستدلال، يجعل من الصعب الاحتجاج عليه بها.

فإذا استدل اليوسي - في بيان أن علم الباري أعم من علم المصطفى - بقوله تعالى:

---

(١) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٩١ - ٣٩٢.

(٢) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٨٢.

(٣) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٨٧.

(٤) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٥) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٩١ - ٣٩٢.

(٦) خلع الأطمار البوسية، ص ٣٩٩ إلى ٤٠١.



﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، من آية الكرسي، قال القاضي: قد أخبرنا النبي ﷺ بأن الرب شاء ذلك، فالإحاطة داخلة تحت المشيئة... وهكذا في سائر الآيات التي فيها استثناء، كقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧] (١).

وحين ذكر اليوسي آية: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ونحوها، رد عليه القاضي بأن الاستدلال بهذه الآية ونظائرها لا يصح؛ لأن الآية مكية، وأنا أقول: إن حصول العلم للنبي على وجه الإحاطة والعموم إنما كان في آخر حياته بالمدينة. وكذلك يجيب عن الأحاديث، كقصة تأبير النخل... كل ذلك كان قبل أن تحصل للنبي حالة العلم الشامل في آخر أمره ﷺ(٢).

هذا ملخص كتاب التجموعتي. ولي رأي في هذا الخلاف بينه وبين اليوسي، هذا بسطه:

تحليل عام للموضوع:

هذا الرأي الذي قدمه القاضي التجموعتي في كتابه لم يكن شيئاً تفرد به، فقد سبقه إليه خلق، والكل يعرف بيت البردة المشهور في مدح النبي الكريم:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

لكن الذي سبق إليه التجموعتي هو ـ فيما يظهر ـ إفراد هذه المسألة بتأليف، وهذا ما صرح به بنفسه، قال رحمه الله تعالى:

"الكلام على هذه المسألة مما لم يسبقني فيه أحد ـ لله المنة ـ إلى التحرير، ولكن لا يظهر ذلك إلا لأهل البصيرة والتنوير"(٣).

ثم إن هذا القول انتشر بين المسلمين، خصوصاً في القرون الأخيرة، ووقع في بعض كتبهم(٤). قال الشيخ عبد العظيم آبادي، في حديث حذيفة بن اليمان: قام فينا رسول الله فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه... الحديث(٥)، قال:

"قد استدل بهذا الحديث بعض أهل البدع والهوى على إثبات الغيب لرسول الله ﷺ. وهذا

---

(١) خلع الأطمار البوسية، ص ٤١٤.

(٢) خلع الأطمار البوسية، ص ٤١١، ٤١٥، ٤٤١.

(٣) مخطوط عبد الملك التجموعتي: خلع الأطمار البوسية عن الأسطار اليوسية، ص ٣٨٨.

(٤) راجع مثلاً: حاشية الشيخ إبراهيم الباجوري على شرح خالد بن عبد الله الأزهري على بردة المديح للبوصيري، ص ٨١.

(٥) أخرجه البخاري: ٦٦٠٤، ومسلم: ٢٨٩١ (٢٣)، وأحمد: ٢٣٢٧٤، وهو أيضاً في باب الفتن ودلائلها من سنن أبي داود.



جهل من هؤلاء؛ لأن علم الغيب مختص بالله تعالى، وما وقع منه على لسان رسول الله ﷺ فمن الله بوحي، والشاهد لهذا قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧] أي ليكون معجزة له. فكل ما ورد عنه ﷺ من الأنباء المنبئة عن الغيوب ليس هو إلا من إعلام الله له به إعلاماً على ثبوت نبوته، ودليلاً على صدق رسالته ﷺ "[١].

ولا يزال هذا الرأي حيًّا في عصرنا هذا، وقد سئل الشيخ ابن باز ـ رحمه الله تعالى ـ هل يعلم النبي الكريم الغيب؟ فأجاب: "أما الغيب فلا يعلمه إلا الله وحده، وإنما يعلم الرسول ﷺ وغيره من الخلف من الغيب ما أطلعهم الله عليه، مما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة بيانُه من أمور الجنة والنار وأحوال القيامة وغير ذلك، مما دل عليه القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة كأخبار الدجال وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، ونزول المسيح عيسى بن مريم في آخر الزمان وأشباه ذلك"[٢].

وليس هذا القول شيئاً اختص به بعض الصوفية، كما قد يبدو في الظاهر[٣]، بل هو موجود في طوائف مختلفة من أهل العلم والدين والمسلمين عامة.

في اطلاع النبي المصطفى على غيب كثير، وأن ذلك معدود ضمن معجزاته:

لا شك أنه كان للرسول الكريم اطلاع واسع على الغيوب، وكل الأدلة التي ذكرها القاضي التجموعتي تثبت هذا الأمر. وقد خصص القاضي عياض لهذا الأمر فصلاً عنوانه هكذا: (ومن ذلك ـ أي كرامات النبي ـ ما أطلع عليه من الغيوب، وما يكون)، ثم قال: "والأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر..."[٤] وذكر أخبارا كثيرة في التمثيل لذلك[٥].

وأجمع ما رأيت في هذا الباب بحثٌ للماجستير أعده السيد محمد الندوي وعنوانه: "نبوءات الرسول، ما تحقق منها وما يتحقق". جعل الباب الأول عن النبوءات التي تعلقت بعصر الصحابة وتحققت فيه، والباب الثاني عن النبوءات الخاصة بعصر التابعين فمن

---

(١) عون المعبود، ١١/ ٣٠٥. والشيخ جد متأخر، ولد سنة ١٢٧٣هـ، وهو محمد شمس الحق عبد العظيم آبادي أبو الطيب، محدث من الهند اشتهر بشرحه هذا على سنن أبي داود. عن معجم المؤلفين، ١٠/ ٧٢. وكذلك ذكر رشيد رضا هذا القول ورده في تفسير المنار، ٤/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٢) مجموع مقالات وفتاوى متنوعة، ٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٢.

(٣) انظر: اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر، ٢/ ١٧، ٣٠.

(٤) الشفا، ١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

(٥) راجع: الشفا، ١/ ٣٣٦ إلى ٣٤٦.

بعدهم، إلى اليوم. وكان الباب الثالث عن النبوءات التي لم تتحقق بعد، فهي من المستقبل القادم[1].

وقد جعل أكثر العلماء إخبارات النبي ﷺ بالغيوب ـ المستقبلة خاصة ـ نوعاً من أنواع معجزاته، ووجهاً من وجوه إعجاز الكتاب الذي جاء به[2].

وذلك أن العمدة في إثبات نبوة محمد ﷺ هي ـ بلا شك ـ القرآن الكريم[3]. ثم قال الجمهور: إن لنبينا معجزات أخرى، كتكلم الجماد، ونبع الماء من أصابعه، وانشقاق القمر ونحو ذلك.

ومن هذه المعجزات ـ غير القرآن ـ إخبار النبي ﷺ بغيوب كثيرة[4].

اعتراض وجوابه:

واعترض بعضهم على عد هذا الإخبار بالغيبيات من جملة معجزات النبي ﷺ. وقالوا:

١ ـ إن هذا الإخبار يجوز أن يقع كرامة لولي، إلا أن يتكرر كثيراً إلى حد أن يصير معجزاً. وهذا الحد غير مضبوط ولا معلوم.

٢ ـ إن الإخبار بالمغيبات يقع أيضاً من المنجمين والكهنة ومعبري الرؤيا، وليس هذا بمعجز اتفاقاً.

٣ ـ إنه يلزم حينئذ أن تكون الآيات التي ليس فيها إخبارات غيبية غير معجزة[5].

---

(١) النقص الأساس في البحث القيم للسيد محمد عبد الرحمان الندوي هو أنه لم يمهد له بدراسة ـ ولو مختصرة ـ عن العلم النبوي وطبيعته وعلاقته بالغيب، وكذا عن إخبار النبي بالغيوب، وهل ذلك من معجزاته؟ وكيف؟ واقتصر الباحث على جمع هذه الإخبارات النبوية من كتب الحديث وعلى تخريجها، وبيان زمان تحققها بالنسبة للنبوءات التي تحققت. فالكتاب من هذه الناحية واف بالموضوع. وأحسب أن هذا الفصل الرابع ـ في كتابي هذا ـ يسد هذا النقص في بحث السيد الندوي.

(٢) انظر: المحصل للرازي، ص ٣٠٢. شرح المواقف، للجرجاني، ٣/ ٣٨١. عارضة الأحوذي، ١٢/ ٦٨، تفسير سورة الروم.

ملاحظة هامة: هنا إعجازان: ١ ـ الإعجاز بالقرآن، ٢ ـ الإعجاز بغير القرآن. والإخبار عن الغيبيات تعلق بنوعي الإعجاز كليهما، ففي الأول رأينا ـ في المبحث الأول من هذا الفصل ـ أن أكثر العلماء قالوا: إن الإخبار بالغيب من وجوه الإعجاز في الكتاب الكريم. والإعجاز الثاني أنواع، منها الإخبار بالغيوب في غير القرآن، وهذا هو الذي أدرسه هنا.

(٣) المواقف، للإيجي، ٣/ ٣٧٦.

(٤) المواقف، وشرحها للجرجاني، ٣/ ٣٧٨، ٣٩١، ٤٠٩. وانظر تقسيم أحمد بن الزبير لهذه الإخبارات في كتابه: الزمان والمكان، ص ٩٥.

(٥) راجع: المواقف، ٣/ ٣٧٩. المحصل، للرازي، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.



وبسبب هذه الاعتراضات ونحوها قال الرازي: "إن المعتمد في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ظهور القرآن عليه، وسائر الوجوه إنما يذكر للتتمة والتكميل"[١].

والجواب على الاعتراض الثالث واضح، وذلك لأن العلماء لم يقولوا إن الإخبار بالغيب هو الوجه الوحيد لإعجاز القرآن، فقد رأينا ـ في المبحث الأول ـ أن الناحية اللغوية ـ والنظم خاصة ـ هو الوجه الأول لإعجاز القرآن. وغاية ما يذكره العلماء أن الإخبار بالغيب هو أحد وجوه إعجاز القرآن على الجملة، ونوع من أنواع معجزات النبي ﷺ.

ومن جهة أخرى يكفي في إثبات النبوة اشتمال القرآن على ما هو خارق للعادة، ولا يضرنا عدم اشتمال بعضه عليه[٢].

وقال الجرجاني ـ جواباً عن الاعتراض الأول ـ : إن حدَّ المعجز من الإخبار بالغيبيات ليس مجهولاً كما ذكرتم، بل هو معلوم تقضي به العادة. وهو أن يكثر كثرة خارجة عن المعتاد المتعارف فيما بين أهل العرف. ولا شك أنه قد بلغ الإخبار بالغيب في القرآن ذلك المبلغ الخارق للعادة، ولسنا الآن لتفصيله، إذ يكفينا العلم به إجماعاً[٣].

وهذا نفسه الجواب عن الاعتراض الثاني[٤]، فإن إصابة العرافين والمنجمين ونحوهم قليلة، بخلاف إخبارات النبي فهي كثيرة تعد بالعشرات، كما في كتب دلائل النبوة، ويكفيك أن ترجع لكتاب "نبوءات الرسول" لعبد الرحمن الندوي، لتقف على هذه الحقيقة، فقد ضمن كتابه ١٨٨ نبوءة.

ولذلك قال العضد الإيجي والجرجاني في الإخبارات النبوية الكثيرة بالغيب: "كل واحدة من هذه المعجزات المغايرة للقرآن وإن لم تتواتر، فالقدر المشترك بينها وهو ثبوت المعجزة متواتر بلا شبهة، كشجاعة علي وسخاوة حاتم، وهو كاف لنا في إثبات النبوة"[٥].

في ترجيح مذهب الجمهور:

وعندي دليل يستأنس به في اعتبار الإخبار بالغيب من جملة معجزات النبي ﷺ:

إن من صور الإعجاز القرآني ـ كما سبق ـ الإخبار بالغيوب، خصوصاً المستقبلة، ولهذا

---

(١) المحصل، ص ٣١٠.

(٢) شرح المواقف، ٣/ ٤٠٢.

(٣) شرح المواقف، ٣/ ٤٠١.

(٤) شرح المواقف، ٣/ ٤٠٢.

(٥) المواقف وشرحها، ٣/ ٣٨٦، ٤٠٩. وكذلك قال نصير الدين الطوسي في اختصاره وتعليقه على محصل الرازي المسمى: تلخيص المحصل، ص ٣٠٤.

حكمة، وهي أن الأمل في معرفة المستقبل والحرص على ذلك. من أشد طموحات البشر، منذ ظهروا على هذه الأرض إلى نهاية الدنيا، يستوي في ذلك الإنسان البدائي والإنسان المعاصر.

ولهذا كان من مقاصد القرآن والنبوة أن يخبرا ببعض الغيوب، بسبب هذه الروح البشرية الراسخة من حب التعرف على خفايا الأمور ومغيباتها، واحترام الذي يقدم هذه المعرفة ويصيب فيها. وهذا ما يفسر المكانة العالية للكهانة والعرافة والتنجيم عبر كل العصور.

ولذلك كان من معجزات بعض الأنبياء إخبارهم بالغيب المحجوب، بل قد جاء هذا صريحاً فيما يخص عيسى عليه السلام، قال جل من قائل وعز: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]. فالمعنى: أخبركم "بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها"(١).

قال الطبري - في جملة ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ -: "يعني وأخبركم بما تأكلون مما لم أعاينه وأشاهده معكم في وقت أكلكموه، ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾، يعني بذلك وما ترفعونه فتخبؤونه ولا تأكلونه. يعلمهم أن من حجته أيضاً على نبوته مع المعجزات التي أعلمهم أنه يأتي بها حجة على نبوته وصدقه في خبره أن الله أرسله إليهم من خلق الطير من الطين وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله التي لا يطيقها أحد من البشر، إلا من أعطاه الله ذلك علَماً له على صدقه وآيةً له على حقيقة قوله من أنبيائه ورسله ومن أحب من خلقه إنباءه عن الغيب الذي لا سبيل لأحد من البشر عليه. فإن قال قائل: وما كان في قوله لهم ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ من الحجة له على صدقه، وقد رأينا المتنجمة والمتكهنة تخبر بذلك كثيراً فتصيب. قيل: إن المتنجم والمتكهن معلوم منهما عند من تخبره بذلك أنهما ينبئان به عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه، ولم يكن ذلك كذلك من عيسى صلوات الله عليه ومن سائر أنبياء الله ورسله، وإنما كان عيسى يخبر به عن غير استخراج ولا طلب لمعرفته باختبار، ولكن ابتداء بإعلام الله إياه من غير أصل يقدم ذلك احتذاءه أو بنى عليه أو فزع إليه، كما يفزع المتنجم إلى حسابه، والمتكهن إلى رئيه. فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وإخبارهم عنها، وبين علم سائر الكَذَبة على الله والمدعية على ذلك"(٢).

---

(١) إرشاد العقل السليم، ١/ ٢٣٩.

(٢) جامع البيان، ٣/ ١٧٤.



"فهكذا فِعل الأنبياء وحججها، إنما تأتي بما أتت به من الحجج بما قد يوصل إليه ببعض الحيل على غير الوجه الذي يأتى به غيرها بل من الوجه الذي يعلم الخَلْق أنه لا يوصل إليه من ذلك الوجه بحيلة إلا من قبل الله"(١).

ولذلك خُتمت الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٢).

وقال الرازي ـ في تفسير الآية: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ـ: "الإخبار عن الغيوب على هذا الوجه معجزة، وذلك لأن المنجمين الذين يدعون استخراج الخبر لا يمكنهم ذلك إلا عن سؤال يتقدم، ثم يستعينون عند ذلك بآلة ويتوصلون بها إلى معرفة أحوال الكواكب، ثم يعترفون بأنهم يغلطون كثيراً، فأما الإخبار عن الغيب من غير استعانة بآلة، ولا تقدم مسألة، لا يكون إلا بالوحي من الله تعالى، ثم إنه عليه السلام ختم كلامه بقوله ـ كما في الآية الكريمة ـ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ والمعنى إن في هذه الخمسة لمعجزة قاهرة قوية دالة على صدق المدعي"(٣).

فلهذا كان من معجزات نبينا محمد إخباره بعدد كبير من الغيوب، وفي هذا الإخبار معنى التحدي والإعجاز؛ لأن فيه إقامة الحجة على الخلق بأن المخبر صادق في دعواه.

لكن هل هذا يستلزم إحاطة الرسول الكريم بجميع الغيوب؟

أهم آية في الموضوع: تفسيرها وآراء العلماء فيها:

وهي قوله جل جلاله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الجن: ٢٥ ـ ٢٨].

والنظر في معنى "الغيب" في هذه الآية من ثلاث جهات:

١ ـ قدر الغيب المستثنى:

أخبر تعالى أنه لا يطلع على غيوبه أحداً، ثم استثنى من ذلك من رضي من رسول، بشري أو مَلَكي.

---

(١) جامع البيان، ٣/ ١٧٥.

(٢) راجع: جامع البيان، ٣/ ١٧٦.

(٣) مفاتيح الغيب، ٨/ ٦٥. وقارن بـ: ٧/ ١٧٦ إلى ١٧٨، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]. ففيه تجد رد الرازي على استدلال بعض النصارى على ألوهية المسيح بعلمه بعض الغيب.

وقال المفسرون: إن الذي يطلع الله سبحانه عليه رسله هو بعض الغيب. قال الداودي ـ بعد كلام ـ: "وأما علم الغيب فما أحد يدعي لرسول الله ﷺ أنه كان يعلم منه إلا ما علم"[(١)].

قال أبو السعود: ".. أي فلا يطلع على غيبه إطلاعاً كاملاً ينكشف به جلية الحال انكشافاً تاماً موجباً لعين اليقين أحداً من خلقه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي إلا رسولاً ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالته"[(٢)].

وكأن ابن عطية استشعر مقالة التجموعتي وغيره، فقال: "﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، معناه: فإنه يظهره على ما شاء، مما هو قليل من كثير"[(٣)]. فالمراد بالغيب إذن بعضه وشيء منه، لا كله[(٤)].

٢ ـ نوعه:

إن الغيب الذي أطلع عليه الرسول هو الذي له تعلق بالرسالة، كالتكاليف الشرعية وكيفيات الأعمال وأجزيتها المترتبة عليها في الآخرة، وأحوال ما بعد القيامة. قال أبو السعود: أما ما لا تعلق له بالرسالة من الغيوب، فلا يظهر عليه أحداً أبداً[(٥)].

وقال ابن عاشور: "والإتيان بالموصول والصلة في قوله ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ لقصد ما تؤذن به الصلة من الإيماء إلى تعليل الخبر، أي يطلع الله بعض رسله لأجل ما أراده الله من الرسالة إلى الناس، فيعلم من هذا الإيمان أن الغيب الذي يطلع الله عليه الرسل هو من نوع ما له تعلق بالرسالة، وهو غيب ما أراد الله إبلاغه إلى الخلق أن يعتقدوه أو يفعلوه، وما له تعلق بذلك من الوعد والوعيد من أمور الآخرة، أو أمور الدنيا، وما يؤيد به الرسل عن الإخبار بأمور مغيبة كقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢ ـ ٤] ...

وفهم من قوله ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨] أن الغيب المتحدث عنه في هذه الآية هو الغيب المتعلق بالشريعة وأصولها من البعث والجزاء؛ لأن الكلام المستثنى منه هو نفي علم الرسول ﷺ بقرب ما يوعدون به أو بعده وذلك من علائق الجزاء والبعث.

---

(١) عمدة القاري، ٢٥/ ٨٧. فتح الباري، ١٥/ ٣١٤. كلاهما في: باب قول الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾، من كتاب التوحيد.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٥/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٣) المحرر الوجيز، ١٦/ ١٤٢.

(٤) انظر: فتح الباري، ٩/ ٤٦٧. عند تفسير سورة لقمان. التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٤٨.

(٥) إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٠٣. وانظر: اليواقيت والجواهر، للشعراني، ٢/ ٣٠، وفيه أن الغيب المطلع عليه هو: علم التكاليف الذي غاب عن العباد ولم تستقل عقولهم بإدراكه.

واعلم أن الاسثناء من النفي ليس بمقتض أن يثبت للمستثنى جميع نقائض أحوال الحكم الذي للمستثنى منه، بل قصارى ما يقتضيه أنه كالنقض في المناظرة يحصل بإثبات جزئي من جزئيات ما نفاه الكلام المنقوص، فليس قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ بمقتض أن الرسول يطلع على جميع غيب الله، وقد بين النوع المطلع عليه بقوله ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ "[1].

٣ ـ غاية هذا الإطلاع:

ولما كان الغيب المستثنى في الآية هو الذي تتعلق به الرسالة، كانت الغاية من إطلاع الرسول عليه أمرين:

١- بيان مبادئ الرسالة، وكثير منها غيب، كالعالم الآخر.

٢- ليكون إخبار الرسول عن الغيب معجزة له[2].

آيات أخرى:

١ ـ قال جل من قائل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. والمعنى . كما ذكر البغوي .: "لأنه لا يعلم الغيب أحد غيره، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فيطلعه على بعض علم الغيب"[3].

٢ ـ وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].. من آية الكرسي، أي "أنهم لا يعلمون الغيب إلا عند إطلاع الله بعض أنبيائه على بعض الغيب". فالاستثناء يتعلق دائماً ببعض الغيب، لا بجميعه[4].

النبي الكريم ينفي عن نفسه علم الغيب:

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

قال ابن عطية: "هذا أمر في أن يبالغ في الاستسلام ويتجرد من المشاركة في قدرة الله وغيبه... وأخبر أنه لو كان يعلم الغيب لعمل بحسب ما يأتي، ولاستعد لكل شيء استعداد من يعلم قدر ما يستعد له، وهذا لفظ عام في كل شيء"[5]. وقال الرازي: معنى الآية: "أن

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٩/٢٤٨ إلى ٢٥١.

(٢) مدارك التنزيل، ٤/٣٠٢. إرشاد العقل السليم، ٥/٢٠٣.

(٣) معالم التنزيل، ٢/١٤١.

(٤) مفاتيح الغيب، ٧/١٣.

(٥) المحرر الوجيز، ٧/٢٢٢. وراجع أيضاً: الجامع لأحكام القرآن، ٧/٢١٣ ـ ٢١٤.

القوم كانوا يقولون له: إن كنت رسولاً من عند الله فلا بد وأن تخبرنا عما يقع في المستقبل من المصالح والمضار، حتى نستعد لتحصيل تلك المصالح، ولدفع تلك المضار. فقال تعالى: (قل إني لا أعلم الغيب)، فكيف تطلبون مني هذه المطالب؟"[١].

وقال ابن كثير: "أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه"[٢].

فهذا النفي من القرآن، وله نظائر. أما في الحديث فكثير، ومن ذلك:

١ ـ قوله ﷺ حين اختصم إليه رجلان: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»[٣].

قال الحافظ ابن عبد البر: "وفي هذا الحديث من الفقه أن البشر لا يعلمون ما غيب عنهم وستر من الضمائر وغيرها؛ لأنه قال ﷺ في هذا الحديث: «إنما أنا بشر»، أي إني من البشر، ولا أدري باطن ما تتحاكمون فيه عندي وتختصمون فيه إلي، وإنما أقضي بينكم على ظاهر ما تقولون وتدلون به من الحجاج، فإن كان الأنبياء لا يعلمون ذلك، فغير جائز أن يصح دعوى ذلك لأحد غيرهم من كاهن أو منجم، وإنما يعلم الأنبياء من الغيب ما أعلموا به بوجه من وجوه الوحي"[٤].

وقال ابن العربي: "قوله ﷺ: «إنما أنا بشر» إشارة في هذا الموضع إلى أنه لا يعلم الغيب، وهي مسألة أصولية، فإن المشاهدة أبرزها الله إلى الخلق وجعلها مدركة لهم بالطرق التي شرع لهم إليها، وأمسك الغيب لنفسه، فهو عالم الغيب والشهادة، وأخبر أنه لا يدريه إلا هو، وقطع أطماع الخلق عنه فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]"[٥].

ويقول أحمد القرطبي: "وهذا خير البشر ـ النبي ﷺ ـ يقول في هذا الموطن: إنما أنا بشر، معترفاً بالقصور عن إدراك المغيبات، وعاملاً بما نصبه الله تعالى له من اعتبار الأيمان والبينات"[٦]. ويقول العيني: «إنما أنا بشر»: يعني كواحد منكم، ولا أعلم الغيب وبواطن

---

(١) مفاتيح الغيب، ١٢/ ٢٣٠. (نسخة المطبعة البهية).

(٢) تفسيره، ٢/٣٤٣.

(٣) هذا حديث مشهور في السنن، والذي أوردته هو من كتاب الحيل بصحيح البخاري، في نهاية الباب العاشر، حديث ٦٩٦٧.

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ٢٢/٢١٦ .

(٥) القبس، شرح الموطأ، لابن العربي، ٣/ ٨٧٤.

(٦) المفهم، ٥/١٥٤.



الأمور، كما هو مقتضى الحالة البشرية، وأنا أحكم بالظاهر "(١).

٢ ـ روت الرُّبيِّع بنت معوذ بن عفراء: جاء النبي ﷺ فدخل حين بُني علي، فجلس على فراشي كمجلسك مني، فجعلت جُويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال: "دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين"(٢).

قال ابن حجر: "إنما أنكر عليها ما ذكر من الإطراء حيث أطلق علم الغيب له، وهو صفة تختص بالله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقوله لنبيه: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وسائر ما كان النبي ﷺ يخبر به من الغيوب بإعلام الله تعالى إياه، لا أنه يستقل بعلم ذلك، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧] "(٣).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، ففي حادثة الإفك لم يعلم النبي ﷺ حقيقة الأمر حتى نزل القرآن، وكذلك لم يعرف أين ضلت ناقته حتى أخبره جبريل، وكذلك شك في أمر ابن صياد وخفي عليه .

كلام الشيخ ابن أبي جمرة:

قال الشيخ ـ في حديث قام النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما من شيء لم أكن أُريته إلا رَأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار، فأوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم... الحديث ـ: "فيه دليل أنه عليه السلام لم يكن يرى من الغيب جميعه في الزمان المتقدم على هذا الموطن إلا البعض، وأنه في هذا الموطن تكملت له الرؤية لتلك الأشياء كلها. ويرد على هذا سؤال، وهو أن يقال: ما المراد بقوله عليه السلام: «ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته» هل المراد به جميع الغيوب، أو المراد به ما يحتاج به الإخبار إلى أمته وما يخصه عليه السلام في ذاته المكرمة؟ والجواب: أن لفظ الحديث يحتمل الوجهين معاً، والظاهر منهما الوجه الأخير، وهو أن يكون المراد به ما يحتاج به الإخبار إلى أمته، وما يخصه عليه السلام في ذاته المكرمة، أو ما أكرمه الله بالاطلاع عليه. والأول ممنوع، يدل على ذلك الكتاب والسنة. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. وأما الحديث فقوله عليه السلام: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله:

---

(١) عمدة القاري، ٢٤/١١٦.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري في موضعين: كتاب المغازي، حديث ٤٠٠١. وكتاب النكاح، باب ضرب الدف في النكاح والوليمة، حديث ٥١٤٧، وهو المذكور أعلاه. ورواه أيضاً غير البخاري.

(٣) فتح الباري، ١٠/٢٥٥ ـ ٢٥٦.



لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله». ولأنه لا يمكن أن يحمل هذا على جميع الغيوب؛ لأن ذلك يؤدي إلى استواء الخالق والمخلوق، وهو مستحيل عقلاً، وقد قال عز وجل في كتابه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. والأشياء منها ما قد وقع قبل خلق بني آدم، ومنها ما يقع بعد موتهم، فكان ذلك مستحيلاً من طريق العقل والنقل"(١).

مناقشة التجموعتي في استدلاله بأهم حديث في الموضوع:

وهو قول النبي ﷺ: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤].

قال الهيثمي في هذا الحديث: رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عمر، ورواه أيضاً أحمد في المسند، ورجاله رجال الصحيح(٢). فالظاهر أن هذا الحديث صحيح إسناداً، ويعضده خبران آخران:

الأول: روى الإمام أحمد في مسنده عن صحابي مجهول ـ رجل من بني عامر ـ أنه سأل النبي ﷺ، وقال له: هل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟ فأجابه الرسول: « قد علم الله عز وجل خيراً، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل: الخمس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية». قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح(٣).

وجهالة الصحابي لا تضر؛ لأن الأصل في الصحابة هو العدالة، فالحديث متصل السند إلى النبي الكريم ﷺ.

الثاني: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أوتي نبيكم مفاتيح كل شيء غير خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]. قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح(٤). وأخرجه أيضاً ابن مردويه بلفظ: أوتي نبيكم مفاتح الغيب إلا الخمس(٥).

---

(١) بهجة النفوس (شرح لمختصر صحيح البخاري)، ١/ ١٢٠.

(٢) مجمع الزوائد، ١/ ٤٢٥، ٨/ ٢٦٣. هو نور الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي، محدث حافظ، تلميذ العراقي ولازمه، وهو أحد تلامذته الثلاثة المبرزين، والآخران هما: ابن حجر العسقلاني، والبوصيري. اشتغل الهيثمي خصوصاً بعلم زوائد الحديث، وصنف فيه.وتوفي سنة ٨٠٧ﮬ، كما في معجم المؤلفين، ٧/ ٤٥.

(٣) تفسير ابن كثير، ٤/ ٥٦١، لقمان آية ٣٣ ـ ٣٤.

(٤) مجمع الزوائد، ٨/ ٢٦٣.

(٥) قاله ابن حجر في: فتح الباري، ٩/ ٤٦٧، تفسير سورة لقمان.



وأسنده الطبري إلى ابن مسعود بلفظ: كل شيء أوتيه نبيكم إلا علم الغيب الخمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية [1].

والكلام على احتجاج القاضي عبد الملك بهذه الأخبار ونحوها من وجوه:

١ ـ إن هذه أخبار آحاد، والأدلة التي تنص على استفراد الله سبحانه بعلم الغيب ـ على التفصيل والإحاطة ـ قطعية في ثبوتها ودلالتها، كما تقدم في العلم الإلهي، فهي آيات قرآنية صريحة. والظني لا يعارض القطعي.

٢ ـ إن العموم في هذه الأحاديث ضعيف، ولذلك فهو يقبل التخصيص، كما هو شأن الأغلبية الكبيرة من العمومات، حتى قال بعض العلماء: إن النص الوحيد الذي يبقى على عمومه هو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

والتجموعتي يترك عموم الآيات القرآنية، ويذهب يتعلق بعموم حديث لم يرد في الكتب الحديثية الستة، وبخبر هو من كلام ابن مسعود.

٣ ـ وعلى تسليم صحة الحديث ـ إسناداً و متناً ـ، كما هو الظاهر، فإنه يجب التزام دلالته، فهو صريح في أن النبي ﷺ لا يعلم مفاتيح الغيب الخمسة. والتجموعتي لم يقف عند هذا المعنى، بل قال: إن الرسول عليه السلام اطلع على هذه المفاتح أيضاً في آخر حياته.

٤ ـ وليس للتجموعتي دليل على تحقق هذا الأمر، بل إن أقرب الناس إلى الرسول الكريم وآخرهم عهداً به، وهي زوجته عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب، وهو يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب، وهو يقول: (لا يعلم الغيب إلا الله)" [2].

فغاية ما في الحديث أن النبي ﷺ يعلم غيوباً كثيرة، ليس بينها المفاتح الخمسة، وقد رأينا أن هذه المفاتح هي أبسط الغيوب وأقربها إلى الإنسان، فكما استأثر الباري تعالى بالمفاتح استأثر بما وراءها من خزائن هائلة من الغيوب. ثم لو كان المصطفى يعلم المفاتح الخمسة فلم ذكرها الله سبحانه في سياق بيان سعة علمه وإحاطته بكل شيء؟ قال البغدادي ـ في آية المفاتح من سورة لقمان ـ : "لم يذكر الله تعالى أن عنده علم هذه الأشياء وفي خلقه من يعلمها كعلمه، ولو كان في خلقه من يعلمها كعلمه ما كان لوصفه نفسه بالعلم بها موقع

(١) راجع: جامع البيان، ٢١/٥١، لقمان. وربما الصواب: إلا علم غيب الخمس.

(٢) كذا في صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾، حديث رقم ٧٣٨٠. وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الأنعام، آية ١٠٣.



يختص بالتسليم إليه، لمشاركة خلقه فيها، ولا إفادة للمتصفح من قراءتها"[1].

وبذلك يتبين أنه لا وجه لمقارنة العلم النبوي بالعلم الإلهي، فبينهما ما بين البشرية والإلهية من الفروق العظيمة، فالصواب في هذا الخلاف هو مع اليوسي رحمه الله، كما قال الدكتور عبد الكبير المدغري: "الذي نطمئن إليه في قضية علم النبي هو ما ذهب إليه اليوسي رحمه الله، ومن ذهبوا إلى عكسه فليس لجهل أو قصور، وإنما لفرط المحبة في الرسول الكريم، وهيمنة روحه الشريفة على عقولهم ونفوسهم، الشيء الذي أوهمهم أن القول بأنه لم يعلم كل شيء، فيه سوء أدب معه عليه الصلاة والسلام، فكاد يورطهم ذلك فيما فيه سوء أدب مع الخالق عز وجل"[2].

خاتمة:

الخلاصة أن للتجموعتي دليلاً على أن النبي يعلم كل شيء غير المفاتح الخمسة، وليس له أي دليل، ولا حتى شبهة دليل، على دعواه أن النبي علم هذه الخمس أيضاً في آخر حياته.

لقد أوصانا نبينا بألَّا نبالغ في تعظيمه، فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم» فنحن نأخذ بوصيته، فلا نثبت له شيئاً هو أخص بمقام الألوهية وأليق به. فلا أحد يعلم الغيب ـ على وجه الكمال ـ إلا الخالق العظيم، سبحانه.

هذا ما يجب اعتقاده، وما سواه زلة عالم لا يتابع عليها. وفي الحديث: «أخاف على أمتي ثلاثاً: زلة العالم، وجدال منافق بالقرآن، والتكذيب بالقدر»[3]. أما الدخول في أمر التكفير فمما لا ينبغي لأحد أن يفعله.

تكملة في البحث عن الصحابة والملائكة والغيب:

وهذا البحث يتعلق بالنبي محمد ﷺ خاصة، وبسائر الأنبياء عامة. وسنرى الآن كيف تصدق نتائجه أيضاً على أصحاب محمد عليه السلام، واخترت لهذا نموذجين هما: حذيفة ابن اليمان، وأبو هريرة. بعده أقول كلمة مختصرة عن مدى اطلاع الملائكة على الغيب،

---

(١) القول في علم النجوم، ص ١٩٦.

(٢) "أبو الحسن اليوسي"، ص ٢١٤. والكاتب هو عبد الكبير العلوي المدغري، ولد بإقليم الراشيدية بالمغرب. عمل بالمحاماة وبالتعليم العالي، وتخرج من دار الحديث الحسنية بالرباط، حيث قدم عملين: الأول عن اليوسي، والثاني تحقيق كتاب الناسخ والمنسوخ لابن العربي. له كتب أخرى، منها: المرأة بين أحكام الفقه والدعوة إلى التغيير. عمل السيد المدغري وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية، بالمغرب.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي الدرداء، وضعفه السيوطي. عن الجامع الصغير، ١/٤٦.

خصوصاً الرسل منهم، والذين يشملهم ـ عند بعض العلماء ـ قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

حذيفة بن اليمان:

حذيفة بن اليمان بن جابر العبسي صحابي من الأنصار، ولي بعض أمور الكوفة لأمير المؤمنين عمر، وولي إمرة المدائن، ثم مات بعد مقتل عثمان رضي الله عنه بقليل[١].

كان حذيفة رضي الله عنه سؤولاً، وكان يسأل النبي ﷺ عن كثير من المستقبلات، خصوصاً تلك التي لا تحمل خيراً للأمة. وقد أطلعه النبي الكريم على بعضها، كما أطلعه على أسماء المنافقين الذين كانوا بالمدينة؛ ولذلك كان يسميه الصحابة بصاحب سرِّ رسول الله، كما قال أبو الدرداء لعلقمة بن الأسود ـ أحد أفاضل التابعين بالكوفة ـ : أو ليس فيكم صاحب سر النبي ﷺ الذي لا يعلم أحد غيره؟[٢] قال ابن حجر: "المراد بالسر ما أعلمه به النبي ﷺ من أحوال المنافقين"[٣].

قال حذيفة: كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم». قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن». قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر». قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها». قلت: يارسول الله صفهم لنا؟ قال: «هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا». قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم». قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[٤].

وعلق ابن أبي جمرة على الحديث بقوله: في الحديث حكمة الله في عباده كيف أقام كلًّا منهم فيما شاء؛ فحبب إلى أكثر الصحابة السؤال عن وجوه الخير ليعملوا بها ويبلغوها غيرهم، وحبب لحذيفة السؤال عن وجوه الشر ليجتنبه ويكون سبباً في سده عمن قدر الله له النجاة، وفيه سعة صدر النبي ﷺ ومعرفته بوجوه الحكم كلها، حتى كان يجيب كل من سأله بما يناسبه، ويؤخذ منه أن كل من حبب إليه شيء فإنه يفوق فيه غيره، ومن ثم كان حذيفة

---

(١) فتح الباري، ٧/ ٤٥٩، ٤٦١: كتاب فضائل أصحاب النبي، باب مناقب عمار وحذيفة.

(٢) راجع حديث علقمة عن أبي الدرداء بباب مناقب عمار وحذيفة من كتاب فضائل الصحابة، بصحيح البخاري، حديث رقم ٣٧٤٢ و٣٧٤٣. وفي رواية الكشميهني بيان المفعول به: "الذي لا يعلمه غيره".

(٣) فتح الباري، ٧/ ٤٦١.

(٤) هذا لفظ البخاري في كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، حديث ٧٠٨٤.

صاحب السر الذي لا يعلمه غيره حتى خص بمعرفة أسماء المنافقين وبكثير من الأمور الآتية[1].

ولذلك كان عمر رضي الله عنه لا يصلي على أحد حتى يستأذن حذيفة، مخافة أن يكون الميت من المنافقين، الذين يقول الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤].

فهذا ما عند حذيفة رضي الله تعالى عنه من علم الغيب: أخبار المنافقين، وبعض الفتن التي تكون في الأمة بعد مقتل عثمان بالخصوص. ويبدو أن النبي الكريم أمره ألا يذيع ما علمه من أخبار الغيوب؛ ولهذا ليس في الرواية عنه كثير منها. ولعل الصحابة والتابعين عرفوا ذلك فلم يكونوا يسألون حذيفة أن يخبرهم بغيوب محددة، أعني بتواريخها وأحداثها وأسماء أصحابها. وقد وقعت منهم أسئلة لكنها عامة بعض الشيء، كسؤال عمر لحذيفة عن الفتنة، فقال حذيفة: فتنة الرجل في أهله وماله وولده... ثم قال عمر: ليس عن هذا أسألك، ولكن التي تموج كموج البحر. فقال حذيفة: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً.. وفي الحديث أن الباب هو عمر، وأنه سيكسر ولا يفتح[2].

وقد استغل بعض الوضاع ما عرف عن حذيفة من علمه ببعض الغيوب والملاحم، فوضعوا أحاديث مكذوبة ونسبوها إليه[3].

أبو هريرة:

والسبب الذي من أجله يعد أبو هريرة رضي الله تعالى عنه من الصحابة الذين أطلعهم الرسول الكريم على بعض الغيوب، هو قوله ـ أعني أبا هريرة ـ: حفظت من رسول الله وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قُطع هذا البلعوم[4].

والوعاء هو الظرف الذي يحفظ فيه الشيء، أطلق المحل وأراد به الحال، أي نوعين من العلم. ومراده أن محفوظه من الحديث لو كتب لملأ وعاءين. والبلعوم مجرى الطعام في الحلق، أو هو الحلقوم، كنى بذلك عن القتل[5].

---

(١) بهجة النفوس، ٤/ ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٢) راجع تمام الحديث في جامع البخاري، كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر. حديث ٧٠٩٦.

(٣) انظر مثلاً الحديث الطويل المكذوب على حذيفة عن الملاحم والغيوب في: اللآلئ المصنوعة، للسيوطي، ١/ ٤٥ فما بعدها.

(٤) رواه البخاري في كتاب العلم، باب ٤٢، وهو باب حفظ العلم، حديث ١٢٠.

(٥) راجع: شروح جامع البخاري: الكواكب الدراري، ٢/ ١٣٧. فتح الباري، ١/ ٢٩٢. عمدة القاري، ٢/ ١٨٥.



وللناس في هذا الحديث آراء، وتعلقت به مذاهب، فيها الصالح والطالح:

١ ـ فعند الباطنية الوعاء الآخر الذي أخفاه أبو هريرة هو علم الباطن. قال ابن المنير: "جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهراً وباطناً، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين.. وإنما أراد أبو هريرة بقوله: (قطع) أي قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم وتضليله لسعيهم، ويؤيد ذلك أن الأحاديث المكتومة لو كانت من الأحكام الشرعية ما وسعه كتمانها؛ لما ذكره في الحديث الأول من الآية الدالة على ذم من كتم العلم"[(١)].

٢ ـ وتعلق بالحديث أيضاً بعض الصوفية، الذين قالوا: إن أبا هريرة يعني بذلك بعض العلوم الذوقية والمكاشفات الغيبية التي تحصل لأهل التصوف، والتي لا يرضاها الجمهور. قال الكرماني: "هذا الحديث هو قطب مدار استدلالات المتصوفة في الطامات والشطحات، يقولون: هاهو ذا أبو هريرة عريف أهل الصفة الذين هم شيوخنا في الطريقة عالم بذلك قائل به، قالوا: والمراد بالأول علم الأحكام والأخلاق، وبالثاني علم الأسرار المصون عن الأغيار المختص بالعلماء بالله سبحانه وتعالى من أهل العرفان، وقال قائلهم:

يا رب جوهر عِلْمٍ لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحلَّ رجالٌ مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وقال بعضهم: العلم المكنون والسر المصون علمنا، وهو نتيجة الخدمة وثمرة الحكمة لا يظفر به إلا الغواصون في بحار المجاهدات ولا يشعر بها إلا المصطفون بأنوار المشاهدات، إذ هي أسرار متمكنة في القلوب لا تظهر إلا بالرياضة وأنوار ملمعة في الغيوب، لا تنكشف إلا للأنفس المرتاضة. وأقول نِعْم ما قال، لكن بشرط أن لا تدفعه القواعد الإسلامية ولا تنفيه القوانين الإيمانية، إذ ما بعد الحق إلا الضلال"[(٢)].

٣ ـ وقال بعض العلماء ـ كابن بطال والعيني وغيرهم ـ: إن المراد بالوعاء الثاني ما كتمه من أشراط الساعة وتغير الأحوال والملاحم في آخر الزمان، فربما أنكر ذلك من لم يألفه، واعترض عليه من لا شعور له به[(٣)].

---

(١) عن فتح الباري، ١/ ٢٩٣. ومراده بالحديث الأول قول أبي هريرة لولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ الآية. والحديث في الباب نفسه، وهو حفظ العلم.

(٢) الكواكب الدراري، ٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٣) عمدة القاري، ٢/ ١٨٥. فتح الباري، ١/ ٢٩٣. وابن بطال هو أبو الحسن علي بن خلف المالكي، فقيه ومحدث. له: الاعتصام، في الحديث. لكن أهم أعماله شرحه لصحيح البخاري. توفي سنة ٤٤٩هـ. معجم المؤلفين، ٧/ ٨٧.



٤ ـ وقال ابن حجر: "حمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم، وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضه ولا يصرح به خوفاً على نفسه منهم، كقوله: أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان، يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية؛ لأنها كانت سنة ستين من الهجرة. واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة"(١).

وهذا أقرب الأقوال، ويدل عليه سلوك أبي هريرة ومواقفه من الفتن التي حدثت في الأمة بعد مقتل عثمان، وكراهيته رضي الله عنه لبعض أمراء زمانه مع اضطراره إلى مداراتهم.

الملَك والغيب:

أخبر الله سبحانه في كتابه أنه لا يعلم الغيب غيره، وأنه يجوز أن يطلع بعض الخلق على أشياء منه، فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾. [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

قال ابن كثير ـ وغيره ـ: وهذا يعم الرسول الملكي والبشري(٢). وذكر الغزالي وجهاً آخر في الآية، وهو أن يكون المقصود هنا بالرسول من الملائكة، فيعلم الغيب ثم يُعلمه غيره. قال: "يكون تقدير الآية: فلا يظهر على غيبه أحداً، إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده في يقظة أو منام، فإنه يطلع على ذلك أيضاً"(٣). فاطلاع الملك مباشر، واطلاع غيره غير مباشر.

ثم بين الحديث النبوي كيف يستفيد الملائكة بعض علم الله تعالى، ففي حديث ابن عباس أن مما قال النبي ﷺ: «ربنا ـ تبارك وتعالى اسمه ـ إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم؛ حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال. فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا»(٤). وذلك قوله تعالى في الملائكة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

---

(١) فتح الباري، ١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣. وهذا هو الذي رجحه رشيد رضا في: تفسير المنار، ٦/ ٤٧١.

(٢) تفسير ابن كثير، ٤/ ٥١١. نظم الدرر، ٢٠/ ٥٠١. التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٤٩.

(٣) الإملاء في إشكالات الإحياء، لأبي حامد الغزالي، ص ٤١. (ضمن المجلد الخامس بعد إحياء علوم الدين).

(٤) رواه مسلم: ٢٢٢٩، باب تحريم الكهانة من كتاب السلام.



قال أحمد القرطبي: قوله: لكن ربنا إذا قضى أمراً، "أي أظهر قضاءه، وما حكم به لملائكته؛ لأن قضاءه إنما هو راجع إلى سابق علمه، ونفوذ مشيئته، وحكمه، وهما أزليان، فإذا اطلع حملة العرش على ما سبق في علمه خضعت الملائكة لعظمته، وضجت بتسبيحه، وتقديسه، فيسمع ذلك أهل السماء التي تليهم، وهكذا ينتهي التسبيح لملائكة سماء الدنيا، ثم يتساءلون فيما بينهم: ماذا قال ربكم؟ على الترتيب المذكور في الحديث.

ففيه ما يدل على أن حملة العرش أفضل الملائكة، وأعلاهم منزلة، وأن فضائل الملائكة على حسب مراتبهم في السماوات، وأن الكل منهم لا يعلمون شيئاً من الأمور إلا بأن يعلمهم الله تعالى به، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]"[(١)].

فهذا هو طريق استفادة الملائكة بعض علم الله تعالى، فلا علم لهم بالغيب ولا سبيل لهم إلى الإحاطة به، "وعلوم الملائكة بالكائنات يستفيده بعضهم من بعض إلا حملة العرش، فإنهم يستفيدون علومهم من الحق سبحانه وتعالى؛ فإنهم هم المبدوؤون بالإعلام أولاً، ثم إن ملائكة كل سماء تستفيد من التي فوقها، وفي هذا دليل على أن النجوم لا يعرف بها علم الغيب، ولا القضاء، ولو كان كذلك لكانت الملائكة أعلم بذلك وأحق به"[(٢)].

وقد غاب عن الملائكة غيب كثير، فهم مثلاً ـ كما حكى القرآن ـ لم يعرفوا أن الله تعالى سيخلق آدم، كما لم يعرفوا الحكمة من خلقه.

ومن جهة أخرى فإن الملائكة متفاوتون في العلم، وهم درجات في معرفة بعض الغيوب التي أطلعهم الباري عليها؛ ولذلك حين سئل الرملي هل كل الملائكة مطلعون على ما في اللوح المحفوظ أم بعضهم؟ أجاب: "ليس كل الملائكة مطلعين على ما في اللوح المحفوظ، فإن منهم من هو راكع لا يقيم صلبه، ومنهم من هو ساجد لا يرفع رأسه، وقد قال تعالى ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الصافات: ١٦٤]، أي مقام في العبادات والانتهاء إلى أمر الله مقصور عليه لا يتجاوزه. ومنهم من شأنه الاستغراق في معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره، كما وصفهم في محكم تنزيله فقال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وهم العليون والملائكة المقربون. ومن يجوز أن ينظر في اللوح المحفوظ من الملائكة ليس بمعين، وأما الاطلاع على ما في اللوح المحفوظ لأجل الإيحاء وإنفاذ الأمر فمختص بإسرافيل وجبرائيل عليهما السلام"[(٣)].

---

(١) المفهم، ٥/ ٦٣٧ ـ ٦٣٨.

(٢) المفهم، ٥/٦٣٨.

(٣) فتاوي الرملي، ٤/ ٢١٤.

الفصل الخامس

الإنسان والغيب

المبحث الأول: شهادة التاريخ على قيمة عقيدة الغيب الإسلامية.

لم يكن الإلحاح القرآني المتكرر على أنه لا يعلم أحد غيب المستقبل - حق العلم - إلا الله سبحانه، وأن ساعة القيامة ونهاية العالم هي بالخصوص من الغيوب التي استأثر الباري بها، حتى أخفاها عن أحب خلقه إليه نبيُّنا محمد ﷺ، لم يكن هذا الإلحاح عبثاً، ولا أمراً ثانوياً.

لقد شغلت أفكار نهاية العالم خاصة - ومستقبل الإنسان عامة - البشرية من قديم، ولا يزال هذا الانشغال قائماً، فجاء القرآن وبين للناس القول الفصل في هذا الموضوع، وبذلك وضع حدًّا لكل الأوهام القديمة الجديدة عن المستقبل وما يحمله من أحداث.

سنرى الآن - في هذا المبحث - أثر التأطير الإيديولوجي الجاف للمستقبل، وذلك من خلال "أفكار الألفية والنهاية في الغرب". ثم بعدها أُقدم للقارئ مثالاً لما يحدث للمسلمين حين يتجاوزون عقيدة دينهم في الغيب، فلا يحترمونها، وهذا المثال هو عن ظاهرة المهدوية.

بعد ذلك سنتعرف على أخطاء أخرى - من تاريخنا العلمي - تخص هذا الباب، أعني التنبؤ بالغيب على غير وجهه، لكنها أخطاء لا تصل بحال إلى حجم خطر عقيدة المهدوية وأهميتها.

أمثلة من التاريخ الوسيط:

شكل موضوع أسباب سقوط إمبراطورية روما أحد أهم الإشكالات التاريخية التي وقف عندها مؤرخون وفلاسفة كثر، فتأملوها ودرسوها، وأفردها بعضهم بالتصنيف[(١)]. وهذا موضوع كبير لن أدخل فيه، لكن الذي أذكره هنا هو أن بعض الباحثين يقول: إن من أسباب سقوط الإمبراطورية انتشار العقيدة المسيحية حول قرب زمان القيامة وأن العالم يوشك أن ينهار؛ ولذلك عوض أن يحارب الناس لحماية الإمبراطورية، كانوا ينتظرون سقوطها، لقد ساهمت هذه العقائد في إضعاف روح الدفاع وغلبة مواقف السلبية والانتظار[(٢)].

وفي عام ٥٧٥هـ الموافق لسنة ١١٧٩م أجمع المنجمون على أنه بعد سبع سنوات ستجتمع الكواكب في برج الميزان، ولما كان هذا البرج هوائياً، فسيترتب على هذا الاجتماع

---

(١) منهم مونتيسكيو في كتابه: تأملات حول أسباب عظمة روما وانحطاطها.

(٢) راجع: Courte histoire du christianisme, p 41-42

كارثة كبرى فتقع زلازل وعواصف ورياح شديدة، ويُكوّن ذلك نوعاً من الطوفان الهوائي، كما كان في عهد نوح عليه السلام طوفان مائي باجتماع الكواكب في برج الحوت(١).

ويبدو أن خبر هذا التنبؤ انتقل من العالم الإسلامي إلى الأندلس، ومنها إلى أوربا، وذلك عن طريق مجموعة كتابات عرفت بـ "رسائل جون الطليطلي"، وكان هذا سنة ١١٧٩م(٢).

وجاءت ليلة اليوم الموعود في سنة ٥٨٢هـ، عام ١١٨٦م، وفعلاً تجمعت الكواكب في برج الميزان، ومع ذلك لم تر ليلة مثل الموعودة في سكونها وهدوئها، وقلَّ هبوب الرياح على خلاف عادتها، حتى قلق الناس لذلك(٣).

والمقصود هنا أن وقع هذا الخبر على أوربا كان شديداً، وأحدث فيها نوعاً من الفوضى العامة: في ألمانيا حفر الناس الكهوف، وأمر الأسقف الأكبر بالصيام، وفي بيزنطة تم سد نوافذ القصر الإمبراطوري... وانتشر الرعب في الناس(٤).

وفي سنة ١٤٩٩م تنبأ ستوفلر بأن طوفاناً جديداً سيحدث في شهر شباط ١٥٢٤م؛ لأن كواكب كثيرة ستكون آنذاك ببرج رطب، ولما اقترب هذا الوقت انتشرت الفوضى، وطلب الناس من بعض الملوك أن يحددوا ملاجئ يهربون إليها، وتجمع الكثيرون انتظاراً للخطر القادم، وكثيرون باعوا منازلهم وأثاثهم ولجؤوا إلى السفن، جاء شباط ١٥٢٤م، وكان شهر جفاف ممتاز قل نظيره(٥).

الجماعات "الألفية" بالغرب:

يقصد بهذه الجماعات مجموع الاتجاهات الدينية التي تعتقد بأن الإنسانية توشك أن تدخل مرحلة جديدة ـ حوالي ألف سنة ـ من عمرها، حيث يعم السلام والرخاء العالم. وبعض هذه الاتجاهات تربط ذلك بعودة المسيح، وبعضها لا.

مصدر هذا الفكر هو بالخصوص كتاب القيامة ليوحنا الذي يبشر في عبارات غامضة بهذه الألفية القادمة.

---

(١) هذا الخبر ورد في مصادر إسلامية وأوربية، انظر: الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ٩/ ١٧٤ ـ ١٧٥. (حوادث سنة ٥٨٢). مفتاح دار السعادة، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠. وقارن بـ: Quelques sciences captivantes, p 206. L'astrologie, p 97

(٢) انظر: L'astrologie, p 97

(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٤٥٩. L'astrologie, p 97. Quelques sciences captivantes, p 206.

(٤) L'astrologie, p 97. Quelques sciences captivantes, p 206.

(٥) L'astrologie, p 98. والمتكهن هو: Johannès Stôffler.



وقد انتشرت هذه الحركات الألفية، وحاولت تحقيق هذا الوعد، باستعجاله(١). وكان هذا هو شعار الحرب الصليبية الأولى ضد المسلمين، لقد ذهب أولائك إلى القدس لتدشين ألفية المسيح، ثم تعددت المحاولات والثورات لأجل تحقيق هذا الهدف، من أهمها: حركة طانشيلم بمنطقة أنفرس ـ شمال بلجيكا حالياً ـ، بين سنتي ١١١٠ و ١١١٥م. وحركة "أوذ النجم" بغرب فرنسا، من سنة ١١٤٠ إلى ١١٥٠م. وحركات أخرى في سنوات ١٢٢٤، و١٢٥١م(٢).

فلما جاء دوفلور أعطى لهذه الاتجاهات دفعة جديدة بتفسيره الخاص للتاريخ، حيث صرح ـ في شرحه لكتاب القيامة ـ بأن عصر روح القدس قد أقبل. والمفروض أن تكون بدايته سنة ١٢٦٠م(٣).

وفي هذه السنة وبعدها نشأت حركات كثيرة أهمها كان في سنوات: ١٢٩٥، ١٣٠٠، ١٣٠٧، ١٤٢٠م. وكان صدامها مع الكنيسة والحكام المدنيين كبيراً(٤).

وجاء عصر النهضة، وفيه حدثت أكبر محاولة "ألفية"، وهي الثورة الكبرى للفلاحين الألمان سنة ١٥٢٥م، والتي انضم إليها مونزر ـ صديق لوثر ـ، وأسس في ولاية ويستفالي "مملكة القدس الجديدة"، ولكنها لم تدم طويلاً(٥).

وكان لهذا الثورة أثرها على أوربا في القرن التاسع عشر، ولأهميتها درسها إنجلز في كتابه: ثورة الفلاحين(٦).

وفي نهاية القرن التاسع عشر تمخضت عن هذه الحركات الألفية المتنوعة جماعتان هامتان، لهما اليوم وجود كبير، وتعتبر عقيدة الألفية من عقائدهما الأساسية، وهما:

١ ـ **المجيئية، أو السبتية**: يقصد بهذا: المذهب الذي ينتظر رجوع المسيح عند آخر الزمان. ومؤسسه بأمريكا هو ميلر، الذي درس كتاب دانيال وكتاب القيامة، وتوصل بحساب الحروف إلى أن عودة المسيح إلى الأرض ستكون حوالي ١٨٤٣م.

وقد انقسم أتباعه بسبب عدم تحقق هذه النبوءة، وأهم فرقهم: مجيئية اليوم السابع.

---

(١) Encyclopaedia Universalis, article Millénarisme, 15/374(مقال عقيدة الألفية) .

(٢) Ency. Uni. Art, Millénarisme, 15/375.الزعيمان هما: (Eudes de l'Etoile. Tanchelm)

(٣) Ency. Uni. Art. Millénarisme, 15/375.

(٤) Ency. Uni. Art. Millénarisme, 15/375.

(٥) Ency. Uni. Art. Millénarisme, 15/375. و Thomas Münzer من المصلحين الدينيين الألمان، درس الإلهيات الوسيطة، والفكر الإنساني للنهضة. وأعدم عقب الثورة سنة ١٥٢٥.

(٦) Ency. Uni. Art. Millénarisme, 15/375, et article Méssianisme, 15/8.

وهؤلاء تبعوا امرأة تدعى إيلين كولد آرمون (١٨٢٧ ـ ١٩١٥م)، التي "تلقت" وحياً سماوياً بين لها متى ستقع بالضبط بشارات الأناجيل ونبوءاتها، كما بين لها أموراً تخص جماعتهم؛ ولذلك فتفسيرها للإنجيل مصدر مقدس بالنسبة لأتباعها[١].

وعدد "المجيئيين" في تزايد مطرد، وفي أكثر أنحاء العالم، وقد انتقل عددهم سنة ١٩٨١م من ثلاثة ملايين عضو إلى ستة ملايين ونصف سنة ١٩٨٨م، نسبة ٧٠٪ منهم بآسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية[٢].

٢ ـ شهود يهوه: تأسست هذه الجماعة بالولايات المتحدة سنة ١٨٧٤م على يد روسل، الذي اقتنع بأن عودة المسيح إلى العالم لن تكون مرئيَّة ومشاهدة للناس، بل لا يراها إلا المؤمن، وبقلبه لا بعينه. وهذه العودة ستبدأ سنة ١٨٧٤م، وبعدها بقليل تبدأ الألفية السعيدة[٣].

أخذ روسل يسافر كثيراً، ويجوب البلدان، داعياً إلى هذه الأفكار، ومبشراً بقرب الألفية المنتظرة، فاستجابت له جماعات من الناس، اتخذت لنفسها اسم "شهود يهوه"[٤].

بعد وفاة روسل خلفه القاضي روذرفورد الذي كان له فضل بيان المذهب وتقعيده وتدوينه، وقد حدد هذا القاضي تاريخ ١٩٢٥م لانبعاث الناس الأخيار، وعودتهم إلى الدنيا، ولأجلهم بنى منزلاً بكاليفورنيا، لكنه مات سنة ١٩٤٢م دون أن يرى أحداً من الموتى يسكن هذا المنزل[٥].

وشهود يهوه اليوم لا يحددون لهذه الألفية زمناً، بل يكتفون بالقول إنها قريبة. ولهم نشاط كبير في الدعاية لأفكارهم، حتى إنهم يطبعون كتبهم بملايين النسخ، ويترجمونها إلى عشرات اللغات. وعددهم حوالي مليونان ونصف، ربعهم بالولايات المتحدة[٦].

فهاتان الجماعتان أدمجتا "الفكر الألفي" في معتقداتهم، كما فعلت جماعات "الهيبي"، وبعض الحركات بأمريكا الجنوبية[٧]. لكن مازالت توجد حركات أخرى حافظت على هذا الأمل في اقتراب زمان الألفية السعيدة، بحيث لا يشكل جزء من نسقها المذهبي،

---

(١) Ency. Uni. Article : l'Adventisme, 1/293-294 . اسم هؤلاء: Les adventistes de 7ème jour. (William Miller 1782-1849).

(٢) Ency. Uni. Art : L'adventisme, 1/294. المرأة: Ellen Gould Harmon

(٣) Ency. Uni. Art : Témoins de Jéhovah, 22/254. المؤسس: Charles Taze Russell 1825-1916

(٤) Ency. Uni. Art : Témoins de Jéhovah, 22/254.

(٥) Ency. Uni Art, Témoins de Jéhovah, 22/254. القاضي: J. F. Rutherford

(٦) Ency. Uni. Art, Témoins de Jéhovah, 22/254.

(٧) Ency. Uni, Art, Millénarisme, 15/376.



بل هو كل مذهبها ومحور أفكارها، وهي التي تسمى بـ : "الحركات الألفية" خاصة، Mouvements millénaristes . ويوجد منهم بالاتحاد الأوربي أكثر من ٣٠٠ ألف عضو، يتزايدون سنة بعد أخرى[(١)].

عام ٢٠٠٠م: عام النهاية.

وهذا من أحدث الأمثلة في موضوعنا هذا، لقد قال أحد العرَّافين: "خلال عام ١٩٩٩م، وتحديداً في تموز، ستقع أحداث كونية كبرى، ستهز البشرية كلها، وستكون أمراً عظيماً... ستكون إما انفجارات نووية، أو سقوط نيازك من السماء ستمس البشرية كلها، وستقضى على ثلاثة أرباع الحياة الإنسانية"[(٢)].

وقد اعتقدت طوائف من المسيحيين أن العالم سينتهي حوالي سنة ٢٠٠٠، أي على رأس الألفية الثالثة، فسارعت إلى الاستعداد لذلك بالانتحار واللحاق بالسماء. ومن الأمثلة المؤسفة لهذا ما وقع بأوغندا، يوم ١٧ أيّار ٢٠٠٠، حيث قامت الطائفة بتفجير الكنيسة وإحراقها في انتحار جماعي، وصل عدد ضحاياه إلى ٥٣٠ قتيلاً بما فيهم ٧٨ طفلاً. وكان من بين المنتحرين زعيم الطائفة الكنسية كيبويتر واثنان من معاونيه[(٣)].

المهدوية: عقيدة مستقبلية خطرة.

لم يعرف المسلمون مثل هذه الحركات الألفية التي كلما انتهى قرن أو أقبل إلا ورأت فيه موعدها المنتظر. ولئن وجد شيء من هذا ـ في التاريخ الإسلامي ـ فقد كان محدوداً، في زمانه ومكانه وآثاره.

لقد قامت عقيدة الغيب في الإسلام، والتي بمقتضاها لا يعلم المستقبل حقَّ العلم إلا الله تعالى، قامت بتحصين الأمة الإسلامية من هذه الأوهام، التي عوض أن تدفع بمستوى الحياة إلى الأحسن، إذا بها تهبط به إلى ما هو أدنى، فيعود ما هو قائم وواقع أفضل حالاً وأسلم مآلاً من هذا الأمر الموعود.

لكن بعض المسلمين فتحوا ثغرة في هذا البناء العقدي المحكم، وذلك بترويجهم لفكرة المهدي، وكان ذلك طريق الكثيرين للوصول إلى السلطة والحكم، والثورة على الحكام القائمين.

---

(١) Article, Irrationnel et Société, in : Le monde diplomatique, p 28. Septembre, 1997.

(٢) راجع اليومية الدولية العربية: "الحياة"، يوم ١٠ أيلول ١٩٩٧، الصفحة الأخيرة.

(٣) تناقلت وسائل الإعلام الدولية هذا الخبر في حينه. انظر مثلاً: Article : Uganda Cult blaze death toll put at 530. In : Arab News . Thursday 23 March 2000, page 3.



ملخص الفكرة:

المهدي ـ في الصيغة الأكثر انتشاراً ـ هو رجل يسمى محمد بن عبد الله، من ولد فاطمة بنت نبينا ﷺ، يظهر في آخر الزمان حين تكون الساعة وشيكة الحلول، فتظهر بعض أماراتها الكبيرة، ثم يحكم هذا الرجل مدة سبع سنين، تكون أمناً وسلاماً حيث يعم الخير، ويسود العدل، ويهيمن الإسلام على العالم. وفي عهده ينزل عيسى عليه السلام إلى الأرض، ويعينه في هذه المهمة[1].

والذين رسموا هذه الصورة، قالوا: إن هذا ما يتحصل من أحاديث مختلفة عن النبي ﷺ في هذا الموضوع، أهمها في سنن الترمذي وأبي داود وابن ماجة.

اختلاف العلماء في أحاديث المهدي:

قال السيوطي: "الأحاديث في المهدي مختلفة، وكذلك العلماء. ففي بعضها: «لا مهدي إلا عيسى بن مريم»، وأكثر الأحاديث على أنه غيره، وأنه من أهل البيت؛ ثم في بعضها أنه من ولد فاطمة، وفي بعضها أنه من ولد العباس..."[2].

وآراء العلماء في هذه الأحاديث ثلاثة:

الأول: تصحيح بعضها، وأن قصة المهدي حقيقية، وأنها ستقع كما أخبرت بذلك الأحاديث. وهذا رأي الكثيرين، خصوصاً من علماء الحديث.

وقد لخص السيوطي الأحاديث والآثار ـ عن الصحابة والتابعين ـ التي جمعها الحافظ أبو نعيم الأصبهاني، وأضاف إليها ما في كتاب الفتن للحافظ نعيم بن حماد شيخ البخاري، ثم زاد على ذلك ما تحصل عنده عن غيرهما، وجمع ذلك في رسالته: "العرف الوردي في أخبار المهدي"[3].

الثاني: تضعيف جميع أخبار المهدي. وهذا صنيع ابن خلدون في المقدمة، فقد جمع الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ في شأن المهدي، وأوردها بأسانيدها، ثم بيَّن موضع الضعف من كل سند، وبالاعتماد على أقوال أئمة الجرح والتعديل، وانتهى إلى الحكم على أحاديث المهدي جميعها بالضعف، بما في ذلك الحديث الذي يستدل به من يرد قصة المهدي، أعني حديث: «لا مهدي إلا عيسى بن مريم». فلا يصح في هذا الباب شيء، لا

---

(١) راجع: "باب في الخليفة الكائن في آخر الزمان المسمى بالمهدي وعلامة خروجه"، في كتاب التذكرة، لمحمد القرطبي، ٢/ ٢٨٧ إلى ٣٠٦.

(٢) الحاوي للفتاوي، ٢/ ٧.

(٣) وهي مطبوعة ضمن: الحاوي للفتاوي، ٢/ ١٢٣ إلى ١٦٦.

بالنفي ولا بالإثبات[1].

الثالث: أحاديث المهدي موضوعة مكذوبة. وهذا رأي جماعة منهم ابن عاشور[2]، والشيخ عبد الله آل محمود الذي كتب رسالة طويلة في رد قصة المهدي، وتكلم في طرقها على نحو ما فعل ابن خلدون، وسماها: "لا مهدي يُنتظر، بعد بعث الرسول محمد خير البشر"[3].

الشيخ أحمد بن الصديق الغماري يتعقب ابن خلدون:

وقد اشتهر بحث ابن خلدون وتلقاه الكثيرون بالقبول، فرأى الشيخ أحمد بن الصديق[4] أن يرد عليه، وقال: "لم أر أحدا تصدى للرد عليه فيما علمت، ولا بلغني ذلك عن أحد فيما رويت وسمعت". وجاء رده في كتاب أحسب أنه مخطوط لم يطبع، وعنوانه: "المرشد المهدي لرد طعن ابن خلدون في أحاديث المهدي"[5].

ذكر ابن الصديق في البداية نقولاً متعددة عن جمع من المحدثين الذين قالوا بصحة بعض أحاديث المهدي، بل قال بعضهم: إنها بمجموعها ـ أي ما بين الصحيح والحسن والضعيف فيها ـ تبلغ حد التواتر المعنوي. ولذلك تكلم الشيخ عن حد التواتر، وذكر جماعة الصحابة الذين أسندت إليهم أخبار المهدي، فبين مخارج هذه الطرق عن هؤلاء الصحابة واحداً واحداً[6].

ثم شرع في إيراد فقرات من كلام ابن خلدون والتعقيب عليها، وشغل هذا أكثر الكتاب[7]. فذكر كلام ابن خلدون في كل حديث على حدة وتعقبه.

---

(١) راجع: المقدمة، ص ٢٤٢ إلى ٢٤٥. ومن الذين ضعفوا أحاديث المهدي: الدارقطني والذهبي، بحسب ما في رسالة عبد الله آل محمود: "لا مهدي ينتظر"، المطبوعة ضمن مجموعة رسائله، ٣/ ٥٨٤.

(٢) التحرير والتنوير، ١/ ٦٢٨ (البقرة آية ١٠٠).

(٣) صرح الكاتب بأن هذه الأحاديث موضوعة في مواضع من رسالته، منها: ص ٥٤٤، وص ٥٤٧. راجع الرسالة ضمن "مجموعة رسائل عبد الله آل محمود"، ٣/ ٥٤٣ إلى ٦١٤. والشيخ هو رئيس الإدارات الشرعية بقطر، له كتب ومقالات مختلفة، منها دراسة فقهية عن التأمين. وهو من أهل البيت كما ذكر في رسالته.

(٤) هو أبو الفيض أحمد بن محمد بن الصديق، محدث حافظ، من طنجة بالمغرب، ثم هاجر إلى مصر وعاش بها. توفي سنة ١٩٦٠، كما في معجم المؤلفين، ١٣/ ٣٦٨.

(٥) ولهذا المخطوط عنوان آخر هو: "إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون".

(٦) راجع: المرشد المهدي، ص ٣ إلى ١٢.

(٧) مخطوط: المرشد المهدي لرد طعن ابن خلدون في أحاديث المهدي، ص ١٤ إلى ١٣١. وقارن ذلك بفصل: التحقيق المعتبر عن أحاديث المهدي المنتظر، في رسالة عبد الله آل محمود: "لا مهدي ينتظر"، ٣/ ٥٦٨ فما بعدها.

وفي هذا الرد نقول كثيرة عن المحدثين وتحقيقات متعددة في المصطلح، كمسائل رواية المبتدع، وحال الضعيف الذي تلقته الأمة بالقبول، وأحكام المتابعات والشواهد، والاختلاف في الجرح والتعديل، إضافة إلى بحث حال كثير من الرواة المختلف فيهم كعبد الله بن لهيعة، ورشدين بن سعيد، وأضرابهم.

ثم ذكر الشيخ ابن الصديق الأحاديث والآثار الواردة في المهدي غير تلك التي أوردها ابن خلدون ـ وعددها ثمانية وعشرون ـ فأوصلها جميعاً إلى مائة حديث وأثر، بعضها من كلام الصحابة أو التابعين(١).

قال أحمد بن الصديق ـ في حديث «لا مهدي إلا عيسى» والذي رواه محمد بن خالد الجندي، عن أبان بن صالح، عن الحسن البصري، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ ـ : "ليس الحديث من حيز الضعيف، بل هو باطل موضوع مختلق مصنوع، لا أصل له من كلام رسول الله ﷺ، ولا من كلام أنس، ولا الحسن البصري، وبيان ذلك وإيضاحه من وجوه..."(٢) وبهذا الإيضاح ختم الكتاب.

رأيي في الاختلاف في أخبار المهدي:

لا أدري كيف يتسرع المرء فيحكم بالوضع على أحاديث مذكورة في بعض الكتب الستة، وهي أصول الحديث عند المسلمين، وعليها ـ بعد الكتاب العزيز ـ مدار الدين.

إن الذي ينبغي أن نفهمه جيداً أنه علينا أن نختط طريقاً في قبول الأحاديث أو ردِّها، طريقاً منهجياً واضحاً. فإن تمَّ ذلك كان علينا أن نلتزم بآثار هذا المنهج، وإلا لم تعد له فائدة ولا مصداقية. والمسلمون حددوا قواعد الحديث الصحيح، ثم سبروا الأحاديث وقسموها على أساس من هذه القواعد.. فإذا وجد أحد خللاً في النتائج فإن عليه أن يبين لنا موضع النقص أو الخطأ في المنهج ذاته، وفي قواعده.

إننا إذا لم نلتزم بذلك، لن نتفق إلا على أحاديث معدودة، وذلك لأننا إذا فسحنا للنظر المتسرع مجالاً واسعاً لقبول الأحاديث أو ردها، كان كل أحد حرًّا في أن يقبل من الأخبار ما يشاء وأن يرد منها ما يشاء، فيبدأ بأخبار سنن ابن ماجة وأبي داود، ثم يذهب إلى أحاديث النسائي ومسلم، وأخيراً ينتهي باستعمال "ذوقه" لتمييز المقبول من أحاديث البخاري من المردود عنده.

---

(١) انظر: المرشد المهدي ص ١٣٩ إلى ١٦١.

(٢) المرشد المهدي، ص ١٦٣. انظر حول هذا الحديث أيضاً: العرف الوردي، ص ١٦٥. وقد أورد القرطبي حديثاً طويلاً في خروج المهدي من الغرب الأقصى، قال فيه السيوطي: لا أصل لذلك. انظر: العرف الوردي في أخبار المهدي، ص ١٦٦. التذكرة، ٢/ ٣٠٠.



وليس كل حديث إلا ويمكن فيه هذا، فهذا يرده لمخالفته ـ بزعمه ـ للقرآن، وذلك الحديث يضاده غيره، وذاك لا يقبله العقل السليم، والآخر يرده العلم ونظرياته، وهكذا كل من لم يعجبه حديث أبطله.

وأحاديث المهدي من هذا الباب لا وجه للحكم عليها جميعاً بالوضع، فهذا حكم شديد، وتسرع لا داعي له.

ولهذا كان موقف ابن خلدون ـ من هذه الحيثية ـ أقوى وأولى، فهو لم يقل إن أخبار المهدي موضوعة؛ لأنه ـ مثلاً ـ لاحظ آثارها السلبية في التاريخ الإسلامي، بل درسها حديثاً حديثاً، وبيَّن ضعفها من وجوه مختلفة كغفلة الراوي، أو سوء حفظه، أو تشيع قوي فيه، أو اختلاف في رفعه أو وقفه، وهذا المنهج سليم وصحيح، ولا يهم أأخطأ فيه ابن خلدون أم أصاب، فهذا اجتهاد في محله، لا ينكر على قائله، بل لا تبعد إصابته.

القول الوسط:

ذلك كان اجتهاد ابن خلدون في موضوع المهدي، وهو رأي جماعة من العلماء[(١)]. لكن القول بتصحيح أخبار المهدي هو قول الأكثر، ولعلك إذا درست هذه الأخبار لاحظت أن بعض أسانيدها مقبول، وأن مخارجها مختلفة، وطرقها متنوعة، وكل ذلك علامة الصحة.

لكن علماءنا اعتبروا مع ذلك أن الاعتقاد في المهدي أمر ثانوي ليس له كبير شأن ضمن العقائد الإسلامية، فليس هو من عقائد الدين الكبرى، ولا مما يجب أن يعلم من الدين بالضرورة، ولا أهمية له بالنسبة إلى حاضر الإسلام ولا إلى مستقبله القريب والمتوسط. وهذه اعتبارات العلماء في هذا الموقف:

١ ـ إن المهدي لم يرد له ذكر في القرآن الكريم الذي قص علينا كل شيء[(٢)]، حتى أخبرنا عن نملة سليمان عليه السلام وما وقع للهدهد معه، فلو كانت عقيدة المهدي مركزية في الدين لذكرها الكتاب الكريم، كيف وقد قال اللطيف الخبير: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

---

(١) منهم الشيخ رشيد رضا، فقد نقل رأي ابن خلدون وأقره، وبين ـ من جهته ـ ما في أخبار المهدي من الاختلاف والاضطراب والتهافت، كما قال. راجع: تفسير المنار، ٩/ ٤٦٠ إلى ٤٦٤، عند آية ٧٣ من سورة الأعراف.

(٢) انظر: "لا مهدي ينتظر بعد بعث الرسول محمد خير البشر"، ضمن مجموعة رسائل عبد الله آل محمود، ٣/ ٥٦٠.

٢ ـ ليس في أصح كتب الحديث ذكر للمهدي[1]، وأعني جوامع: البخاري ومسلم، ثم مالك والنسائي. ولو كان الاعتقاد في المهدي ديناً واجباً، أو ركناً في العقيدة، لأخبر به النبي ﷺ وألحَّ، ولكثرت الرواة عنه، ولتواتر، أو على الأقل لاشتهر، وإنما هي الآن أحاديث معدودات، ليس عن الطبقة الأولى من الرواة، اختلف فيها الناس ومازال الاختلاف قائماً.

ومن جهة أخرى، من المعلوم أنه يوجد خلاف بين علمائنا حول جواز استنباط العقائد من أخبار الآحاد.

٣ ـ ويتحصل من الكتب الأخرى التي أشارت إليه أن المهدي رجل من آل بيت النبي ﷺ، يكون في آخر الزمان، حيث تحدث الملاحم وتتتابع أشراط الساعة؛ ولذلك سيعاصر المهديُ الدجالَ وعيسى بن مريم، وتكون إمرته على الأمة حوالي سبع سنين.

فليس المهدي نبياً، ولن يأتي بوحي جديد، ولن يغير من شريعة الإسلام شيئاً، فلا يزيد فيها ولا ينقص، إنما هو رجل متبع للكتاب والسنة، اللذان هما بين أيدينا الآن.

فالمهدي ـ إذن ـ أشبه بزعيم أو مصلح ديني عادي، ولو أردتَ أن أضرب لك مثلاً يشبهه في تاريخ الإسلام، لقلت لك: إنه عمر بن عبد العزيز، رضي الله تعالى عن الجميع.

بدعة انتظار المهدي:

وعليه فإن انتظار المهدي، وبناء الآمال العظام على بروزه، وصرف الأزمان في الكسل والسلبية، بدعوى انتظاره، كل هذا بدعة في الدين وتحريف لروحه، وشيء لا يجوز.

لقد جاء في رواية أبي داود وابن حبان أن المهدي يمكث في المسلمين سبع سنين. ألحكم رجل سبع سنوات تتوقف حياة الأمة ويعلق مصيرها وتركد حركتها ويتوقف جهادها سبعين قرناً؟

التاريخ يشهد على صحة موقف أهل السنة: نموذج الإمامية.

اهتمام الشيعة خاصة بموضوع المهدي:

ولقد كان الشيعة هم أهم الفرق الإسلامية التي ضخمت من عقيدة المهدي، وأرادت أن ترهن مستقبل الأمة بأسرها لانتظار رجل قد يأتي بعد مائة ألف عام، فالله تعالى وحده هو الذي يعلم متى الساعة، وظهور المهدي من أشراطها الكبرى.

---

(١) لا مهدي ينتظر... ٣/٥٤٦.



لأجل هذا وضع الشيعة مئات الأحاديث في المهدي، حتى بلغت ألفاً ومائتي حديث عندهم[١].

ويظهر من كلام النوبختي ـ أحد رؤوس الإمامية في زمانه ـ أن عبد الله بن سبأ وأتباعه أول من قالوا ـ حين قتل علي ـ: إنه لم يمت، ولن يموت حتى يحكم العرب ويملأ الأرض عدلاً[٢].

ثم تتابع ظهور المهديين، وما أكثرهم في تاريخ التشيع. وكنت قد بدأت بإحصاء بعضهم من خلال كتب المقالات، وخصوصاً كتاب "فرق الشيعة" للنوبختي، ثم تركت ذلك لما تبين لي أنه تقريباً ما من رجل بارز من أهل البيت، إلا وقالت فيه طائفة من الشيعة حين مات: إنه لم يمت، ولن يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً[٣].

افتراق الشيعة في موضوع المهدي:

لكن الشيعة ـ وإن اتفقوا على خروج المهدي آخر الزمان ـ ، اختلفوا في أثر هذه العقيدة المستقبلية على حاضرهم هم، وما ينبغي عمله فيه. ويمكن أن أصنف هذا الاختلاف إلى ثلاثة آراء رئيسة:

الأول: رأي الزيدية، قالوا: إن الإمامة مستمرة في ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها إلى يوم القيامة، والمهدي هو حلقة فقط في سلسلة الأئمة. وكل واحد من نسل فاطمة رأى نفسه أهلاً للخلافة، وقام فدعا لنفسه، فهو إمام[٤].

ولذلك، فإن الإمامة لم تنقطع في الزيدية، إلا من أقل من نصف قرن، فيما يعرف بـ"ثورة اليمن"[٥]. لكن هذا الانقطاع شأن سياسي عارض، ولذلك يمكن دائماً أن تعود الإمامة في الزيدية.

وهذا الموقف من المهدوية كما ترى أقرب المواقف الشيعية إلى أهل السنة.

الثاني: رأي الإسماعيلية. وقد كان هؤلاء من أذكى الشيعة، ففهموا من وقت باكر أن عقيدة المهدوية والانتظار تؤدي بأصحابها إلى باب مسدود، فقالوا بعد وفاة إسماعيل بن

---

(١) لا مهدي ينتظر... لعبد الله آل محمود، ٣/ ٥٨٥، ٥٩٤.

(٢) فرق الشيعة، ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) راجع على سبيل المثال: فرق الشيعة، للنوبختي، صفحات: ٣٥ ـ ٣٦، ٤١، ٤٥، ٤٧، ٧٥ . . . .

(٤) انظر: الزيدية، لأحمد محمود صبحي، ص ١٠١، ١٠٤.

(٥) آخر أئمة الزيدية، من أسرة حميد الدين، هو: محمد البدر المنصور بالله، وقد أزيح عن الحكم يوم ٢٦ شتنبر ١٩٦٢م حين قامت الثورة وأعلنت الجمهورية، بدعم من مصر. انظر: "الزيدية"، ص ٥٩٨.

جعفر الصادق: إن الإمامة في عقبه إلى يوم القيامة. والأئمة نوعان: أئمة الظهور، حين تكون الدعوة الشيعية قوية، ولها سلطان، وهذا حال أئمة الفاطميين ـ أو العبيديين ـ بمصر. وأئمة الستر، حين تكون الشوكة ضعيفة، وهو دور الستر؛ ولذلك فإن الإمام الحالي للإسماعيلية كريم آغاخان هو: الإمام الخامس والخمسون.

لكن الإسماعيلية ـ كالزيدية ـ لم يتركوا لعقيدة المهدي أي أثر عملي على الحاضر. ولذلك كانت هاتان الفرقتان أكثر فرق الشيعة حركة وديناميكية وتأثيراً، فأسسوا دولاً وأمارات، بينما كانت الفرقة الأخرى تغط في نوم عميق في انتظار المهدي، وهي:

الرأي الثالث: الإمامية، وبالنسبة لهؤلاء ليس هناك شيء يمكن عمله، غير انتظار خروج المهدي[1]، فاعتزلوا جماعة المسلمين ومنعوا الجهاد، واشتغلوا ـ في انتظار المهدي ـ بوضع الأحاديث على النبي وآل البيت، وسب الصحابة وشتمهم، في الوقت الذي كان فيه غيرهم من المسلمين يبنون حضارة عظيمة، ويشيدون مدنية مزدهرة، ويسقط جندهم بالآلاف في المعارك مع الروم والترك والديلم والبربر.

المأزق التاريخي للإمامية:

والظاهر أن الإمامية في البداية كانت أقرب إلى الفرقتين الكبيرتين الزيدية، والإسماعيلية، يدل على ذلك أنهم كانوا ينقلون الإمامة من رجل إلى آخر، في آل البيت، بطريق التوارث، وساروا على ذلك مدة قرنين؛ ولذلك فإن سلسلة أئمتهم هي هكذا: علي، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي زين العابدين، ثم محمد الباقر، ثم جعفر الصادق، ثم موسى الكاظم، ثم علي الرضا، ثم محمد الجواد، ثم علي الهادي، ثم الحسن العسكري.

لكن المشكلة التي لم يتوقعها الإمامية، وهم الذين لا يجيزون انتقال الإمامة من الأخ لأخيه، إلا في حالة الحسن والحسين خاصة، وماعدا ذلك فإن الإمامة تنتقل إلى الابن، المشكلة طرأت حين مات الحسن العسكري سنة ٢٥٤هـ ولم يخلف أحداً، أي لم يولد له ولم يُعْقِب[2].

هنا ظهر للإمامية أن الحل هو ختم الإمامة، فقالوا: إن العسكري ترك طفلاً وليداً، وإنه غاب في مدينة سامراء العراقية، وإنه هو محمد المنتظر، هو مهدي آخر الزمان. ما العمل إذن؟ العمل هو انتظار عودة محمد بن الحسن العسكري.

وبهذا وقع الإمامية في مأزق خطر، لقد ظل هؤلاء قرنين من الزمان يقولون ـ في الرد

---

(١) انظر: فرق الشيعة، للنوبختي، عند كلامه عن الإمامية، ص ١٠٥ إلى ١٠٨.

(٢) راجع: فرق الشيعة، ص ٩٦ فما بعدها. الفصل، لابن حزم، ٣٨/٥.

على أهل السنة وسائر خصومهم الآخرين، كالمعتزلة، وفي إثبات وصاية النبي ﷺ لعلي بالإمامة ـ: إنه لا يجوز أن يترك الله سبحانه الأمة بلا إمام معصوم، فتختلف وتتهارج، وهل يعقل أن يبين الدين للناس كل شؤون حياتهم، ثم يدعهم يتخبطون ويتيهون في أخطر هذه الشؤون: الحكم والخلافة؟

كذا قالوا زماناً وأكثروا، ثم فجأة طلعوا على المسلمين، وقالوا لهم: لم يعد لكم إمام، لقد غاب، وعليكم انتظاره، وتدبروا أمركم أثناء ذلك. فجعلوا ـ كما قال ابن أبي العز ـ الإمام المعصوم هو الإمام المعدوم، الذي لم ينفعهم في دين ولا دنيا[1].

لقد كان هذا التناقض صارخاً ومؤلماً.

عصر التيه:

وكذلك قال عبد القاهر البغدادي عن إمامية القرن الخامس الذين عاصرهم: "هؤلاء اليوم حيارى في التيه"[2].

لقد دخل الإمامية في طور الانتظار منذ سنة ٢٥٤هـ ، زمن غياب الابن المزعوم للحسن العسكري، وطال الانتظار، ولم يظهر صاحب الزمان ! وبدأ الملل والسآمة يتسرب إلى بعض الإمامية، فتركوا المذهب وانضموا إلى الذين أقاموا "دولة المهدي" فعلاً، إلى القرامطة والإسماعيلية الذين كانوا في أوج سلطانهم.

وعمَّر هذا المأزق طويلاً، حوالي إحدى عشر قرناً، حتى عصرنا هذا، حيث اقترح بعض الإمامية حلًّا نسبياً لهذا المأزق.

ولاية الفقيه العامة: التفاف ذكي حول عقيدة انتظار المهدي.

جاء أحمد الخميني ـ من علماء الإمامية ـ ، ودرس مشكلة المذهب، واستفاد من اجتهادات من سبقوه في هذا الموضوع، فقدم حلًّا للوضع السلبي الذي طبع تاريخ الإمامية.

وهذا الحل بسيط، لكنه سمح بإطلاق الفرقة من إسار هذه العقيدة المستقبلية الخطرة، أي انتظار المهدي، وخلاصته: أنه يجب تمهيد الأرضية للمهدي، وإعداد الناس لظهوره، وكذا يجب تصريف شؤون الطائفة، وفق الفقه الإمامي، والذي يقوم بذلك هم علماء المذهب، الذين لهم نوع من الولاية على الجمهور، هي قبس من ولاية المهدي العامة. فالفقيه هو بمثابة نائب عن المهدي المنتظر، ولكنه يتمتع بأكثر صلاحياته، ولذلك ليس من حقه مثلاً إعلان الجهاد، فهذا من اختصاصات المهدي فقط.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ٢/ ٥٥٦.

(٢) الفرق بين الفرق، ص ٢٦٨.

قال الخميني: لا فرق بين ولاية المعصوم وولاية المجتهد العادل من حيث العموم والشمول. أجل إن منزلة المعصوم أرفع من منزلة المجتهد، ما في ذلك ريب، ولكن وظيفتهما واحدة حتى في السلطة والإمارة[1].

وقد اختلف الإمامية في هذا الاجتهاد على رأيين:

الأول: قبول الفكرة، وتحويلها إلى واقع، وهو ما تحقق في ثورة إيران سنة ١٩٧٩. ولذلك فإن دولة إيران حالياً هي دولة ولاية الفقيه، التي تمهد لظهور المهدي.

الثاني: رفض الفكرة، واعتبارها إما بدعة، وإما اجتهادا خاطئاً[2].

والاختلاف في مبدأ ولاية الفقيه سبب رئيس في النزاع الذي قام بين الخميني وخليفته السابق حسين علي منتظري، والذي اتخذ أحياناً بعداً وطنياً[3].

وهذا الخلاف يكشف لك عن استمرار المشكلة، ولذلك قلت: إن فكرة "ولاية الفقيه" قدمت حلًّا نسبياً وليس نهائياً للمأزق. تفسيره: أنك لو نظرت إلى الفكرة من الناحية التاريخية، وجدت أن "ولاية الفقيه" حل ذكي ومناسب لمأزق الطائفة، لكن لو نظرت إليها من الناحية المذهبية العلمية، أعني بعرضها على عقائد المذهب، ونسقه العام، وجدت أنها بدعة فعلاً. كل العقيدة الإمامية تنبني على انتظار المهدي، وعلى الارتباط بهذا الانتظار الذي يحكم أكثر شؤون الطائفة السياسية والثقافية والدينية والاجتماعية، حتى صلاة الجمعة أوقفوها انتظاراً للإمام. وأحاديث الإمامية كثيرة في التحذير من مدعي المهدوية، وفي التحذير من تجاوز هذا الانتظار؛ ولذلك يروون عن جعفر الصادق ـ كما في الكافي للكليني ـ أنه قال: كل راية قبل خروج المهدي فهي طاغوت. ويقول المعاصرون منهم: إذا قلنا بولاية الفقيه ماذا نترك للمهدي، وماذا سيفعل حين يظهر. ولذلك لم تعد الآن لفكرة المهدي المنتظر أهمية عملية في حياة الإمامية.

هذا خلاصة الموضوع: فكرة "ولاية الفقيه" حل ذكي للمشكلة التاريخية للإمامية، لكنه حلٌّ من خارج المذهب ومخالف لروحه، فهي أقرب إلى الحيلة العملية منها إلى الاجتهاد المذهبي السليم، وبذلك انتصر الفكر البراغماتي على العقل المبدئي.

---

(١) نقله محمد جواد مغنية في كتابه: "الخميني والدولة الإسلامية" ص ٦١.

(٢) راجع كتاب محمد جواد مغنية ـ وهو من الشيعة الإمامية الذين لا يرون ولاية الفقيه ـ: "الخميني والدولة الإسلامية"، خصوصاً صفحة ٥٩ إلى ٧٥، ففيه نصوص عن بعض علماء الإمامية الذين رفضوا فكرة الولاية العامة. ومحمد مغنية أصله من لبنان، له عدد من المؤلفات في التفسير وأصول الفقه.

(٣) راجع الصحف الوطنية والدولية لأيام ٢٧ تشرين الثاني ١٩٩٧ فما بعدها. منها: صحيفة الاتحاد الاشتراكي، ٢٨ تشرين الثاني ١٩٩٧. و١٤ كانون الأول ١٩٩٧.



وأحسب ـ والله تعالى أعلم ـ أن هذا المخاض الجديد للإمامية لم ينته بعد؛ لأنه من الصعب جدًّا أن تتخلص الطائفة ـ بشكل كامل ـ من آثار عقيدتها في المهدوية.

شبه عقيدة المهدوية ــ عند الشيعة ــ بفكرة المخلِّص اليهودية:

وقد سبق لبعض الباحثين الغربيين أن سجلوا هذه الملاحظة[١]. ومن الغريب أن فكرة المخلص تكاد توجد في جميع الأديان الكبيرة[٢]، لكنها كانت أوضح ما تكون عند اليهود. يقول الحاخام شوكرون: إن العصر الذهبي للإنسانية لا يقع في ماض غابر وغامض، كما يعتقد الوثنيون، بل في المستقبل[٣].

قبل ظهور المخلص تكون اضطرابات كبيرة في العالم، ويتجمع شتات اليهود في أرضهم الأصلية ـ يعني فلسطين ـ، فتتأسس هناك إسرائيل من جديد، ويجيء المخلص، فتعود الهيمنة إلى التوراة، وتصبح القدس عاصمة العالم الروحية[٤].

آنذاك فقط يتحقق التوحيد الحق، وترتفع مملكة الله في الأرض كلها، ويسود السلام العالم، ويتوقف القتال[٥].

ويقول شوكرون: إن اليهود لم يعترفوا بأن المسيح هو المخلص؛ لأنه لم يحقق السلام والأخوة في العالم، ولم يُقِم مملكة الله في أرضه؛ ولذلك نحن نقول: إن المخلص لم يأت بعد، فعلينا انتظاره، والكفاح لتقريب زمانه[٦].

وماذا عن محمد ﷺ؟ يقول كاتب مقالة "المخلص" بالموسوعة: "إن رسالة محمد هي ـ من بين كل آمال اليهود القديمة في المخلص ـ الحدث الأكثر فجاءة والأشد إحباطا لهم"[٧].

وهذا مصداق ما جاء في القرآن الكريم عن اليهود: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

---

(١) راجع (مقال مذهب انتظار المخلص): Encyclopaedia Universalis, article Méssianisme, 15/8

(٢) انظر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ١٧٦ ـ ١٧٧. Article méssianisme, 15/8.

وقارن ذلك بالفصل الطويل في بيان بشارات التوراة والإنجيل بمحمد، والذي كتبه رشيد رضا في: تفسير المنار، ٩/ ٢٢١ فما بعدها، الأعراف ١٥٧.

(٣) في كتابه: Le Judaïsme, doctrines et préceptes, p 60

(٤) Le Judaïsme, p 59- 60 .

(٥) Le Judaïsme, p 59- 60.

(٦) Le Judaïsme, p 61.

(٧) Article, messianisme, 15/8. والكاتب هو A. J. Lagrange

وقد انتقلت هذه العقيدة إلى المسيحية، حيث أصبح أصحاب هذا الدين الجديد ينتظرون عودة المسيح إليهم، أو ظهور مخلص آخر[١]. ويظهر أن المسيحيين الأوائل شغلوا كثيراً بهذا الموضوع[٢]. وهذا الانشغال لا يزال مستمراً في طوائف كثيرة من المسيحيين إلى اليوم، خصوصاً في طائفة المورمون التي تأسست بالولايات المتحدة سنة ١٨٣٠م، وفي أتباع إيرفين الذين استقلوا بكنيسة خاصة، فهؤلاء كلهم يعيشون على أمل أن يشهدوا عودة المسيح عليه السلام[٣].

الخلاصة:

إن الإسلام لا يربط الإنسان بمشروع قادم، ولا بأمل في مستقبل بعيد ومجهول، لا حقيقة له، ليس في هذا الدين مهدوية ولا ألفية ولا مملكة قادمة لأحد، الإسلام مذهب عام في الحياة، وضع للإنسان مبادئ نهائية، ورسم له الطريق، وطلب منه أن يحقق ذلك هو نفسه، والآن، لا أن ينقل ذلك إلى مستقبل لا يملك من أمره شيئاً.

أخطاء من تراثنا العلمي في توقع بعض أمور الغيب:

وهي ـ كما بدا لي ـ ليست كثيرة، ولعل سبب ذلك وضوح عقيدة الغيب في الإسلام والتزام المسلمين بمقتضياتها. وأختارُ من هذه الأخطاء نموذجين:

الأول: في عمر الدنيا:

فقد أولع بعض الناس بتحديد مدة بقاء الدنيا وتعيين وقت الساعة. ويذكر ابن تيمية أن أحدهم صنف كتاباً سماه "الدر المنظم في معرفة الأعظم"، أورد فيه عشر دلالات على زمان الساعة[٤]. وآخرون استخرجوا من حساب الجمل ـ الذي طبقوه على فواتح السور ـ أن النهاية تكون عام ثلاث وتسعين وستمائة[٥].

وهذا كله باطل متهافت، لكن يوجد رأي في تحديد عمر الدنيا استند فيه أصحابه إلى

---

(١) تكاد المسيحية تكون ديانة تاريخية تحمل رؤية نهائية عن مراحل الوجود البشري، وهذا ما شجع على ظهور الحركات الألفية والمخلصة وأفكار النهايات... راجع في الطابع التاريخي لهذا الدين: Histoire de la philosophie, 6/ p 7 à 9.

(٢) Courte histoire du christianisme, p 22.

(٣) Courte histoire du christianisme, p 99. وقد سبق تفصيل أوسع في الكلام عن "الجماعات الألفية بالغرب".

Edouard Irving واعظ اسكتلندي توفي سنة ١٨٣٤.

(٤) الفتاوى، ٤/ ٣٤٢.

(٥) الفتاوى، ٣٥/ ١٨٩.

بعض الأدلة، من الحديث خاصة، ومن أوائل هؤلاء وأهمهم: ابن جرير الطبري.

الطبري:

مهَّد الطبري لكتابه في التاريخ بمقدمة ذكر فيها مبتدأ الأمر والخلق ونحو ذلك، ثم تكلم على قدر مدة الدنيا، وأورد أحاديث وآثاراً كثيرة في ذلك، وفي الساعة وقرب زمانها، ثم صحح أن جميع عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، وهي رواية عن النبي ﷺ، وأن الخاتم بعث في الألفية السابعة.

وقال: إن عمر الأمة بعد نبيها ﷺ هو قدر نصف يوم، كما في بعض الأخبار، وذلك حوالي خمسمائة سنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[الحج: ٤٧].

ومما ينبغي ذكره هنا أن الطبري لم يعين للساعة أجلاً محدداً، فهو تجنب ذلك، واقتصر على بيان مدة بقاء الدنيا، وبالاستناد على راويات حاول الجمع بينها[١].

السهيلي:

وجاء السهيلي فأيد الطبري في كلامه، وعضده بحساب الحروف، فقال: إن الحروف المقطعة في أوائل السور يجمعها قولك: ألم يسطع نص حق ذكره.

ومجموع هذه الحروف بحساب أبي جاد ـ على الطريقة المغربية ـ حوالي ٩٣٠ سنة، بحسب مبدأ الجمع والعد: من مبعث النبي ﷺ، أو هجرته، أو وفاته، واعتبر السهيلي أن هذا هو الألف السابع، وهو الأخير في عمر الأمة[٢].

رسالة السيوطي: "الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف":

وقد وقع الأمر على خلاف ما ظنه الطبري والسهيلي، ومرت على الخمسمائة حوالي ضعفها، فما رأينا لا الساعة ولا أشراطها الكبرى. لكن السيوطي ـ في سنة ٨٩٨هـ ـ ألف رسالة في الموضوع، حين سأله بعضهم عما يروى عن النبي ﷺ أنه لا يمكث في قبره ألف سنة، وأن أحد أهل العلم ذكر أنه يقع خروج المهدي والدجال ونزول عيسى وسائر الأشراط في المائة العاشرة[٣]، أي ما بين عامي ٩٠٠ و٩٩٩هـ.

وقد أجاب السيوطي بأن الحديث المذكور باطل لا أصل له. ثم قال: "الذي دلت عليه الآثار أن مدة هذه الأمة تزيد على ألف سنة، ولا تبلغ الزيادة عليها خمسمائة سنة"[٤]. ثم إن عيسى يمكث في الأرض أربعين سنة حين سينزل، ويمكث الناس بعد طلوع الشمس من

---

(١) انظر في بحث الطبري كتابه: تاريخ الأمم والملوك، ١/ ص ٦ إلى ٩.

(٢) الروض الأنف، ٢/ ٢٩٥، عند الكلام على حادثة تحويل القبلة.

(٣) "الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف"، طبعت ضمن: الحاوي للفتاوي، ٢/ ١٦٦.

(٤) الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف، ٢/ ١٦٧.

مغربها مائة وعشرين سنة، وما بين النفختين ـ نفخة الصور الأولى ونفخة البعث ـ أربعون عاماً. قال السيوطي: "فهذه مائتا سنة لابد منها، ولا خرج الدجال.... ولا ظهر المهدي... ولا وقعت الأشراط التي قبل ظهور المهدي..."[1].

فإذا ضممتَ هذا إلى الآثار الدالة على أن النبي الكريم بعث في أواخر الألف السادسة، وأن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة.. تحصل لديك أن عمر الأمة يتجاوز ألف سنة، ولكنه لا يعدو ألفاً وخمسمائة سنة.

هذا نظر السيوطي ملخصاً، وباقي الرسالة هو حشد للأحاديث والآثار وتوجيه لها بما يدل على هذا الرأي[2].

ردود العلماء على هذا النظر:

وكما أخطأ الطبري في اجتهاده. أخطأ السيوطي أيضاً، ورغم أننا لم نصل بعد إلى عام ١٥٠٠هـ، إلا أنه من الواضح أن هذا العام ليس عام النهاية، ودليله ما أورده السيوطي نفسه من أن بين يدي الساعة أمارات وأشراط لا يقل زمانها عن مائتي سنة.

وأكثر العلماء لم يرتض هذا السبيل في تعيين تاريخ للقيامة، حتى بهذا الإجمال والاحتياط في مثل كلام السيوطي الذي حصر نهاية عمر الأمة فيما بين الألف سنة والألف والخمسمائة سنة.

وهذه مآخذ الجمهور:

١ ـ إن زمن الساعة غيب أخفاه الله سبحانه عن خلقه، فلن يعرفوه بالقطع ولا بالظن، ولذلك تأتي القيامة بغتة ولا يتوقعها الناس، وآراء الطبري والسهيلي والسيوطي ـ ومن سلك مسلكهم ـ مآلها إلى تحديد زمن للساعة[3].

٢ ـ إن الأخبار الصحيحة في قرب الساعة ـ مثل قول الرسول ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ـ وجمع بين إصبعيه ـ ليس فيها تحديد لوقت قيام الساعة، بل تقريب الوقت فقط[4].

قال ابن حزم: "قد جاء النص بأن الساعة لا يعلم متى تكون إلا الله عز وجل لا أحد سواه، فصح أنه عليه السلام إنما عنى شدة القرب لا فضل الوسطى على السبابة. وله عليه السلام مذ بعث أربعمائة عام ونيف، والله أعلم ما بقي من الدنيا. فإذا كان هذا العدد العظيم

---

(١) الكشف، ٢/١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) راجع رسالة السيوطي: الكشف ٢/١٦٨ فما بعدها.

(٣) انظر: أحكام القرآن، للجصاص، ٢/٤٨، الأعراف ١٨٨. الفصل، لابن حزم، ٢/٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(٤) أحكام القرآن، للجصاص، ٢/٤٨ ـ ٤٩.

لا نسبة له عند ما سلف، وتفاهته بالإضافة إلى ما مضى، فهذا الذي قاله عليه السلام من أننا فيمن مضى كالشعرة في الثور.."[1].

قال رشيد رضا ـ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧] ـ: "القرب والبعد من الأمور النسبية، والمراد قربها بالنسبة إلى ما مضى من عمر الدنيا، ولا يعلمه إلا الله تعالى"[2].

٣ ـ إن الأحاديث والآثار التي يستدل بها على تحديد عمر الدنيا لا تصح، وهي معارضة بأخرى. قال ابن حجر ـ بعد أن حكى إنكار الداودي على الطبري ـ: "وأما إنكاره عليه استخراجَ وقت الساعة، فهو معذور فيه، ويكفي في الرد عليه أن الأمر وقع بخلاف ما قال، فقد مضت خمسمائة ثم ثلاثمائة وزيادة. لكن الطبري تمسك بحديث أبي ثعلبة رفعه: "لن يعجز هذه الأمة أن يؤخرها الله نصف يوم"، الحديث أخرجه أبو داود وغيره، لكنه ليس صريحاً في أنها لا تؤخر أكثر من ذلك. والله أعلم"[3].

ثم قال ابن حجر ـ في موضع آخر ـ[4]: إن البخاري رجح أن خبر أبي ثعلبة موقوف لا مرفوع، فهو ليس من كلام الشارع. وبحث الحافظ كثيراً من الروايات التي ساقها الطبري فضعفها وعلل ذلك[5].

وقال بعض من رد على السيوطي: "القول بتعيين مدة الدنيا من أولها إلى آخرها بأنه سبعة آلاف سنة لم يثبت فيه نص يعتمد عليه، وغاية ما فيه آثار عن السلف، وإن كانت لا تقال إلا عن توقيف، فلعلها مأخوذة عن أهل الكتاب، وفي أسانيدها مقال"[6].

بل توجد آثار أخرى تعارض هذه، وفيها أن مقدار عمر الدنيا خمسون ألف سنة[7].

٤ ـ أما حساب أبي جاد فلا يصح. قال ابن حجر: "الذي جنح إليه السهيلي لا ينبغي الاعتماد عليه، لشدة التخالف فيه"[8]. وقد "ثبت عن ابن عباس الزجر عن عدِّ أبي جاد،

---

(١) الفصل، ٢/ ٢٥٨.

(٢) المنار، ٩/ ٤٣٢، الشورى ١٧.

(٣) فتح الباري، ٩/ ٤٦٧، حديث ٤٧٧٨. باب سورة لقمان من كتاب التفسير.

(٤) فتح الباري، ١١/ ٣٥٠ ـ ٣٥١. كتاب الرقاق، باب قول النبي: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

(٥) راجع: فتح الباري، ١١/ ٣٥٠ ـ ٣٥١.

(٦) نقله رشيد رضا ـ وأقره ـ في: تفسير المنار ٩/ ٤٤٠، ٤٤٢. وانظر: الفصل، لابن حزم، ٢/ ٢٥٧.

(٧) فتح الباري، ١١/ ٣٥٢. تفسير المنار، ٩/ ٤٤٠.

(٨) فتح الباري، ١١/ ٣٥٣. راجع في آراء العلماء في الحروف المقطعة أوائل السور، هل هي من المتشابه أم لا، وعلى القول الثاني ماذا يكون معناها...: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ١/ ٢٢١ إلى ٢٢٦.



والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر. وليس ببعيد، فإنه لا أصل له في الشريعة"[1]. وقد أبطله العلماء، ومنهم أبو بكر بن العربي[2]. قال ابن حجر: وعلى تسليم هذا الحساب لا يصح ما قال السهيلي. ثم بين وجه ذلك بالحساب[3].

والخلاصة أنه لا سبيل إلى تحديد مدة بقاء الدنيا، فقد يكون بقي من عمرها ألف عام، كما قد يكون بقي لها مائة ألف عام، والله تعالى وحده يعلم ما يكون[4].

الثاني: في تحديد زمن هيمنة الإسلام على العالم كله.

والذي وقفت عليه من هذا الباب كتاب الشيخ أحمد بن الزبير، وهذا تعريف عام بالكتاب وبصاحبه:

المؤلف أحمد بن الزبير الثقفي:

ولد المؤلف سنة ٦٢٧هـ. ودرس علوم اللغة والدين والتاريخ على علماء وقته بغرناطة، وسافر إلى عدد من البلاد طلباً للعلم، وكان كثير الصلات بأهل عصره، ثم صار ابن الزبير من كبار علماء زمانه بالأندلس والمغرب، حتى ارتحل إليه الناس وتخرج على يديه تلامذة كثر، لذلك يلقب بشيخ الجماعة. ومن تلاميذه المشهورين: أبو حيان صاحب التفسير.

وأكثر تآليف ابن الزبير - وهي عديدة - ضاعت، وهو يعرف اليوم بكتابين مطبوعين، هما: ملاك التأويل، القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، في توجيه متشابه اللفظ من آي التنزيل. والآخر هو: البرهان في ترتيب سور القرآن[5]. وقد توفي الشيخ رحمه الله تعالى عام ٧٠٨هـ.

ظروف تأليف الكتاب:

عرف القرن السابع الهجري هزيمتين كبيرتين للمسلمين: الأولى بالأندلس، وهي هزيمة العقاب سنة ٦٠٩هـ، والتي تعتبر بداية نهاية الوجود الإسلامي بالأندلس. والثانية: دخول التتار إلى بغداد عام ٦٥٦هـ.

---

(١) فتح الباري، ١١/ ٣٥١.

(٢) فتح الباري ١١/ ٣٥١.

(٣) راجع إن شئت: فتح الباري، ١١/ ٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٤) راجع كلام ابن خلدون في: المقدمة، فصل في ابتداء الدول والأمم، ص ٢٤٧ فما بعدها.

(٥) من مقدمة المحقق، ص ٧ إلى ١١: "الزمان والمكان". وراجع كلام الأستاذ مشهداني عن الكتاب الأول في دراسته القيمة: الإعجاز بالنظم، وأثره في الدراسات القرآنية، ص ٥٨٦ إلى ٦٠٠.

وكان ابن الزبير ممن مسته آثار الهزيمة الأولى، فبعد العقاب سقطت مدينته الأصلية جيان، فهاجر به أبوه إبراهيم الثقفي مع زوجه، وكان عمر أحمد ـ المؤلف ـ آنذاك ستة عشر ربيعاً[١].

ولذلك يقول محقق المخطوط ـ الأستاذ محمد بن شريفة ـ : "لاشك في أن المحن التي حلت بالأندلسيين في هذا القرن كانت من هواجس أبي جعفر أحمد بن الزبير منذ نشأته، وهي التي دفعته إلى التأمل في مصير الإسلام ومستقبله، وكانت من أسباب تأليف هذه الرسالة الفريدة"[٢].

لكن في وسط هذا الوضع المظلم لمعت بارقة أمل، حين انتصر الأمير النصري ـ محمد الثاني ـ على المسيحيين، وفتح قيجاطة سنة ٦٩٥هـ. فرأى كثير من الأندلسيين في هذا الانتصار مقدمة لاسترداد ما ضاع من الأندلس[٣]. وكان من هؤلاء ابن الزبير الذي كتب ـ لدعم هذا المشروع ـ كتابه:

تعيين الأوان والمكان للنصر الموعود به في آخر الزمان، مستقرأ من صحيح السنة ومحكم القرآن:

وهذا الكتاب هو الذي حققه الأستاذ ابن شريفة ونشره بعنوان مختصر هو "الزمان والمكان"[٤].

وهذا أهم ما جاء في هذا الكتاب الفريد من نوعه في تراثنا الإسلامي:

* بدأ ابن الزبير كتابه بعرض اقتناعه بأن انتصار أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر فاتحة سلسلة الانتصارات التي ستنتهي بفتح القسطنطينية ـ عاصمة البيزنطيين آنذاك ـ، وذلك بناء على أدلة وقرائن رآها.

قال ابن الزبير: "اعلم أولاً أن معجزات القرآن وآياته العظام لا تنحصر ولا تحصى، ومن جملتها ما انطوى عليه من الغيوب". إلا أن هذا منه ما هو واضح لائح، "ومنه ما فيه إشكال وغموض، وكثير منه لا يعثر عليه إلا آحاد ممن جد في الاعتبار، وأخلص في السريرة والإضمار". والذي يحاوله ابن الزبير من الغيب المتوسط، لا هو واضح، ولا هو مغلق[٥].

---

(١) عن مقدمة محقق كتاب "الزمان والمكان"، ص ٦.

(٢) مقدمة التحقيق، ص ٦. والأستاذ كاتب ومؤرخ مغربي، عمل محافظاً للخزانة العامة بالرباط، له كتب عديدة، خصوصاً في تحقيق التراث الأندلسي.

(٣) مقدمة التحقيق، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٤) انظر: مقدمة المحقق، ص ١٩.

(٥) الزمان والمكان، ص ٤٩.

* فمن الأدلة القرآنية على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. وقد قيل: إن الأرض هنا هي الشام، لكن الصحيح ـ يقول ابن الزبير ـ أن المقصود بالأرض الدنيا، وكل أرض؛ لأنه لفظ عام[١].

ثم ليس المعني في قوله: ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الصحابة، وإن كانوا أول المخاطبين بالقرآن، وإلا لقال كما في الآية الأخرى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧]. فـ ﴿يَرِثُهَا﴾ أمر لم يكن بعد، فهو منتظر.

وقال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠]، "وهذا على إطلاقه لا يتعين بوقت دون وقت"[٢]. ثم قال سبحانه: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾[الفتح: ٢٠]، وهي فتح فارس. ثم قال: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ [الفتح: ٢١]، وهي فتح الروم. فأما الأول فتم وانتهى، وأما الفتح الثاني فلا.

وكذلك قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ [طه: ١٣٥]، فالخطاب للجميع إلى يوم القيامة، ولذلك قال: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ [طه: ١٣٥]، فهذا "وعيد واقع لا محالة، ويلزم الختم به وتأخيره، وإلا لبقيت أمة وقرن غير داخلين تحت شيء من حكمه، وهذا لا يمكن"[٣]. واستدل لهذا وأطال، وحاصله: أن ما جاء في القرآن بحرف السين، مما هو تهديد للكافرين ووعد للمؤمنين، لابد أن يشمل حكمه كل مؤمن إلى قيام الساعة؛ لأن القرآن خطاب لكل مؤمن.

ومقصود ابن الزبير من إيراده للآيات السابقة ـ ولغيرها ـ وتفسيرها أن يبين أن القرآن ينص على بشارات قادمة لم تتحقق في عهد الصحابة، وأن منها التغلب على الروم؛ ولذلك انعطف إلى ذكر بعض الأحاديث التي تدعم ذلك، منها حديث مسلم في كتاب الفتن عن أبي هريرة رفعه: «قد مات كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله».

وتمام فتح الروم بالسيطرة على مدينتي روما والقسطنطينية، قال ابن الزبير: "والله أعلم بالكيفية في فتح هذين القطرين، أمِنْ جهة صقعنا الأندلسي، أم من الجهة الشامية؟ ولعلها مجتمع الفئتين وملتقى البحرين، إذَّاك أوان ظهور المهدي رضي الله عنه، وإنما يكون بمقتضى روايات الأثبات في تلك الجهات، ولعل أخذ الروم يكون من الطرفين، والله أعلم"[٤].

---

(١) الزمان والمكان، ص ٥٠.

(٢) الزمان والمكان، ص ٥٤ .

(٣) الزمان والمكان، ص ٥٧.

(٤) الزمان والمكان، ص ٦١.

ثم فصل ابن الزبير الحديث في إبطال احتمال أن يكون المقصود بالفتح المذكور ـ في الأخبار ـ فتح الشام الذي كان في عهد الصحابة، وصحَّح أن المقصود هو الفتح الكبير لبلاد الروم، والمذكور في ملاحم آخر الدنيا. وقال: إن مقتضى الأحاديث الصحيحة أن فتح الروم هو فتح استئصال واستيلاء، بينما كان فتح الشام الأول فتحاً محدوداً ترك أكثر بلاد الروم تحت سيطرتهم.

* هذا كله في تقرير أن فتح الروم الذي وعد به الكتاب والسنة بشارة عن المستقبل، لا خبر عن الماضي.

بعدها أخذ ابن الزبير يبين أن هذا الفتح سيكون مبتدؤه بالمغرب، لا بالمشرق. قال: "الباب الأول: يتضمن ما ورد عن النبي ﷺ مما يفهم عنه فضيلة هذا الصقع الأندلسي بقياس أو فحوى أو إشارة، وما يشهد لذلك من أحوال أهله وسيرهم وكثرة علمائهم وانتشار فضائلهم، وإن ذلك كله إذا ثبت قوي الظن والرجاء في كون الفتح المنتظر والنصر الموعود به يكون من جهتهم"[١]. وذكر أخباراً أمثلها حديث لا يزال أهل الغرب ـ وفي رواية: أهل المغرب ـ ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة[٢].

وفي حديث آخر: "إن الفتنة تجيء من ها هنا" وأومأ النبي الكريم نحو المشرق[٣]. والذم للمشرق ـ إن قيل بالمفهوم ـ يشعر بأن المغرب على الضد من ذلك.

فهذه دلالة من جهة المفهوم، أما الدلالة من جهة الشمول والعموم، فمن قوله ﷺ: «اللهم بارك لنا في شامنا[٤]...» فذكر الشام يحيل على الأندلس، فهما جهة واحدة، والأندلس من الشام، اتصالاً واتصافاً وحالاً وحكماً. ثم علل ابن الزبير عدم التنصيص على اسم الأندلس في هذا الحديث.

* فإذا تم لابن الزبير الاستدلال بالنصوص على أن مبتدأ الفتح الكبير يكون من الأندلس، انتقل إلى قول آخر، وهو أن هذا الفتح سيبدأ ـ أو هو قد بدأ ـ على يد السلطانين النصريين: محمد الشيخ وهو محمد الغالب، وابنه محمد الفقيه، وهو محمد الثاني. وهما **من سلالة الأنصار.**

ولأجل هذا الغرض بدأ ابن الزبير ببيان فضيلة الأنصار وما ورد فيهم من الأحاديث...

---

(١) الزمان والمكان، ص ٦٥.

(٢) أخرجه مسلم: ١٩٢٥ ، في كتاب الإمارة بلفظ: أهل الغرب .

(٣) رواه الشيخان في كتاب الفتن من صحيحيهما.

(٤) رواه الشيخان في كتاب الفتن من صحيحيهما.



ثم قال: "والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وقد حصل مما ذكرنا من الآيات والأحاديث تخصيصهم رضي الله عنهم بحبه ﷺ، ودعائه لهم ثم لأعقابهم، وفضيلتهم بالسبقية والإيواء والنصرة"(١). ومن هذا انتقل إلى بيان أن "ما ثبت لسلفهم من الخصائص والمآثر والحب والدعاء لهم مرعي موجود في صالحي خلفهم إلى يوم القيامة"(٢).

ومقصد ابن الزبير هو جمع الناس على الأمير الأنصاري، في بلد كان ضحية للتطاحن على الحكم والسعي إلى السلطة؛ ولذلك يدعو ابن الزبير إلى الاجتماع على الأمير المذكور وإنقاذ الأندلس، فالرجوع إلى الأنصار عند الأزمات والشدائد سنة ماضية، كما فعل النبي ﷺ ـ يوم حنين ـ ونادى: يا معشرَ الأنصار. ثم إن "الاستغاثة بخلف الأنصار استنان بسيد الأبرار؛ لأنه إذا عُدم السلف رجع إلى من بعدهم ممن استن بسنتهم وحذا حذوهم من الخلف، والاقتداء بأفعاله ﷺ وأقواله وأعماله وإقراره سنة لا يعدل عنها إلا مخذول"(٣).

* في تعيين زمان الفتح الموعود، وتأكيد أن بدء الفتح الكبير من الأندلس.

ذكر ابن الزبير تعلق بعض العلماء ـ كالسهيلي ـ بحساب حروف فواتح السور، وأن ذلك قد ينشئ ظناً، وصحح أنه لا حرج في هذا، ولذلك فقوله سبحانه في الساعة: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأعراف: ١٨٧] "إنما يمنع الاطلاع المتيقن وادعاءه، ولهذا لم يقع لأحد من المتشرعين ادعاء تعيين الوقت قطعاً، وإنما حوَّموا على ظن" (٤).

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ١ ـ ٤]. فهذه الآية الأخيرة إشارة إلى انتهاء دولة الروم؛ لأن العدد الحاصل من حروف قوله: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ هو: ٦٦٢. وإذا اعتمدنا التأريخ من الهجرة النبوية كان ذلك موافقاً لتاريخ بدء الأمير الغالب بالله في محاربة الروم. قال ابن الزبير: "والبضع واقع على موضوعه لغة، وذلك بصرف العدد إلى المئات لا إلى الآحاد، فكأنه على حذف مضاف، أي في بضع مئي سنين"(٥).

وقوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ لفظ عام، وما حمله عليه المفسرون من أن المقصود به انتصار الفرس صحيح، لكن عموم العبارة يسع هذا وغيره الذي ذكرته من هزيمة الروم بالأندلس. وإنما جاءت الآية بلفظ الماضي تحقيقاً للأمر.

---

(١) الزمان والمكان، ص ٧٣.

(٢) الزمان والمكان، ص ٧٣.

(٣) الزمان والمكان، ص ٧٩.

(٤) الزمان والمكان، والعنوان الأصلي: "تعيين الأوان والمكان للنصر الموعود به في آخر الزمان، مستقرأ من صحيح السنة ومحكم القرآن"، ص ٨٣.

(٥) الزمان والمكان، ص ٨٥.

أما قوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، فلا يعين أنهم غالبون كل هذه المدة التي مضت ـ وهي ٦٦٢ سنة ـ ، فيجوز أن تكون الحرب سجالاً، وأن تكون بعض الغلبة عليهم، وإنما يمنع ـ من الآية ـ أن يكون الأمر عليهم بالكلية.

ولذلك جاء قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، "ولعله إشارة إلى ما يقع من عظيم الفتح المبشر به الذي يقصر عنه ما قبله، سنة إحدى وسبعمائة، بما تعطيه طريقة الاعتبار المتقدم من إشارة هذه الحروف، والله أعلم بما أراد"(١).

والأندلس أرض متصلة ببلاد الروم، وهي أولى ما يقع عليه قوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾، لانقطاعها عن ديار المسلمين، بخلاف الشام فهي ـ وإن اتصلت بالروم ـ مدعومة ومسندة بديار المسلمين يعينونهم وينصرونهم، ثم إن الأندلس شامية بالاتصال والصفات والخواص ومخالطة العدو المذكور.

قال ابن الزبير: "فالأمر إن شاء الله يمشي في أخذ الروم من طرفيهم ـ كما بدأ أولاً حين فتحت الشام والأندلس ـ حتى يتلاقى المسلمون على القسطنطينية بحول الله"(٢).

والذي جعل ابن الزبير يقول بهذا هو استرداد المسلمين ـ حوالي ٦٩٠هـ ـ لعكا وطرابلس الشام من أيدي الصليبيين.

* وقد خصص ابن الزبير باباً ذكر فيه بعض الأحاديث الواردة في الفتن والفتوح الكائنة في آخر الزمان، وأن من آخرها قتال الترك ثم الروم. وفي باب آخر أورد بعض البشارات في فضل متأخري الأمة، ومنه انعطف إلى سورة النصر، واستخرج من حساب حروف آية ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ﴾ [الفتح: ١]، وهو ٦٩٢، أن هذا نفسه تاريخ بدء الأمير الثاني في الاستعداد لمحاربة روم الأندلس بادخار الأقوات وجمع السلاح واستنصار المسلمين.

فآية الروم: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، وحروفها ٦٦٢، تعطي مدة غلبهم وظفرهم وهيمنتهم، وآية النصر: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ﴾، وحروفها ٦٩٢، تعطي تاريخ ابتداء اندحارهم وانهزامهم، فلا تعارض بين الآيتين.

وإلى هذا ـ وسواه ـ الإيماء بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

---

(١) الزمان والمكان، ص ٩٠. قال المحقق: "لم يقع شيء مما بشر به المؤلف. وكل ما وقع في السنة المذكورة هو وفاة السلطان محمد الفقيه، وكان يستعد للقيام بحملة واسعة على قشتالة". من هامش الصفحة.

(٢) الزمان والمكان، ص ٩٢ ـ ٩٣.



اعتراض:

فلو قلت: إن هذا الاجتهاد كان يصح لو كانت الأندلس كل بلاد الإسلام، فكيف وهي جزء منه فقط. أجابك ابن الزبير: "الجواب: إن بلاد الروم على انتشارها وتباعد أطرافها وتكاثف بلادها إنما تتصل ببلاد المسلمين من طرفيها الشامي والأندلسي كما تقدم. والجهة الأندلسية أمكن في مجاورتها وأوغل في الاتصال والقرب، فكان القطر الأندلسي من حيث ذُكِرَ هو كل معمور الإسلام، وإذا كان على ما ذكرنا فلا توقف في إمكان ما قدمناه"(١).

أصول ابن الزبير في اجتهاده هذا:

قال شيخ الجماعة: "لا يقال في شيء من الإخبارات مما سبيله ما ذكرناه: إنه غيب استأثر الله بعلمه، بل هو مما أعلم سبحانه به، وخص من شاء من عباده بفهمه والاطلاع عليه، فمن يسر له من فهمه شيء ولم يخرج في استقرائه عما تقدم، فليس بمتخرص ولا متقول، بل هو معتبر مستنبط مثني عليه شرعاً إن خلصت نيته... وكل ما جعل الله تعالى عليه دليلاً من كتابه أو إخبار رسوله جلياً أو خفياً، فليس من الغيب الذي استأثر الله سبحانه بعلمه. وإنما المذموم عند علماء الشريعة ادعاء الاطلاع على شيء من ذلك من غير الطريق المتقدم، أو على ما هو غيب استأثر الله بعلمه"(٢).

وقد اعتمد ابن الزبير في استنباطه هذا طريقين:

١ ـ إبقاء النصوص على عمومها وإطلاقها، وعدم حصرها في أسبابها المباشرة التي يذكرها عامة المفسرين، وكذا استعمال إشارات اللفظ والفحوى والعمومات.

وقد دافع ابن الزبير عن هذا الطريق وصححه مادام استعماله يجري على قوانين النظر ومقتضى اللسان العربي وتسلمه أصول الشريعة.

٢ ـ حساب أبي جاد وفواتح السور، فهذا ـ عنده ـ لا ضير فيه مادام في إطار الظن والتخمين.

ومسلك ابن الزبير في الطريق الأول صحيح على الجملة، ولكن عدم تحقق شيء مما توقعه يكشف عن صعوبة هذا النوع من النظر وكثرة أخطائه، وأن أقصى ما فيه ظنٌّ يصيب قليلاً ويخطئ كثيراً.

هذا مجمل ما جاء في الكتاب الذي أنهاه ابن الزبير رحمه الله تعالى عام ٦٩٥هـ. ولم يتحقق ما ذكره فيه، فقد سقطت الأندلس، وفتح السلطان محمد الثاني ـ رحمه الله تعالى ـ

---

(١) الزمان والمكان، ص ١١٢.

(٢) الزمان والمكان، ص ١١٦ ـ ١١٧.

القسطنطينية بعد زمان ابن الزبير بحوالي قرنين، في ظروف أخرى لا صله لها بما توقعه الشيخ. أما فتح روما فوعد نبوي لم يتحقق بعد، وقد يتم عبر الأندلس، كما قد يتم بطريق آخر، من البحر، أو عن طريق شرق أوربا، أو غير ذلك، كأن يتم الفتح من الداخل بانتشار الإسلام فيها. والله تعالى أعلم.

وعدم تحقق هذه التوقعات ـ وغيرها كثير ـ يجرنا إلى طرح هذا السؤال:

المبحث الثاني: لماذا لا نعرف المستقبل؟

لماذا أخفى الله غيب المستقبل عن الإنسان؟

لم أصادف فيما قرأته عن الغيب والمستقبل كلاماً كثيراً في هذا الباب. ومن ذا يحيط بحِكَم الله تعالى في الوجود، أو يعرف ألغاز هذا الكون الصامت، لكن فيما وجدته في المسألة بعض الكفاية:

١ ـ من هذه الحكم: أن الإنسان لو كان يعرف طريق حياته في المستقبل لأصبحت حياته نكداً دائماً، فإن كان الذي يأتي خيراً تعب الإنسان في انتظاره واحترق شوقاً إلى بلوغه، وإن كان شرًّا شوش باله وأقلق راحته، ولم يجد لحاضره متعة ولا فائدة.

نقل الخطيب عن ابن المعتز كلاماً يوافق هذا، قال: "لو أمكن أن لا يخطئ الناظر في أحكام النجوم لنفسه أو لغيره لكان في ذلك تنغيص للعيش[1]، وتكدير لصفوه، وتضييق لمنفسح الآمال، التي بها قرت الأنفس، وعُمرت الدنيا، ولم يَفِ ما يرجى من الخير ما يتوقع من الشر؛ لأن بعضاً لو يعلم أنه يموت إلى سنة لم ينتفع بشيء يكتسبه من دنياه، ولا صحة يمتنع بها قبل ذلك، وهذا لا يشبه تفضل الله وإحسانه ورأفته بخلقه، ولو أن الناظر فيها علم أنه لا يموت مائة سنة، وأنه يملك فيها ما ملك قارون، ويكون على غاية الصحة، لبطر وما انتهى عن لذة ولا فاحشة، ولا تورع عن محرم، ولا اتقى حتفاً هاجماً، ولا زوالاً من نعمة؛ اتكالاً على ما علم من عمره وحاله، ولفسدت الدنيا بذلك فسادَها بإهمال الناس لو تركوا من أمر الله ونهيه، ولأكل بعضهم بعضاً، ولعل أحدهم أن يؤخر التوبة إلى يوم أو ساعة أو سنة قبل موته، فيتحاذق على ربه، ويدخل الجنة بتوبته، وليس هذا في حكمة الله ـ عز وجل ـ وصواب تدبيره، فلا شك أن الخير فيما اختاره الله لنا من طي علم ذلك عنا، وله الحمد على جميل صنعه ولطيف إحسانه"[2].

---

(١) يعني لو كان التنجيم يصيب فعلاً ويكشف عن المستقبل، لكان من نتائج ذلك ما يلي...

(٢) القول في علم النجوم، ص ١٩٧ ـ ١٩٨. وعبد الله بن المعتز بن المتوكل، أديب وشاعر، تولى الخلافة يوماً وليلة، ثم خلع. توفي سنة ٢٩٦هـ.

وقال شيشرون: "أظن أن معرفة الأحداث المقبلة لا فائدة من ورائها... (و) من المحقق أن الجهل بمتاعب المستقبل أجدى على الإنسان من معرفتها"[1]. ولذلك وضع الفيلسوف اليوناني دكياركوس مجلداً ضخماً يقيم فيه الدليل على أن جهلنا بالمستقبل خير من معرفتنا به[2].

يقول شيشرون لمحاوره كونتوس: "خبرني أي فائدة كان ينتظر أن يجنيها[3] عند ما كان في أوج قوته وطائل ثروته، لو أنه عرف أن القدر كان يقضي بموته موتاً ذليلاً فيما وراء نهر الفرات، بعد أن يكون ابنه قد قضى نحبه وجيشه قد تحطم؟ أو هل تظن أن "جنايوس بومبي" Gnaeus Pompey كان يمكن أن يستشعر اللذة في قنصلياته الثلاث وانتصاراته الثلاثة، وإبان أعماله المجيدة التي حلقت شهرتها في كل مكان، لو أنه كان يعرف بأنه سيذبح في مجاهل صحارَى مصر، بعد أن يفقد جيشه، ويتبين أن مصرعه ستعقبه تلك الأحداث المروعة التي لا أستطيع أن أتحدث عنها دون أن تذرف عيناي الدموع؟

أو ماذا تظن بقيصر لو أنه عرف أن مصرعه سيكون بين أعضاء مجلس الشيوخ الذي يرجع إليه الفضل في انتخاب معظمهم، وفي ردهة بومبي[4]؟ أجل، وأمام تمثال بومبي، وعلى مرأى كثيرين من قادة المائة من أتباعه، وأن مصرعه هذا سيكون على يد أنبل مواطنيه الذين كان بعضهم يدين له بكل ما أصابوا من مجد، وأن الموقف سيكون من المهانة بحيث لا يقترب من جثته صديق ـ لا بل ولا حتى عبد ـ فأي ألم نفساني مرير كان قيصر يقضي به حياته، لو أنه عرف هذه الأحداث قبل وقوعها؟" [5].

ويقول الشيخ الشعراوي: "من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل المستقبل غيباً لا يعرفه أحد. ولكن الناس تتعجل الأحداث وتريد أن تعلم ما يخفيه الله سبحانه وتعالى في قدره، ولو تنبهوا قليلاً لما سعوا إلى ذلك، ولسجدوا لله شكراً على أنه حجب عنهم أحداث المستقبل، وإلا لفسدت الحياة وأصبحت جحيماً.

وعلى سبيل المثال، لو أن الله تبارك وتعالى كشف لنا حجاب المستقبل، فكيف

---

(١) الغيب في العالم القديم، ص ١٤٠ ـ ١٤١. وشيشرون من أكبر كتاب اللاتين وخطبائهم، مارس السياسة، ومات سنة ٤٣ ق.م.

(٢) الغيب في العالم القديم، ص ١٩٣.

(٣) المعني هو كراسوس الروماني الذي كان أحد أطراف التحالف الثلاثي مع بومبي وقيصر، والذي قتل في إحدى معاركه مع البارثيين، سنة ٥٣ ق. م.

(٤) الردهة مكان للاجتماعات شيده بومبي بمجلس الشيوخ.

(٥) الغيب في العالم القديم، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

ستكون حال أُمٍّ عرفت أن ابنها سيموت عندما يبلغ من العمر عشرين عاماً؟ ماذا يكون شعور الأم وهي ترى ابنها كل يوم، وتعرف ما سيحدث له، وكيف يمكن أن تعيش؟ وكيف تكون حياتها وهي تنظر إلى ابنها كل صباح ومساء، وتعرف أنها ستفقده في يوم معين أو سنة بعينها؟ بينما هو يكبر أمام عينيها عاماً بعد عام، ويزداد فتوة ورجولة، كيف ستكون حياة هذه الأم؟

أليس من رحمة الله بها أنه أخفى عنها أحداث المستقبل، لتعيش سعيدة تحلم وتخطط إلى أن يقع قدر الله، فتكون قد أعطيت عشرين سنة من السعادة بدلاً من عشرين سنة من الشقاء في انتظار الأجل المحتوم.

كيف يمكن لرجل يرى مستقبله أمامه ويعرف أن ثروته ستضيع ويصبح فقيراً، أو أنه سيفقد وظيفته ويصبح عاطلاً، أو سيتركه أولاده عندما يبلغ سن الشيخوخة وحيداً، وسيلقون به في ملجأ للعجزة، كيف تكون حياة مثل هذا الرجل؟ وكيف يمكن أن يعيش؟

إن الذي يعطينا الأمل في الحياة، ويعطينا قدرة التحمل والسعي والمشقة، وغير ذلك مما تحتويه الحياة الدنيا من تعب، هو أننا نأمل أن المستقبل سيكون أحسن من اليوم، وأن ما هو قادم سيزيل متاعبنا ويفتح أمامنا الأبواب المغلقة. ويظل هذا الأمل يملأ قلوبنا، وأحداث الحياة تمضي بخيرها وشرها، بحلوها ومرها. إن هذا الأمل في الغد هو الذي يدفعنا إلى العمل، وإلى عمارة الأرض، وإلى كل ما تتطلبه الحياة الدنيا.

لكننا لو عرفنا أحداث المستقبل وما تحمله لنا من كوارث لما عملنا شيئاً، بل ربما دفعنا هذا إلى الانتحار والعياذ بالله، تخلصاً مما عرفناه قادماً، وكرهنا أن نستمر في الحياة حتى يقع لنا.

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أخفى عنا أحداث المستقبل رحمة بنا، وحتى نقبل على الحياة الدنيا بأمل بدلاً من أن نعيشها بألم، وأن نتمتع بحياتنا بدلاً من أن نشقى بها. هذه رحمة الله التي يرفضها عدد من البشر، وهم يحاولون جاهدين، بل وينفقون المال، ليعرفوا ماذا سيقع في المستقبل!»[1]. وهذا كما قال الشاعر: ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

٢ ـ لقد خلق الله جل وعلا الإنسان لأجل الخلافة في الأرض، ولا يصلح لهذه الغاية أن يعرف الإنسان المستقبل على التفصيل، بل أن يجهله ويسعى بالعلم والعمل إلى اكتشافه واكتساب خيره.

---

(١) الغيب، ص ٤٢ إلى ٤٤. وانظر كذلك: ص ٩٤ ـ ٩٥.



يقول سيد قطب: "لقد وقف الإنسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب، لا ينفذ إليه علمه، ولا يعرف مما وراء الستر المسدل، إلا بقدر ما يكشِف له منه علام الغيوب. وكان الخير في هذا الذي أراده الله، فلو علم الله أن في كشف هذا الستر المسبل خيراً لكشفه للإنسان المتطلع الشديد التطلع إلى ما وراءه !

لقد منح الله هذا الإنسان من المواهب والاستعدادات والقوى والطاقات ما يحقق به الخلافة في الأرض، وما ينهض به بهذا التكليف الضخم، ولا زيادة. وانكشاف ستر الغيب له ليس مما يعينه في هذه المهمة. بل إن انطباق أهدابه دونه لَممَّا يثير تطلعه إلى المعرفة، فينقب ويبحث. وفي الطريق يخرج المخبوء في باطن الأرض، وجوف البحر، وأقطار الفضاء، ويهتدي إلى نواميس الكون والقوى الكامنة فيه، والأسرار المودعة في كيانه لخير البشر، ويحلل في مادة الأرض ويركب، ويعدِّل في تكوينها وأشكالها، ويبتدع في أنماط الحياة ونماذجها، حتى يؤدي دوره كاملاً في عمارة هذه الأرض، ويحقق وعد الله بخلافة هذا المخلوق الإنساني فيها"(١).

ويقول في موضع آخر: "كذلك ما كان من شأنه ـ سبحانه ـ أن يطلع البشر على الغيب، الذي استأثر به، فهم ليسوا مهيئين بطبيعتهم التي فطرهم عليها للاطلاع على الغيب، وجهازهم البشري الذي أعطاِه الله لهم ليس "مصمماً" على أساس استقبال هذا الغيب إلا بمقدار. وهو مصمم هكذا بحكمة، مصمم لأداء وظيفة الخلافة في الأرض، وهي لا تحتاج للاطلاع على الغيب. ولو فتح الجهاز الإنساني على الغيب لتحطم؛ لأنه ليس معدًّا لاستقباله إلا بالمقدار الذي يصل روحه بخالقه، ويصل كيانه بكيان هذا الكون. وأبسط ما يقع له حين يعلم مصائره كلها، ألّا يحرك يداً ولا رجلاً في عمارة الأرض، أو أن يظل قلقاً مشغولاً بهذه المصائر، بحيث لا تبقى فيه بقية لعمارة الأرض. من أجل ذلك لم يكن من شأن الله سبحانه، ولا من مقتضى حكمته، ولا من مجرى سنته أن يطلع الناس على الغيب"(٢).

٣ ـ الغيب والعبودية: هناك علاقة بين إخفاء الغيب عن الإنسان وبين عبوديته لله تعالى، لقد حجب الباري علم الغيب عن الإنسان ليرجع إليه وحده، ويدعوه ويعبده، وربما

---

(١) في ظلال القرآن، ٢/١٥٨، عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وانظر موضعاً آخر في الظلال، ١/ ٤٢٣.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٠٠، عند قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ من سورة النمل.

لو عرف البشر مصائرهم وما سيحدث لهم وأسباب ذلك ما عبدوا الرب تعالى ولا لجؤوا إليه. هل كان سيكون للدعاء مثلا معنى لو كنا نعرف مستقبلاتنا.

قال بعض المفسرين - في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] -: "أخفى غيبه على الخلق، ولم يطلع عليه أحدا لئلا يأمن أحد من عبيده مكره"(١).

ومن أمثلة هذا إخفاء وقت الساعة، يقول عز من قائل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

يقول الرازي: "قال المحققون: والسبب في إخفاء الساعة عن العباد أنهم إذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذر منها، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية"(٢). ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، "أي لا يعلمون السبب الذي لأجله أخفيتُ معرفة وقتها المعين عن الخلق".(٣) وهو أحد وجوه في هذه الآية.

ويقول سيد قطب: "والله - سبحانه - قد جعل الساعة غيباً لا يعلمه سواه؛ ليبقى الناس على حذر دائم، وتوقع دائم، ومحاولة دائمة أن يقدموا لها، وهم لا يعلمون متى تأتي، فقد تأتيهم بغتة في أية لحظة، ولا مجال للتأجيل في اتخاذ الزاد، وكنز الرصيد"(٤).

وهذه الحكمة نفسها تسري أيضاً على ساعة الموت عن الإنسان.

ولذا يرشد الدين إلى الاستعداد للمستقبل بالجد وبالعمل الحاضرين، لا إلى الاقتصار على محاولة معرفته وإدراكه. وهكذا أجاب النبي ﷺ الأعرابي الذي سأله متى الساعة، إذ قال له: ويحك ! إن الساعة آتية، فما أعددت لها(٥). قال ابن كثير: في هذا الحديث "أنه عليه السلام كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته"(٦).

ونقل ابن القيم عن بعضهم أنه قال: "بنعمة من الله لم يفتح هذا الباب ولم يكشف دونه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ١٥٠ .

(٢) مفاتيح الغيب، ١٥/ ٨٥.

(٣) مفاتيح الغيب، ١٥/ ٨٥.

(٤) في ظلال القرآن، ٦/ ٤٩٩ .

(٥) رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك، ٣/ ١٩٢.

(٦) تفسير ابن كثير، ٢/ ٣٤٢، سورة الأعراف ١٨٧ . وانظر: في ظلال القرآن، ٣/ ٦٩٦، الأعراف .

الغطاء، حتى يرتقي كل أحد روضه، ويلزم حده، ويرغب فيما هو أجدى عليه وأنفع له، إما عاجلاً وإما آجلاً، فطوى الله عن الخلق حقائق الغيب ونشر لهم نبذا منه وشيئاً يسيراً يتعللون به، ليكون هذا العلم محروصاً عليه كسائر العلوم ولا يكون مانعاً من غيره"[١].

والحقيقة أن هذا الموضوع وعر المسالك[٢]، لقد أتعبت خيالي في تصور كيف كانت ستكون الحياة الإنسانية لو كنا نعرف مستقبلنا، حاولت أن أتخيل ذلك فعجزت، ولكن من المؤكد أن صورة الحياة تلك كانت ستكون مخالفة تماماً لما نعيشه الآن. أفكارنا وأعمالنا، ومشاعرنا، كل ذلك سيتغير، لن يعود معنى لمفاهيم الأمل والعمل، ولا لمشاعر الحزن والفرح، كل ذلك سيتبدل، ونحن نحتاج هنا ـ أعني في موضوع الحكمة من إخفاء المستقبل عنا ـ لا إلى أقلام العلماء، بل إلى خيال الأدباء، فهؤلاء أقدر على تصور حياة بشرية يكون فيها المستقبل مكشوفاً للإنسان.

لو أن أحداً من الأدباء كتب رواية في هذا المقام، فتصور أن الأنثى تعرف من البداية ما تحمله وما مصيره، وأن كل إنسان يعلم ماذا سيحدث له، وبأي أرض يموت، ومتى تقوم الساعة. ثم بيَّنَ آثار هذه المعرفة على مشاعر البشر وأفكارهم ونشاطهم وعلاقات بعضهم ببعض، هذا سيكون عملاً جيداً.

لماذا نعجز عن معرفة المستقبل؟

أي على وجه التفصيل والإحاطة واليقين، إذ من المشاهد المعروف أن الإنسان يجهل أكثر المستقبل، والذي يعرفه منه فعلى وجه التغليب والظن. وهذه بعض الأسباب في تعليل هذا الأمر:

١ ـ دانتيك فيلسوف فرنسي يعتقد بأن الظواهر الوجودية حتمية؛ لأنها تسير وفق قوانين طبيعية ثابتة؛ ولذلك لو كنا نعرف جميع ظروف ظاهرة ما وكل متعلقاتها، أمكننا توقع مستقبلها بطريق صحيح. لكنه يقول: إن هذا غير ممكن؛ لأن شبكة الأسباب والمؤثرات المتداخلة فيما بينها كبيرة جدًّا وشديدة التعقيد[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٤٩٨.

(٢) مما يدل على وعورة هذا الموضوع أن التعليلات التي سقتها في الحكمة من إخفاء المستقبل، لا يصدُق أكثرها على عوالم أخرى، غير الإنسان، كعالم الملائكة، إذن لماذا أخفى الله سبحانه الغيب عن ملائكته؟

(٣) Félix le Dantec : Les limites du connaissable, p 184. (حدود المعلوم، أو حدود المعرفة) وهو عالم بيولوجي فرنسي، وكتب كثيراً في فلسفة الحياة، فمن ذلك: نظرية جديدة في الحياة. التطور الفردي والوراثة. أتباع لامارك وأتباع دارون. عمل بمعهد باستور، ثم درس بالسوربون. توفي سنة ١٩١٧.



ولذلك يوجد دوماً في الظواهر عنصر غير متوقع ولا نعرفه، مهما اتخذنا من احتياطات ودراسات. وأشد ما يكون هذا العنصر قوياً في الظاهرة البشرية، حتى إنك تكاد لا تجد فيها إلا العناصر غير المتوقعة[١].

إن الاعتقاد في القوانين الطبيعية ـ يقول دانتيك ـ اعتقاد بشري صرف، ولا سبيل لنا إلى الواقع في ذاته[٢].

٢ ـ وهذا الرأي قاله صاحبه قبل حدوث التطورات الكبرى في مجال الفيزياء الذرية. لقد أثبتت نتائج الكوانتيك أن للتنبؤ حدوداً، حتى بالنسبة للأشياء "المادية"، كما في معادلة هايزنبرج الاحتمالية. وإن تعذر التوقع الصحيح في ظواهر مادية جامدة، فذاك أحرى أن يكون في ظواهر إنسانية حية.

٣ ـ من صفة كثير من الأنساق غير الخطية تغيرها الدائم والمستمر، بحيث لا تستقر على حال ولا تنتهي إلى قرار. وحتى الحديث عن متوسط أو معدل عام للتغير لا معنى له. فهذا مثلاً شأن الظواهر الفوضوية، فهذه عبارة عن أنساق غير ثابتة، وأدنى شيء يغيرها[٣].

٤ ـ وقد ثبت في الرياضيات أنه يستحيل التنبؤ بنسق غير خطي، حتى لو كان فيه ثلاثة متغيرات فقط. وهذه الاستحالة ليست واقعية فقط، بل رياضية أيضاً[٤].

٥ ـ من أسباب عدم قدرتنا على معرفة مستقبلات كثيرة كونها تخضع لقاعدة "الحساسية المرهفة تجاه الظروف الأولية"، وهو مفهوم SCI الذي تقرره "نظرية الفوضى"[٥].

التغيرات هنا تحدث تقريباً من لا شيء، فأبسط اختلاف في شروط النسق الأولى يؤدي إلى تطور هذا النسق في اتجاه آخر لا علاقة له البتة بتطوره الأول من دون ذلك التغير المحدود. إن الأرصاد الجوية ـ مثلاً ـ تعتمد حالياً على مجموعة من المحطات المتباعدة فيما بينها بنحو مائة كيلومتر (بشمال الكرة الأرضية خاصة). ولنفرض أننا كثّرنا من عدد المحطات، حتى صارت المسافة بين كل محطتين ٣٠ سنتيمترا فقط. ولنفرض أيضاً أننا غطينا الأرض كلها من السطح حتى أعلى طبقة في الغلاف الجوي. ولنفرض ثالثاً أن هذه

---

(١) Les limites du connaissable, p 184.

(٢) Histoire de la philosophie, 7/34 .

(٣) La théorie du chaos, p 215.

(٤) Philosophie et science du temps, p 88.

(٥) راجع في هذه الأمور كتاب نظرية الفوضى، لجليك، بالإنجليزية أو بالفرنسية. أو انظر كتابي: الوجود بين مبدئي السببية والنظام، ففيه بحث مفصل لهذه القضايا.

المحطات تعطي بدقة مطلقة درجات الحرارة والضغط والرطوبة، وسائر المتغيرات المؤثرة، وأن حاسوباً له قدرة لا نهائية على جمع المعلومات وتحليلها يجمع هذه المعطيات ويدرسها في ثوان، وأنه بذلك يقدم لنا توقعات على رأس كل دقيقة.

مع هذا كله: بعد مدة معينة لن ينجح الجهاز في توقعاته.

إن التغيرات البسيطة في محيط ٣٠ سنتيمتر ـ وهي لا شيء بالنسبة لأبعاد الأرض ـ تتضخم وتتعاظم وتتشابك فيما بينها، لتؤدي ـ بعد زمن ـ إلى قلب جو الكرة الأرضية كله[1].

٦ ـ وهناك سبب آخر هام وراء هذا العجز عن معرفة المستقبل، وهو عنصر الإرادة. ويتعلق الأمر أساساً بإرادتين:

أ ـ إرادة الله جل جلاله، فهو الخالق المختار الذي يدبر الأمر في السماء والأرض. والباري سبحانه يرعى هذا الكون ويحفظه ويقدر فيه ما يشاء. وعلى سبيل المثال فإن نصر الله تعالى للمسلمين يوم بدر غيَّر مجرى التاريخ البشري، ولو قدر تعالى خلاف ذلك لاتخذ التاريخ طريقاً آخر.

ب ـ إرادة الإنسان، فقد خلق الله سبحانه هذا الكائن مختاراً وذا إرادة حرة، ولا يمكنك الإحاطة التامة بهذه الإرادة ولا بما يمكن أن تفعله، بل الفرد نفسه كثيراً ما لا يدري ماذا سيفعل في المستقبل القريب، بل ـ أحياناً ـ ولا بعد حين، فيتخذ قراره في اللحظة الأخيرة.

فكرة التوقع السلبي:

لهذه الأسباب ـ ونحوها ـ طرح بعض العلماء فكرة اللجوء في مجال التوقعات إلى التنبؤ السلبي لا الإيجابي، أي إلى النفي عوض الإثبات.

قالوا: إذا كان التوقع غير ممكن دائماً في العلوم، فإننا يمكن أن نتنبأ بما لا سيكون عليه النسق المدروس في المستقبل، وقوة هذا التنبؤ السلبي ومصداقيته أهم وأكبر من التنبؤ الآخر.

مثلاً، لا يمكن أن نعرف اللائحة الكاملة للأنواع الحيوانية بعد عشرة أو مائة مليون سنة، لكن يمكن أن نؤكد ـ بشيء من اليقين ـ أنه لن تكون في ذلك الزمن ثدييات ذات ستة أقدام، فنحن الآن نعرف عن الثدييات ما يكفي لإلغاء هذا الاحتمال أن تصبح لها ستة أقدام بدل أربعة.

---

(١) La théorie du chaos, p 39. وانظر أيضاً: Article : Prévision numérique du temps et du climat, in : Futuribles nº 154, p 38.

وفي الجيولوجيا نعرف الآن أن بعض الأماكن بمنأى عن خطر الزلازل في العقود المقبلة، ولكننا ـ بالمقابل ـ لا نستطيع أن نتوقع حدوث زلزال قادم في منطقة متحركة، أي مرشحة للزلزلة[١].

والمقصود أنه يجري على التنبؤ السلبي ما يجري على التنبؤ الإيجابي، مع فارق أن التنبؤ الأول أقوى وأقرب إلى الإصابة من التنبؤ الثاني.

وهذه الأسباب التي ذكرت في تعليل عدم إحاطتنا بالمستقبل هي ما وصلنا إليه اليوم. وأنا على يقين بأنه توجد أسباب أخرى لم نعرفها بعد، ويكفيك لتحتمل ذلك أن تعرف أن إحدى أهم العلل التي ذكرت ـ "الحساسية المرهفة تجاه الظروف الأولية" ـ لم تكتشف إلا من قريب، أي من أقل من نصف قرن.

لكن هذا الحجب المقصود للمستقبل، وهذا العجز البشري الطبيعي عن إدراكه هل منعا الإنسان محاولَته الاطلاع على المغيبات، أم زادا من إصراره على هذه المعرفة؟

المبحث الثالث: شغف "إنسان الحداثة" بالغيب وكشفه.

صعود "اللاعقلانية":

إحدى الظواهر الكبرى التي لاحظها المراقبون في العالم كله، خصوصاً منذ العقود الثلاثة الأخيرة: عودة المعتقدات والممارسات القديمة التي كان يعرفها الإنسان في مجال الغيبيات والتنبؤ بها.

وأحد أفضل هؤلاء المراقبين ـ وهو الأستاذ راموني ـ وجد أنه من الضروري أن يعقد لهذه الظاهرة فصلاً مستقلاً في كتابه "جيوسياسة الفوضى"، وجعل عنوان هذا الفصل: صعود اللاعقلانية. ومما جاء فيه[٢]:

في المجتمعات الغربية اليوم حيث الأفضل هو الرابح، وحيث المال هو سيد الجميع، وهو القيمة الكبرى، والغاية الأخيرة، وحيث تنتشر الأزمات الاقتصادية والاجتماعية

---

(١) راجع: Les sciences de la prévision, p 44

(٢) قدَّمت المجلة الشهرية الفرنسية: "العالم السياسي" ملخصاً لهذا الفصل، في مقال عنوانه: اللاعقلاني والمجتمع. انظر:

Le monde diplomatique, septembre 1997, article : L'irrationnel et la société, p 28.

والكاتب. Ignacio Ramonet. فرنسي من أصل إيطالي، متابع جيد للتطورات العامة العالمية، مثله مثل الأمريكي توفل الذي سيأتي التعريف به. يشغل راموني. منذ سنوات، وإلى اليوم. منصب رئيس تحرير شهرية "العالم الديبلوماسي".

والسياسية، ومشاكل الهوية والفراغ الروحي، هناك يعود الناس إلى معتقداتهم القديمة. إن كل أشكال التطير، وفنون التنبؤ بالمستقبل، والممارسات الباطنية، والاعتقاد في المعجزات، كل هذا نبت من جديد كالفطر، وفي جميع أرجاء أوربا.

إن نصف الأوربيين - اليوم - يعتقدون في الظواهر الغيبية غير الطبيعية، وأكثر من أربعين مليون أوربي يزورون كل سنة العرَّافين والمداوين "بأشياء غيبية" Guérisseurs، وبمجرد ظهور أحد يدَّعي رؤية مريم العذراء، حتى يسرع عشرات الآلاف لزيارة المكان للتبرك به وانتظار ظهور العذراء مرة أخرى. مليون ونصف مليون أوربي يزور سنوياً أحد هذه الأمكنة بباريس[1]. أما الذين يعتقدون أن النجوم تضبط كل شيء في الكون وتحكمه فأكثر من أن يحصون.

لم يعد الناس يؤمنون بأن العلم والتقنية كفيلان بحل مشاكلهم، لقد أصبح العلم نوعاً من الإيديولوجيا الخطرة، لا يثقون بها، بل هي تخيفهم. وكيف لا يكون هؤلاء على حق، ألم يوقِّع - يقول راموني - ٢٦٤ عالماً - بينهم ٥٢ حاملاً لجائزة نوبل - بياناً نشر في حزيران سنة ١٩٩٣ يحذرون فيه من "علم البيئة" écologie، باعتباره "إيديولوجيا غير عقلانية، متصاعدة، وتتعارض مع التقدم العلمي والصناعي". ولهذا غدا الناس يتساءلون إن كان الإنسان أصبح في خطر من التحالف الثلاثي بين رأس المال والصناعة والعلم.

هذا ما قاله راموني، والحقيقة أن اللجوء إلى خدمات العرَّافين والمتنبئين ظاهرة عالمية عامة، تمس - تقريباً - كل المجتمعات، من كل الأعمار والطبقات، على اختلاف في درجة الإصابة طبعاً. يقول صحفي مغربي عن أناس من "علية القوم" - يعني من الطبقة السياسية -، يزورون إحدى العرَّافات بعاصمة البلد: "وفي هذا الصدد، يقول سكان أحد أحياء مدينة الرباط: إن سيدة أوربية كانت جارة لهم طوال عدة سنوات، ولم يعرفوا في البداية سبب مجيء هذا العدد الهائل من السيارات الفخمة إلى الدار التي كانت تقيم فيها هذه السيدة الأوربية، إلى أن انتشر بين الجيران خبر يقول بأن الأمر يتعلق بـ "شوافة" نصرانية.

أرقام السيارات تدل على أن الزوار يعتبرون من المسؤولين الكبار ممن يتحملون مهام متنوعة الاختصاصات والقطاعات، وفيهم أناس يظهرون على شاشة التلفزة. هذه السيارات كانت تحمل تارة نساء وتارة أخرى يأتي الرجل بقده وقامته.

وهناك من تخاف على مستقبل علاقاتها بشريك الحياة، وثمَّة من يخاف على مستقبل

---

(١) هاك. أيها القارئ الكريم. عنوان المكان إذا زرت باريس:

nº 140, rue du Bac, Paris. Chapelle de la médaille miraculeuse.



الموقع الذي يحتله، والكل يريد أن يتعرف بكل شفافية على ما يحمله الزمان القادم، وذلك للعمل بدون شفافية على تجنب المصير المخيف.

وثمّة طائفة من الراغبين في التعرف على مستقبلهم بكل "شفافية" ممن لا يكتفون بخدمات "الشوافة" المحلية، سواء كانت "الشوافة" مواطنة أم أجنبية، بل يضطرون إلى السفر إلى هناك في الديار الفرنسية، بحثاً عن الخبرة لدى "الشوافة" البرانية في عين المكان. وهناك من يطلب "الشوافة" الأجنبية لكي تأتي في زيارة خاصة حتى توضح لهم المستقبل الذي ينتظرهم.

بعض الناس يشغلون أنفسهم إلى هذا الحد بما قد تأتي به الأيام. ولا يتعلق الأمر بالناس العاديين، بل أحياناً بالناس الذين يقررون في حاضر المجتمع ومستقبله..."[1].

من مظاهر هذا الصعود:

وقد سجل المراقبون كثيراً من الظواهر التي تعكس هذا النمو المتعاظم للبحث عن طريق آخر في الحياة غير ما يرسمه العقل العلماني الوضعي، فمن ذلك:

في الأفلام:

أذكر مثلاً: السلسلة التلفزية الأمريكية: "الملفات الغامضة"[2]، والتي عرفت نجاحاً هائلاً على مستوى العالم، وهي مجموعة من الحلقات ـ أي مسلسل ـ تدور أحداثها حول الظواهر غير الطبيعية، وفيها الحقيقية والمتخيلة.

وقد استقبل الجمهور الواسع هذه السلسلة بحماس كبير، حتى إنه أهدي لها حوالي ٨٥٠ موقعاً في الإنترنيت (إلى حدود نيسان ١٩٩٧ فقط). وانتشرت أشياء كثيرة، تدور حول هذه السلسلة أو ترتبط بها، مثل: المجلات، والكتب، ومواقع الإنترنيت، وأشرطة الفيديو، والنوادي، والسلع التجارية، وتضم النوادي التي تأسست حول السلسلة بفرنسا وحدها حوالي عشرة آلاف عضو.

وكثر الجدال حول هذا "المسلسل الغيبي"، وتدخلت فيه شخصيات هامة مثل جاك

---

(١) صحيفة الاتحاد الاشتراكي، عدد ٦ كانون الثاني ١٩٩٧، ص ٨. والشوافة ـ في اصطلاح العامية المغربية ـ هي العرافة أو الكاهنة. والصحفي المعني هو السيد عبد اللطيف جبرو، من أهم الصحفيين المغاربة، عرف بعموده اليومي "آخر الكلام".

(٢) هي بالإنكليزية "X files" ـ أي "الملفات إكس"، وهي سلسلة حديثة جدًّا، عرضتها القناة التلفزية الثانية المغربية سنة ٢٠٠٠، وبعدها. وشاهدت منها حلقات فوجدتها تهتم بكل ظاهرة لا يفسرها العلم، وليست كلها من باب الخيال العلمي.

أتالي، المفكر المستقبلي ومستشار الرئيس السابق ميتران، ومثل لوبان زعيم الجبهة الوطنية الفرنسية(١).

ويعتقد أكثر الأمريكيين في وجود مخلوقات أخرى من الفضاء. وفي بداية تموز ١٩٩٧م تجمع مائة ألف أمريكي في روسويل بولاية المكسيك الجديدة للاحتفال بالذكرى الخمسين لإحدى الحوادث المشهورة التي يربطونها بهذه المخلوقات، وهناك صرَّح منظم المهرجان بأن سلسلة الملفات الغامضة وأمثالها تمهيد من الدولة الأمريكية للإعلان عن وجود هذه المخلوقات(٢).

في الرواية:

تعكس مبيعات الكتب بأوربا التوجه الجديد للجمهور نحو كل ما هو روحاني وغامض أو مجهول، والكتب الأكثر مبيعاً تنتمي إلى هذا المجال، منها رواية البرازيلي كويلو: "الكيميائي"، نسبة إلى الكيمياء الخفية، فهذه إحدى أكثر الروايات مبيعاً في العالم، وظلت كذلك لسنوات، وللرواية معنى ديني.

أما الروائية الإيطالية تامارو، فقد كتبت رواية أخرى نجحت كثيراً بأوربا، وهي: "اذهب حيث يحملك قلبك" جمعت فيها بين الروحية الحديثة، وعقيدة الكارما الهندوسية، والتنجيم، ونحو ذلك؛ ولذلك أثارت الرواية جدلاً كبيراً بإيطاليا.

وبين المراهقين والشباب تعتبر السلسلة الأدبية "الفانتازيا البطلة" من أنجح الأعمال القصصية، وعالم هذه السلسلة ـ الذي ينتمي إلى القرون الوسطى ـ يتشكل من: قوى الخير والشر، والظلمات، والسحرة، والليل، والغابة، والأساطير...(٣).

في الكتاب:

فقط في سنة ١٩٩٧ وقبلها بقليل، ظهر في الغرب حوالي خمسمائة كتاب في مجالات: الباطنية، والتنجيم، والكيمياء الخفية، والظواهر غير الطبيعية، والروحية...(٤).

---

(١) (انجذابات نحو روحانية جديدة): Pierine Piras : Fascinations pour un nouveau mysticisme, article de : Le Monde Diplomatique, Août 1997, p 18.

(٢) Article : Fascinations pour un nouveau mysticisme, p 18.

(٣) Article : Fascinations pour un nouveau mysticisme, p18.. البرازيلي هو: Paulo Coelho، ترجمت روايته إلى الفرنسية بعنوان: .L'alchimiste والإيطالية هي: .Susanna Tamaro

(٤) المقال السابق نفسه. ويقول ويلسون: إنه إلى حدود منتصف القرن العشرين نشر في الغرب أزيد من ألفي بحث. ما بين كتاب ومقال. حول: "أسطورة أولغز" أطلنتس. انظر: الإنسان وقواه الخفية، ص ١٠١.

في لعبة كرة القدم:

وقد لاحظ بعض علماء الاجتماع أن الناس يبحثون أحياناً عن وسيلة لملء الفراغ النفسي والروحي الذي يشعرون به في ميادين لا يبدو في الظاهر أنها يمكن أن تقدم لهم شيئاً، وبهذا يفسرون الانتشار الواسع لألعاب اليانصيب والحظ. وبعضهم يقول: إن "رياضة كرة القدم" هي من هذا القبيل، فهي نوع من الديانة العلمانية[١]. وهنا يتحول الملعب إلى كاتدرائية ضخمة، وتنطلق اللعبة التي تسير وفق طقوس خاصة، حيث اللاعبون هم القديسون، أو الأبطال ـ بالمعنى اليوناني القديم Héros ـ ، أو حتى السحرة، إنها ـ يقول الكاتب ـ وثنية عصرية[٢].

نموذج خاص: العرافة بفرنسا اليوم:

أعني بالعرافة هنا التنبؤ بالمستقبل خاصة، وهي بفرنسا واقع مفروض، وإن كانت لا تحظى بالاعتراف الرسمي، فهي تمارس في جميع أرجاء البلاد، وبصفة علنية، وفي كثير من الأحيان بمكاتب متخصصة، ويقدر عدد العرَّافين ـ أو المتكهنين ـ بفرنسا بثلاثين ألف واحد، غير المنجمين والسحرة، وهذا الرقم ـ كما يقول دوسوار ـ يبين جيداً أهمية العرافة باعتبارها ظاهرة اجتماعية حقيقية، خصوصاً إذا علمنا أن عدد الأطباء بفرنسا هو أربعون ألفاً[٣].

وللعرافين والكهان الفرنسيين نشاط في الكتابة والنشر والمحاضرة. وأهم هذه الأنشطة: مهرجان العرافة، ويكون في كل صيف، وأسبوع العرافة، في كل شتاء، كلا هما بباريس[٤].

يعرف وسط العرَّافين ـ الذي يتشبب أكثر فأكثر ـ محاولات لتنظيم "المهنة" في جمعية قانونية[٥]. وكثير من العرافين يفتتحون مكتباً لاستقبال الزبائن، والمتوسط العام لعمر العراف

---

(١) اقرأ مقال: (كرة القدم: ديانة علمانية تبحث عن إله جديد) . « Article de« Le Monde Diplomatique
Le football, religion laïque en quête d'un nouveau Dieu : Ao0t1997, p 22-23 .

(٢) راجع مقال: Le football, religion laïque en quête d'un nouveau Dieu, p 22-23

(٣) (العرافة، أو الكهانة) Joseph et Annick Dessuart : La Voyance, p 72-73

والكاتب. دوسوار. من العرافين الفرنسيين "المثقفين"، وله نشاط بين زملائه من العرافين والكهان في سبيل تنظيم المهنة وكسب ثقة الجمهور فيها. وجميع الأرقام الواردة بالصلب تعود إلى سنة ١٩٨٠، ولاشك أنها اليوم أهم.

(٤) La voyance, p 76 .

(٥) La voyance, p 49 .



ـ حين هذا الافتتاح ـ هو أربعون سنة، ويأخذ العراف العادي عن الاستشارة ١٥٠ فرنكاً فرنسياً ـ وهي نفسها أجرة الطبيب المختص ـ ، بينما تقع أجرة العرَّاف المشهور بين (٣٠٠ و٥٠٠ ف. ف) ولذلك فمدخول العراف هو عموماً مدخول إطار متوسط، وهذا بحسب أرقام سنة ١٩٨٠، بفرنسا(١).

وعدد الفرنسيين الذين يزورن العرافين أو سبق لهم ذلك يقدر بحوالي ثمانية ملايين، وهم من كل الطبقات الاجتماعية(٢). وأهم دوافعهم لاستشارة العراف(٣):

١ ـ القلق: وهو يهم ـ بالخصوص ـ ثلاثة مواضيع: الشؤون العاطفية والزوجية والصحة (هل تشخيص الطبيب صحيح؟ هل يلزم أن أقبل بعملية جراحية نصحني بها الأطباء؟...). وأمور العمل والمهنة.

وتوجد مواضيع أخرى، مثل: السؤال عن الرقم المربح باليانصيب، وعن مصير مباراة أو امتحان، أو رخصة سياقة... .

والقلق سبب رئيس في الإقبال على كل أشكال التنبؤ بالغيب؛ لأن الإنسان الذي يعيش في هذا العالم حيث ظروف الشك والاضطراب كثيرة، وحيث المستقبل غامض، هذا الإنسان يحتاج إلى من يخفف عنه بعض آلامه وشكوكه، أي يحتاج إلى الأمل؛ ولذلك يسمي بول المنجمين وسائر أنواع العرافين بـ: تجار الأمل، يبيعونه للناس، وأحياناً بالجملة، كما في صناعة التنجيم(٤).

٢ ـ عدم القدرة على اتخاذ القرار. خصوصاً في مجال الاقتصاد والأعمال.

٣ ـ الفضول وحب الاطلاع. وإن كان الفضولي يخفي ـ في الأكثر ـ قلقاً أو مشكلة تشغله.

أما عن أعمار السائلين فأكثرها يقع بين ثلاثين وخمسين سنة(٥)، والملاحظ أن عدد الشباب الذي يطلب الاستشارة في ازدياد.

ومتوسط زيارات الزبون المداوم ـ أو المخلص ـ ، أي الزبون غير العرضي، هو مرتان في السنة، وفي بعض الظروف تكون الزيارة مرة كل أسبوع، وذلك طيلة شهرين أو ثلاثة(٦).

---

(١) La voyance, p 54, 59,60. الفرنك الفرنسي هو حوالي درهم ونصف، أو سدس الدولار.

(٢) La voyance, p 77-78.

(٣) La voyance, p 79 à 81.

(٤) Quelques sciences captivantes, p 221-222 . ـ L'occultisme devant la science, p 49-50.

(٥) انظر التفاصيل في: La voyance, p 84

(٦) .La voyance, p 58.



بؤس الإنسان المعاصر، الدافع الأول للجوئه إلى فنون التنبؤ:

ولذلك فهذه الفنون تستهدف ـ بالخصوص ـ الشخصيات القلقة. وما أكثرها في عصرنا هذا الذي يعيش في أزمات لا تنتهي(١).

والذين يمارسون أشكال التنبؤ يعرفون هذه الحقيقة جيداً. ولذلك عدَّ دوسوار ـ ضمن فوائد زيارة العراف ـ : توفير أذن صاغية، تستمع للفرد المعزول في هذه الحضارة المادية اللاإنسانية(٢).

ويقول دوسوار ـ وهو نفسه عراف محترف ـ : إن ٤٠٪ من دوافع الناس لزيارة العرافين، هو الرغبة في الكلام، وبث الشكوى والتنفيس عن ما يثقل الصدر، والشعور بشيء من الدفء الإنساني المفقود في حضارة اليوم، وكل هذا يتحقق بتعاطف العراف مع الزائر. بل إن بعض الناس حين يزور العراف يبدأ بعرض مشاكله والحديث عنها، ثم ينصرف بعده مباشرة، حتى قبل أن يسمع كلمة واحدة من العراف(٣).

فالعراف ـ أو الكاهن ـ يقوم في هذه الحالة بدور المحلل النفسي الذي تكاد تقتصر مهمته ـ في أحيان كثيرة ـ على دفع المريض إلى "التفريغ" ، أعني الكلام والتنفيس عن همومه، خصوصاً الباطنة في أعماق النفس.

ولهذا يرى دوسوار أن مهنة الكهانة مشروعة، بما أنها تسد فراغاً في حياة الإنسان المعاصر، وتحقق حاجات نفسية واقعية. ويقول: إن للإنسان دوراً في صنع أحداث حياته. والعراف بمثابة رادار يلتقط مخاطر المستقبل على هذا الإنسان؛ ولهذا فمساعدته للسائل المستشير هامة، وبفضلها يمكن تجنب كثير من السلبيات التي يأتي بها المستقبل، أو على الأقل التقليل من ضررها. وفي حالات يأس الزبون، فإن العراف يقدم له ما في المستقبل من بشائر، حتى يتشجع ولا ينهار، وذلك بمعرفة الخير القادم(٤).

إن الإنسان الحديث هو ـ إلى حد كبير ـ ضحية لفردانيته وتحرره من كثير من السلطات، كالدين والأسرة والمجتمع، ويظل في عمقه ـ رغم كل مظاهر القوة والتقدم والثراء ـ إنساناً بئيساً ضعيفاً، يعيش في أشكال من التيهان العقلي والبؤس النفسي؛ ولذلك يحتاج إلى من يأخذ بيده، وإلى من يرحمه، فمن يكون: صاحب كهانة وعرافة، أم صاحب رسالة نبوية...؟

---

(١) Quelques sciences captivantes, p 224, 238.

(٢) La voyance, p 17.

(٣) La voyance, p 17.

(٤) La voyance, p 16.

تزايد الإقبال على فنون التنبؤ وقت الأزمات:

لقد لوحظ أن هذا الاهتمام المتعاظم بكل ما هو غير "عقلاني" يكون أشد ما يكون في فترات الأزمة، من ذلك مثلاً: ألمانيا بين الحربين العالميتين، والانهيار الاقتصادي الأمريكي لسنة ١٩٢٩، وحالة الغرب عموماً ـ أي أوربا وأمريكا ـ بعد سنة ١٩٧٣ إلى اليوم، هذا كله زمن أزمات متنوعة(١).

وكل أنواع الاعتقادات، حتى الأكثر غرابة وبعداً، تبرز في هذه الأزمنة القلقة. وقد لوحظ مثلاً أنه بين الحربين الكونيتين تزايد اهتمام الناس بالتنجيم(٢). كما لوحظ ميل بعض من مات له قريب أو حبيب إلى الإيمان بالروحية الحديثة وظواهرها(٣).

عجز العقل الوضعي عن فهم هذا الصعود:

لا يفهم الكثيرون هذه الظاهرة، ولا كيف تحدث في مجتمعات كانوا يظنون أن التقدم العلمي والصناعي قد حررها إلى الأبد من التفكير في أشياء لا يرونها، ومن الاهتمام بعالم غير عالمهم المادي الواضح؛ ولذلك يقول بعض هؤلاء إننا اليوم نعيش عصراً وسيطاً جديداً(٤)، وإن عقلية السحر المنتشرة بالغرب توشك أن تقضي على العقل العلمي(٥).

وينقل بول عن أُويْ أنه لاحظ كيف يتجاور في عقل الإنسان الحديث نوعان من الفكر: العلمي و"البدائي"، حيث يعتقد في العلم ونتائجه كما يعتقد في الأشباح والتناسخ والتلباثي والأحلام التنبؤية والتنجيم، وما إلى ذلك(٦).

لكن في المفكرين الغربيين من له استعداد أفضل لتفهم ميل المجتمعات الحديثة إلى شؤون الغيب، فمتيرلينك ـ مثلاً ـ يرى أن الاعتقاد في الغيبيات ميل طبيعي في الإنسان، وثابت أيضاً، والذي يتغير هو مضمون هذا المعتقد فقط، والإنسان لابد أن يعتقد شيئاً(٧).

---

(١) Ignacio Ramonet : article : L'irrationnel et la société. p 28.

(٢) L'astrologie, p 105.

(٣) Quelques sciences captivantes, p 149.

(٤) Quelques sciences captivantes, p 238.

(٥) L'occultisme devant la science, p 13.

(٦) Quelques sciences captivantes, p 171-172 . وAchille Ouy عالم اجتماع معاصر. وانظر تفصيل هذا الرأي في: L'occultisme devant la science, p 9 à 14

(٧) (حدود الإدراك) Le Dantec : les limites du connaissable, p 153. وM. Maeterlinck كاتب بلجيكي مرموق، نال نوبل الآداب سنة ١٩١١. وتوفي سنة ١٩٤٩.



ومن جهته، أوضح شول أن الانجذاب نحو الأمور الغيبية وغير الطبيعية جزء أساسي من العقل الإنساني، مثله مثل التفكير العقلاني الصرف، بل ـ يقول شول ـ إن هذه الازدواجية مفيدة للإنسان، بما أنها مصدر خصب للإبداع(١).

الأديان الكبرى، والاتجاهات "اللاعقلانية":

وثمة سؤال عرض لي ـ في هذه المباحث ـ ، ولم أجد له جواباً لحد الآن، وهو: لماذا لم تملأ الأديان الكبيرة ـ خصوصاً السماوية ـ هذا الفراغ الروحي للإنسان المعاصر؟ لماذا لم تنجح في كسب هذا الإنسان القلق، الذي عوض أن يعود إلى الدين، نراه أحياناً يفضل المعتقدات الأسيوية ـ الهندوسية والبوذية ـ ، والتنجيم، والعرافة، والسحر، والباطنية ونحو ذلك(٢)؟ حتى اعتبر بعض الباحثين أن التنجيم ـ ونحوه ـ احتل الفراغ الذي تركته الكنيسة، والذي لم يستطع العلم الحديث أن يشغله(٣).

وفي العالم الإسلامي لا يبدو أن هذه الظاهرة هامة وكبيرة، وإن كانت موجودة، بل هي في ظني مرشحة للنمو مستقبلاً، بخلاف العالم المسيحي، الذي يعرف منذ سنوات ـ أو بضعة عقود قليلة ـ صعود "اللاعقلانية"، وتراجع المسيحية، بشكل بيِّن.

هذه القضية هي اليوم ـ ومنذ بضع سنوات ـ موضوع بحوث اجتماعية مكثفة، نظرية وميدانية، وهي ـ باعتراف المختصين الغربيين ـ من أعقد قضايا الإنسان في بداية هذه الألفية الثالثة(٤).

يقدم لونوار التفسير الآتي لهذه الظاهرة: من خصائص الإنسان ـ في نهاية القرن العشرين ـ أنه لا يحب العقائد الجاهزة والصارمة التي تدعي امتلاك الحقيقة المطلقة: dogmes. وهذا تَعلمه من تجاربه في التاريخ القريب. ولهذا فإنه مع نهاية القرن انهارت كل اليقينيات: الدينية، والسياسية، والإيديولوجية، والعلموية، لكن بسبب هذا الانهيار نفسه حدث فراغ هائل على مستوى الاعتقاد، فعادت الأسئلة التقليدية الكبرى عن معنى الحياة

---

(١) في كتابه: Le Merveilleux, la pensée et l'action، كما نقله عنه صاحب: M. Schuhl . L'Au-Delà, p 111 فيلسوف معاصر.

(٢) في التاريخ الأوربي ما يشبه هذه الظاهرة المعاصرة، من ذلك انتشار السحر في نهاية العصر الوسيط وبداية النهضة، حتى اعتبره بعضهم نوعاً من الكنيسة المضادة. انظر: La sorcellerie, p 21

(٣) Article : Horoscope, in : Ency, 11/692.. ويقول الكاتب في مقاله: ينبغي ـ بالخصوص ـ ألا نفسر نجاح التنجيم بصدق نبوءاته.

(٤) (مقال: نحو تدين بدون الإله) Florence Beaugé : Vers une religiosité sans Dieu, un article de « le Monde Diplomatique » septembre 1997, p 27.

وأصلها وغايتها.. إلى الظهور مجدداً، وبأقوى مما كانت عليه[١]. ولهذا صنع إنسان الحداثة "سوقاً" من الاعتقادات، حيث كل واحد يختار فيه ما يشاء، أي ما يلائمه هو، ويسد حاجته. في هذا السوق الواسع نجد ـ غير الاعتقادات التقليدية، والدينية خصوصاً ـ : تناسخ الأرواح، والكوارث القريبة التي ستنهي العالم، وأمور التخاطر عن بعد ـ التليباثي ـ ، وأحلام التنبؤ، والتنجيم، ومجموع الظواهر غير الطبيعية... فهذا نوع من الارتحال الروحي الدائم، أو من الاتجاه التلفيقي الذي يركب لكل أحد اعتقاداً شخصياً مستقلاً[٢].

وفي هذا الإطار تعرف البوذية في الغرب انتشاراً متزايداً، حتى إن بعضهم يتوقع لها مستقبلا هاما معتبرا إياها ديانة الحداثة بامتياز[٣].

وبالنسبة للأديان الكبرى، والمسيحية بالخصوص، لا أحد ـ حتى من أفضل الاختصاصيين في مراقبة الأديان ـ يقدم توقعاته حول أوضاعها في المستقبل، ولا تزال عملية التحرر من العقائد النهائية Dogmes، وبناء أخرى، بحسب الاختيار والذوق الفردي، عملية مستمرة[٤].

من أسباب انتشار فنون التنبؤ:

وانتشار فنون التنبؤ بالمستقبل، وبالغيب عامة، من أبرز معالم هذه الظاهرة التي عبر عنها الأستاذ راموني بـ "صعود اللاعقلانية". ويفتخر دوسوار بأن العرافة اليوم تحدت كل القوانين المعادية وكل الموانع، وثبتت حتى في عصر انتصار العقلانية العلمية[٥] !

ويمكن أن نذكر من أسباب ذلك:

١ ـ المشاكل الكبرى التي انتهت إليها البشرية مع نهاية القرن، وانكشاف حدود العلم والتقنية في خدمة الإنسان، بل إمكان تحولهما إلى خطر عليه، وهذا سبق أن أشرت إليه في مطلب "صعود اللاعقلانية".

وقد لاحظ مؤرخو السحر الأوربي كيف كان يؤدي اضطراب الأوضاع العامة الاجتماعية والسياسية بأوروبا ـ في القرون ١٣ إلى ١٧ ـ إلى بروز نوع من العدوى بالسحر،

---

(١) ‏‏Fr|d|ric Lenoir. Vers une religiosit sans Dieu, p 26, article باحث فرنسي في الشأن الديني، وأحد مديري "موسوعة الأديان"، التي ظهرت سنة ١٩٩٧.

(٢) Article : Vers une religiosité sans Dieu, p 26.

(٣) Vers une religiosité sans Dieu, p 27.

(٤) Vers une religiosité sans Dieu, p 27.

(٥) La voyance, p 104.



كانت تنتشر بسرعة بين مختلف الطبقات[1]؛ ولذلك يقول بالو: إن السحر نوع من الانعكاس لرغبات الناس ومخاوفهم وميولاتهم وأحلامهم[2].

٢ ـ وسبب آخر هو الميل الإنساني الشديد لإدراك المستقبل، وما تخفيه له الأيام. وبهذا فسر ابن سينا ظهور التنجيم وتطوره، حتى غدا "علماً" قائم الذات[3]. وقال بعضهم: "إن العلم بما سيكون ويحدث ويستقبل علم حلو عند النفس، وله موقع في العقل، فلا أحد إلا وهو يتمنى أن يعلم الغيب ويطلع عليه ويدرك ما سوف يكون في غد..."[4].

إن حاجة الإنسان إلى معرفة الغيب حاجة عميقة جدًا ومتأصلة فيه؛ ولذلك تفنن البشر ـ منذ القديم ـ في اكتشاف طريق يمكن أن يكشف عن المستقبل. ويعجب القارئ الذي يطالع موسوعة في أساليب التنبؤ بالمستقبل ـ كموسوعة بيلين ـ من كثرة هذه الوسائل وتنوعها، ولا يزال كثير منها يستعمل إلى الآن.

ومن النظرات النافذة للقاص لافونتين، والتي ضمنها إحدى حكاياته، أن الناس بطبيعتهم يحتاجون إلى من يتنبأ لهم بالمستقبل، سواء صدق أم كذب، أخطأ أم أصاب، حتى إنهم إذا لم يجدوا عرافاً أو كاهناً أو ساحراً صنعوه وشهَّروه، ثم لجؤوا إليه[5].

٣ ـ ومن ذلك أيضاً ـ كما قال ابن سينا[6] ـ حبُّ الغريب، وكل أمر عجيب، مما لا يلقاه الإنسان في طريق حياته الرتيب. يقول ويلسون: "إن النزوع إلى معرفة الغيب ليس محاولة لإزاحة الستار عن المجهول، وإنما هو محاولة لإزاحة الستار عن العادية والابتذال اللذين تسميهما الحاضر القائم"[7].

وفي الناس طوائف عندها استعداد لتصديق كل شيء، وإليك هذه القصة عن بعض المشعوذين الذين سلكوا طريقاً غريباً للفوز بأموال الناس: يقول الراوي: إنه رأى في جامع البصرة قرداً على مركب مثل ما يركبه أبناء الملوك، وعليه ألبسة نفيسة نحو ملبوساتهم، وهو يبكي وينوح، وحوله خدم (قلت: وهم المشعوذون أصحاب القرد) يتبعونه ويبكون ويقولون: يا أهل العافية، اعتبروا بسيدنا هذا، فإنه كان من أبناء الملوك عشق امرأة

---

(١) La sorcellerie, p 18.

(٢) J. Palou : La sorcellerie, p 110.

(٣) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 7.

(٤) نقله ابن القيم في: مفتاح دار السعادة، ص ٤٩٨.

(٥) اقرأ: La Fontaine : Les Fables. Livre VII, fable XV : les Devineresses

(٦) Vues d'Avicenne sur l'astrologie, p 7.

(٧) الإنسان وقواه الخفية، لكولن ويلسون، ص ٧٩ ـ ٨٠. وهو روائي وكاتب بريطاني ولد سنة ١٩٣١.



ساحرة، وبلغ حاله بسحرها إلى أن مسخ إلى صورة القرد، وطلبت منه مالاً عظيماً لتخليصه من هذه الحالة. والقرد يبكي في هذا الحال بأنين وحنين، والعامة يرقُّون عليه ويبكون، وجمعوا لأجله شيئاً من الأموال، ثم فرشوا له في الجامع سجادة، فصلى عليها ركعتين، ثم صلى الجمعة مع الناس، ثم ذهبوا بعد الفراغ من الجمعة بتلك الأموال[١].

٤ ـ ومن العلل أيضاً أن بعض أشكال التنبؤ تربط بقوة بين الإنسان والعالم.

إن الإنسان يحتاج إلى التوحد مع الكون، إلى الشعور بأنه جزء منه، وأن هذا العالم الفسيح يجيبه ويتناغم معه. والتنجيم يحقق هذا التوحد جيداً[٢]؛ ولذلك تقول تيسيه ـ منجمة الرئيس الراحل ميتران ـ : إن علم الفلك مقاربة فيزيائية ومادية للكون، ويبحث بغرض اكتشاف أصل الكون ومصيره، لكنه لا يعالج علاقة الفرد بالكون... وأنا لا يهمني الكون بقدر ما يهمني الإنسان داخل الكون...[٣].

والتنجيم يعطي للشخص المعين إحساساً بأن الكون يدور حوله هو؛ ولذلك بينما يعجز العلم ـ مثلاً ـ عن تفسير القدر الذي يصيب الإنسان، تجد أن التنجيم ينجح في ذلك، على الأقل هو يقدم تفسيراً وجواباً[٤].

٥ ـ نمط الحياة في عصرنا هذا فرداني، كل واحد فيه يتحمل مسؤوليته، ويتمتع في نفس الوقت بحريته. ولكن الإنسان لا يتحمل هذا الاستقلال الكبير عن العالم والجماعة. لقد وقع شيء يشبه هذا الوضع في اليونان القديمة، لكن الإنسان اليوناني فضل الجبرية الصارمة للتنجيم على المسؤولية الفردية الثقيلة؛ ولذلك ـ كما قال دودس ـ ذهبت جهود شيشرون وبانياتيوس وأفلوطين في نقد أساليب التنبؤ.. أدراج الرياح[٥]، كما لقيت جهود العقلانيين المعاصرين المصير نفسه..

٦ ـ إن فنون التنبؤ تفسر أشياء لا يفسرها العلم ولا غيره، وأكثر هذه التفاسير لا تصح، لكن كما يقول بوتهول : الإنسان ـ سواء البدائي أم الحديث ـ لا يتحمل أن يعيش محاطاً بالألغاز، أو بأسئلة لا يجد لها جواباً، ولذلك يفضل معرفة وهمية، لكنها تقدم جواباً ما، على علم صحيح لكن نتائجه جزئية ومحدودة[٦].

---

(١) ذكر القصة حاجي خليفة في: كشف الظنون، ١/ ٦٩٤ ـ ٦٩٥، عن مصدرين، وقال: مثل هذه القصة كثير، وهو فرع من فروع السحر، يسمى بالحيل الساسانية. أي نوع من الشعبذة.

(٢) L'ésotérisme, p 98.

(٣) جريدة الشرق الأوسط، عدد ٢ نيسان ١٩٩٨.

(٤) Ency, Univ, article horoscope, 11/691-692.

(٥) راجع: Les Grecs et l'irrationnel, p 235-236

(٦) Les Mentalités, p : 85.



ختاماً:

وعموماً ليس كل شيء واضحاً في ظاهرة تعلق الإنسان المعاصر بفنون التنبؤ؛ ولذلك قال هوتان: "توجد إمكانية للقيام بدراسة نفسية، وهي مهمة جدًا، لاستمرار هذا الاهتمام الحي بكل ما هو خفي وباطني في جميع البلدان الغربية، رغم كل الانقلابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهذين القرنين الأخيرين"(١).

وكذلك ليس كل شيء واضحاً في مسألة: هل للإنسان مقدرة طبيعية على التوقع الصحيح، وكيف؟

المبحث الرابع: ملكة التنبؤ عند الإنسان بين الوهم والحقيقة.

سبق أن تعرضت في كتابي: "النظرية الإسلامية في الكهانة" لهذا الموضوع، من تراث القدماء خاصة، والآن سأبحث هذه القضية في ضوء أقرب العلوم إلى الموضوع، وهو علم الباراسيكولوجيا.

التعريف بهذا العلم:

الباراسيكولوجيا: هو علم دراسة الظواهر غير المعتادة التي لا يفسرها العلم التقليدي، والتي يمكن أن تكون من عمل قدرات إنسانية مجهولة، أو من عمل مخلوقات أخرى عاقلة(٢).

وبعض العلماء يحذف من التعريف الجملة الأخيرة: "أو من عمل مخلوقات أخرى عاقلة"(٣).

الظواهر التي تدرسها الباراسيكولوجيا:

من هذه الظواهر:

- التخاطر عن بعد، أو التليباثي.
- التنبؤ بالمستقبل، والعرافة.
- الجلاء البصري، أي رؤية الأشياء التي تقع بعيداً عنا.

---

(١) L'alchimie, p 114.

(٢) راجع: Yvonne Castellan : La parapsychologie, p 7.

Robert Amadou : La parapsychologie, essai historique et critique, p 45.

(٣) Amadou : la parapsychologie, p 31.

في الأكثر تستعمل في اللغات اللاتينية كلمتان: Métapsychologie, parapsychologie، بمعنى واحد. راجع: Amadou : la parapsychologie, p 13-14. وكلمة باراسيكولوجيا أحدث.

ـ الاستشفاف، أو قراءة أفكار الغير وما يدور بذهنه، وكذا سماع الأصوات البعيدة.
ـ التأثير في الأشياء بمجرد النظر أو اللمس.
ـ ارتفاع أشياء ثقيلة في الهواء، دون رافع مادي لها، ودوران الطاولات حول نفسها.
ـ أعمال السحر.
ـ الشفاء من المرض، دون سبب طبي ظاهر.
ـ "الأشباح"، والمنازل المسكونة، والأصوات التي ليس لها مصدر معلوم.
ـ بروز أضواء مجهولة المصدر(١).

الباراسيكولوجيا وعلم النفس:

إذن فالباراسيكولوجيا تدرس الظواهر التي أهملها علم النفس الحديث، ويرى بعض المختصين أنه لابد في النهاية من توحيد هذين العلمين في علم واحد، ولكن المشكلة أن هذا التركيب يحتاج إلى رؤية مازالت في حكم المفقود(٢).

لهذا يقدم علماء الباراسيكولوجيا علمهم هذا على أنه: علم نفس اللاشعور، وغايته أن يكتشف في النفس الإنسانية وظائف لاشعورية جديدة(٣).

نشأة هذا العلم:

من الصعوبة بمكان تحديد بداية لهذا العلم، فكثير من قضاياه مما سبق للأديان والفلسفات القديمة أن أشارت إليه أو قالت عنه كلاماً أو رأياً ما.

والمؤرخون الغربيون يذكرون عادة: مِسْمِر، باعتباره أحد أوائل الذين اهتموا بصفة خاصة بظواهر الباراسيكولوجيا، خصوصاً تلك التي كانت معروفة باسم "المغناطيسية الحيوانية"(٤).

---

(١) Castellan : La parapsychologie, p 25, 42-43, 48, 61. Robert Amadou : la parapsychologie, p 30-31. وفي هذه الكتب أمثلة وقصص واقعية كثيرة لهذه الظواهر، وكذلك في كتاب ويلسون: الإنسان وقواه الخفية.

(٢) Amadou : la parapsychologie, p 32, 36.

(٣) Amadou : La parapsychologie, p 35.

(٤) انظر: Castellan : La parapsychologie, p 15 à 17. والمغناطيسية الحيوانية هي: Le Magnétisme animal

وFranz Mesmer طبيب ألماني كان يقول: إنه اكتشف هذه المغناطيسية ويستطيع توجيهها واستعمالها لعلاج =

وقد تعددت الأسماء وكثرت البحوث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكذا في بداية القرن العشرين. وأهم علماء هذه الفترة ـ بالنسبة إلى هذا المجال ـ هو كروكس الذي يعتبر المؤسس الفعلي للباراسيكولوجيا الحديثة، حوالي سنة ١٨٧٢[١].

ثم ترسخ هذا العلم وشق طريقه وظهرت ملامحه، واكتسب الصفة العلمية، بداية من سنة ١٩٣٠، وذلك بفضل رين وتلامذته الكثيرين، وأكثرهم أنجلوساكسونيون.

بعد ذلك ظهرت جمعيات مختصة في الباراسيكولوجيا، وتأسست مراكز بحوث خاصة به، وأصبح له في بعض الجامعات أقسام مستقلة، ومجلات وكتابات، بمعنى آخر أصبحت الباراسيكولوجيا علماً قائماً بذاته، ومعترفاً به في الوسط الأكاديمي العالمي[٢].

وقد استفادت الباراسيكولوجيا من الدراسات التي أجريت على ظواهر: التنويم المغناطيسي، والمغناطيسية الحيوانية، واستحضار الأرواح، واللاشعور في مدرسة التحليل النفسي، وفن اكتشاف ينابيع المياه الباطنية...[٣].

الباراسيكولوجيا قطيعة مع الوضعية المتطرفة:

يمثل هايكل هذا الاتجاه الوضعي شديد التطرف، فهو يقول: إن كل ما لا يمكن للعلم أن يثبته فهو غير موجود[٤]. وهذا الاتجاه مازال مستمرًّا، وإن صار اليوم بعد تطور العلوم أضعف، ويمكن أن نمثل له بمارسيل بول وكتاباته[٥].

وهذا العلم ـ الباراسيكولوجيا ـ هو أحد العلوم التي بينت تهافت فلسفة هايكل، وأنها

= أمراض كثيرة. وقد نجح في بعض ذلك، خصوصاً بباريس، حيث تأسست جمعية خاصة من أتباعه. توفي سنة ١٨١٥. وانظر تفاصيل أخرى عن مسمر وعمله في: «الإنسان وقواه الخفية» ص ١٤٩ إلى ١٥٤.

(١) راجع حول جهود علماء نهاية القرن ١٩ في هذا المضمار: Amadou : la parapsychologie, p 43, 57 à 62, 93 à 107.

وWilliam Crookes كيميائي وفيزيائي بريطاني، له اكتشافات هامة في الغازات تعرف باسمه. توفي سنة ١٩١٩.

(٢) انظر: Amadou : La parapsychologie, p 47-48.

وJoseph Banks Rhine مؤسس الباراسيكولوجيا المعاصرة، له كتاب عن ظواهر ESP، وأسس "مجلة الباراسيكولوجيا". وهو أمريكي توفي سنة ١٩٨٠.

(٣) Amadou : La parapsychologie, p 57 à 62, 90, 104 à 117.

(٤) Amadou : la parapsychologie, p 293.. هايكل فيلسوف سويسري من القرن ١٩. وهو غير البيولوجي الألماني إرنست هايكل الذي توفي سنة ١٩١٩.

(٥) راجع رأيه في الباراسيكولوجيا في كتابه: Quelques sciences captivantes, p 151 et après



بدورها رؤية ميتافيزيقية، وجعلت كثيراً من العلماء يسلمون بوجود ظواهر كانت إلى حد قريب تعتبر خارج نطاق العلوم؛ ولذلك يقول الفيلسوف أراكو: "الذي يتكلم عن المستحيل - خارج الرياضيات الخالصة - يفتقد إلى الحكمة والاحتياط"[١].

منهج البحث:

تهدف الباراسيكولوجيا إلى أن تكون علماً يقوم على الملاحظة والتجربة والمقارنة وتسجيل الأحداث؛ ولذلك تبدأ بملاحظة الوقائع وسبرها، فتصل بذلك إلى حصر الأحداث غير العادية Le paranormal، بينما تدع الأخرى متى تبين إمكان تفسيرها بقواعد العلم الكلاسيكي، وفي هذا الإطار أيضاً تكشف الحوادث المكذوبة أو القائمة على التدليس[٢].

ثم يحاول علماء الباراسيكولوجيا - ما أمكن - إعادة بعض هذه الوقائع في مختبرات خاصة، تتوفر فيها مختلف أجهزة القياس والمتابعة والمراقبة، ويكون الحضور في العادة مختلطاً يضم علماء من اختصاصات أخرى[٣]. ولا يخفى أن إعادة إنتاج الظواهر الغريبة أمر لا يتحقق بسهولة[٤]، لكن العلماء نجحوا في بعض ذلك.

وهذه الدارسة التي يقوم بها المختصون في الباراسيكولوجيا تكون على مستويين:

الأول: كمي، حيث تجرى التجارب بالآلاف، ويعتمد في تصنيفها ودرس نتائجها على علم الإحصاء.

الثاني: نوعي، يخص - في أكثر الحالات - بعض الأشخاص الموهوبين الذين يظهر أنهم يتمتعون بملكات غير عادية.

وسأخص الآن المستوى الأول بكلمة، نظراً لأهميته، ودوره في إثبات وجود الظواهر الغريبة، وكثرة استعمال العلماء له.

الأسلوب الإحصائي:

يعتمد هذا الأسلوب طرقاً كثيرة، وأهمها في البداية طريقة البطاقات، ثم تنوعت هذه الطرق وكثرت وغدت أكثر دقة وفائدة. مثالها: أن يأخذ العالم مجموعة من البطاقات

---

(١) عن: Castellan La parapsychologie, p 9. والقائل هو: Arago.

(٢) Amadou : La parapsychologie, p 21-22, 25-26, 73. أكثر ظواهر التدليس انتهت حين أصبح علماء الباراسيكولوجيا يحضرون معهم خبراء في الشعوذة وممارسين لها، انظر: p72.

(٣) Amadou : la parapsychologie, p 28-29.

(٤) Amadou : La parapsychologie, p 29.

ويخفيها عن الشخص الذي يخضع للتجربة، ثم يبدأ في إخراجها أو ترتيبها على نظام معين، ويحاول ذلك الشخص اكتشاف عمل العالم وتخمينه[1].

هذه التجارب ـ وأمثالها ـ تتكرر بالمئات، وأحياناً بالآلاف، بل بعشرات الآلاف. وغاية هذا التكرار مقارنتها بنتائج حساب الاحتمالات، على الوجه الآتي:

يكون بين يدي العلماء النتائج الواقعية المحصل عليها من طريق التجارب، ثم يدرسون الاحتمال الرياضي لهذه النتائج؛ فإن كانت النتائج الواقعية مشابهة للاحتمال فهذا معناه أن الأشخاص الذين خاضوا هذه التجارب اختاروا أجوبتهم بالاتفاق فقط.

أما إن كانت النتائج المحصل عليها أكبر من الاحتمال الرياضي، فهذا يدل على وجود عامل غير الصدفة يكون هو سبب كثرة الإصابة[2].

مثاله: بين يدي العالم عشر بطاقات: ٥ باللون الأحمر، و٢ بالأخضر، و٢ بالأصفر، و١ بالأبيض. يخلط العالم البطاقات ويستخرج واحدة بالأخضر، ويسأل الشخص الآخر الذي يشاركه بالتجربة، فإن أجاب بالصواب، كان الاحتمال الرياضي هو ١/ ٥. فإن أجاب عن السؤال الذي يتعلق بالبطاقة الموالية، وقال: إن لونها أبيض، وأصاب، كان الاحتمال: ١/ ٥ × ١/ ١٠ = ١/ ٥٠ . وإذا قال: البطاقة الثالثة صفراء، وأصاب، أصبح الاحتمال هكذا: ١/ ٥٠× ١/ ٥ = ١/ ٢٥٠ . . . وهكذا. وإذا تكررت أجوبته الصائبة وكثرت كان الاحتمال الرياضي ضئيلاً للغاية، فلا بد لحدوثه من تصور قدرة ما لهذا الشخص على الجواب الصحيح.

ومن التجارب النوعية: اختبار انتقال الرسوم عن طريق التليباثي، فالعالم يرسم شيئاً على الورق، بحيث لا يراه الشخص الآخر الذي يحاول في الوقت نفسه محاكاة الرسم الغائب عنه[3].

النتائج:

كان رين هو صاحب فكرة الأسلوب الإحصائي، وقد انتهى بعد سلسلة من التجارب إلى إثبات وجود ظواهر الاستشفاف وقراءة الأفكار ونحوها، وهي النتائج التي أقرها مؤتمر الإحصاء الرياضي ـ سنة ١٩٣٧ بأنديابوليس ـ ، واعتبرها سليمة من الناحية الرياضية[4].

---

(١) Amadou : La parapsychologie, essai historique et critique, p 165, 176.

(٢) راجع: Amadou : La parapsychologie, p 142 à 150, 160 à 162

(٣) Amadou : La parapsychologie, p 174.

(٤) Amadou : La parapsychologie, p 163.

لقد أثبت رين وتلامذته، وكذلك الدكتور ساول، وجود هذه الظواهر بصفة قطعية، وتم تأكيدها بالمؤتمر الدولي للباراسيكولوجيا بأوتريخت سنة ١٩٥٣، وكانت هذه النتيجة ثمرة عمل دام حوالي خمسة وسبعين سنة. والآن لم يعد الشك في وجود هذه الظواهر أمراً يعتبر، فهو يدل فقط على الجهل بالنتائج التجريبية المحصلة والتي تعد بالمئات[١].

لقد خضع ٤٦١٢ شخصاً لتجارب عددها ٣٦٠٠٦٣٤ تجربة تصنف كلها ضمن ١٤٥ سلسلة تجارب، وكان هذا بين سنتي ١٨٨٢ و١٩٣٩ فقط[٢].

ويقول علم الاحتمالات الرياضية: إن حظ نجاح بعض التجارب بمحض الصدفة فقط هو: ١/ ١٠,٠٠٠ . وبالنسبة لبعض الأشخاص الموهوبين فإن احتمال تفسير إصاباتهم بالاتفاق هو ١/ ١٠٠ مليون [٣].

تصنيف الظواهر الغريبة:

بدون أن أطيل على القارئ بتفاصيل جهود العلماء في هذا التصنيف[٤] أكتفي بأن أقدم له التصنيف المعتمد اليوم، وهو التصنيف الأمريكي[٥]:

ظواهر الباراسيكولوجيا نوعان:

الأول: الاستشفاف والمعرفة بغير الأساليب المعتادة، وهي التي تسمى بالإنكليزية: Extra - sensory perception. وتكتب في تصانيف الباراسيكولوجيا اختصاراً هكذا: ESP.

وهذه الظواهر بدورها نوعان:

١ ـ الرؤية عبر المكان. وفيها: التخاطر عن بعد، أو التليباثي؛ والإبصار عن بعد، أو الجلاء البصري.

من أمثلة التخاطر أن السيدة ميلس كانت تقترح صوراً بذهنها فقط، فترسمها سيدة أخرى ـ هي رمسديم ـ تبعد عنها بـ: ٧٠٠ كلم، وكانت رسومها أحياناً دقيقة[٦].

---

(١) Amadou : La parapsychologie, p 184-185.

(٢) Amadou : La parapsychologie, p 169.

(٣) Amadou : La parapsychologie, p 167, 182.

(٤) راجع: Amadou : La parapsychologie, p 40-41

(٥) انظر التفاصيل في: Amadou : La parapsychologie, p 46, 211, 275.
Castellan : La parapsychologie, p 100-101.

(٦) Amadou, p 119 راجع أمثلة أخرى في: Amadou : La parapsychologie, p 79, 110

٢ ـ الرؤية عبر الزمان: بما فيها العلم بأحداث ستقع في المستقبل.

الثاني: تأثير العقل أو الفكر أو النفس في المادة، (ظواهر P K) بطريق اللمس أو بدونه.

واليوم فإن كلاً من ظواهر الاستشفاف والتأثير على المادة ثابتة، وإن كانت الأولى أقوى ثبوتاً وأرسخ(١).

ملَكة توقع المستقبل:

من أهم ظواهر الاستشفاف ESP التي أثبتت الباراسيكولوجيا وجودها عند الإنسان: المقدرة على التنبؤ ببعض المستقبلات(٢). وقد كانت السيدة بيبر قادرة على وصف أشخاص لا تعرفهم، فتتحدث عن حياتهم وطبائعهم وكثير من شؤونهم، وجرب هذا منها لعدة سنوات، وكانت تقول: لا أظن أن أرواحاً ما تتملكني وتتكلم على لساني، بل أعتقد أن هذا من باب التخاطر(٣).

ومن الذين عرفوا بهذه المقدرة أيضاً، وكانوا موضوعاً لعدد من تجارب العلماء: ديديي(٤).

هل هي ملَكة عامة في الناس؟

يقول المختصون: إن هذه الملكة ـ وسواها من قدرات الاستشفاف ـ توجد عند كل الناس، ولذلك فهي ملكة إنسانية، بل لوحظ وجود بعضها حتى عند بعض الحيوانات، لكن هذه المقدرة لا تعمل عند كل أحد، فهي في الأكثر خامدة هامدة في أعماق الإنسان(٥)، ثم هي في غيرهم تظهر بطريقتين:

١ ـ إما في مرات قليلة في العمر كله، وأحياناً مرة واحدة فقط إثر حادثة كبيرة يتعرض لها الشخص، أو أحد قريب منه.

٢ ـ وإما أكثر من ذلك، حتى إن بعض الموهوبين يستحضر قدرته هذه متى يشاء، إلا أن دراسة نشاط المخ عند هؤلاء لم تكشف عن شيء يميزهم عن الناس العاديين(٦).

---

(١) Amadou : La parapsychologie, p 36. Castellan : La parapsychologie, p 100-101.

(٢) Amadou : La parapsychologie, p 224, 226.

(٣) Amadou : La parapsychologie, p 115. وهي Mrs Eleonor Piper، عاشت في بداية القرن العشرين. وقارن بـ: La voyance, p 7.

(٤) راجع: Amadou : La parapsychologie, p 97-98. والمعني هو: Alexis Didier.

(٥) Amadou : La parapsychologie, p 190. وراجع: الإنسان وقواه الخفية، ص ٢٨.

(٦) Amadou : La parapsychologie, p 191.. وانظر: الإنسان وقواه الخفية، ص ١٦٢ إلى ١٦٤.



المرأة:

وقد لوحظ منذ مئات السنين أن أكثر من يتعاطى لهذه الفنون ـ من السحر والكهانة ـ هم نساء. خصوصاً في التكهن الطبيعي الذي يقوم على الحدس والشعور ..[١]

ومن الثابت أن المرأة تتمتع أكثر من الرجل بقدرات الخيال والتوقع والحدس والانتباه لعالم المشاعر والأهاجيس الداخلية، فأحاسيسها أدق ومشاعرها أرهف[٢].

يقول الرازي ـ في قوله تعالى : ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] ـ : "إنما أنَّث النفاثات لوجوه، أحدها: أن هذه الصناعة إنما تعرف بالنساء؛ لأنهن يعقدن وينفثن، وذلك لأن الأصل الأعظم فيه ربط القلب بذلك الأمر وإحكام الهمة والوهم فيه، وذلك إنما يتأتى من النساء"[٣]. ولما كان عدد الساحرات أكبر من عدد السحرة الذكور ذهب مثلاً: مقابل ساحر واحد يوجد عشرة آلاف ساحرة[٤].

وقد كان أكثر ضحايا محرقة السحرة بأوربا من النساء، حتى اعتبر بعضهم أن السحر آنذاك كان نوعاً من الكنيسة الأنثوية المضادة للكنيسة الرسمية. ويقدر علماء التاريخ بأنه في تلك المذبحة كان يتم قتل ثلاث أو أربع نساء مقابل رجل واحد[٥].

المؤهلون ـــ أكثر ـــ لهذه المقدرة:

ويظهر أن هؤلاء هم من النوع العاطفي الحساس "اللاعقلاني"، والذي يعتمد كثيراً على الحدس، ولوحظ أيضاً أنهم شديدو الثقة في أنفسهم[٦].

لكن أهم ما يميز هؤلاء هو أنهم أكثر الناس استعداداً للدخول في نوع من المس أو الغيبوبة Transe، وبسهولة[٧].

---

(١) Devins et oracles grecs, p 42 وكما أن أكثر العرافين نساء كذلك أكثر من يزور هؤلاء نساء. انظر: La voyance, p 78-79.

(٢) راجع: (علم نفس المرأة)، Hélène Deutch : la psychologie des femmes, p 120 à 125, 249-250 وانظر: La sorcellerie, p 10.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣٢/ ١٩٥، الفلق.

(٤) La sorcellerie, p 10. هذا مثل فرنسي: Pour un sorcier, dix milles sorcières

(٥) Encyclopaedia, article sorcellerie, 21/ 341.

(٦) La Voyance, p 21. Amadou : La parapsychologie, p 199-200. وراجع كذلك ما كتبه ويلسون في الفصل الثالث: الشاعر عالماً بالغيب، من كتابه: الإنسان وقواه الخفية، ص ٥١ فما بعدها.

(٧) La parapsychologie, p 197.



حالة المس أو الغيبوبة: Transe

تتميز هذه الحالة بضعف القدرات الواعية والجسدية لمن يدخل فيها، فهي وَهَن شامل وحال بين اليقظة والنوم[١].

وهذه الحالة أنواع، فمنها شكل يشبه التنويم المغناطيسي، ومنها شكل يشبه التملك "الشيطاني" في جلسات استحضار الأرواح[٢].

وقد كشفت الدراسة الفيزيولوجية لنشاط الدماغ أن حالة الغيبوبة هذه ـ التي تحدث لبعض الموهوبين ـ تشبه مرحلة معينة في النوم، ولذلك يُعتقد أن الأحلام التنبؤية تحدث في هذه المرحلة بالضبط[٣].

هذه الحالة من الضعف والغيبوبة هي ـ في الأصل ـ تلقائية، لكن يمكن لبعض الأشخاص أن يحدثوها، إما بمحض الإرادة، أو بالاستعانة بعوامل خارجية، ومنها:

١- الأساليب القديمة، كجلسات السحر.

٢- استعمال أشياء، مثل: البلورات والمرايا اللامعة.

٣- بعض المواد المخدرة، وقد درس العلماء بعضها: نبات البيتولْ، وإيبوكا، والكحول، حتى القهوة لها أثرها[٤].

فهذه عبارة عن محفزات تدفع بملكة التنبؤ والاستشفاف إلى الظهور والعمل. وقد أصاب ابن خلدون حين نبه على أن هذه الأشياء ـ مثل المرايا ـ ليست مقصودة لذاتها، بل لجمع القدرة وتركيزها[٥].

إشكالية تفسير قدرات الاستشفاف: (ESP)

هذا كله مما انتهت الباراسيكولوجيا منه ومن إثباته منذ زمان، لكن تبقى المشكلة الأساسية في تفسير هذه القدرات الغريبة[٦].

---

(١) Amadou : La parapsychologie, 192 . وانظر وصفاً مفصلاً لهذه الحالة في: ص ٢٠٢. وقارن بـ: ص ٩٨.

(٢) Amadou : La parapsychologie, 194-195. . وانظر حول التملك الشيطاني أيضاً: p 91-92.

(٣) Amadou : La parapsychologie, p 196-197.

(٤) Amadou : La parapsychologie, p 193. وقارن بـ: La voyance, p 7, 22, 24. . العشبتان هما: Iboga, peytol

(٥) المقدمة، ص ٧٦.

(٦) Castellan : La parapsychologie, p 33, 60, 105-106.

وقد كانت هذه المشكلة سبباً لهجران كثير من الناس هذا العلم فترة محددة، بأوربا عامة وبفرنسا خاصة، وذلك حين قام عالم كبير في البيولوجيا - وهو ريشي - بدراسة الظواهر الغريبة، فانتهى - بعد جهد ضخم - إلى القول بأن الإنسان يملك حاسة سادسة، لكنه اعترف بأنه لم يجد أي تفسير لها، فكأنه أيأس الباحثين. ويرجع فضل العودة بالناس إلى الباراسيكولوجيا إلى أبحاث العلماء الأنجلوساكسونيين الذين حققوا بعض التقدم في فهم ظواهر الاستشفاف خاصة[١].

وتوجد في هذا الموضوع نظريات قديمة، مثل نظريات: مسمر، ورايشنباخ، وثوري[٢]، لكنني أفضل أن أقتصر على ذكر النظريات المعاصرة، وباختصار شديد.

يوجد بالباراسيكولوجيا اتجاهان رئيسيان في التنظير للظواهر الغريبة:

الأول: يعتبر أن الرابط بين الشخص والموضوع - كالفردين في حالة التخاطر عن بعد، أو فرد وشيء كبطاقة أو نرد أو طاولة في حالة ظواهر تأثير الفكر في المادة (PK) - الرابط فيزيولوجي، وهو عبارة عن طاقة. ومبنى هذه النظرية القياس على طريقة عمل الحواس الخمسة. ثم تفرع هذا الاتجاه إلى ثلاثة آراء:

١- نظرية المذياع العقلي، أي يوجد تواصل طاقي بين دماغي الشخصين، في حالة التليباثي مثلاً.

٢- نظرية أخرى تقول: إن الأشياء نفسها تبعث للإنسان إشارات تعينه على أن يدركها ويعرفها.

ج - نظرية الحاسة السادسة، بمعنى أن في كل إنسان حاسة أخرى غير الحواس الخمس، وغاية ما في الأمر أنها خامدة في الأكثر[٣].

الثاني: يقول: إن الرابط بين الشخص والموضوع غير مادي، فهو نفسي؛ ولذلك فظواهر الاستشفاف ثمرة عمل لاشعوري. واعتبر هؤلاء أن الاتجاه الأول مجرد تهرب من حقيقة وجود الروح[٤].

---

(١) Castellan : La parapsychologie, p 79 à 83.

(٢) راجعها في: Castellan : La parapsychologie, p 15 à 18, 20 à 22, 49, 57. Amadou : La parapsychologie, p 65 à 69. (Marc Thury. Von Reichenbach)

(٣) Amadou : La parapsychologie., p 242 et après. وانظر أيضاً: الإنسان وقواه الخفية، ص ١١ فما بعدها.

(٤) Amadou : La parapsychologie, P 203, 250.

وهذا رأي أكثر علماء الباراسيكولوجيا، خصوصاً من الأنجلوساكسونيين؛ ولذلك يوجد اتفاق عام اليوم على أن الظواهر الغريبة (ESP+PK) لها علاقة وطيدة بعالم النفس - أو الروح - الإنسانية[١].

ويقول بعض علماء هذه المدرسة: إن اللاشعورات تتلاقى فيما بينها وتتواصل كما تتلاقى العقول وتتناقش، وهذا ما يفسر وقائع الاستشفاف، ففي ذلك العالم لا يوجد زمان ولا مكان، لا ماض ولا مستقبل...[٢]

ويرى أمادو[٣] بأن جميع هذه النظريات يمكن أن تكون خاطئة، فمجال الباراسيكولوجيا غامض ومعقد، ويضرب لهذا التعقيد مثلاً، وهو نظرية يونغ.

رأي يونغ:

يرى هذا العالم النفساني الكبير أن الظواهر الغريبة تجري في عالم آخر فوق حدود الزمان والمكان، ولهذا لا يمكننا دراستها بأسلوبنا المعتاد الذي هو بحث عن الأسباب والمسببات، في إطار مفهومي الزمان والمكان؛ ولذلك نخطئ حين نتصور أن الشخص الذي يتنبأ - مثلاً - يشعر بأمر يحدث خارج ذاته، أو يقرأ أفكار غيره، بل الصواب - يقول يونغ - هو أن هذين الأمرين مختلفان، إلا أنهما يحدثان معاً، دون أية علاقة سببية. إن في الوجود عالمين متجاورين، وهذه المدارك الغريبة في الإنسان (مثل ظواهر ESP) تتصل بالعالم الآخر وتتلاقى معه.

هكذا يطرح يونغ مفهوم "التزامن"، ففي الوجود نظامان: نظام الأسباب، ونظام المعاني، وكلاهما يُسير العالم. وفي نظام المعاني يوجد فقط قران بين الأمرين، كما في التخاطر مثلاً، لا سببية بينهما، لكن هذا القران يحمل معنى ويفيد مغزى[٤].

الخلاصة:

الموضوع إذن معقد، وبعضهم يرى أنه من المستحيل أن نصل إلى اكتشاف حقيقة

---

(١) Castellan : La parapsychologie, p 101. Amadou : La parapsychologie, p 250.

(٢) Castellan : La parapsychologie, p 41. Amadou : La parapsychologie, p 251.

(٣) Robert Amadou كاتب فرنسي في المجال الغيبي والباطني، وهو صاحب كتاب هام في الباراسيكولوجيا في الفرنسية. وهو الذي اعتمدته هنا.

(٤) راجع التفاصيل في: Amadou : La parapsychologie, p 237 et après وانظر الخلاصة في: Castellan : La parapsychologie, p 113, 115. والمفهوم هو Synchronicité

قدرات الاستشفاف عند الإنسان(١). ومن المختصين في الباراسيكولوجيا من يرجع بعض الظواهر الغريبة إلى ما يسمونه بـ : "الأرواح"(٢). كما توجد نظريات خاصة بتفسير ملكة التنبؤ، لكنها لا تقوم على أساس صلب، ولا تفسر جيداً هذه القضية(٣).

فلنكتف بما ثبت من وجود مقدرة إنسانية على التوقع، دون أن نقول شيئاً عن تعليل هذه المقدرة.

حدود ملَكة التنبؤ:

تشتبه هذه الملكة بظاهرة أخرى معروفة جيداً في الباراسيكولوجيا، وهي إحساسك في لحظة ما بأنه سبق لك أن عشت هذه اللحظة أو توقعتها، وبالتفاصيل ذاتها، فإذا كنت ماراً بشارع ما تملكك شعور بأنك توقعت كل شيء: السيارة الحمراء الواقفة أمامك، الشخص الذي يقرأ جريدة في زاوية من الشارع، الغيوم في السماء، الطفل الذي يلعب هناك... ونحو ذلك(٤).

فهذا ليس من التنبؤ، بل هي ظاهرة أخرى معروفة في الباراسيكولوجيا، وأنا شخصياً أعرفها جيداً؛ لأنها تحدث لي أحياناً، وهي عادية، ولكنني لا أدري ما تفسيرها.

ومن جهة أخرى، يظهر أن ملكة التنبؤ هذه تختلف قليلاً عن الحدس، فهذا شكل مباشر من المعرفة التي لا تلجأ إلى الاستدلال، لكن فلاسفة المعرفة يتكلمون عن أنواع الحدس، ويذكرون منه: الحدس التوقعي(٥).

وقد ركز الدكتور أوستي بحوثه وجهوده على مقدرة التنبؤ، واعتنى خصوصاً بأخطاء المتنبئين ودرس عللها. ومن النتائج التي قررها:

١ ـ بعض التنبؤات لا تخطئ تماماً، كالذي يتوقع موت شخص ما، لكن الذي يموت فعلاً هو أب ذلك الشخص، فهذه وأمثالها كثير في إخبارات الموهوبين.

لكن لاحظ أوستي أنه يوجد دائماً عدد من التنبؤات الخاطئة الخالصة، أي التي ليس فيها أي صواب، لا قليل ولا كثير، لا من وجه قريب ولا بعيد، فهذه أخطاء محضة.

---

(١) La voyance, p 7.

(٢) Castellan : La parapsychologie, p 65-66.

(٣) راجع هذه النظريات . وهي أشبه بالتخمينات . في: Amadou : La parapsychologie, p 262 à 271.

(٤) Amadou : La parapsychologie, p74, 225.

(٥) راجع مقال الحدس: Article : intuition, in : Encyclopaedia Universalis, 12/524. وانظر: La Raison, p 11.

ولذلك فملكة التنبؤ نسبية وظنية.

٢ ـ وكذلك نادراً ما تتعلق نبوءات الوسطاء بأحداث عامة، فهي في الأكثر تمس الأفراد وتتعلق بأحداث خاصة؛ ولذلك لا يتوقع الوسيط الحرب، وإن كان يمكن أن يتنبأ بمكروه يصيب شخصاً قريباً منه، ويمضي الزمان وتقع الحرب فيصاب فيها هذا القريب(١).

وأخيراً فإن هذه الملكة تتغير وتتقلب، فهي ليست على الدرجة ذاتها من القوة أو الضعف، حتى بالنسبة إلى الشخص الواحد(٢).

فكرة ملكة التنبؤ في التراث الإسلامي:

يوجد توافق كبير بين آراء بعض العلماء المسلمين ونتائج الباراسيكولوجيا المعاصرة حول هذا الموضوع، فمثلاً يسجل علماؤنا أن ظاهرة الكهانة تنقسم إلى نوعين: كهانة بوسيط، وهو الجن، وأخرى بلا وسيط، أي بمقدرة ذاتية للكاهن(٣).

ومن الذين تعرضوا لهذا الموضوع وقالوا بأن لبعض الناس قدرة خاصة على إدراك بعض المغيبات: المسعودي، وابن سينا، وابن القيم، وابن خلدون(٤) وكثيرون سواهم. وعدَّ حاجي خليفة ـ ومن سبقه كصاحب مفتاح السعادة ـ العرافة علماً يكتسبه أصحابه "بالتجارب أو بالحالة المودعة في نفوسهم"(٥).

قال ابن خلدون: "إنا نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس، ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها، إنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فُطروا عليها، وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفافة، وأهل الزجر، والطرق، وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان لا يسع أحد جحدها ولا إنكارها.." فالكهانة إذن من خواص النفس الإنسانية، وسبيلها انسلاخ النفس من البشرية إلى الروحانية، بإضعاف

---

(١) انظر: .Castellan : La parapsychologie, p 71 à 74 (الاسم باللاتيني Dr. Eugène Osty).

(٢) Amadou : La parapsychologie, p 191.

(٣) راجع كتابي: النظرية الإسلامية في الكهانة خاصة صفحات ٨٩ و١٢٥ و٢٧٤.. . فما بعدها.

(٤) راجع: مروج الذهب، ٢/ ١٧٢ فما بعدها. مفتاح دار السعادة، ص ٤٩٣. لباب الإشارات والتنبيهات، ص ١٩٥ ـ ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٠. ومن المعاصرين سيد قطب في: "في ظلال القرآن"، ١/ ١٢٨، البقرة ١٠٢. وانظر: تهافت الفلاسفة، للعلاء الطوسي، ص ٣١١.

(٥) كشف الظنون، ٢/ ١١٣١. وانظر: مفتاح السعادة ومصباح دار السيادة، ١/ ٣٣٢، لطاش كبرى زاده. وانظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٧٥٥، ٧٧٣.



الحواس والبدن. إلا أن إدراكات الكهان ـ وأمثالهم ـ هي دائماً جزئية وناقصة[1].

وللرازي كلام جيد في ظواهر التأثير الفكري عن بعد (PK)، أي بالهِمَّة في التعبير القديم، راجعه إن شئت في تفسيره[2].

والجدير بالذكر أيضاً أن للقدماء آراء قريبة مما تقدم، في مسألة التنبؤ هذه[3].



(١) راجع المقدمة، ص ٧٦ ـ ٧٧، ٨٠ ـ ٨١. والنص المذكور من صفحة ٨٠.

(٢) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٢٦ إلى ٢٢٨، البقرة ١٠٢.

(٣) انظر: النظرية الإسلامية في الكهانة، ص ٤٨ فما بعدها. وراجع للتوسع: الغيب في العالم القديم، لشيشرون، ص ٤٩، ٨٠، ٨٩، ٩١، ١٩٠. ثم Sur la disparition des oracles, p 42 à 44, 190, 192, 251 note 237



الباب الثاني

من أساليب توقع شؤون الغيب

عرض وتقويم

تمهيد.

الفصل الأول: الفنون الخفية.

الفصل الثاني: البحث الفقهي.



تمهيد :

قد رأينافي الباب السابق معنى الغيب وموقعه في العِلمين الإلهي والنبوي، وهل في المقدرة البشرية إدراك بعض الغيوب المستقبلة، وكيف؟ وما حدود ذلك؟ وقضايا أخرى عديدة.

ثم إننا تعرفنا على ظاهرة شغف الإنسان بالمستقبل ومحاولته الدائمة لنزع حجابه، وهذه الظاهرة هي ـ في الواقع ـ طبع بشري عميق، فالسؤال عما يحمله الغد يكاد يكون من فطرة الآدمي، وإنما يصده عنه اصطدامه بصعوبته، ووعيه بأنه في الأكثر فوق طاقته.

بالرغم من ذلك سجل التاريخ أن البشرية خاضت دائماً هذا البحر الذي وقف الراسخون في العلم بساحله، وأنتجت عشرات الأساليب والتقنيات، افتُرض أنها تمكن من معرفة الآتي. ولعلَّ الاطلاع على بعض الموسوعات الأجنبية في طرق التنبؤ القديمة يفيد في فهم هذه المسألة.

والكهانة ـ أو العرافة ـ هي التي احتضنت ـ تاريخياً ـ أكثر هذه الأساليب، وهي أيضاً التي قادت الوثنية وواجهت الأنبياء وما جاءوا به من هدي ورسالة في فترات متعددة من التاريخ القديم.

ونظراً لأهمية الكهانة في الماضي، واستمرار بعض صورها إلى اليوم، فإنني خصصتها بتأليف مستقل، واكتفيت في هذا الباب بذكر نبذة يسيرة عنها. وهذا التأليف الذي سميته "النظرية الإسلامية في الكهانة" يعد ـ في حدود علمي ـ أول دراسة علمية بالعربية متخصصة في الموضوع، وفي قضية الكهانة إشكالات تاريخية حقيقية تبيَّن لي أن الإسلام يملك أجوبة لها.

ومن الأساليب الهامة التي اخترعها الإنسان للتلصص على شؤون المستقبل: التنجيم، بل هو اليوم أهم الطرق الخفية للتنبؤ. والتنجيم موضوع معقد ومتشعب الأطراف، والذي يزيد من أهميته وخطورته هذا الانتشار الكبير الذي يحظى به في مختلف بقاع العالم، بالرغم من كل شيء: من الثورات السياسية والمعرفية، ومن التقدم العلمي، ومن الحداثة وما بعدها.

لذلك فإن هذا الكتاب لا يتسع لبحث موضوع واسع كالتنجيم، إلاّ من نبذ يسيرة جاءت في الباب الثاني. وهذا ما دفعني إلى الغوص في عالم التنجيم زماناً، خرجت منه بكتاب مستقل جعلت له عنواناً: "مقدمة في التنجيم، وحكمه في الإسلام".

لكن توجد فنون خفية غير الكهانة والتنجيم، وهذه هي التي أفردتها بالفصل الأول من هذا الباب، فعرّفت بها ودرست حقيقتها وعلاقتها بمجال الغيب عامة، وبالتنبؤ بالمستقبل

خاصة. وهذه الفنون ـ أو القضايا ـ هي: السحر، والكيمياء الخفية، والباطنية، واستحضار الأرواح، والخط، والاستقسام بالأزلام. وسيلاحظ القارئ أن هذه القضايا ليست بيِّنة، أعني ليس من السهل فهم حقيقتها ومعناها، خصوصاً السحر؛ لذلك شغل الكشف عن طبيعة هذه الفنون بغرض تفهّمها مساحة هامة من الفصل الأول.

فإذا تبيَّنتْ واتضحتْ سهُل علينا أن ندرس علاقتها بالمستقبل والتنبؤ به. وأمكن أيضاً أن نحدد حكمها في الإسلام. وهذا موضوع الفصل الثاني: البحث الفقهي، تناولت في بدايته الأحكام العامة للتكهن بالمستقبل، ثم انعطفت إلى بحث الأحكام التفصيلية لكل من: السحر، والتنجيم، والخط، والأزلام، والكيمياء الخفية. وفي مبحث تال قدمت رأياً عن أقرب العلوم "التجريبية" إلى مجال الغيوب، وهو: الباراسيكولوجيا، ثم بدا لي أن أقارن بين موقف الفقه الإسلامي من ممارسة التنبؤ وموقف القوانين الوضعية: الفرنسية والمغربية. وخصصت المبحث السادس لآخر التطورات التي عرفتها العلوم الإنسانية في مجال المستقبل، فعرفت بالدراسات المستقبلية المعاصرة Futurologie، قبل أن أختم بنظرية عن الدور السلبي لفنون التنبؤ في تضليل البشرية وعرقلة تقدمها، وكيف أن عقيدة التوحيد تحرر الإنسان من هيمنة هذه الأساليب الخطرة على العقل والسلوك معاً.



الفصل الأول

الفنون الخفية

المبحث الأول: السحر.

المبحث الثاني: الكيمياء الخفية.

المبحث الثالث: الباطنية.

المبحث الرابع: الروحية الحديثة، أو استحضار الأرواح.

المبحث الخامس: الخط.

المبحث السادس: الاستقسام بالأزلام.

المبحث الأول: السحر

وإنما اخترت أن أبدأ هذا الفصل بمبحث السحر؛ لأنه أشد شيء ارتباطاً بالتنجيم، الذي هو ادعاء معرفة المستقبل بناء على تأمل الكواكب، وهذا بشهادة النبي ﷺ. والتنجيم هو أهم الفنون الخفية المستقبلية.

الحديث النبوي في صلة التنجيم بالسحر:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد». وهذا حديث صحيح[(١)].

شرح ألفاظ الحديث:

"اقتبس" : أي أخذ وحصَّل وتعلَّم.

"علماً من النجوم" : أي علماً من علومها، أو مسألة من علمها.

" شعبة" : قطعة[(٢)]، أو طائفة[(٣)].

"زاد ما زاد" : قال الشوكاني : "أي زاد من علم النجوم كمثل ما زاد من السحر، والمراد أنه إذا ازداد من علم النجوم فكأنه ازداد من علم السحر"[(٤)]. أو "كلما زاد من تعلم علم النجوم زاد في الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شعبه، فإن ما يعتقده في النجوم من التأثير باطل، كما أن تأثير السحر باطل"[(٥)].

إذن : ما وجه ارتباط السحر بالنجوم، ولِم أضاف النبي ﷺ علم النجوم إلى السحر؟ يقتضي الجواب عن هذا السؤال أن نفهم ظاهرة السحر ونعرف حقيقتها. وهو ما سأشرع في تقديمه للقارئ باختصار، فإذا انتهيت منه انعطفت إلى شرح العلاقة بين الظاهرتين، جاعلاً من ذلك مدخلاً لبيان الرأي في علاقة أخرى، هي ـ هذه المرة ـ بين السحر واستشراف المستقبل.

المطلب الأول: مدخل عام

قِدم ظاهرة السحر وغموضها :

السحر ظاهرة قديمة، بل من أقدم الظواهر البشرية المعروفة، وربما كان موجوداً في

---

(١) أخرجه أبو داود: ٣٩٠٥ ، وابن ماجه: ٣٧٢٦، وأحمد: ٢٠٠٠ ، ودرجته عند السيوطي حسن، كما في الجامع الصغير، ٢/ ٥٧٨، أما النووي والحافظ العراقي فصححاه في كتابيهما : تخريج أحاديث الإحياء، رياض الصالحين ٤/ ٥١٤ .

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، للشيخ أبي الطيب محمد آبادي، ١٠/ ٤٠٠، كتاب الكهانة والطيرة، باب في النجوم.

(٣) فتح المجيد، ص: ٢٧٨.

(٤) نيل الأوطار، ٧/ ٣٧١، باب ما جاء في حد الساحر.

(٥) فتح المجيد، ص: ٢٧٨، وانظر: السراج المنير، ٣/ ٣٣٨.



عهد النبي نوح عليه السلام، وهو من أقدم الأنبياء[1].

والسحر ـ مع ذلك ـ غامض في أكثر أموره: في منشئه، وحقيقته، وكيفية تأثيره، وأحد أهم الأشياء التي تلفت انتباه مؤرخ ظاهرة السحر، وتثير استغرابه: ثبات مبادئ السحر، واستقرارها، عبر كل الأزمنة، وفي كل الأمكنة، فالطقوس واحدة ـ تقريباً ـ عند مختلف الشعوب، وكذلك أساس السحر وطرائق عمله، وهذا منذ عصور موغلة في القدم، فمنذ البداية كانت جميع العناصر والمبادئ المكونة للسحر موجودة، ومازالت كذلك إلى اليوم، بلا زيادة ولا نقصان، اللهم بعض التغييرات التقنية التي ليس لها كبير أهمية[2].

ورغم تطور البحث الاجتماعي والأنثروبولوجي تبقى ظاهرة السحر في مجملها غير معروفة لنا جيداً؛ ولذلك يقول باستيد ـ في مسألة العلاقة بين الأديان والسحر ـ: لا علم التاريخ ولا علم الإثنيات والسلالات البشرية يُمَكِّنانا من معرفة أيهما أسبق ظهوراً، الدين أم السحر[3].

ومن جهة أخرى، لا يمكن التعويل على التجربة لدراسة السحر، نظراً لخصوصيات الظاهرة[4].

وبالنسبة لنا نحن المسلمين، فإن الوحي يقدم لنا بعض العناصر الأساسية لفهم ظاهرة السحر، فالمسألة التي ذكر باستيد أنها حيرت كثيراً من علماء الأنثروبولوجيا، لا تطرح عندنا أصلاً، لما ثبت أن الدين نزل مع آدم عليه السلام[5]. ولكن هذا يحتاج إلى بحث قائم بذاته. وإنما غرضي هنا هو بيان قضية السحر في التصور الإسلامي وتوضيحها بشكل عام، وصولاً إلى تحديد موقع التوقع والتنبؤ وكشف الغيب منها؛ ولذلك جعلت أول هذا المبحث في علاقة السحر بالتنجيم، وبعده يأتي بعض البحث في منطق السحر وأنواعه وما قيل في تفسيره، ثم إني عرضت لشيء من تاريخ السحر، على سبيل التنبيه لا غير، بعد ذلك يأتي بحث في حقيقة السحر عند علماء المسلمين خصوصاً في ضوء تفسيرهم لأهم آية قرآنية في الموضوع.

فإذا عرف القارئ هذه الأمور، وتمهدت أمكن أن ندرس علاقة السحر بالتوقع واستشراف المستقبل. ولابد أن يصبر القارئ على هذا كله، فإن الظواهر الإنسانية الكبيرة شديدة التعقيد عادة.

---

(١) وهو احتمال قوي بحسب ظاهر القرآن. انظر: جامع البيان، ١/ ٣٤٠، تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٢.

(٢) (السحر) Jérôme Antoine Rony : La Magie, p 28.

(٣) Eléments de sociologie religieuse, p 34.

(٤) راجع: La Magie, p 12-13

(٥) هذا باعتبار جنسنا البشري. ولا دخل لهذا في مسألة هل كان قبل الإنسان الحالي إنسان آخر يشبهه في بعض النواحي ويكون قد اندثر، فذلك موضوع آخر.

منطق السحر وأنواعه:

يقوم السحر على فكرة أن للكون روحاً واحدة، عنه نشأت الأرواح الخاصة: أرواح الناس والنجوم؛ ولذلك فإن بين هذه الأرواح تواصلاً وارتباطاً. وروح الساحر حين تنتقل عنه، وتلج في شيء مادي ما، يمكن أن تتصل بروح الغير، فتؤثر فيه، فإن الجسم انعكاس للروح(١).

وهذا الرباط بين الروح والجسد يوجد مثله بين الفكرة والتعبير اللغوي عنها؛ ولذلك فإن للكلام ـ وهو مظهر لعزيمة الفكر ـ أثره(٢).

وطقوس السحر نوعان(٣):

الأول: طقوس التحويل أو التوصيل: Transmission، أي نقل الأثر. وهي بدورها نوعان:

أ ـ طقوس العدوى Contagion: كأن يأخذ الساحر ثوباً لشخص معين، أو بعض شعره أو أظفاره، وبطريقها يحاول التأثير فيه.

ب ـ طقوس المحاكاة: فإن من مبادئ السحر أن الشبيه يستدعي الشبيه؛ ولذلك يربطون بسرير المريض بالصفراء ـ من علل الكبد ـ طيراً أصفر، وكأن المرض ينتقل إليه.

الثاني: طقوس التوليد Génération: وهذه لا تحول أثراً، بل تنشؤه إنشاء، بقوة الكلمات والعزيمة عليها(٤).

والساحر ـ مع ذلك ـ يحتاج إلى "عقد اتفاق" مع الشيطان، لتأمين عمله وآثار هذا العمل(٥).

من التفاسير الاجتماعية الجزئية للسحر:

ليس للسحر تفسير نهائي، جامع مانع، وإنما توجد نظريات قد تعلل بعض جوانب

---

(١) La Magie, p 25 à 27.

(٢) La Magie, p 26.

(٣) راجع: La Magie, p 17 à 24.

(٤) ومنه ما حكى ابن خلدون في مقدمته أنه شاهده عياناً، ص ٣٧٠.

(٥) Jean Palou : La sorcellerie, p 15-16.

يفرق الكتاب الغربيون بين الكلمتين: La sorcellerie، La magie، وحاصله أن الثاني ـ Sorcellerie ـ هو التطبيق الشعبي البدائي للأول، وهو يستعمل أساليب خفية ورهيبة. ولذلك فإن السحر الذي انتشر كثيراً بأوربا في آخر العصر الوسيط، وبداية النهضة... هو الثاني في الأكثر، كما سيأتي في فقرة التاريخ، وليس لهذا الفرق أهمية بالنسبة لما نحن فيه. انظر التفصيل في: La sorcellerie, p 8-9

الظاهرة، دون أن تصل إلى الإحاطة بها جميعاً. ومن ذلك[1]:

١ ـ في العلماء من يرجع أصل السحر إلى قدرات ذاتية للإنسان، هي الآن مجهولة عندنا.

٢ ـ ويرى بعضهم أن أصل السحر يوجد في عالم العاطفة والشعور، فالساحر يركز رغبته العميقة على شيء محدد، ثم هو ببعض الأفعال والأقوال يريد ـ إرادة العازم الجازم ـ لهذه الرغبة أن تتحقق.

٣ ـ والساحر ـ عادة ـ شخص عصابي[2]، وهو يهيئ نفسه بطقوس عملية شاذة، كالإمساك عن الأكل، وتعذيب نفسه، أو إيلام جسده، والنوم مع الأموات...

هذا الإعداد يسقط الساحر في أزمة من الهستيريا، المعروفة في الطب النفسي، وكذا في حالات من الهذيان المتكرر، مما يسمح ببروز قوى الإيحاء الذاتي، والانتباه المركز...[3].

وقد يستعمل الساحر بعض المواد المخدرة، مثل الأطرب، ونحوها، وبعضها مسؤول عن رؤية من يستعملها لأشياء يحسبها رؤى غيبية أو خارقة للعادة، من هذه الأشياء ـ في السحر الأوربي ـ اجتماع السحرة بالشيطان في مكان معين ليلاً، ويعرف هذا الاجتماع بـ "محفل السبت"[4].

ويجوز قبول هذه التفاسير ـ ونحوها ـ، وهي متنوعة، فمنها التاريخي، ومنها التحليلي ـ النفسي ـ ومنها الاجتماعي... وهي تفيدنا في جملة أمور:

١- تفسير انتشار ظاهرة السحر في كثير من المجتمعات.

٢- تفسير انتشار مظاهر كثيرة ليست سحراً، بل مجرد شعوذة، أو شعبذة.

٣- تفسير سلوك الساحر أو المشعوذ، ونفسيتهما.

٤- الإجابة عن سؤال لماذا يقبل الناس على هؤلاء؟

غير أن حالات كثيرة في السحر لا تشملها هذه التفاسير؛ ولذلك يقول كاتب مقالة "التملك الشيطاني" بالموسوعة: إن نظرية الهستيريا لا تفسر هذه الظاهرة[5]. ولعل الحق ـ

---

(١) راجع: Eléments de sociologie religieuse, p 16 à 23.

(٢) راجع: Eléments de sociologie religieuse, p 24 à 26.

(٣) La Magie, p 9.

(٤) La sorcellerie, ـ p 25-26. عشبة الأطرب السامة: Belladone. محفل السبت Le sabbat.

(٥) راجع ـ للوقوف على مدى تعقد قضية واحدة من قضايا السحر، وهي مسألة الصرع ـ: Encyclopaedia Universalis, article: possession 18/809.



كما يقول لابروبير[1] ـ يوجد في موقف وسط بين من يرى في كل شعوذة أمراً من أمور الغيب، وبين من لا يرى في السحر شيئاً غير عادي ولا غيبي بتاتاً. وإن قلنا ـ مع جمهور علماء المسلمين ـ: إن للسحر حقيقة، تبينت لنا أكثر حدود هذه النظريات؛ ولذلك نحتاج إلى معرفة مذهبية الدين في الموضوع، ولو إجمالاً.

شيء من التاريخ:

البداية المعروفة:

كانت مصر وبلاد الكلدان ببابل مهدين لظهور السحر، فحوالي ٣٠٠٠ ق. م كان البلدان يتوفران على نسق معقد من المعتقدات الدينية، وكان محور هذا النسق ومركزه هو السحر، الذي كان بمثابة ديانة رسمية، ويجري في إطار احتفالي[2].

اليهود:

ثم تلقف اليهود هذا الإرث عن المصريين والبابليين، وانتشر بينهم رغم محاولات ملوكهم منع ذلك، وكان اليهود هم الذين نقلوا السحر إلى اليونان والرومان، ولما كان وجودهم متغلغلاً في أكثر أنحاء أوربا، فقد انتشر السحر عنهم في العصر الوسيط بهذه القارة[3].

اليونان:

وهذا السحر المصري والبابلي خصوصاً انتقل أيضاً إلى بلاد الإغريق، ووجد في الأفلاطونية والرواقية مساعداً على الرسوخ والانتشار.

لكن الأفلاطونية الجديدة هي المدرسة الفكرية اليونانية التي احتضنت السحر أكثر من غيرها، وكتبت فيه، وفلسفته، وذلك لآرائها في روح الكون، وتعدد الأرواح الخاصة به، والفيوضات، والآلهة التجريدية ونحو ذلك[4].

---

(١) La Bruyère : Les caractères (الطبائع). ولابروبير من أدباء القرن السابع عشر الفرنسي.

(٢) راجع: Précis d'histoire ancienne, p 9-10-30 ـ La Magie, p 33, 36, 37, 39

وانظر: مقدمة ابن خلدون، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٣) La Magie, p 40 à 44 .

(٤) راجع: Les Grecs et l'irrationnel, p 270 et après. La Magie, p 25-44-51-52

وقد اهتم كل من أفلوطين وبورفوريوس وجومبليوكوس ـ صاحب كتاب في الموضوع عنوانه: "حول العجائب"... ـ وسواهم بالسحر وكتبوا فيه.

الرومان:

وفي العهد الروماني أصدر بعض الحكام مراسيم تعاقب على السحر، خصوصاً الذي يسمونه ـ في التراث الأوربي ـ بالسحر الأسود. ويعكس الأدب الكلاسيكي الروماني الاعتقاد العام للناس ـ على اختلاف طبقاتهم ـ في أمور السحر، ولكن هؤلاء الحكام الذين منعوا من ممارسة السحر كانوا حريصين على الاستعانة ببعض السحرة والمنجمين المقربين(١).

ثم جاء الأباطرة المسيحيون فدشنوا حرباً عامة ضد الديانات الوثنية، ومعها السحر. وفي هذه الفترة، من القرن السادس إلى الثاني عشر الميلاديين، تراجع وجود السحر بشكل كبير، خصوصاً في شكله المذهبي، أعني ذلك الذي ينبني على فلسفة في الوجود، ويرتبط بنسق مفاهيمي مميز، كالأفلوطينية مثلاً(٢).

موقف الكنيسة الكاثوليكية من السحر:

أدانت السلطة المسيحية السحر وممارسته في عدد من المجامع، منها: مجمع لاوْديسي سنة ٣٦٦، ومجمع أكْد سنة ٥٠٥م(٣).

لكن موقف الكنيسة ـ بالنسبة إلى حقيقة السحر ـ ظل متأرجحاً، وغامضاً نسبياً، فهذه المجامع كانت إما تسكت عن هذا الأمر، فلا تذكره بنفي ولا بإثبات، وإما توحي بأن للسحر فعالية واقعية(٤). وكانت بعض الأديرة تمارس السحر، حتى دخل في بعض الشعائر المسيحية، ما دعا البابوات ـ بين الفينة والأخرى ـ إلى إصدار بيانات تؤكد تحريم السحر(٥).

وأحياناً كانت الكنيسة تعتبر أن ما يعتقد من السحر والقوى المزعومة للسحرة خيال محض(٦). واستمر هذا التردد بين نفي السحر والاعتراف به إلى القرن التاسع عشر(٧).

---

(١) La Magie, p 47 à 49. الفرق ـ عندهم ـ بين السحر الأبيض والسحر الأسود، أن الأول يستدعي الأرواح الطيبة، أو الملائكة، بكلمات وصلوات وأدعية، وهدفه نبيل. والثاني يستعين بالشياطين، وغايته الضرر. تقريباً "السحر" الأول هو من باب الرقى والتمائم. ونحوها. والثاني هو السحر الحقيقي المعروف. انظر: La Magie, p 53.

(٢) La Magie, p 50, 52.

(٣) (Agde, Laodicée). La Magie, p 50.

(٤) La Magie, p50-51.

(٥) La Magie, p 53.

(٦) La sorcellerie, p 38.

(٧) La Magie, p 72.

انبعاث ظاهرة السحر بأوربا:

ويعتقد بعض مؤرخي السحر الغربيين أن تحولاً طرأ على الكنيسة، وعلى أوربا عموماً، حوالي القرن الثالث عشر، ساهم في دفع السحر نحو انتشار كبير في مختلف الطبقات، وهذا التحول له سببان:

١ ـ انتقال المعارف والعلوم العربية إلى أوربا، ومنها العلوم الخفية كالسحر والتنجيم والكيمياء، والتي انتقلت بالخصوص عبر طليطلة بالأندلس، وكذلك ساهم اليهود في هذا الانتشار، وهم الذين وضعوا مكتبة كاملة من الكتب المنحولة، في الفنون الخفية والباطنية، حوالي القرن الثاني بعد الميلاد، وبذلك أصبح اليهود أساتذة للسحر الأوربي الوسيط(١).

٢ ـ تصريح بعض كبار علماء المسيحية بأن للسحر حقيقة وفعالية كبيرة، مما أغرى الناس باللجوء إليه. وكان أهم هؤلاء الذين مهدوا لانتشار السحر ـ من حيث لم يقصدوا ذلك ـ طوما الإكويني (١٢٢٦ ـ ١٢٧٤م) (٢).

المحرقة الكبرى لـــ "السحرة": من القرن الأوربي الثالث عشر إلى السابع عشر.

في الوقت الذي كان طوما الإكويني يكتب عن رأيه في السحر، كان جماعة من "العلماء الطبيعيين" يحاولون تأسيس ما سموه بـ "السحر الطبيعي"، بالاستعانة بالتجربة واكتشاف الخصائص الخفية لبعض الأشياء، وكان على رأس هؤلاء "السحرة العلميين": روجر باكون، وألبير الكبير، وسكوت، وفيلا نوفا(٣).

في هذه الفترة كان قد أصاب أوربا شيء يجوز أن نسميه بلعنة السحر، فقد انتشر كثيراً بين الناس، وفي كل بلدان القارة العجوز، وكثر عدد السحرة والساحرات، والمشعوذين بالطبع، وكانت لهم اجتماعاتهم وأساليبهم في العمل، بمعنى أن شكلاً من السحر الجماعي المنظم أصبح يوجد(٤). وكان عالم السحر هذا ـ كما وصفه المؤرخون المختصون ـ عالماً كله ظلام وفوضى، وفسق وفجور، ووحشية ونجاسة، كان عالماً قذراً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وعلى المستويين المعنوي والمادي(٥). حتى إن الأستاذ روني يسمي هذه الفترة بـ: مملكة الشيطان، أو عهد مُلك الشيطان، فقد كان هو المَلِك الحقيقي للناس آنذاك،

---

(١) La Magie, p 52-53.

(٢) La sorcellerie, p 38-39-62.

(٣) La Magie, p 56 وهم: Albert le Grand. Arnauld de Villanova. Michel Scot. من مفكري وعلماء نهاية العصر الوسيط الأوربي.

(٤) La Magie, p 56 à 58.

(٥) راجع وصف الكاتب لهذا العالم في: La Magie, p 57-58.

الذين كانوا يرون الشيطان في كل شيء، في الماء والهواء، وعلى الأرض، وتحت الأرض، في كل شيء تقريباً[١].

ولكن هذا العصر أيضاً كان عصر مجزرة السحرة بامتياز، ربما لم يعرف التاريخ الإنساني مثيلاً لهذا العهد، من حيث تفرغ السلطتين الكنسية والزمنية لمتابعة "السحرة" وقتلهم وحرقهم، حتى سجن التفتيش الكنسي مليون إنسان، بين سنتي ١٥٧٥ و١٧٠٠، وأعدم حوالي ثلاثين ألفاً بتهمة ممارسة السحر بين سنوات ١٤٠٠ و١٥٠٤[٢].

يبدو أن الشيطان لم يتملك عامة الناس فقط، بل أيضاً رجال الدين والدولة، كل هؤلاء أصيبوا بلعنة ما.

القرن السابع عشر، وما بعده:

عرف هذا القرن وضعاً مزدوجاً، فالسحر منتشر ويمارس على نطاق واسع، وفي نفس الوقت بدأ تيار من النقد والتشكيك فيه ينمو ويتقدم، وكان موضوع نقده هذا جميع المعارف الخفية تقريباً. وتدل إحدى الخصومات الفكرية لهذا القرن على هذه الازدواجية، وهي المتعلقة بالعصا السحرية وحقيقتها[٣].

وكذلك كان الحال في القرن الثامن عشر، مع قوة أكبر لتيار النقد، وبالمقابل قلّت محاكمات السحرة[٤]. إلا أن السحر في عصر الأنوار عرف تحولين اثنين:

الأول: أصبح ظاهرة مدنية، تمارس بالمدينة، ومن أهم مراكزها الأوربية: باريس، التي كان بها أحياء كاملة عرفت بإيوائها لهؤلاء السحرة.

الثاني: احتضان بعض الجمعيات السرية "الباطنية" للسحر وفلسفته، وأهمها الماسونية[٥].

وكان للتحولات الكبرى التي عرفتها أوربا بالقرن التاسع عشر أثرها في الحد من انتشار السحر، الذي ظل ـ رغم ذلك ـ قائماً وموجوداً، وربما ألهم التيار الأدبي والفني المعروف بالرومانسية[٦].

---

(١) La Magie, p 56-57. هو بتعبير الكاتب: La règne du Diable. وروني J. A. Rony كاتب فرنسي خريج فلسفة.

(٢) La Magie, p 60.

(٣) انظر: La Magie, p 61 à 64.

(٤) La Magie, p 65.

(٥) راجع: La Magie, p 66 à 69

(٦) La Magie, p 70, 72.

إلا أن أهم تطور حدث في هذا القرن في العلوم الخفية ـ والسحر منها ـ هو ظهور ما يسمى بـ "استحضار الأرواح"[١].

السحر عند المسلمين:

وقد وجد السحر في المجتمعات المسلمة، كما في سائر الإنسانية، لكن يظهر أنه لم ينتشر عندنا كما انتشر في أوربا بالعصر الوسيط، ولا يوجد في التاريخ الإسلامي ما يشبه "لعنة" السحر تلك، التي أشرت إليها. وأومأ ابن خلدون إلى أن كتب السحر لم تكن منتشرة بين المسلمين[٢]، ولعل لهذا كله أسباباً تعود إلى وضوح التحريم الإسلامي للسحر، والحضارة الإسلامية كانت إلى حدٍّ بعيد حضارة فقهية كما قيل.

وأيضاً كان المستوى العلمي والحضاري عند المسلمين أرقى من غيرهم، وكانت فنون الطب والصيدلة والميكانيكا، ونحوها مما يحتاج الناس إليه، أكثر تطوراً. وأيضاً كان التدين والوقوف عند المحرمات أقوى عند المسلمين، وكان هدوؤهم النفسي أتم، ورضاهم بالقضاء والقدر مما يضرب به المثل. وساعد على ذلك نمو تيارات الزهد والتصوف في العالم الإسلامي كله تقريباً. وينبغي أن نذكر أيضاً في تعليل محدودية السحر بين المسلمين سبباً هاماً، وهو الوجود الدائم للعلماء والصلحاء قريباً من عامة الناس، الذين يفزعون إليهم في الملمات والنوازل، فقد كانت الجماهير ترى في علمائها وصلحائها قادتها الحقيقيين، مادام شأن الأمراء أن يأتوا ويذهبوا، ولا يستقروا على حال.

ويوجد ـ في نظري ـ سبب هام ساهم كثيراً في محاصرة السحر، وهو أن الإسلام حين منعه، فتح للناس طريقاً من الحلال يلجؤون إليه، وذلك حين علَّم الناس الاستعاذة، وجوز لهم الرقية والتميمة.

هذه الأفكار لا تغني عن الدراسة العلمية لموضوع تاريخ السحر بين المسلمين، فهي إلى الانطباعات أقرب منها إلى الأحكام العلمية المؤسسة. ونحن بحاجة إلى دراسة مستقلة، على غرار الغربيين الذين يتوفرون على مكتبة خاصة في السحر وتعليله وتاريخه.

ولا يعني هذا بحال أن السحر لم يكن بين المسلمين، ولم ينتشر فيهم، في فترات خاصة، أو بلدان معينة[٣]، فقد كان بعض ذلك، ومازال، ويبدو أن المسلمين عرفوا كثيراً من "مدارس" السحر للأمم التي كانت قبلهم:

---

(١) La Magie, p 73.

(٢) المقدمة، ص ٣٦٩.

(٣) تكلم ابن خلدون في مقدمته، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢، عن صنف من السحرة بالمغرب يسمون بالبعاجين، وحكى بعض أفعالهم التي شاهدها منهم، وأنهم يستترون بها خوفاً من السلطان.

فقد عرفوا طريق الهند في السحر، وهو تصفية النفس وتجريدها ما أمكن عن الشواغل البدنية. ومن كتبهم في هذا التي عرفها المسلمون: مرآة المعاني في إدراك العالم الإنساني.

وعرفوا طريق النبط، وهو أعمال معينة فيها رقى هي تضرع إلى الكوكب الفاعل للغرض المطلوب، وأدخنة من عقاقير منسوبة إلى ذلك الكوكب.

أما طريق اليونان، فتسخير روحانية الأفلاك والكواكب واستنزال قواها والتضرع إليها.

وطريق العبرانيين والقبط والعرب الاعتماد على ذكر أسماء مجهولة المعاني، على شكل عزائم، يظنون أنها تستحضر الملائكة أو الجن[١].

ولكل هذه الطرق كتب خاصة، لكن أهمها أو أشهرها لهذين:

١ ـ أبو بكر أحمد بن وحشيّة النبطي، وهو من أسرة أرامية بالعراق؛ ولذلك يقال له أيضاً: الكلداني، وكان يميل إلى الشعوبية، توفي سنة ٢٩٦هـ. له كتاب "سحر النبط"[٢]، وغيره كثير[٣].

٢ ـ أبو القاسم مسلمة بن أحمد القرطبي، الشهير بالحكيم المجريطي، من أهل مدريد، توفي سنة ٣٩٥هـ أو بعيدها. وكان له اشتغال بالرياضيات والفلك أيضاً[٤].

وقد نال المجريطي إمامة السحرة بكتابه: "غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم"، وذكر في مقدمته أنه جمعه من أربع وعشرين ومائتي كتاب للحكماء، ونقحه في مدة ست سنين. قال حاجي خليفة: وهو على طريقة اليونان، ذكر فيه أنواع الطلسمات وفنون أنواع السحر[٥].

السحر اليوم:

مازال السحر حاضراً اليوم، في كل مكان من المعمور تقريباً، بما في ذلك القارة الأوربية[٦].

على أن أهم موطن للسحر الآن هو: إفريقيا السوداء[٧].

---

(١) راجع: إرشاد القاصد، لابن الأكفاني، ص ٦٧ إلى ٧٠.

(٢) إرشاد القاصد، ص ٦٨. تاريخ الأدب العربي، ٤/٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٣) راجع الفهرست، ص ٣٧٢.

(٤) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٦٩. إرشاد القاصد، ص ٦٨. تاريخ الأدب العربي، ٤/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤. أشار بروكلمان إلى أن كتابه "غاية الحكيم" منحول عليه، والله تعالى أعلم.

(٥) كشف الظنون، ٢/ ١١٩١.

(٦) Encyclopaedia, art sorcellerie, 21/ p 341 .

(٧) Encyclopaedia, art sorcellerie, 21/ p 339-340 .



وأكثر من يدعي السحر اليوم ليس ساحراً حقيقياً، فهو إما مشعوذ، أو مخطئ يظن نفسه يملك قدرات خارقة[١].

ولا يبدو في المستقبل أن ممارسة السحر ستضعف، على العكس من ذلك كل الفنون الخفية الغيبية ـ بما فيها السحر ـ مرشحة للنمو والانتشار أكثر، كما تقدم في الفصل الخامس من الباب السابق.

المطلب الثاني: ذكر السحر في القرآن.

أشار الكتاب الكريم إلى هذه الظاهرة الإنسانية، ونبه على قدمها ورسوخها في الشرك القديم. ولما كان هذا البحث لا يتسع لدرس الموضوع بتفصيل، فقد اخترت أهم آية قرآنية تكلمت عن السحر، وسببها هو تبرئة النبي سليمان مما ألصقه به قومه من تهمة السحر.

سبب نسبة السحر إلى سليمان عليه السلام:

ويذكر في ذلك المفسرون من السلف قصصاً حاصلها أن سليمان عليه السلام وجد بين الناس كثيراً من الكتب كانوا يتداولونها فيما بينهم، وعامتها من أخبار الكهان ونبوءاتهم، فجمعها منهم ودفنها في مكان. فلما توفاه الله سبحانه كشفت الشياطين مكان تلك الكتب، وأذاعت في الناس أن سليمان عليه السلام كان ساحراً، وأنه ما ملك إلا بتلك الكتب.

وفي روايات أخرى أن الذي خزَّنه سليمان كان علماً خاصًا له ، وفي أخرى أن الشياطين كتبت كتباً في السحر، ودفنتها في مكان كان لسليمان، ثم استخرجتها بعد موته ونسبتها إليه.

ويجوز ألا يكون شيء مدفوناً أصلاً، وأن تكون نسبة السحر وكتبه إلى النبي الكريم مجرد دعاية وكذب لم يحتاجوا فيه إلى دفن أو استخراج[٢].

فالحاصل ـ إذن ـ أن الشياطين نسبت لسليمان عليه السلام الاشتغال بالسحر، وأقنعوا الناس بذلك، فافتتنوا: فأما علماء بني إسرائيل وصلحاؤهم فأنكروا ذلك، وأما العوام والجهال فصدقوه. وظل الوضع كذلك حتى أنزل الله تعالى براءة النبي الكريم بعد حوالي خمسة عشر قرناً من وفاته: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ

(١) La sorcellerie, p 115.

(٢) راجع في هذه الروايات: جامع البيان، ١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦، ٣٣٨ إلى ٣٤٠. معالم التنزيل، ١/ ١٢٧ ـ ١٢٨. مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٨. المحرر الوجيز، ١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦. تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٠ ـ ١٧١. مدارك التنزيل، ١/ ٦٥. الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٠. وأهم هذه المصادر هو تفسير الطبري.



أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولا يعني هذا أن السحر ظهر فقط في عهد هذا النبي الكريم، أو بعيده، فقد كان موجوداً قبله بدهر، كما يدل عليه قصة موسى عليه السلام ـ وهو قبل سليمان ـ مع سحرة فرعون(١).

تفسير الآية:

والضمير في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾ يعود على اليهود. فقيل: إنهم اليهود الذين عاصروا سليمان عليه السلام. وقيل: بل الذين عاصروا النبي محمداً ﷺ. وقيل: المقصود جميع اليهود(٢).

قال الرازي: الأوْلى أنه يتناول الكل؛ لأنه ليس صرف اللفظ إلى البعض أولى من صرفه إلى غيره، إذ لا دليل على التخصيص(٣). والمعنى أن اليهود "نبذوا كتابه الذي أنزله على موسى وراء ظهورهم، تجاهلاً منهم وكفراً بما هم به عالمون، كأنهم لا يعلمون، وآثروا السحر الذي تلته الشياطين في ملك سليمان بن داود، فاتبعوه، وذلك هو الخسار والضلال المبين"(٤).

﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، بمعنى: واتبعوا الذي تتلوا الشياطين. والإطلاق المشهور عند الجمهور في الشياطين هنا أنهم من الجن، وقيل: هم من شياطين الإنس(٥).

ثم فسر العلماء "التلاوة" هنا على ثلاثة أنحاء:

١ ـ التلاوة: هي القراءة، والمعنى أن اليهود اتبعوا ما ترويه الشياطين وتخبر به وتحدث به(٦). والعرب تضع المستقبل موضع الماضي، والعكس(٧).

---

(١) انظر: جامع البيان، ١/ ٣٤٠. تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٢. عمدة القاري، ٢١/ ٢٧٨، باب السحر.

(٢) انظر: جامع البيان، ١/ ٣٣٦. أحكام القرآن للجصاص، ١/ ٦٦. المحرر الوجيز، ١/ ٣٠٥. تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٢.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٢٠.

(٤) جامع البيان، ١/ ٣٣٤.

(٥) راجع: مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٢٢. التحرير والتنوير، ١/ ٦٢٧ ـ ٦٢٩.

(٦) جامع البيان، ١/ ٣٣٦. الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٠. المحرر الوجيز، ١/ ٣٠٥. تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٢. مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٢١.

(٧) معالم التنزيل، ١/ ١٢٦. وانظر إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٦.



٢ ـ التلاوة هنا: هي الاتباع، أي العمل بقول الغير وبرأيه[١]. أي تركوا الوحي، واتبعوا ما تبعته الشياطين.

٣ ـ وقال الطبري: "لقول القائل: هو يتلو كذا، في كلام العرب معنيان: أحدهما الاتباع، كما يقال تلوت فلاناً إذا مشيت خلفه واتبعت أثره. والآخر القراءة والدراسة... ولم يخبرنا جل ثناؤه بأي معنى التلاوة كانت تلاوة الشياطين ـ الذين تلوا ما تلوه من السحر على عهد سليمان ـ بخبر يقطع العذر. وقد يجوز أن تكون الشياطين تلت ذلك دراسة وعملاً، فتكون كانت متبعة بالعمل، ودارسته بالرواية، فاتبعت اليهود منهاجها في ذلك وعملت به ورَوته"[٢]. فهذا قضاء بالعموم في غياب دليل التعيين.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾: قال الطبري: أي "في ملك سليمان. وذلك أن العرب تضع "في" في موضع "على"، و"على" في موضع "في". من ذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[طه: ٧١]، يعني به على جذوع النخل"[٣]. وعلى هذا فإن (في ملك سليمان)، أي في قصصه وصفاته وأخباره[٤]. وقيل: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾، أي: شرعته ونبوته[٥].

وقال ابن عطية، وأبو السعود، والنسفي، وابن عاشور وغيرهم: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي في عهد ملكه، ومدة سلطته[٦].

بينما اختار الرازي أن: "الأقرب أن يكون المراد واتبعوا ما تتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان؛ لأنهم كانوا يقرؤون من كتب السحر، ويقولون: إن سليمان إنما وجد ذلك الملك بسبب هذا العلم، فكانت تلاوتهم الكتب كالافتراء على ملك سليمان"[٧]. بمعنى أن القوم لما ادعوا أن سليمان إنما وجد تلك المملكة بسبب ذلك العلم الذي نسبوه إليه، كان ذلك الادعاء كالافتراء على ملك سليمان[٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾: وهذا "تنزيه لساحته عليه السلام عن السحر،

---

(١) جامع البيان، ١/٣٣٧. الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٠. المحرر الوجيز، ١/ ٣٠٥.
(٢) جامع البيان، ١/٣٣٧.
(٣) جامع البيان، ١/٣٣٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٠. مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٢٢.
(٦) المحرر الوجيز، ١/ ٣٠٥. مدارك التنزيل، ١/ ٦٥. إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٦. التحرير والتنوير، ١/ ٦٢٩.
(٧) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٢٢.
(٨) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٢٢.

وتكذيب لمن افترى عليه بأنه كان يعتقده ويعمل به. والتعرض لكونه كفراً للمبالغة في إظهار نزاهته عليه السلام وكذب باهتيه بذلك "[١].

قال القرطبي: "ولم يتقدم في الآية أن أحداً نسبه إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولكن لما كان السحر كفراً صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر "[٢].

وذكر الرازي في سبب إضافة اليهود السحر إلى نبيهم الكريم وجوهاً ثلاثة:

"(أحدها): أنهم أضافوا السحر إلى سليمان تفخيماً لشأنه وتعظيماً لأمره وترغيباً للقوم في قبول ذلك منهم.

(وثانيها): أن اليهود ما كانوا يقرون بنبوة سليمان، بل كانوا يقولون: إنما وجد ذلك الملك بسبب السحر.

(وثالثها): أن الله تعالى لما سخر الجن لسليمان فكان يخالطهم ويستفيد منهم أسراراً عجيبة، فغلب على الظنون أنه عليه الصلاة والسلام استفاد السحر منهم"[٣].

لقد أعلن الوحي الخاتم براءة سليمان عليه السلام من هذه التهمة الشنيعة، كما برأ كثيراً من أنبياء بني إسرائيل من أباطيل مختلفة. وهذه التبرئة العامة وبيان حقيقة الأنبياء العلية بعض من مقاصد الرسالة الإلهية الأخيرة، التي جاءت لتبين للناس كثيراً مما اختلفوا فيه.

ويجوز أن يكون لنزول هذه التبرئة سبب خاص، حين قال بعض اليهود: ألا تعجبون من محمد يذكر سليمان في الأنبياء، والله ما كان إلا ساحراً. كما في بعض التفاسير[٤].

﴿بِبَابِلَ﴾: وهي ـ عند أكثر المفسرين ـ ببلاد العراق[٥]. واستأنس بعضهم لذلك بما روي أن عليًّا مرَّ ببابل، ولم يُصلِّ بها، وقال: نهاني النبي ﷺ أن أصلي بأرض بابل، فإنها ملعونة[٦].

---

(١) إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٠ ـ ٣١.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٢٢.

(٤) منها: جامع البيان، للطبري، ١/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠. تفسير ابن كثير، ١/ ١٧١. ورواة هذا الخبر عند الطبري هما ابن إسحاق وشهر بن حوشب، أرسلاه.

(٥) المحرر الوجيز، ١/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨. معالم التنزيل، ١/ ١٢٩، الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٧. تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٩. إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٨.

(٦) منهم ابن كثير في تفسيره، ١/ ١٧٩. وقال: هذا الحديث حسن عند الإمام أبي داود؛ لأنه رواه وسكت عنه. بينما قال الخطابي في معالم السنن: "في إسناد هذا الحديث مقال. ولا أعلم أحداً من أهل العلم حرم الصلاة في أرض بابل". ١/ ١٢٧. والحديث في باب المواضع التي لا تجوز فيها الصلاة، باب رقم ٢٤ من كتاب الصلاة، في سنن أبي دواد.

﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ اسمان أعجميان لا ينصرفان[1].

اختلاف المفسرين في الملكين من هما، وبماذا نزلا:

ولهم في ذلك اختلاف كثير، حاصله أقوال ثلاثة رئيسة:

القول الأول: المقصود في الآية ملكان من الملائكة، نزلا ببعض السحر:

ثم الذين قالوا بهذا القدر، تفرقوا في التفاصيل على ثلاثة آراء:

أ ـ حمل جماعة ـ من السلف فمن بعدهم ـ معنى هذه الآية على أن المقصود بها ملكان من الملائكة، نزلا من السماء، وكانا يعلِّمان السحر. وقالوا: إن الملكين هما أنفسهما اللذان وقعت لهما القصة المشهورة في افتتانهما بالمرأة التي اسمها الزهرة.

ومن هؤلاء الطبري، قال: "السحر سحران سحر تُعلِّمه الشياطين، وسحر يُعلمه هاروت وماروت، فتأويل معنى الآية: واتبعت اليهود الذي تلت الشياطين في ملك سليمان والذي أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت"[2]. واستدل لذلك بآثار كثيرة عن قصة الملكين مع الزهرة[3]. وإلى هذا ميل البغوي ظاهراً، والعيني[4].

ب ـ وذهب آخرون ـ أخذاً بظاهر اللفظ ـ إلى أن المذكورين في الآية هما من الملائكة فعلاً، مع ردهم للروايات السابقة، واكتفائهم بالقول: إن الملكين نزلا ليؤديا مهمة محددة في التعليم. ومن هؤلاء: الرازي، وأبو السعود[5].

ج ـ التوقف، أو شبه التوقف، وبعض المفسرين لما ثبت عندهم أن المراد ملكان نزلا من السماء، ثم التفتوا إلى الأخبار والآثار فلم يجدوا فيها ما يطمئن إلى مثله، مالوا إلى التوقف، وقالوا ـ كما قال ابن كثير ـ: "نحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال"[6]. وربما كان ابن عطية يميل إلى هذا الرأي[7]. وهذا مجمل ما في هذه الآثار الواردة في الموضوع:

قصة نزول الملكين:

في خبر لابن عمر ـ رفعه إلى النبي ﷺ ـ قصة طويلة، ملخصها أن الله تعالى أنزل إلى

---

(١) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٩. إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٨.

(٢) جامع البيان، ١/ ٣٤١.

(٣) جامع البيان، ١/ ٣٤٣ إلى ٣٤٦.

(٤) انظر معالم التنزيل، ١/ ١٢٩. عمدة القاري، ٢١/ ٢٧٨.

(٥) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٨. إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٧.

(٦) تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٨.

(٧) انظر المحرر الوجيز، ١/ في مواضع منها: ص ٣٠٨.



الأرض ملكين، وركب فيهما بعض الطبائع البشرية، لاختيارهما، ثم إنهما فُتنا بامرأة اسمها الزهرة، فاحتالت عليهما حتى عرفت منهما الكلمة التي يصعدان بها إلى السماء، ثم إنها حين طلعت إلى السماء بهذه الكلمة مسخها الله تعالى كوكباً[١]، فهو نجم الزهرة، الذي نراه، أو هو شهاب آخر على خلاف[٢]، ثم إن الله تعالى خيّر الملكين بين عذاب الدنيا أو الآخرة، فهما يُعذبان الآن إلى يوم القيامة. وللمحدثين رأيان في هذا الحديث:

أ ـ أورد السيوطي هذا الخبر في "اللالئ المصنوعة"، بطريق سنيد بن داود عن الفرج ابن فضالة عن معاوية بن صالح عن نافع عن ابن عمر، وقال: لا يصح. ثم ذكر أن الحافظ ابن حجر في رسالته "القول المسدد" ذكر أن الإمام أحمد أخرج هذا الحديث في المسند، وكذلك ابن حيان في صحيحه من طريق زهير بن محمد بن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر... وقال ابن حجر: وله طرق جمعتها في جزء مفرد يكاد الواقف عليه يقطع بوقوع هذه القصة، لكثرة الطرق الواردة فيها وقوة مخارج أكثرها[٣].

ثم قال السيوطي: "وقد وقفت على الجزء الذي جمعه، فوجدته أورد بضعة عشر طريقاً، أكثرها موقوف، وأكثرها من تفسير ابن جرير. وقد جمعت أنا طرقها في التفسير المسند، وفي التفسير المأثور فجاءت نيفاً وعشرين طريقاً، ما بين مرفوع وموقوف... ولحديث ابن عمر بخصوصه طرق متعددة من رواية نافع، وسالم، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وورد من رواية علي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن مسعود، وعائشة وغيرهم، والله أعلم"[٤].

---

(١) راجع القصة بطولها في كتب التفسير، وأكثر التفاسير بالمأثور توردها عند قصة نزول الملكين بابل، في سورة البقرة، آية ١٠٢.

(٢) معالم التنزيل، للبغوي، ١/ ١٣٠. وانظر في مسألة المسخ هذه: تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص ١٧٢. وقارن بـ: الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٦، البقرة، ١٠٢.

(٣) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، ١/ ١٥٨ ـ ١٥٩. وينبغي أن يعرف القارئ أن مجرد ورود حديث في كتاب اللآلئ ـ أو مثله ـ لا يعني أنه حتماً موضوع، ولا أنه ضعيف جدًّا، وإن كان ذلك حال أكثرها. ففي اللآلئ أحاديث غير موضوعة، وفيه مناقشات وبحوث، ولذلك كثيراً ما يرد السيوطي عن بعض الأحاديث التي يذكرها في كتابه تهمة الوضع. وهذه الملاحظة تصدق على كثير من كتب الموضوعات.
أما ابن حجر، فإنه لما قيل: إن في مسند أحمد أحاديث موضوعة. أنكر ذلك، ونفى الموضوع عن المسند، وقال غاية ما فيه الضعيف، وصنف لذلك "القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد".
راجع ما أورده عبد الرحمن البنا في مقدمة ترتيبه لمسند أحمد المسمى بـ: الفتح الرباني، ١/ ٨ فما بعدها.

(٤) اللآلئ المصنوعة، ١/ ١٥٩. السيوطي هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، عالم كثير التصنيف جدًّا، وغلب عليه علما الحديث والعربية. توفي بالقاهرة عام ٩١١ . الأعلام للزركلي ٤/ ٧١.



ب ـ أما الحافظ السخاوي فقد ذكر مخرجي الحديث، ومال إلى رأي البيهقي الذي اعتبره من كلام كعب الأحبار، وقصصه الإسرائيلية[1].

وليس لي رأي في هذا الخلاف، فالله تعالى أعلم، وإليه مرد كل شيء.

القول الثاني: الملكان ــ من الملائكة ــ لم ينزلا بشيء من السحر:

فهما ملكان فعلاً، وكانا معروفين بذين الاسمين: هاروت وماروت، ولكنهما ما نزلا بسحر ولا علَّماه لأحد.

وممن ذهب إلى هذا الرأي أبو بكر الجصاص، والقرطبي ـ أبو عبد الله[2] ـ، قال الأول: لما كثر السحر والتنجيم ببابل، بعث الله إلى أهلها ملكين من ملائكته يكشفان لهم حقيقة ما يدعيه السحرة وبطلان ما يذكرون، ويحذرانهم من أعمالهم وحيلهم، ويجوز إرسال بعض الملائكة إلى الناس؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥][3]. ثم قال: ولما كان الملكان يظهران حقيقة السحر ومعناه، قالا ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾، كالأنبياء، فتنة وبلاء لمن أرسلوا إليهم، ليبلوهم الله تعالى أيهم أحسن عملاً[4].

القول الثالث: هاروت وماروت مِلِكان من البشر:

من المُلْك، وهذا قول بعض العلماء، كالحسن البصري، والضحاك اتباعاً لقراءة في الآية، والتفصيل بعد قليل.

وهو أحد قولين محتملين ـ أي الملكان إما من البشر، أو من الملائكة ـ عند

---

(١) المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة على الألسنة، ص ٤٥٥. والكتاب لأبي عبد الله، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، المحدث والمؤرخ، المصري، توفي بالمدينة سنة ٩٠٢هـ. من تآليفه: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. الأصل الأصيل في تحريم النظر في التوراة والإنجيل. عن معجم المؤلفين، ١٠/ ١٥٠. قلت: وله أيضاً: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. والبيهقي هو الحافظ أحمد بن الحسين (٤٥٨هـ) صاحب السنن الكبرى. وكعب الأحبار تابعي أدرك كبار الصحابة، وهو من مسلمة يهود اليمن. توفي بحمص سنة ٣٢هـ. الأعلام، للزركلي، ٦/ ٨٥.

(٢) أحكام القرآن، للجصاص، ١/ ٥٣. الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٦ .
والجصاص هو أبو بكر أحمد بن علي. فقيه حنفي، تعلم ببغداد، ثم تخرج بها على يديه جماعة من الفقهاء، وبها توفي سنة ٣٧٠هـ. معجم المؤلفين، ٢/ ٧.

(٣) أحكام القرآن، ١/ ٥٣، ٦٨.

(٤) أحكام القرآن، ١/ ٦٩.

الجصاص[1]، وابن عاشور، الذي فسر الإنزال في الآية بمطلق الإيصال، بوحي، أو إلهام، أو إيداع في العقل[2]. وإلى قراءة المَلِكين مال محمد عبده[3].

كيف ينزل الملكان بالسحر ويعلمانه؟

وأصحاب هذا القول الأول لما قرروا نزول الملكين بالسحر، وأنهما يعلمانه لمن يصرُّ على ذلك، احتاجوا إلى إزالة ما في هذا من الإشكال، وإلى بيان الحكمة في ذلك.

وهؤلاء سلكوا طريقين:

١ ـ كان تعليم السحر غاية في حد ذاته، والحكمة منه الابتلاء. ومن أحسن الكلام في تقرير هذا الطريق ما قاله الطبري: قال: إن قيل: "وكيف يجوز لملائكة الله أن تعلم الناس التفريق بين المرء وزوجه، أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله تبارك وتعالى إنزال ذلك على الملائكة؟ قيل له: إن الله جل ثناؤه عرّف عباده جميع ما أمرهم به وجميع ما نهاهم عنه، ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به وينهون عنه، ولو كان الأمر على غير ذلك لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم. فالسحر مما قد نهى عباده من بني آدم عنه، فغير منكر أن يكون جل ثناؤه علمه الملكين اللذين سماهما في تنزيله، وجعلهما فتنة لعباده من بني آدم، كما أخبر عنهما أنهما يقولان لمن يتعلم ذلك منهما: **إنما نحن فتنة فلا تكفر**، ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه وعن السحر، فيمحص المؤمن بتركه التعلم منهما ويخزى الكافر بتعلمه السحر والكفر منهما، ويكون الملكان في تعليمهما من علَّما ذلك لله مطيعين، إذ كانا عن إذن الله لهما بتعليم ذلك من علماه يعلمان. وقد عبد من دون الله جماعة من أولياء الله فلم يكن ذلك لهم ضائراً، إذ لم يكن ذلك بأمرهم إياهم به، بل عبد بعضهم والمعبود عنه ناهٍ، فكذلك الملكان غير ضائرهما سحر من سَحر ممن تعلم ذلك منهما بعد نهيهما إياه عنه وعظتهما له بقولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، إذ كانا قد أديَّا ما أُمرا به بقيلهما ذلك." [4]

والبغوي ممن صحح هذا الطريق، قال: "إن الله تعالى امتحن الناس بالملكين في ذلك الوقت، فمن شقي يتعلم السحر منهما ويأخذه عنهما ويعمل به فيكفر به، ومن سعد يتركه فيبقى على الإيمان، ويزداد المعلمان بالتعليم عذاباً. ففيه ابتلاء للمعلم والمتعلم، ولله أن يمتحن عباده بما شاء، فله الأمر والحكم"[5].

---

(١) أحكام القرآن، ١/ ٦٧.

(٢) راجع: التحرير والتنوير، ١/ ٦٤٠ إلى ٦٤٢.

(٣) تفسير المنار، ١/ ٤٠٢.

(٤) جامع البيان، ١/ ٣٤٣.

(٥) معالم التنزيل، ١/ ١٢٩.



وهذا قول جماعة من السلف، وقالوا: إن قولهما ـ فيما حكاه القرآن ـ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، أي امتحان وبلاء واختبار، فيعظان طالب السحر وينبهانه على أنه في مقام ابتلاء[1].

واحتاط ابن عطية فقال: التعليم على هذا القول إنما هو تعريف يسير بمبادئه[2].

٢ ـ كان تعليم السحر سبيلاً إلى غاية أخرى، ولم يقصد لذاته، فكأنه كان من باب ارتكاب أخف الضررين. يقول الرازي: "السبب في إنزالهما وجوه:

أحدها: أن السحرة كثرت في ذلك الزمان، واستنبطت أبواباً غريبة في السحر، وكانوا يدَّعون النبوة ويتحدون الناس بها، فبعث الله تعالى هذين الملكين لأجل أن يعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الذين كانوا يدعون النبوة كذباً. ولا شك أن هذا من أحسن الأغراض والمقاصد.

وثانيها: أن العلم بكون المعجزة مخالفة للسحر متوقف على العلم بماهية المعجزة وبماهية السحر، والناس كانوا جاهلين بماهية السحر، فلا جرم هذا تعذرت عليهم معرفة حقيقة المعجزة، فبعث الله هذين الملكين لتعريف ماهية السحر لأجل هذا الغرض.

وثالثها: لا يمتنع أن يقال: السحر الذي يوقع الفرقة بين أعداء الله والألفة بين أولياء الله كان مباحاً عندهم أو مندوباً، فالله تعالى بعث الملكين لتعليم السحر لهذا الغرض، ثم إن القوم تعلموا ذلك منهما واستعملوه في الشر وإيقاع الفرقة بين أولياء الله والألفة بين أعداء الله.

ورابعها: أن تحصيل العلم بكل شيء حسن، ولما كان السحر منهيًّا عنه وجب أن يكون متصوراً معلوماً؛ لأن الذي لا يكون متصوراً امتنع النهي عنه.

وخامسها: لعل الجن كان عندهم أنواع من السحر لم يقدر البشر على الإتيان بمثلها، فبعث الله الملائكة ليعلموا البشر أموراً يقدرون بها على معارضة الجن.

وسادسها: يجوز أن يكون ذلك تشديداً في التكليف، من حيث إنه إذا علّمه ما أمكنه أن يتوصل به إلى اللذات العاجلة، ثم منعه من استعمالها كان ذلك في نهاية المشقة فيستوجب به الثواب الزائد كما ابتلي قوم طالوت بالنهر، على ما قال: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. فثبت بهذه الوجوه أنه لا يبعد من الله تعالى إنزال الملكين لتعليم السحر. والله أعلم"[3].

(١) تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٩ ـ ١٨٠. معالم التنزيل، ١/ ١٣١.

(٢) المحرر الوجيز، ١/ ٣٠١.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٩.

ويقول ابن عاشور: "الحكمة من تعميم تعليمه أن السحرة في بابل كانوا اتخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم في أبدانهم وعقولهم وأموالهم، ثم تطلعوا منه إلى تأسيس عبادة الأصنام والكواكب، وزعموا أنهم ـ أي السحرة ـ مترجمون عنهم وناطقون بإرادة الآلهة، فحدث فساد عظيم وعمت الضلالة، فأراد الله ـ على معتاد حكمته ـ إنقاذ الخلق من ذلك، فأرسل، أو أوحى، أو ألهم هاروت وماروت أن يكشفا دقائق هذا الفن للناس، حتى يشترك الناس كلهم في ذلك فيعلموا أن السحرة ليسوا على ذلك، ويرجع الناس إلى صلاح الحال"[1].

وذكر أبو السعود ـ وغيره ـ بعض هذه الوجوه[2].

فإن سألت: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؟ أجابوك: "المراد أنهما لا يعلمان أحداً السحر، ولا يصفانه لأحد ولا يكشفان له وجوه الاحتيال حتى يبذلا له النصيحة فيقولا له ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾، أي هذا الذي نصفه لك وإن كان الغرض منه أن يتميز به الفرق بين السحر وبين المعجزة ولكنه يمكنك أن تتوصل به إلى المفاسد والمعاصي، فإياك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نهيت عنه، أو تتوصل به إلى شيء من الأغراض العاجلة"[3].

والكلمة الجامعة هنا هي ما قال القرطبي من أن "الملكين يعلمان الناس تعليم إنذار، لا تعليم دعاء إليه"[4].

وليس هذا بمستغرب لمن عرف شيئاً من التاريخ القديم، ومن سذاجة البشرية في طفولتها الأولى؛ ولذلك يقول سيد قطب: "لقد مضى في تاريخ البشرية من الآيات والابتلاءات ما يناسب حالتها وإدراكها في كل طور من أطوارها، فإذا جاء الاختبار في صورة ملكين ـ أو في صورة رجلين طيبين كالملائكة ـ فليس هذا غريباً ولا شاذاً بالقياس إلى شتى الصور وشتى الابتلاءات الخارقة، التي مرت بها البشرية، وهي تحبو، وهي تخطو، وهي تقفو أشعة الشعلة الإلهية المنيرة في غياهب الليل البهيم"[5].

أسباب اختلاف المفسرين:

وهذا الاختلاف الذي رأيتَ اختلاف موضوعي له أسبابه، وأهمها ـ فيما وصل إليه علمي ـ ثلاثة:

---

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٦٤٠ ـ ٦٤١.

(٢) إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٤٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٧.

(٥) في ظلال القرآن، ١/ ١٣٠.

السبب الأول ــ قصة الملكين:

والإشكال فيها من ناحيتين:

أ ــ إشكالات السند:

قد مضى بعض الحديث عن اختلاف المحدثين في قصة الملكين، وأن لهم فيها رأيين:

الأول: تصحيح القصة أو قبولها، وقد صرح بذلك ابن حجر والسيوطي، وهو ظاهر صنيع الطبري في تفسيره، فإنه أورد طرقها وسكت عنها، بل احتج بها. ورد ابن قتيبة على من استغربها[(١)].

الثاني: تضعيفها، وترجيح كونها من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار، كما في طرقٍ بعضها ساقه الطبري[(٢)]. فتكون القصة مما تسرب إلى علوم المسلمين من الإسرائيليات.

ويؤكد هذا القول الأخير أن طريق ابن عمر عن كعب أصحُّ وأثبتُ[(٣)]، وهذا رأي البيهقي والسخاوي، وغيرهما، كما تقدم، وقطع به القاضي عياض[(٤)]، وهو أيضاً رأي القرطبي[(٥)]. وعجب العلامة ابن عاشور من إيراد الإمام أحمد للقصة في مسنده[(٦)]، وبالغ في الإنكار عمن ذكرها من المفسرين، بل إن الألوسي شنَّع على من أورد القصة وصحَّحها[(٧)].

لكن يشكل على القول الثاني جملة أمور، منها:

١ ـ في رواية الإمام أحمد بالمسند تصريح عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بأنه سمع القصة من النبي ﷺ. وسند هذا الطريق قال فيه ابن كثير: رجاله كلهم ثقات من رجال

---

(١) في كتابه: تأويل مختلف الحديث، ص ١٦٧. وهو أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري. عالم مشارك في علوم من الدين واللغة والتاريخ. سكن بغداد وحدث بها، وولي قضاء دينور. من كتبه المتعددة: غريب القرآن. أدب الكاتب. عيون الأخبار. طبقات الشعراء. جامع الفقه. توفي سنة ٢٧٦هـ. من معجم المؤلفين، ٦/ ١٥٠. قلت: كتاب الإمامة والسياسة، لم تثبت نسبته إليه.

(٢) انظر جامع البيان، ١/ ٣٤٤.

(٣) راجع: الشفا، ٢/ ١٧٧.

(٤) تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٦.

(٦) انظر: التحرير والتنوير، ١/ ٦٤٢ ـ ٦٤٣.

(٧) روح المعاني، ١/ ٣٤١ ـ ٣٤٢. ولكنه قال: لعل القصة من باب الرموز والإشارات، ثم ذكر تفسيراً إشارياً لها.



الصحيحين، خلا موسى بن جبير، من التابعين، وهو مستور الحال. ثم ذكر ابن كثير شواهد ومتابعات لهذا الطريق[1].

٢ ـ ثم هذا لم يُرو عن ابن عمر فقط، بل الحكاية أيضاً عن علي رضي الله عنه، بإسناد قال فيه ابن كثير: جيد، ورجاله ثقات، وهو غريب جدًّا[2]. ورواه أيضاً ابن أبي حاتم الرازي، والحاكم في المستدرك عن ابن عباس، بسند صحيح أو لا بأس به[3].

٣ ـ ولم يعرف عن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان يشتغل بالإسرائيليات.

ورغم هذا ختم ابن كثير سوقه للروايات وكلامه على بعضها، بقوله: "قد رويت قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد، والسدي، والحسن، وقتادة، وأبي العالية والزهري، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصَّها خلق من المفسرين المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع ـ في تفصيلها ـ إلى أخبار بني إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال"[4].

وهذا يبين لك ما في القصة ـ من حيث أسانيدها ـ من الاحتمال والاختلاف.

ب ـ إشكالات المتن:

قال أبو السعود: وأما ما في القصة المذكورة فمما لا تعويل عليه، لما أن مداره رواية اليهود، مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل[5].

وبيان ذلك عند الرازي: أن العصمة ثابتة للملائكة، وأن تخيير الملكين بين عذاب الدنيا والآخرة ـ بحسب ما في تلك الأخبار ـ يخالف قاعدة فتح باب التوبة، ثم كيف يعلمان السحر في حال كونهما معذبين، ويدعوان إليه وهما يعاقبان[6].

وقال بعضهم: غير جائز أن ينزل الله سبحانه السحر، ثم قد صرح القرآن بأنه كفر، فيلزم أن يكفر الملك بتعليمه. وكما لا يبعث النبي لتعليم السحر فكذلك الملك[7].

---

(١) راجع: تفسيره، ١/ ١٧٤.

(٢) تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٥.

(٣) تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٧.

(٤) تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٨.

(٥) إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٧.

(٦) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٧) راجع: مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٦. ورفض الرازي بعض هذه الاعتراضات ورد عليها، ٣/ ٢٣٧.



وقال الشعراني: "لا حظَّ للملك في الشقاء، وأما ما نقل عن هاروت وماروت فلا يصح منه شيء، فالشقاء والسعادة خاصان بالجن والإنس"(١).

وأكثر العلماء الذين ردوا القصة، ليس لاستحالتها، بل لضعفها عندهم، ومخالفتها لبعض الأصول، ولذلك قال أبو عبد الله القرطبي ـ بعد كلام ـ: "وأما العقل فلا ينكر وقوع المعصية من الملائكة ويوجد منهم خلاف ما كلفوه، ويخلق فيهم الشهوات؛ إذ في قدرة الله تعالى كل موهوم، ومن هذا خوف الأنبياء والأولياء الفضلاء العلماء، لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح"(٢).

السبب الثاني ـــ الإجمال في حرف "ما":

وذلك أنه يحتمل معنيين:

١ ـ ما بمعنى الذي، فتكون عطفاً على السحر، فهي مفعولة. وهو قول جماعة من السلف ومن بعدهم. وهؤلاء هم الذين قالوا بإنزال السحر، إما لتعليمه أو للتحذير منه، أو نحو ذلك مما تقدم في فقرة "كيف يعلم الملكان السحر"؛ لأن الآية تكون: ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر والذي أنزل على الملكين ببابل...(٣).

وبعضهم جعل "ما" عطفاً على "ما" **الأولى** في قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ فيكون المعنى أن الذي أنزل على الملكين خاصة هو التفريق بين المرء وزوجه(٤).

وقد أطال الطبري في الانتصار لهذا المعنى الأول(٥). ورجحه الرازي والعيني(٦).

٢ ـ "ما" نافية بمعنى الجحد أي: لم. ويكون تقدير الآية: ولم ننزل على الملكين، واتبعوا الذي تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت(٧).

وجملة ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ تكون من المؤخر الذي معناه التقديم، ووجهه أن اليهود

---

(١) اليواقيت والجواهر، ٢/ ٥١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٦.

(٣) جامع البيان، ١/ ٣٤١. المحرر الوجيز، ١/ ٣٠٧. الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٦. مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٦.

(٤) جامع البيان، ١/ ٣٤٢.

(٥) راجع كلام الطبري مفصلاً في ذلك، وفي إبطال المعنى الثاني: جامع البيان، ١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣. والمعنى الأول هو أن "ما" تعني الذي.

(٦) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٧. عمدة القاري، ٢١/ ٢٧٨.

(٧) جامع البيان، ١/ ٣٤٠. المحرر الوجيز، ١/ ٣٠٧. مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.



ـ فيما ذكر ـ زعموا أن السحر نزل به جبريل وميكائيل، فنفى الله ذلك عنهما وعن سليمان، وبيَّن أن اللذين يعلمان السحر رجلان اسمهما هاروت وماروت، وهما بدل من الشياطين[1].

وقد رجح القرطبي هذا التفسير، وقال: "هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت إلى سواه، فالسحر من استخراج الشياطين..."[2].

السبب الثالث ـــ القراءتان المختلفتان في لفظة "الملكين":

فقد قرأ الجمهور بفتح اللام في ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ أي من الملائكة[3]. وهذه القراءة حجة لمن قال بنزول الملكين من السماء ببعض السحر.

وقرأ جماعة ـ منهم عبد الله بن عباس والضحاك والحسن البصري ـ ملِكين، بكسر اللام، أي من الملك والسلطان. وهؤلاء اختلفوا على قولين: فقال بعضهم: هما داود وابنه سليمان كانا ملكين على بني إسرائيل، وعلى هذا تكون "ما" نافية. وقال آخرون: بل كانا ملكين ـ من العجم ـ ببابل. فتكون "ما" هنا بمعنى الذي[4]. وعلى كلا التقديرين تكون هذه القراءة حجة لمن أنكر نزول السحر بأي وجه كان ولأيَّة غاية كانت.

والقراءة الأولى المشهورة هي قراءة العامة. وخطَّأ الطبري القراءة الثانية، واستدل لذلك بإجماع القراء[5]. واعتضد من قرأ بالثانية بأدلة حاصلها أنه لا يليق نزول الملائكة بالسحر[6].

وكثير من المفسرين قبل القراءتين جميعاً، قال الجصاص: "والقراءتان صحيحتان غير متنافيتين؛ لأنه جائز أن يكون الله أنزل ملَكين في زمن هذين الملِكين لاستيلاء السحر عليهما واغترارهما وسائر الناس بقولهما وقبولهم منهما، فإذا كان الملكان مأمورين بإبلاغهما وتعريفهما وسائر الناس معنى السحر ومخاريق السحرة وكفرها جاز أن نقول في إحدى القراءتين: وما أنزل على الملَكين اللذين هما من الملائكة، بأن أنزل عليهما ذلك؛ ونقول في القراءة الأخرى: وما أنزل على الملِكين من الناس؛ لأن الملَكين كانا مأمورين بإبلاغهما وتعريفهما، كما قال الله تعالى في خطاب رسوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[النحل: ٨٩]. وقال في موضع آخر: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾[البقرة: ١٣٦]،

---

(١) جامع البيان، ١/ ٣٤٠ ـ ٣٤١. الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٥.

(٣) جامع البيان، ١/ ٣٤٦. المحرر الوجيز، ١/ ٣٠٧. معالم التنزيل، ١/ ٢٩.

(٤) المحرر الوجيز، ١/ ٣٠٧. الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٧. مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٧.

(٥) راجع: جامع البيان، ١/ ٣٤٦.

(٦) انظرها في: مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٧.



فأضاف الإنزال تارة إلى الرسول عليه السلام وتارة إلى المرسل إليهم. وإنما خص الملِكين بالذكر وإن كانا مأمورين بتعريف الكافة؛ لأن العامة كانت تبعاً للملِكين، فكان أبلغ الأشياء في تقرير معاني السحر والدلالة على بطلانه تخصيص الملِكين به ليتبعهما الناس "[1].

تفسير بقية الآية:

وذلك على وجه العجلة والاختصار:

قوله ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ فيه تأويلان:

١ ـ فمن أضاف تعليم السحر إلى هاروت وماروت، جعل ذلك مما يتعلمه الناس منهما.

ثم من ذهب من العلماء إلى ظاهر الآية اختلفوا في كيفية هذا التفريق على رأيين، بعد تجويزهم أن يسمى سحراً:

أ ـ فمن ذهب إلى أن للسحر حقيقة، قال ـ كما الطبري ـ : "معنى السحر تخييل الشيء إلى المرء بخلاف ما هو به في عينه وحقيقته، فتفريقه بين المرء وزوجه: تخييله بسحره إلى كل واحد منهما شخص الآخر، على خلاف ما هو به في حقيقته من حسن وجمال، حتى يقبحه عنده، فينصرف بوجهه ويعرض عنه حتى يحدث الزوج لامرأته فراقاً، فيكون الساحر مفرقاً بينهما بإحداثه السبب الذي كان منه فرقة ما بينهما"[2]. وهذا ظاهر رأي ابن كثير، وأبي السعود[3].

ب ـ ومن ذهب إلى أنه تمويه لا حقيقة له، قال ـ كالجصاص ـ: المعنى "أن يسعى بينهما بالنميمة والوشاية والبلاغات الكاذبة والإغراء والإفساد..."[4] وهو رأي ابن عاشور[5].

وقال بعض العلماء: إن الله تعالى ذكر التفريق بين الزوجين خاصة؛ لأنه أقصى ما يستطيعه الساحر، أو لأن العلاقة الزوجية من أمتن الروابط البشرية[6].

٢ ـ فأما من أبى أن يكون الملكان يعلمان الناس بعض السحر، فأوَّلوا الآية على معنى أن الناس يتعلمون مكان ما علماهم ما يفرقون به بين المرء وزوجه[7].

---

(١) أحكام القرآن، ١/ ٦٧ .

(٢) جامع البيان، ١/ ٣٤٩.

(٣) تفسير ابن كثير، ١/ ١٨٠. إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٩.

(٤) أحكام القرآن، ١/ ٦٩.

(٥) التحرير والتنوير، ١/ ٦٤٤.

(٦) انظر: مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٤٠. التحرير والتنوير، ١/ ٦٤٤.

(٧) جامع البيان، ١/ ٣٥٠.

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾: هذا تنبيه على أن السحر لا يضرُّ أحداً، إلا بقضاء الله، وبإذنه الكوني[1].

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٍۚ﴾. أي يتعلمون السحر، وهو يضرهم في الآخرة، وإن نفعهم في الدنيا بكسب ضئيل. و﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ﴾ أي اليهود. ﴿لَمَنِ﴾ قسم، وهي للتوكيد أيضاً. ﴿ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ أي باعه، أي اشترى السحر بكتاب الله، وآثره عليه. فهؤلاء لا خلاق لهم في الآخرة، بمعنى لا نصيب[2].

فإذا عرفت معاني الآية، وما في بعضها من اختلاف المفسرين، وما فيها من إجمال، ربما أدركت أن علماءنا سيختلفون ـ تبعاً لذلك ـ في حقيقة السحر أيضاً.

المطلب الثالث: حقيقة السحر وأقسامه:

أقسام السحر:

تكلم الجصاص عن أقسام السحر وأنواعه وفصّل البحث[3]، ثم جاء الرازي فلخص كلام الجصاص، وأضاف قسمين آخرين، فصارت ثمانية، وقد تلقى كثير من العلماء تقسيم الرازي بالقبول، وأوردوه في كتبهم[4]. وبدوري اخترت أن أجعل هذا التقسيم مدخلاً إلى بحث حقيقة السحر: قال الفخر الرازي: أقسام السحر ثمانية[5]:

١ ـ سحر الكلدانيين، الذين يؤمنون بأن الكواكب هي المدبرة لهذا العالم. قال أبو السعود: أي إما على الاستقلال فتكون آلهة، أو بمعنى أن الباري فوض إليها تدبير العالم[6].

فهؤلاء يستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية، ولهم في التوجه إلى هذه الكواكب طقوس وأدعية.

---

(١) جامع البيان، ١/ ٣٥٠. مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٤٠ ـ ٢٤١. تفسير ابن كثير، ١/ ١٨٠. إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٩. الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٨. معالم التنزيل، ١/ ١٣١. أحكام القرآن للجصاص، ١/ ٦٩. التحرير والتنوير، ١/ ٦٤٤ ـ ٦٤٥. في ظلال القرآن، ١/ ١٢٧.

(٢) راجع التفاسير نفسها المذكورة في الهامش السابق، وأضف إليها: المحرر الوجيز، ١/ ٣١١.

(٣) انظر: أحكام القرآن، لأبي بكر الجصاص، ٢/ ٥٢. فما بعدها.

(٤) منهم: ابن كثيرفي تفسيره، ١/ ١٨٢ فما بعدها. العيني في شرحه للبخاري: عمدة القاري، ١٤/ ٦٦١، كتاب الوصايا. أبو السعود في تفسيره إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٧. وأشار إليه ابن عاشور في تفسيره، ١/ ٦٦٣.

(٥) مفاتيح الغيب، ١/ ٢٢٤ إلى ٢٣١، عند قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ البقرة، ١٠٢. وقد اختصرته ما أمكن.

(٦) إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٧.

٢ ـ سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية، وقد قالوا: إن قوة الإنسان قد تبلغ بالتصفية إلى حد التأثير والإيجاد والإعدام، ويسميه ابن خلدون السحر المؤثر بالهمة[(١)]. وعليه اقتصر ابن الأكفاني في تعريفه للسحر، إذ قال: هو "علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفية"[(٢)]. وقد اعتبر الرازي أنه لا شيء يمنع من احتمال وجود قوة نفسانية، أو قائمة بالإنسان، تقتضي إنشاء شيء، أو التأثير في شيء أو العلم بأمور غائبة أو متعذرة.

وثمة قرائن كثيرة على أن للهمة وقوتها آثاراً حقيقية، يدل عليه أن الإصابة بالعين حق، مثلاً. وكما يكون للنفس أثرها بقوة تجردها لأمر ما، فكذلك للكلمات وللسمع أثرهما، وهو الرقى. ومن هذا الباب ما أشارت إليه الآية الكريمة من سورة الفلق: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾[(٣)].

٣ـ الاستعانة بالأرواح الأرضية، وقد شاهد أصحاب السحر أن الاتصال بها يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد. وهذا السحر هو المسمى بالعزائم وتسخير الجن.

٤ ـ النوع الرابع: هو التخيلات والأخذ بالعيون. وهو مبني على حقيقة أن القوة الباصرة في الإنسان قد تخطئ، فلا ترى الشيء على حقيقته، بأسباب متنوعة، كالبعد، أو لا يكون لها الزمن الكافي للرؤية، أو تتعطل قوة البصر أصلاً لدهش النفس وانشغالها بأمر آخر، ونحو ذلك.

ومن هذا الباب الشعبذة، فمبناها على الخفة ومغالطة النظر.

قال ابن كثير: وبهذا فسر بعض العلماء سحر السحرة بين يدي فرعون، وقالوا: إن العصي لم تكن تسعى في حقيقة الأمر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[طه: ٦٦][(٤)].

٥ ـ النوع الخامس: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات، ومنها الصور والتماثيل التي يصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصورونها ضاحكة وباكية. ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، وعلم جر الأثقال بآلات خفيفة.

---

(١) المقدمة، ص ٣٧٠.

(٢) إرشاد القاصد، ص ٦٧.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ٣٢/ ١٩٥.

(٤) تفسيره، ١/ ١٨٣. وانظر أحكام القرآن، للجصاص، ١/ ٥٥.

ثم استدرك الرازي: وقال: "وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر؛ لأن لها أسباباً معلومة نفيسة من اطلع عليها قدر عليها"(١).

وبعض أهل التفسير جعل عمل سحرة فرعون من هذا القبيل، وأنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصي، فحشوها زئبقاً فصارت تتلوى بسببه، حين تعرض لحرارة الشمس، وخيل للناس أنها تسعى(٢).

٦ ـ الاستعانة بخواص الأدوية، في الأطعمة والدهانات، فبعضها يبلد العقل، ولا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن أثر المغناطيس مشاهد، لكن الناس أكثروا وخلطوا الصدق بالكذب.

٧ ـ تعليق القلب، وهو أن الساحر الذي يدعي العلم والتأثير، يصدقه بعض الناس لضعف تمييزهم، فتتعلق قلوبهم بالساحر وسحره، ويحصل لهم حال من الرهبة، وينقادوا له تماماً، وبعد ذلك يفعل الساحر بهم ما يشاء.

قال ابن كثير: "قلت: هذا النمط يقال له: التُّنبلة، وإنما يروج على ضعفاء العقول من بني آدم. وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان المتنبل حاذقاً في علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره"(٣).

٨ ـ السعي بالنميمة، والإفساد بين الناس بضروب خفية.

في أن من هذه الأنواع ما ليس بسحر:

قال أبو السعود ـ في التعليق على تقسيم الرازي ـ: "وأما الشعوذة وما يجري مجراها من إظهار الأمور العجيبة بواسطة ترتيب الآلات الهندسية وخفة اليد والاستعانة بخواص الأدوية والأحجار، فإطلاق السحر عليها بطريق التجوز أو لما فيها من الدقة"(٤).

وسبب ذلك ـ كما قال ابن كثير ـ: "إنما أدخل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر، للطافة مداركها؛ لأن السحر في اللغة عبارة عمَّا لَطُفَ وخفي سببه. ولهذا جاء في الحديث: "إن من البيان لسحراً". وسمي السُّحور: لكونه يقع خفياً آخر الليل. والسحر: الرئة، وهي محل الغذاء، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه"(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب، ١/ ٢٣٠.

(٢) تفسير ابن كثير، ١/ ١٨٣.

(٣) تفسير ابن كثير، ١/ ١٨٤.

(٤) إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٧.

(٥) تفسيره، ١/ ١٨٤. وقارن بـ: أحكام القرآن للجصاص، ١/ ٥٠.

ومن الواضح أن بعض هذه الأنواع ليست من السحر الاصطلاحي في شيء، ولذلك قال ابن الأكفاني: "ألحق بعضهم بالسحر ما هو من الأفعال العجيبة مرتب على سرعة الحركة وخفة اليد، وهذا ليس بعلم، إنما هو الشعبذة. كما ألحق بعضهم بالسحر غرائب الآلات الموضوعة على ضرورة عدم الخلاء، الذي هو من فروع الهندسة" (١).

وكذلك ليس من السحر استعمال الأدوية والعقاقير، وإلا كان الكيميائي اليوم أكبر ساحر، ولا ينافي هذا أن السحرة يستعملون بعض السموم، وخصوصاً مادة الزرنيخ(٢). أيضاً السعي بالنميمة أمر واضح ومعروف، وإدخاله في السحر تجوز.

ولذلك فإن المعتزلة لم ينكروا هذه الأنواع، مضافاً إليها التخييل(٣). وإنما الخلاف في النوع الأول، والثاني، والثالث. وما أظن المعتزلة، أو سواهم، ينازع في النوع السابع كذلك، فيعود الإشكال إلى الأنواع الثلاثة الأولى. فماذا كانت مذاهب المسلمين في أنواع السحر هذه؟

آراء العلماء المسلمين في حقيقة السحر:

ويمكن أن نقسمها إلى مذهبين رئيسين:

المذهب الأول: السحر تخييل لا حقيقة له.

وهذا قول أكثر المعتزلة، وجماعة من علماء أهل السنة، منهم: ابن حزم(٤)، وأبو بكر الجصاص. وقال العيني: وهو اختيار أبي جعفر الاستراباذي، وأبي إسحاق الاسفراييني، من الشافعية(٥). ومن

---

(١) إرشاد القاصد، ص ٧٠.

(٢) انظر: La sorcellerie, p 92-93

(٣) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣١.

(٤) يبدو أن لابن حزم قولين في الموضوع، فكلامه في المحلى يختلف بعض الشيء عن كلامه في الفصل، كما ستراه.

(٥) عمدة القاري، ٢١/ ٢٧٧، باب السحر من كتاب الطب، ١٤/ ٦٢، كتاب الوصايا، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ﴾.

الاستراباذي والإسفراييني نسبة إلى مكانين، ولذلك فالمعروف بهذه النسبة جماعة كثيرة من العلماء. والمقصود هنا: محمد المروزي الاستراباذي المعروف بالقبة، وهو محدث، من كتبه اختصار جامع الأصول لابن الأثير. كان حيًّا سنة ٦٨٢هـ. معجم المؤلفين، ١٢/ ١٤.

أما الإسفراييني، فهو إبراهيم بن محمد، أبو إسحاق ركن الدين، الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي. توفي بنيسابور سنة ٤١٨هـ من كتبه: جامع الحلي في أصول الدين والرد على الملحدين، في خمس مجلدات. تعليقة في أصول الفقه. معجم المؤلفين، ١/ ٨٣. وهو غير أبي حامد أحمد بن محمد الإسفراييني، المتوفى ببغداد سنة ٤٠٦هـ، الفقيه، شيخ الشافعية، وهو الذي اشتهر بشرح مختصر المزني، (المعجم، ٢/ ٦٥). وكذلك هو غير أبي المظفر طاهر الإسفراييني، المتكلم، صاحب كتاب التبصرة في أصول الدين. توفي سنة ٤٧١هـ. انظر المعجم، ٥/ ٣٨.



المحدَثين العلامة ابن عاشور والشيخ محمد عبده[1].

قال ابن حزم "السحر حيل وتخييل لا يحيل طبيعة أصلاً. قال عز وجل: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، فصح أنها تخييلات لا حقيقة لها، ولو أحال الساحر طبيعة لكان لا فرق بينه وبين النبي ﷺ، وهذا كفر ممن أجازه" [2].

وقال الزمخشري - في قوله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾، من سورة الفلق -: النفاثات هن: "النساء، أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقين. والنفث: النفخ مع ريق، ولا تأثير لذلك اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شيء ضار أو سقيه أو إشمامه أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه، ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام، فينسبه الحشو والرّعاع إليهن وإلى نفثهن، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به"[3].

وقال الطبري في بيان مقالة القوم: "أنكر قائلو هذه المقالة أن يكون الساحر يقدر بسحره على قلب شيء عن حقيقته واستسخار شيء من خلق الله، إلا نظير الذي يقدر عليه من ذلك سائر بني آدم، أو إنشاء شيء من الأجسام سوى المخاريق والخدع المتخيلة لأبصار الناظرين بخلاف حقائقها التي وصفنا. وقالوا: لو كان في وسع السحرة إنشاء الأجسام وقلب حقائق الأعيان عما هي به من الهيئات لم يكن بين الحق والباطل فصل، ولجاز أن تكون جميع المحسوسات مما سحرته السحرة، فقلبت أعيانها. قالوا: وفي وصف الله جل وعز سحرة فرعون بقوله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[طه: ٦٦]، وفي خبر عائشة عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا سحر يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، أوضح الدلالة على بطول دعوى المدعين أن الساحر ينشئ أعيان الأشياء بسحره ويستسخر ما يتعذر استسخاره على غيره من بني آدم كالموات والجماد والحيوان، وصحة ما قلنا"[4].

واعتبر هؤلاء أن السحر الذي جاء به فرعون تخييل فقط[5]. قال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ

---

(١) تفسير المنار، ١/ ٣٩٩ فما بعدها. وكلام ابن عاشور سيأتي بعد قليل.

(٢) المحلى، ١/ ٣٦ ـ ٣٧.

(٣) الكشاف، ٤/ ٣٠١. ويعني بالحشوية والرّعاع: من قال بحقيقة السحر، من أهل السنة خاصة. والزمخشري ـ كما هو معلوم ـ معتزلي.

(٤) جامع البيان، ١/ ٣٤٧.

(٥) التحرير والتنوير، ١/ ٢٥٨.

أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦]، بأن خيَّلوا إليهم ما لا حقيقة له [١]. أو خيَّلوا لهم ما الحقيقة بخلافه، كقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] [٢].

وأما ما حكاه القرآن من التفريق بين المرء وزوجه، فذلك بالحيلة والتمويه والنميمة[٣]، "ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرك والنشوز والخلاف ابتلاء منه، لا أن السحر له أثر في نفسه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١٠٢] لأنه ربما أحدث الله عنده فعلاً من أفعاله وربما لم يحدث"[٤].

ويدل على أنه لا حقيقة للسحر قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] [٥].

ثم لو صح أن للسحر هذا التأثير الكبير فكيف نفرق بينه وبين معجزات الأنبياء[٦].

قالوا: والفرق على مذهبنا واضح، فإن السحر تخييل وحيل فقط، أما المعجزة فظاهرها كباطنها[٧]، فعصي سحرة فرعون ليست بالحيات، أما عصا موسى التي ألقاها فثعبان مبين.

وعند هؤلاء فإن ما يظن سحراً أصله أحد أمور ثلاثة:

١ ـ تأثير نفساني للساحر في المسحور الذي يكون له من خور العزيمة وضعف العقل ما يجعله قابلاً لهذا التأثير.

٢ ـ استخدام مؤثرات من خصائص الأجسام، كبعض العقاقير والأدوية.

٣ ـ الشعوذة[٨].

واستدلوا أيضاً بالواقع، كما قاله الجصاص: "وحكمة كافية تبين لك أن هذا كله مخاريق وحيل لا حقيقة لما يدعون لها: أن الساحر والمعزم لو قدرا على ما يدعيانه من النفع والضرر من الوجوه التي يدعون وأمكنهما الطيران والعلم بالغيوب وأخبار البلدان النائية والخبيئات والسرق والإضرار بالناس من غير الوجوه التي ذكرنا، لقدروا على إزالة الممالك واستخراج الكنوز والغلبة على البلدان بقتل الملوك بحيث لا يبدؤهم مكروه، ولما مسهم السوء ولا امتنعوا عمن قصدهم بمكروه، ولاستغنوا عن الطلب لما في أيدي الناس. فإذا لم يكن كذلك،

---

(١) إرشاد العقل السليم، ١/١٨٨.

(٢) الكشاف، ٢/١٠٣.

(٣) أحكام القرآن، للجصاص، ١/٥٧.

(٤) الكشاف، ١/٣٠١.

(٥) مفاتيح الغيب ١/ ٢٣٢.

(٦) أحكام القرآن للجصاص، ١/٥٩. مفاتيح الغيب، ١/ ٢٣٢.

(٧) أحكام القرآن، للجصاص، ١/٥٩.

(٨) للشيخ ابن عاشور تفصيل في هذا المعنى راجعه بتفسيره، ١/ ٦٣٣ إلى ٦٣٦.

وكان المدعون لذلك أسوأ الناس حالاً وأكثرهم طمعاً واحتيالاً وتوصلاً لأخذ دراهم الناس وأظهرهم فقراً وإملاقاً، علمت أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك"[١].

المذهب الثاني: للسحر حقيقة وأثر واقعي:

فهو نوعان: حقيقي، وتخييلي[٢].

وهذا قول جمهور العلماء، كما صرح به بعضهم[٣]. قال المازري ـ في شرحه لحديث سحر النبي ﷺ ـ: "أهل السنة وجمهور العلماء من الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقائق غيره من الأشياء الثابتة، خلافاً لمن أنكره ونفى حقيقته وأضاف ما يتفق منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها، وقد ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز وذكر أنه مما يُتعلم، وذكر ما يشير إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرق به بين المرء وزوجه، وهذا كله مما لا يمكن أن يكون فيما لا حقيقة له، وكيف يُتعلم ما لا حقيقة له.

وهذا الحديث أيضاً فيه إثباته، وأنه أشياء دفنت وأخرجت، وهذا كله يُبطل ما قالوه.

والذي يعرف بالعقل من هذا أن إحالة كونه من الحقائق محال، وغير مستنكر في العقل أن يكون الباري سبحانه يخرق العادات عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى على ترتيب ما لا يعرفه إلا الساحر، ومن شاهد بعض الأجسام منها قتّالة كالسموم، ومنها مُسقِمة كالأدوية الحادة، ومنها مُصحّة كالأدوية المضادة للمرض، لم يبعد في عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوى قتالة أو كلام مهلك، أو مؤد إلى التفرقة"[٤].

واستدلوا عليه بقصة الملكين، وبذكر السحر في القرآن، وتكرره. وبأحاديث سحر النبي ﷺ، وملخصها أن لبيد الأعصم اليهودي عقد سحراً ـ بمشط وخيوط وجف طلع نخل ـ ودفنه عند بئر. فكان النبي الكريم يخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله، حتى أخبره جبريل بذلك ونزلت المعوذتان، فحلَّ تلك الأشياء المعقودة، وذهب عنه ما كان يجد[٥].

---

(١) أحكام القرآن، ١/ ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣١ ـ ٣٢. إرشاد القاصد، ٦٧. كما تقدم في مبحث أقسام السحر.

(٣) عمدة القاري، ١٤/ ٦٢، ٢١/ ٢٧٧.وانظر تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص ١٦٧ إلى ١٧٠.

(٤) المعلم، ٣/ ٩٣. وقد نقل بعض العلماء كلام المازري هذا، منهم النووي في المنهاج، ١٤/ ١٤٦، والشوكاني في نيل الأوطار، في حد الساحر.

(٥) أخرجه البخاري: ٣٢٦٨، ٥٧٦٣، ومسلم ٢١٨٩، وأحمد: ٢٤٣٠٠ .

قال العلماء: إن هذا السحر تسلط على جسد النبي الكريم فقط، لا على عقله ولا روحه، وكان شيئاً عارضاً يشبه المرض. انظر: المعلم، ٣/ ٩٣. الشفا، للقاضي عياض، ٢/ ١٨١ ـ ١٨٢. السراج الوهاج، لصديق خان، ٨/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧.



قالوا: وقد قال تعالى في السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[البقرة: ١٠٢]، والاستثناء يدل على حصول الآثار بسببه[١]. وردوا احتجاج أهل المذهب الأول بقوله تعالى ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾[طه: ٦٦]، بأن الآية وردت في قصة سحرة فرعون، وكان سحرهم كذلك، ولا يلزم أن جميع أنواع السحر كذلك تخييل[٢].

قال القرطبي: "لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع؛ فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه، ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس، فدل على أن له حقيقة. وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف: ١١٦] وسورة "الفلق"، مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم، وهو مما خرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسولَ الله ﷺ يهوديٌّ من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم؛ الحديث. وفيه: أن النبي ﷺ قال لما حُل السحر: "إن الله شفاني". والشفاء إنما يكون برفع العلة وزوال المرض؛ فدل على أن له حقًّا وحقيقة، فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه. وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع، ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق. ولقد شاع السحر وذاع في سابق الزمان وتكلم الناس فيه، ولم يبدُ من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله"[٣].

ومن المعقول أن أكثر الأمم تعتقد بالسحر، وأنه لا استحالة فيه من حيث مقتضيات العقل[٤].

يقول سيد قطب: "إنه ما يزال مشاهداً في كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن كنهها بعد.. هذا التليباثي ـ التخاطر عن بعد ـ، ما هو، وكيف يتم؟... إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري، لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرب بها هذه القوى... السحر من قبيل هذه الأمور، وتعليم الشياطين من قبيل هذه الأمور، وقد تكون صورة من صوره: القدرة على الإيحاء والتأثير، إما في الحواس والأفكار، وإما في الأشياء والأجسام... وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرد تخييل لا حقيقة له: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ

---

(١) مفاتيح الغيب، ١/ ٢٣٢.

(٢) عمدة القاري، ٢١/ ٢٧٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٢ ـ ٣٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٢ ـ ٣٣.

﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]. ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه. فالانفعالات تنشأ من التأثيرات، وإن كانت الوسائل والآثار، والأسباب والمسببات، لا تقع كلها إلا بإذن الله"[١].

تفرع هذا المذهب إلى قولين:

ثم إن العلماء ـ الذين قالوا بوجود حقيقة للسحر ـ اختلفوا في القدر الذي يبلغه السحر، ولهم في ذلك ـ كما قال المازري ـ اضطراب كثير[٢].

القول الأول: الأصل أنه لا حدَّ لقدرة الساحر:

ولم أجد ـ بسبب الاضطراب الذي أشرت إليه ـ خيراً من هذه العبارة في تقديم قول جماعة من العلماء رأوا أن ما أجاز العقل وقوعه، ولم يمنع الشرع من تصوره، فهو في مقدور السحر.

قال المازري: "وقد رأيت بعض الناس ذهب إلى أنه لا يبلغ الأمر فيه إلى غريبة تربى على التفرقة بين المرء وزوجه، وذكر أن الله سبحانه إنما ذكر ذلك تعظيماً لما يكون عنه وتهويلاً له في حقنا، فلو كان يقع عنه ما هو أعظم منه لذكره، إذ لا يضرب المثل عند المبالغة إلا بأعلى أحوال المذكور. ومذهب الأشعرية أنه يجوز أن يقع عنه ما هو أكثر من ذلك. والذي قالته الأشعرية هو الصحيح عقلاً، إذا قلنا: إن لا فاعل إلا الله سبحانه، وإنما يقع من ذلك عادة أجراها تعالى فلا تفترق الأفعال في ذلك، وليس بعضها أولى من بعض وهذا واضح. لكن إن ورد السمع بقصوره عن مرتبة ما وجب اتباع السمع في ذلك، وسمع قاطع يوجب الاقتصار على ما قاله مَن حكينا قوله لا يوجد، وذكر التفرقة بين الزوجين ليس بنص جلي فيما قاله، ولكنه إنما يبقى النظر في كونه ظاهراً والمراد في المسألة القطع، فلهذا لم نشتغل ها هنا بتحرير ما تعلق به من الآية"[٣].

وقال القرطبي: "قال علماؤنا: لا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات مما ليس في مقدور البشر، من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضو، إلى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات العباد"[٤].

ثم من هؤلاء من اكتفى بهذا التقرير العام، كالمازري، ومنهم من تجاوزه إلى القول بإمكان السحر قلب الأعيان وإنشاء الأجسام، قال الرازي: "أما أهل السنة فقد جوَّزوا أن

---

(١) في ظلال القرآن، ١/ ١٢٨ ـ ١٢٩ ـ ١٣٠، في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

(٢) المعلم، ٣/ ٩٣.

(٣) المعلم، ٣/ ٩٣ ـ ٩٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٣.



يقدر الساحر على أن يطير في الهواء، ويقلب الإنسان حماراً، والحمار إنساناً"(١). قالوا: ولا يبعد أن يستدق جسم الساحر حتى يتولج في الكوات الضيقة. وحكى هذا القول غيره، كالطبري، وابن كثير، والعيني، وابن المنير...(٢).

ودليل هؤلاء الأساس: هو عموم الأدلة، وأن ذلك ممكن عقلاً، وحتى شرعاً، مادام ذلك كله بخلق الله تعالى(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب، ١/ ٢٣١.

(٢) راجع، جامع البيان، ١/ ٣٤٧ (البقرة، الآية ١٠٢). تفسير ابن كثير، ١/ ١٨١ (البقرة ١٠٢). عمدة القاري، ١٤/ ٦٢. الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال. ٢/ ١٠٣. سورة الأعراف ١٠٥.

(٣) يذكر هؤلاء أحياناً أثراً غريباً في الدلالة على قولهم، ومنهم الرازي في: مفاتيح الغيب، ١/ ٢٣٢. وقد أورده الطبري بسنده في جامع البيان، ١/ ٣٤٧، ورواه أيضاً ابن أبي حاتم... كلاهما أسنده إلى عائشة رضي الله عنها قالت: "قدمت امرأة عليّ من أهل دومة الجندل، جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته حداثة ذلك، تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر، ولم تعلم به، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لعروة: يا ابن أختي، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ـ ﷺ ـ فيشفيها، كانت تبكي حتى إني لأرحمها، وتقول: إني لأخاف أن أكون قد هلكت. كان لي زوج فغاب عني، فدخلت علي عجوز فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك. فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين، فركبت أحدهما وركبت الآخر، فلم يكن شيء حتى وقفنا ببابل، وإذا برجلين معلقين بأرجلهما. فقالا: ما جاء بك؟ فقلت: أتعلم السحر. فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفري، فارجعي. فأبيت وقلت: لا. قالا: فاذهبي إلى ذلك التنور، فبولي فيه. فذهبت ففزعت ولم أفعل، فرجعت إليهما، فقالا: أفعلت؟ فقلت: نعم. فقالا: هل رأيت شيئاً؟ فقلت: لم أر شيئاً. فقالا: لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري، فإنك على رأس أمرك. فأبت وأبيت. فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه. فذهبت فاقشعررت، ثم رجعت إليهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ فقلت: لم أر شيئاً. فقالا: كذبت لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري، فإنك على رأس أمرك. وأبيت. فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور، فبولي فيه. فذهبت إليه فبلت فيه، فرأيت فارساً مقنعاً بحديد خرج مني، فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ قلت: رأيت فارساً مقنعاً خرج مني فذهب في السماء، حتى ما أراه. فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك، اذهبي. فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئاً وما قالا لي شيئاً. فقالت: بلى، لم تريدي شيئاً إلا كان، خذي هذا القمح فابذري، فبذرت، وقلت: اطلعي. فطلعت، وقلت احقلي فأحقلت، ثم قلت: افركي فأفركت. ثم قلت: أيبسي فأيبست. ثم اطحني فأطحنت. ثم قلت: اخبزي فأخبزت. فلما رأيت أني لا أريد شيئاً إلا كان، أسقط في يدي وندمت ـ والله ـ يا أم المؤمنين. وما فعلت شيئاً، ولا أفعله أبداً". وأضاف ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم أن المرأة سألت أصحاب رسول الله ﷺ ـ حداثة وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ وهم يومئذ متوافرون، فما دروا ما يقولون لها، وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه، إلا أنه قد قال لها ابن عباس ـ أو بعض من كان عنده ـ: لو كان أبواك حيين أو أحدهما؟ قال هشام: فلو جاءتنا أفتيناها بالضمان. قال ابن أبي =



القول الثاني: لقدرة الساحر حدود معينة، أو غير معينة.

وبعض هؤلاء عيّنها، فقال: إن الساحر ليس يقدر على أكثر مما أخبر الله عنه من التفرقة بين الزوجين، لأن الله ذكر ذلك في معرض الذم للسحر والغاية في تعليمه، فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره(١).

وبعضهم يكتفي بالإشارة إلى هذا الأصل العام دون الدخول في التفاصيل، كما قال أبو العباس القرطبي: السحر "أمر مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله ﷺ عن وجوده ووقوعه... والسحر عند علمائنا: حيل صناعية يتوصل إليها بالتعلم، والاكتساب؛ غير أنها لخفائها ودقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، فيندر وقوعها، وتستغرب آثارها لندورها. ومادته الوقوف على خواص الأشياء، والعلم بوجوه تركيبها، وأزمان ذلك. وأكثره تخييلات لا حقيقة لها، وإيهامات لا ثبوت لها؛ فتعظم عند من لا يعرفها وتشتبه على من لا يقف عليها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[طه: ٦٦]. مع أنه كان في عين الناظر إليه عظيماً. وعن ذلك عبر الله تعالى بقوله: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]... ولا ينكر أن السحر له تأثير في القلوب بالحب، والبغض، وبإلقاء الشرور حتى يفرق الساحر بين المرء وزوجه، ويحول بين المرء وقلبه، وبإدخال الآلام، وعظيم الأسقام؛ إذ كل ذلك مدرك بالمشاهدة، وإنكاره معاندة"(٢).

وأظن الطبري من أصحاب هذا القول، وإن كان اقتصر على حكاية الخلاف وحجج الطرفين(٣).

والسحر المؤثر عند ابن خلدون هو المؤثر بالهمة، وهو قدرة خاصة؛ وسحر الطلسمات(٤).

وذكر ابن حزم من السحر المؤثر الطلسمات خاصة(٥).

= الزناد: وكان هشام يقول: إنهم كانوا من أهل الورع والخشية من الله. ثم يقول هشام: لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكى أهل حمق وتكلف بغير علم.

قال ابن كثير: إسناد هذه القصة جيد إلى عائشة رضي الله عنها. تفسيره ١/ ١٧٩. وعندي رأي في الاحتجاج بهذا الأثر راجعه في الكلام عن القول الثاني، بالهامش.

(١) الجامع لأحكام القرآن. ٢/ ٣٨.

(٢) المفهم، ٥/ ٥٦٩ .

(٣) انظر: جامع البيان، ١/ ٣٤٧.

(٤) المقدمة. ص ٣٧٠.

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٥/ ١٠١.

والجامع بين هؤلاء كلهم هو مذهبهم في أن السحر لا يغير من طبائع الأشياء، وقد رد ابن حزم المذهب الأول، وبالغ في الإنكار عليهم لما قالوه من قلب الطبائع، وشنع عليهم، وكان مما قال: "ذهب أهل الحق إلى أنه لا يقلب أحد عيناً، ولا يحيل طبيعة إلا الله عز وجل لأنبيائه فقط سواء تحدوا بذلك أو لم يتحدوا... وهذا هو الحق الذي لا يجوز غيره، برهان ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾[الأنعام: ١١٥]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[البقرة: ٣١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس: ٨٢].

فصح أن كل ما في العالم وبما قد رتبه الله عز وجل الرتب التي لا تتبدل، وصح أن الله عز وجل أوقع كل اسم على مسماه، فلا يجوز أن يوقع اسم من تلك الأسماء على غير مسماه الذي أوقعه الله تعالى عليه؛ لأنه كان يكون تبديلاً لكلمات الله تعالى التي أبطل عز وجل أن تبدل، ومنع من أن يكون لها مبدل، ولو جاز أن تحال صفات مسمى منها التي بوجودها فيه استحق وقوع ذلك الاسم عليه، لوجب أن يسقط عنه ذلك الاسم الذي أوقعه الله تعالى عليه. فإذ ذلك كذلك فقد وجب أن كل ما في العالم مما قد رتبه الله تعالى على ما هو عليه من فصوله الذاتية وأنواعه وأجناسه، فلا يتبدل منه شيء قطعاً إلا حيث قام البرهان على تبدله، وليس ذلك إلا على أحد وجهين: إما استحالة معهودة جارية على رتبة واحدة، وعلى ما بنى الله تعالى عليه العالم من استحالة المني حيواناً، والنوى والبذور شجراً ونباتاً، وسائر الاستحالات المعهودات. وإما استحالة لم تعهد قط ولا بنى الله تعالى العالم عليها، وذلك قد صح للأنبياء عليهم السلام شواهد لهم على صفة نبوتهم، وجد ذلك بالمشاهدة ممن شهدهم، ونقل إلى من لم يشاهدهم بالتواتر الموجب للعلم الضروري، فوجب الإقرار بذلك وبقي ماعدا أمر الأنبياء عليهم السلام على الامتناع، فلا يجوز البتة وجود ذلك لا من ساحر، ولا من صالح بوجه من الوجوه"[1].

ويقول البغوي: "وقيل: إنه يؤثر في قلب الأعيان فيجعل الآدمي على صورة الحمار، ويجعل الحمار على صورة الكلب، والأصح أن ذلك تخييل، قال الله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[طه: ٦٦]، لكنه يؤثر في الأبدان بالأمراض والموت والجنون، وللكلام تأثير في الطباع والنفوس، وقد يسمع الإنسان ما يكره فيحمي ويغضب وربما يحم منه، وقد مات قوم بكلام سمعوه فهو بمنزلة العوارض والعلل التي تؤثر في الأبدان"[2].

ولذلك قال القرطبي - أعني أبا العباس -: "لأن الحبال والعصي لم تخرج عن

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٥/ ٩٩ - ١٠٠.

(٢) معالم التنزيل، ١/ ١٢٨ - ١٢٩.



حقيقتها، وذلك بخلاف عصا موسى، فإنها انقلبت ثعباناً مبيناً خرقاً للعادة وإظهاراً للمعجزة"[1].

ويقول سيد قطب ـ في قوله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ـ : "والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء، ولا ينشئ حقيقة جديدة لها، ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر... وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلم بها، وهو بهذه الطبيعة يؤثر في الناس، وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه.. مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة التي يريدها الساحر. وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد... وهي شر يستعاذ منه بالله، ويلجأ منه إلى حماه"[2].

ويظهر لي أن أرجح الأقوال وأسلمها هو هذا القول الثاني، وخصوصاً على طريقة من قرر هذا الأصل العام، ولم يفصل. أما القول الأول فليس له غير دليل الإمكان، ولا كلام فيه إنما نحن في الوقوع والحدوث. وأضعف ما في هذا القول الأول هو ما ذكره بعضهم من قدرة الساحر على قلب الأعيان، نعم ذلك جائز في قدرة الله تعالى، أعني أن يخلق هذا القلب عند فعل الساحر، لكن لا دليل على أن الباري أذن للسحرة بذلك ومكّنهم منه، وليس في القرآن والسنة[3] ما يشير إلى ذلك، وإنما فيهما سحر التخييل والتمويه لسحرة فرعون، ومرض النبي الكريم .

وهذا القدر في الحقيقة هو الذي أثبته أهل السنة، فهم ـ أعني جمهورهم ـ يقول بحقيقة السحر، ولكن ـ كما لاحظ ذلك العلامة ابن عاشور ـ: "ليس في كلامهم وصف كيفية السحر الذي أثبتوا حقيقته، فإنما أثبتوه على الجملة"[4].

أما ما نسبه بعض العلماء من أن أهل السنة جوَّزوا في السحر تغيير طبيعة الأشياء، فذلك ـ في ظني ـ كان استطراداً أملاه الجدل الكلامي، وما يحفل به من فرضيات، فهم

---

(١) المفهم، ٥/٥٦٩.

(٢) في ظلال القرآن، ٨/٧٠٩.

(٣) أما الاستدلال بخبر المرأة وما حدث لها ببابل، فلا أردُّه ـ كما فعل الجصاص في أحكام القرآن، ١/ ٥٨ ـ بأنه خبر مفتعل متخرص، وفي الجصاص تسرع وحدة، فسنده مقبول، وهو في نفسه محتمل. لكنني أردُّه من جهتين: ١ ـ إن هذه القصة مما أخبرت به السيدة عائشة عن تلك المرأة، فلم ترفعه إلى النبي ﷺ ولم تشر إلى شيء يتعلق به، فهو من هذه الجهة كسائر أخبار الصحابة والتابعين عن آرائهم ومشاهداتهم وأحداث حياتهم... إذا لم يرفعوا شيئاً منها إلى الشارع. ٢ ـ إن هذه القصة خبر امرأة يجهل حالها، بل هي ساقطة العدالة بإقرارها الدخول في أمر السحر، وبذلك حتى لو كانت صادقة لا يلزمنا تصديقها، ولا سبيل لنا أصلاً إلى تمييز صدقها من كذبها. فالله تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

(٤) التحرير والتنوير، ١/ ٦٣٣.

رفعوا في وجه منكري أي حقيقة للسحر دليل الإمكان، وذكروا من صوره أن ينقلب الإنسان إلى الحيوان وأن يدخل الساحر من كوة ضيقة.. ونحو ذلك مما يُبيِّنون به أنه يجوز أن يُقدِر الله تعالى بعض العباد على هذه الأمور، لكنهم لم يقولوا بوقوعها فعلاً، ولهذا من حكى هذا القول صدّره بجمل محتملة مثل: لا يمنع عند أهل السنة، أو جوز أهل السنة، أو نحو ذلك من الجمل الافتراضية.

تأثير السحر في ضوء قضية السببية:

يجري في هذه القضية ما يجري في "مشكلة السببية" من الخلاف[1]. ومثال ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فقد اتفق العلماء على أنه لا يحدث شيء في مملكة الله لم يأذن به سبحانه، إلا ما كان من رأي المعتزلة، وليس كلامنا الآن معهم. ثم اختلفوا في معنى "الإذن" هنا:

- فمن ذهب إلى العلية المجعولة، فسَّر "الإذن" بالتخلية، وقال: المراد منه التخلية، يعني الساحر إذا سحر إنساناً، فإن شاء الله منعه منه، وإن شاء خلى بينه وبين ضرر الساحر. وهذا مروي عن الحسن البصري[2].

قال الألوسي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: "فيه دليل على أن فيه (أي في السحر) ضرراً مودعاً إذا شاء الله تعالى حال بينه وبينه، وإذا شاء خلاه وما أودعه فيه، وهذا مذهب السلف في سائر الأسباب والمسببات"[3].

- ومن ذهب إلى العلية العادية، قال: قد يحدث الله تعالى عند استعمالهم للسحر فعلاً من أفعاله، وقد لا يحدثه، وليس للسحر تأثير بالذات. فالإذن هنا: الخلق والإحداث[4].

- ومنهم من فسر الإذن بالعلم[5].

وجه تأثير السحر:

واختلف من قال بوجود حقيقة للسحر في كيفية تأثيره على قولين:

---

(١) راجع كتابي: الوجود بين مبدئي السببية والنظام.

(٢) انظر: أحكام القرآن، للجصاص، ١/ ٦٩. مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٤٠. التحرير والتنوير، ١/ ٦٤٥. في ظلال القرآن، ١/ ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٣) روح المعاني ١/ ٣٤٥.

(٤) إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٩.

(٥) أحكام القرآن، للجصاص، ١/ ٦٩. مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٤٠. الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٩.

١ ـ إن ذلك أمر غير عادي، يخلقه الله سبحانه عقب فعل الساحر[١]، أي أن الله تعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام... أو نحوه[٢]؛ ولذلك عرَّف العيني السحر بأنه "أمر خارق للعادة، صادر عن نفس شريرة، لا تتعذر معارضته"[٣].

قال القرطبي فيما يكون للساحر من آثار: "لا يكون السحر موجباً لذلك، ولا علة لوقوعه ولا سبباً مولِّداً، ولا يكون الساحر مستقلاً به، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويحدثها عند وجود السحر؛ كما يخلق الشبع عند الأكل، والري عند شرب الماء"[٤].

٢ ـ بل هو أمر عادي. وهو ظاهر كلام أبي السعود[٥]، وقد يفهم هذا من نص ابن العربي الآتي في السحر: "حقيقته أنه كلام مؤلف يُعظم فيه غير الله وتنسب إليه الأفعال والمقادير الكائنات بخلق الله عند قول الساحر وفعله في المسحور ما شاء من أمره، حسبما جرت العادة به، وتلك الأفعال من خلق الله تعالى عند ذلك"[٦].

ووجهه كما بينه أبو العباس القرطبي أن السحر فن يتوصل إليه بالتعلم والاكتساب، ويكون له أثره باتباع قواعد معلومة وخطوات محددة، وإن كان قلة من الناس تصل إلى ذلك بالفعل، وقال: "وعلى ما قررناه فالسحر ليس بخرق عادة، بل هو أمر عادي يتوصل إليه من يطلبه غالباً؛ غير أنه يقل ويندر. فلا نقول: إن الساحر تنخرق له العادة. خلافاً لمن قال من أئمتنا وغيرهم: إن العادة تنخرق له. فإن أراد بذلك جواز انخراقها له عادة عقلاً فمسلَّم، ما لم يدَّع النبوة. فإن حاصل ذلك أنه أمر ممكن. والله تعالى قادر على كل ممكن. وإن أراد بذلك: أن الذي وقع في الوجود خارق للعادة. فهو باطل بما قدمناه"[٧].

ومن قال بأن الساحر تنخرق له العادة، احتاج إلى أن يفرق بين هذا الخارق، وبين معجزة النبي. وقالوا في ذلك: إن شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة والتحدي بها، أما الساحر فلا يدعي النبوة ولا يتحدى بالخارق الذي يقع له، ولو أراد ذلك صُرف عنه[٨]. هذا غير اختلاف حال النبي والساحر في الدين والفضل والعفة.

---

(١) المعلم، ٣/ ٩٤. الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٣. مفاتيح الغيب، ١/ ٢٣١.

(٢) عمدة القاري، ٢١/ ٢٧٧.

(٣) عمدة القاري، ٢١/ ٢٧٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٣.

(٥) إرشاد العقل السليم، ١/ ١٠٧.

(٦) عارضة الأحوذي، ٦/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٧) المفهم، ٥/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠.

(٨) انظر: المعلم، ٣/ ٩٤. المنهاج، ١٤/ ١٤٧. الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٣. مقدمة ابن خلدون، ص ٣٧٣.

المطلب الرابع: السحر والتنبؤ بالمستقبل في ضوء الحديث النبوي، ومذاهب العلماء في حقيقة السحر.

عودة إلى الحديث النبوي في العلاقة بين السحر والتنجيم:

ارتباط التنجيم بالسحر في التاريخ:

الرأي الذي أجمع عليه القدماء هو أن مصر وبلاد الكلدان هما مصدرا السحر والتنجيم معاً، وقد عرف السحر ـ خصوصاً التنجيمي ـ عصره الذهبي في حضارة هاذين البلدين، طيلة مئات السنين قبل الميلاد[١].

ولذلك فإن الكلدانيين الذين "كانت لهم عناية بأرصاد الكواكب وتحقق بعلم أسرار الفلك، ومعرفة مشهورة بطبائع النجوم وأحكامها وخواص المولدات وقواها" ...[٢] هم الذين "نهجوا لأهل الشق الآخر من معمور الأرض الطريق إلى تدبير الهياكل، لاستجلاب قوى الكواكب، وإظهار طبائعها وطرح شعاعاتها عليها، بأنواع القرابين المؤلفة لها، وضروب التدابير المخصوصة بها، فظهرت منهم الأفاعيل الغريبة، والنتائج العجيبة، من إنشاء الطلسمات وغيرها من صناعة السحر"[٣].

إن للاحتفال السحري أزمنة خاصة، وهي في أكمل الطقوس، كما عند السحرة الأشوريين والبابليين: أوقات الفجر، والغروب، والليل. وكان هؤلاء قبل بدء عملهم السحري ـ والذي يتم في جو احتفالي ـ يدرسون حركات النجوم، ويختارون تواريخ قمرية معينة. وبصفة عامة فإن كل زمن متميز ـ من الناحية التنجيمية ـ يعتبر مناسباً للسحر؛ ولذلك يقول جيروم روني: إن التنجيم وثيق الصلة بالسحر[٤].

وبمصر الفرعونية أيضاً ـ حيث كان الساحر في أعلى المراتب وأعظم الرجال ـ[٥]، اختلط السحر بالتنجيم[٦].

ولهذا فسر بعض الفلاسفة السحر بالتنجيم، كما فعل الكندي وتبعه عليه بيكون[٧]. وعليه

---

(١) La Magie, p 33, 36.

(٢) طبقات الأمم، ص ٢٤.

(٣) طبقات الأمم، ص ٢٤. وانظر أحكام القرآن، للجصاص، ١/٥٥.

(٤) في كتابه: La Magie, p 10.

(٥) المحرر الوجيز، ٧/١٢٨. سورة الأعراف.

(٦) Encyclopaedia Universalis, article astrologie, 3/85.

(٧) Encyclopaedia Universalis, article astrologie, 3/290.

اقتصر حاجي خليفة، فقال في تعريف السحر: "علم باحث عن معرفة الأحوال الفلكية وأوضاع الكواكب، وعن ارتباط كل منها مع الأمور الأرضية والمواليد الثلاثة على وجه خاص، ليظهر من ذلك الارتباط والامتزاج أفعال غريبة وأسرار عجيبة خفِيت عللها وأسبابها"[1].

معنى الحديث في ضوء مذاهب العلماء في حقيقة السحر:

على المذهب الأول: وهو أن السحر تمويه لا حقيقة له.

يكون معنى قوله ﷺ: "من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر..." كما قال الخطيب: "لأنهما وقعا من التمويه والخداع والأباطيل موقعاً واحداً، إذ النجوم لا فعل لها في خير ولا شر، وإنما الله تعالى الفاعل عند حركتها، وكذلك السحر. قال الله تعالى في قصة الملكين مع من أخذ السحر عنهما: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فأعلمنا أن ذلك إذا وقع عن فعل واحد منهما، فليس بواقع إلا بإذن الله، أي: بإرادة الله عز وجل"[2].

وقال النووي في الحديث: "وجهه: أنهما اشتركا في كونهما باطلاً، وخداعاً، وتمويها، فإن النجوم لا فعل لها، بل الله تعالى هو الفاعل لحركتها وهو خالقها، وخالق كل شيء سبحانه وتعالى، وكذلك السحر تخييل"[3].

على المذهب الثاني: وأن للسحر حقيقة.

فإن الذي ظهر لي ـ والله تعالى أعلم ـ أن السحر أنواع، وفيه نوع يستعين بالنجوم ويتوجه إليها، ويسمى بالطلسمات، لكن من شرط هذه الاستعانة مراعاة حركات الكواكب وأوضاعها، وذلك يحتاج إلى التنجيم، فكأن السحر، وهو عمل وتطبيق، يستعين بالتنجيم، وهو حساب ونظرية. فمن السحر إذن ما هو تطبيق للتنجيم.

لكن لم كان التطبيق أعم من الأصل؟ جوابه من وجهين:

١ ـ لأن التطبيق علم زائد على التنظير، فالعمل يحتوي على النظرية، فهو أعم.

٢ ـ لأن السحر الذي هو تطبيق للتنجيم، واستفادة منه، نوع واحد من أنواع أخرى للسحر.

هذا وجه كون السحر أعم من التنجيم، وشاملاً له. وفهْم هذا على التفصيل يقتضي أن أقول كلمة عن الطلسمات.

---

(١) كشف الظنون، ٢/ ٩٨٠.

(٢) القول في علم النجوم، ص ١٨٠.

(٣) المسائل المنثورة، ص ٢٥٧، وهي فتاوى النووي جمعها تلميذه علاء الدين بن العطار.

الطلسمات:

عرفه ابن الأكفاني بأنه: "علم يتعرف منه كيفية تمزيج القوى العالية الفعالة بالقوى السافلة ـ يعني الأرضية ـ المنفعلة، ليحدث عنها فعل غريب في عالم الكون والفساد"(١).

ويقول ابن خلدون ـ في السحر والطلسمات ـ: "هي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير معين، أو بمعين من الأمور السماوية. والأول هو السحر، والثاني هو الطلسمات"(٢).

والطلسمات من السحر، غير أنه اختص بقواعد وأعمال جعلت منه فرعاً مستقلاً، كما استقل مثلاً علم القراءات عن علوم القرآن، رغم أنه منه. إلا أن ابن خلدون اعتبر الطلسمات أضعف من السحر النفسي المؤثر بالعزيمة، بينما قال ابن تيمية إن الطلسم من أرفع أنواع السحر(٣).

وأصحاب الطلسمات ـ لما تصوروا العالم كرويًا ـ قسموا الفلك إلى ٣٦٠ درجة، ثم أثبتوا لكل درجة روحاً يختص بها، إلا أن أثر ذلك الروح إنما يقوى ويظهر إذا نزلت الشمس بتلك الدرجة. وأثبتوا أيضاً أرواحاً تدبر الأيام، وأخرى البحار، والجبال، والمفاوز، والعمرانات، وجعلوا لكل روح تأثيرات معينة، وهذه الأرواح كلها فلكية(٤).

ولذلك ـ كما يقول ابن خلدون ـ فإن "صاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون. ويقولون: السحر اتحاد روح بروح، والطلسم اتحاد روح بجسم، ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية. والطبائع العلوية هي: روحانيات الكواكب، ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالنجامة"(٥).

وبهذا يظهر لِم جعل الحديث النبوي التنجيم من علوم السحر، أعني بحسب ما وصل إليه علمنا المحدود، أما حقيقة الحال على كمالها، فـ ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

---

(١) إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، ص ٧٠. كشف الظنون، ٢/ ١١١٤ ـ ١١١٥. وقيل في كلمة طلسم، مفرد طلسمات، معناه: عقد لا ينحل، وقيل: هو مقلوب اسمه، أي مُسلَّط. انظر ذين الكتابين. وراجع: الفهرست لابن النديم، ص ٣٦٩.

(٢) المقدمة، ص ٣٦٩.

(٣) المقدمة، ص ٣٧٠. الفتاوى، ٣٥/ ١٧١.

(٤) المطالب العالية من العلم الإلهي، للرازي، ٦ / ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

(٥) المقدمة. ص ٣٧٢.

السحر والتنبؤ بالمستقبل:

والكلام فيه يختلف بحسب الرأي المختار في حقيقة السحر:

على المذهب الأول: السحر تخييل.

فهنا ليس في السحر أي تنبؤات، ولا يمكن أن يعرف شيئاً عن المستقبل؛ لأن السحر في هذا القول تمويه وحيل فقط، والتوقع لا ينبني على الكذب.

نعم يمكن أن يدَّعي الساحر معرفة شيء من الغيب، الماضي أو الحاضر أو المستقبل، لكن ذلك منه مجرد دعوى كاذبة، لا أصل لها البتة، ولو كان ضعيفاً.

فالسحر هنا ليس كالكهانة، لأن تنبؤ الساحر ـ إن وُجد ـ اختلاق تام، أما تنبؤ الكاهن ففيه شيء من الصحة، وإن كان هو أيضاً كذباً في الأغلب.

على المذهب الثاني: في السحر حقيقة:

وعلاقة السحر هنا بالتنبؤ فيها بعض الإشكال، وبصفة عامة، فقد كانت الصلة بين السحر من جهة، والكهانة ـ Divination ـ من جهة أخرى، والدين من جهة ثالثة. من أهم القضايا التي حيَّرت علماء الاجتماع الديني. فبالنسبة إلى بوشي لوكليرك، ودافيس، وهنري، ودوتي فإن السحر والكهانة ـ بما فيها كهانة التنبؤ ـ يشتركان في أصل واحد قديم. ثم اختلفوا، فدافيس يرجع بالكهانة إلى السحر المعتمد على الاتصال بالشياطين، بينما دوتي يرجعها إلى نوع السحر الذي هو التحويل[١].

أما فرازر وموس فقد فصلا تماماً بين الكهانة والسحر. بينما يرى باستيد أن الكهانة استفادت أساليبها من الدين والسحر كليهما[٢].

وهذا يكشف لك عن تعقد الموضوع واحتماله، خصوصاً أن الدين والكهانة والسحر قضايا عرفها الإنسان منذ عصر موغل في القدم.

فإذا تجاوزنا هذا الأصل البعيد إلى العصر التاريخي للإنسان، أعني الخمسة آلاف سنة الأخيرة، أمكن لي أن أقدم رأياً:

بإمكان السحر أن يطلع على بعض الغيوب، من الماضي والحاضر، وهذا بطريقين:

أ ـ إما بقدرة ذاتية لبعض الأفراد القلائل، إن قلنا ـ مع الجمهور ـ: إن بعض السحر موهبة نفسية.

ب ـ وإما بطريق استخدام الجن، وهم بخفة حركاتهم وسرعتها، وقدرتهم على ولوج

---

(١) Eléments de sociologie religieuse, p 87. وهما من علماء الاجتماع: Davies, Douté.

(٢) Eléments de sociologie religieuse, p 88.



أماكن كثيرة لا يبلغها غيرهم، وملازمتهم للإنسان يستطيعون أن يعرفوا بعض أخبار الناس التي حدثت أو هي بصدد الحدوث.

أما المستقبل فلا سبيل إليه بطريق السحر. وإذا تمَّ لساحر ما إدراك جزئية ما تتعلق بالزمان المستقبل، فهذا يُعد من الكهانة، وإذا كان فبأساليبها وطرقها التي بسطتها في كتاب خاص[1]؛ ولذلك فإنني أتفق تماماً مع رأي الأستاذ جواد علي في تفرقته بين السحر والكهانة، قال: "يقال للاتصال بالآلهة أو الأرواح لمعرفة المستقبل والتنبؤ عما سيحدث: الكهانة، ويقال لمن يقوم بذلك الكاهن. أما الذي يزعم أن في إمكانه التحكم في الأرواح وتوجيهها الوجهة التي يريدها، فيقال له: ساحر، ويقال لعمله: السحر"[2].

ويبدو لي من خلال ما قرأته عن السحر، أن مهمته لا تتعلق أساساً بالمستقبل، بل بجلب نفع معين أو التسبب في ضرر لإنسان ما. فالسحر "فن" عملي بالدرجة الأولى، فهو فعل وعمل؛ ولذلك يعرَّف بـ: العلم الذي "يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفية"[3].

ويكاد يكون أهم مواضيع السحر هو الجانب العاطفي في حياة الإنسان؛ ولذلك ذكره القرآن الكريم، حين أشار إلى تفرقة الساحر بين المرء وزوجه.

ولما كان السحر عملاً قبل كل شيء، لا ريب كان الاهتمام بشأن الحاضر هو الغالب عليه في علاقته بالزمان، بينما كان المستقبل الهمَّ الأول للكهانة، على نحو ما قال جواد علي: "الفرق بين الكهانة والسحر أن الكهانة تنبؤ، فسند الكاهن هو كلامه الذي يذكره للناس. أما السحر، فإنه عمل في الأكثر، للتأثير في الأرواح، كي تقوم بأداء ما يطلب منها. ولا يمكن صنع سحر ما لم يقترن بعمل"[4].

ومتى تجاوز السحر دائرة العمل إلى مجال المعرفة والعلم، اقتصر في الغالب على محاولة كشف غيوب من الماضي والحاضر، ونادراً ما يتعدى ذلك إلى المستقبل.

وهذا كله باعتبار السحر الذي خرج منه التنجيم، أعني أنواع السحر سوى التنجيم.

على أنه يجوز أن نقول: إن الجزء المختص بالتنبؤ في المستقبل من السحر هو التنجيم، مراعاة للفظ الحديث النبوي. وهذه اصطلاحات، إذا توضحت معانيها، فلا مشاحة فيها.

---

(١) راجع كتابي: النظرية الإسلامية في الكهانة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٣.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٧٥٥ ـ ٧٥٦.

(٣) إرشاد القاصد، لابن الأكفاني، ص ٦٧.

(٤) المفصل، ٦/ ٧٤٠.

المبحث الثاني: الكيمياء الخفية:

نشأة الكيمياء التجريبية في بلاد الإسلام:

ثم من العلوم التي ازدهرت في الحضارة الإسلامية: علم الكيمياء التجريبية، ولا يعرف لهذا العلم وجود حقيقي قبل المسلمين، ولهذا يعدُّ نتاجاً خاصاً لهذه الحضارة[1]؛ كما يعتبر جابر بن حيان المؤسس الفعلي للكيمياء التجريبية، مع كونه من أفضل الشخصيات العلمية في تاريخ العلوم على الإطلاق[2].

وربما كانت ثاني شخصية كبيرة في علم الكيمياء التجريبية ـ في الحضارة الإسلامية ـ هي أبو بكر الرازي، بكتابه "سر الأسرار"[3].

ولهذا ينقسم تاريخ الكيمياء إلى قسمين: الكيمياء العربية، من عهد جابر إلى لافوازييه في القرن الثامن عشر، ثم الكيمياء الحديثة من عهد لافوازييه إلى اليوم[4].

كيمياء أخرى موازية للكيمياء التجريبية:

وقد كان في التراث الإسلامي في الكيمياء ناحيتان متمايزتان، وإن كانتا متداخلتين:

الأولى: الكيمياء التي تحاول اكتشاف خصائص الأشياء، والمعادن خاصة، وتعتمد على الاستقراء والتجربة، فهذه أصل الكيمياء الحديثة.

وقد ساعد اكتشاف هذه الكيمياء المسلمين على تطوير علوم أخرى ـ موازية أو متفرعة عن الكيمياء ـ أهمها الصيدلة.

---

(١) راجع الفصل الذي عقده سزكين عن "مكانة المسلمين والعرب في تاريخ علم الكيمياء"، في كتابه: "محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية"، ص ٥٣ فما بعدها.

(٢) "محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية"، ص ٦٠، ٦٢ إلى ٦٤. وانظر حول جابر وكتبه: تاريخ الأدب العربي، ٤/ ٣٠٧ إلى ٣١٦. ولكي تدرك أهمية جابر في التاريخ العلمي الإنساني، انظر ما كتبه علي سامي النشار في: "مناهج البحث عند مفكري الإسلام"، ص ٢٣٨ فما بعدها. وجابر هو ابن حيان بن عبد الله الكوفي، المعروف بالصوفي. عالم مشارك في الطبيعيات والفلسفة والأدب. من آثاره: الحدود في الكيمياء. كتاب الخواص الكبير، في خواص الأشياء. تأليف في الأسطرلاب. توفي سنة ١٩٨ هـ. معجم المؤلفين، ٣/ ١٠٥.

(٣) محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ص ٦٤ ـ ٦٥. وراجع المقال الخاص بالرازي في دائرة المعارف الإسلامية ٩/ ٤٥١. وهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، درس الرياضيات والفلسفة والفلك، ثم الطب في سن عالية وبرع فيه. توفي بالري ـ مسقط رأسه ـ بالعراق، سنة ٣١٣هـ.

(٤) انظر: محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، في مواضع منها: ص ٦٥. و Antoine Lavoisier كيميائي فرنسي، استطاع ـ بفضل طريقته التجريبية ـ أن يصل إلى كشوفات هامة في مجال الكيمياء، كمكونات الهواء، وكيف يحدث الإحتراق، ومفهوم العنصر الكيميائي... أعدمته الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٤.



الثانية: كيمياء أخرى، تشبه الأولى في الأسلوب والمظهر، ولكنها تختلف عنها في الغاية والفلسفة. وقد عرفت هذه الكيمياء في تاريخنا العلمي بـ :الكيمياء. . هكذا مجرداً. وكان يشمل الكيمياء الأولى والثانية، ولذلك فلفظ الكيميائي قد يعني في تراثنا: من يشتغل بالكيمياء الأولى فقط، أو بالثانية فقط، أو بهما معاً، وهو كثير.

ولكننا اليوم نحتاج إلى التفريق بينهما(١)، فالكيمياء الأولى علم صحيح لا غبار عليه، أما الثانية فليست علماً تجريبياً سليماً تماماً. والذي ظهر لي هو أن نسمي الكيمياء الأولى بالكيمياء التجريبية، أو بالكيمياء فقط، كما هو التعبير الشائع اليوم، بينما نسمي الكيمياء الثانية بـ: "الكيمياء الخفية"، لأسباب سيتبينها القارئ بعد قراءته لهذا البحث.

ما هي الكيمياء الخفية؟

التعريف السائد لهذه الكيمياء هو فن تحويل المعادن، بعضها إلى بعض، حيث الغاية هي توليد الذهب(٢).

والمعادن المقصودة هي السبعة المنطرقة: الذهب، والفضة، والرصاص، والقصدير، والنحاس، والحديد، والخارصيني (أو الحديد الصيني) (٣). وأصل المعادن كلها هو الزئبق والكبريت(٤).

تنبني هذه الكيمياء على نظرية العناصر والطبائع الأربعة(٥)، ثم على التسليم بإمكان تحول معدن ما إلى غيره، لكن شرط هذا التحول هو توفير الإكسير، أو الحجر الكريم(٦). وهي مادة نفيسة، إذا ألقيت على القصدير تحول إلى فضة، أو على النحاس تغير إلى ذهب، فالإكسير لا أثر له في كل المعادن، وإنما في تلك المستعدة لقبول صورة الذهب أو الفضة، فيُخرج الإكسير صورةَ الذهب الكامنة في المعدن بالقوة، إلى الفعل والوجود؛ ولذلك يلجأ هؤلاء الكيميائيون إلى البحث عن المعادن، وتذويبها، وخلط بعضها ببعض بنسب متفاوتة،

---

(١) في اللغات اللاتينية تفرقة بين الاصطلاحين بطريقة الإملاء، ففي الفرنسية الكيمياء التجريبية هي: Chimie، والأخرى: Alchimie . وأصل الكلمة عربي. وانظر في الفروق بين نوعي الكيمياء هذين: Serge Hutin L'alchimie, p 77 à 79 .

(٢) L'alchimie, p 5.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص ٤١٠.

(٤) مخطوط غاية السرور في شرح الشذور، للجلدكي. والنظم المشروح هو لبرهان الدين علي بن أبي القاسم ابن رافع الأندلسي، ص ٣١٣ ـ ٣١٤.

(٥) L'alchimie, p 72-73.

(٦) انظر في أسماء هذا الحجر المكرم: غاية السرور في شرح الشذور، ص ٢.

واستعمال الماء والملح والأحماض ونحو ذلك، وأكثر وسائلهم هو الطبخ على النار. وحجر الزاوية في هذه الكيمياء هو الحصول على هذا الإكسير، فهو عسير[١].

هذا باختصار شديد ظاهرُ صناعة غير ظاهرة[٢].

من تاريخ الكيمياء الخفية عند المسلمين:

أول من يُنسب إليه الاشتغال بهذه الكيمياء، هو خالد بن يزيد، قال عنه القاضي صاعد: "كان بصيراً بالطب والكيمياء، وله في الكيمياء رسائل وأشعار بارعة دالة على معرفته وبراعته فيها"[٣]. وذكر ابن النديم أنه وقف على كتب منسوبة إليه في هذا المجال[٤].

وأبى ذلك ابن خلدون، قال: "ومن المعلوم البين أن خالداً من الجيل العربي، والبداوة إليه أقرب، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة، فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبْنِية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها، وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم، اللهم إلا أن يكون خالد بن زيد آخر من أهل المدارك الصناعية تَشبَّه باسمه، فممكن"[٥].

ومن لم ينسب أصل الكيمياء الخفية إلى خالد نسبه إلى جابر بن حيان، قال فيه صاعد: "كان متقدماً في العلوم الطبيعية، بارعاً منها في صناعة الكيمياء، وله فيها تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة"[٦].

ثم جاء من الأكابر أبو بكر الرازي، "وموضعه من علم الفلسفة والطب معروف مشهور... وكان يرى حقيقة الصنعة"[٧]. وله كتب كثيرة فيها.

ومنهم: أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخي المعتزلي[٨]، وأبو محمد عبد الله بن

---

(١) راجع رسالة أبي بكر بن بشرون في الكيمياء، والتي نقلها ابن خلدون في مقدمته. انظر جميع الرسالة، وخصوصاً ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠. وابن بشرون هو أحد كبار تلامذة مسلمة المجريطي.

(٢) راجع مخطوط: غاية السرور، للجلدكي. ولحاجي خليفة نبذة مختصرة في الكيمياء، في كشف الظنون، ٢/١٥٢٦ إلى ١٥٣٣.

(٣) طبقات الأمم، ص ٦٤. وانظر: غاية السرور، ص ٢١١. وخالد هذا هو حفيد معاوية بن أبي سفيان، وكانت له مشاركة في بعض العلوم. توفي سنة ٨٥هـ. معجم المؤلفين، ٤/٩٨.

(٤) الفهرست، ص ٤١٩.

(٥) المقدمة، ص ٣٩٥.

(٦) طبقات الأمم، ص ٨٢. وانظر في أخبار جابر: الفهرست، ص ٤٢٠، وفيه أيضاً لائحة طويلة من كتب جابر ورسائله، ص ٤٢١.

(٧) الفهرست، ص ٤٢٣. وراجع تاريخ الأدب العربي، ٤/ ص ٢٧١.

(٨) المتوفى سنة ٣١٩، ذكر له بروكلمان "رسالة في علم الكيمياء"، في تاريخ الأدب العربي، ٤/ ٣٤.

محمد المعروف بابن الذهبي[١]. وللمجريطي مشاركة أيضاً في الكيمياء بكتابه: "رتبة الحكيم"[٢].

ويظهر أن الكيميائيين المتقدمين كانوا كُثُر، ذكر بعضهم ابن النديم[٣]، ثم قال: "والكتب المؤلفة في هذا الشأن أكثر وأعظم من أن تُحصى"[٤].

وفي أوربا:

لم تعرف أوربا شيئاً من الكيمياء التجريبية، ولا من الكيمياء الخفية، قبل القرن الثاني عشر الميلادي، حيث بدأت هذه العلوم تنتقل إليها من العالم الإسلامي عن طريق الأندلس، والجنوب الفرنسي، وصقلية[٥]. وكان ثمرة هذا الانتقال أن أصبحت مكتبة الكيمياء الخفية من أوسع المكتبات في التراث اللاتيني، وتعد بآلاف الكتب[٦].

الكيمياء الخفية اليوم:

تحظى هذه الكيمياء اليوم باهتمام بالغ، حيث أصبحت موضوعاً لدراسات واسعة، ويدل على ذلك العدد الكبير للكتب التي تصدر في هذه الكيمياء، أو تلك التي تعود إليها وتستلهمها وتعدها من مصادرها[٧].

والمهتمون بهذه الكيمياء أصحاب مشارب مختلفة، ولعل من أشهرهم في القرن العشرين يونغ ـ تلميذ فرويد ـ الذي كتب فيها، وساهم في إعادة الاعتبار إليها، بل وجد لها مكاناً في نظريته في علم النفس[٨].

الخلاف في إمكان هذه الصناعة:

وقد اختلف مفكرو الإسلام في تصحيح الكيمياء الخفية، وفي أساسها النظري الذي هو إمكان تحول المعادن بعضها إلى بعض.

---

(١) وهو أندلسي، توفي سنة ٤٥٦هـ، كما قال صاعد في طبقات الأمم، ص ١١١.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٩٥.

(٣) انظر الفهرست، ص ٤٢٣ إلى ٤٢٥.

(٤) الفهرست، ص ٤٢٥.

(٥) Encyclopaedia, article Alchimie : 1/717. Antoine Faivre : L'ésotérisme, p 39.

(٦) Ency, article Alchimie, 1/718.

(٧) راجع: L'Alchime, p : 114. Ency, Uni, art Alchimie, 1/711

(٨) اقرأ (خاصة ص ١٧٥): 13/172à176، Ency. Uni, art Jung. والمعني هو Carl Jung. عالم نفساني من سويسرا، اختلف مع فرويد بسبب نظريته في الطاقة الجنسية ـ الليبدو ـ، وانفصل عنه. أهم أفكار يونغ هي نظريته في اللاوعي الجمعي، ولذلك اهتم بالأسطورة والرمز والحلم والكيمياء الخفية... ونحو ذلك. توفي سنة ١٩٦١.



والسؤال هو: هل هذه المعادن مختلفة بالفصول، وكلها أنواع قائمة بذاتها، أو أنها مختلفة بخواص من الكيفيات، وهي كلها أصناف لنوع واحد؟ فلهذا السؤال جوابان:

الأول: لأبي نصر الفارابي، وتابعه عليه حكماء الأندلس، قال: المعادن نوع واحد، وإنما تختلف بالخواص من الرطوبة واليبوسة... والألوان... وقد بنى الفارابي على هذا إمكان انقلاب هذه المعادن بعضها إلى بعض؛ لأن ذلك تغيُّر في أعراضها فقط، فهذه الصناعة ممكنة... ؛ ولذلك عرفها ابن الأكفاني بأنها: "علم يراد به سلبُ الجواهر المعدنية خواصَها، وإفادتها خواص لم تكن لها"[1].

الثاني: لابن سينا، وتبعه عليه حكماء الشرق. قال المعادن تختلف بالنوع، فلا يمكن انقلابها بالصنعة، وقد خلق مُقدر الأشياء كل معدن على فصل معين، هذا إضافة إلى أن الفصول مجهولة تماماً عندنا. وعليه فهذه الصناعة مستحيلة[2].

وقد صنف الكندي وابن سينا وابن تيمية في إبطال الكيمياء الخفية، بينما جنح الفخر الرازي إلى إمكانها، وكتب أبو بكر الرازي ردًّا على الكندي، وكذلك صنف الطغرائي كتاب حقائق الاستشهادات في الرد على ابن سينا. في حين رد ابن أبي الدر في كتاب على رسالة ابن تيمية في إبطال هذه الصناعة[3].

فهذا اختلاف في إمكان قيام هذه الكيمياء.

وقال من أبطل هذه الصناعة: ويدل على ذلك أيضاً أنا لم نر أحداً توصل إلى هذا الحجر المكرم. يقول ابن خلدون: "لا نعلم أن أحداً من أهل العلم تمَّ له هذا الغرض، أو حصل منه على بغية، إنما تذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلابة والتصعيد والتكليس واعتيام الأخطار بجمع العقاقير والبحث عنها، ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم له الغرض منها، أو وقف على الوصول، يقنعون باستماعها والمفاوضة فيها ولا يستريبون في تصديقها، شأن الكِلفين المغرمين بوساوس الأخبار فيما يكلفون به، فإذا سئلوا عن تحقيق

---

(١) إرشاد القاصد، ص ٧١.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٤١٠ ـ ٤١١. ولابن خلدون طريق آخر لإبطال الكيمياء الخفية، إضافة إلى ردود مختلفة راجعها بالمقدمة، ص ٤١١ ـ ٤١٢.

(٣) كشف الظنون، ٢/١٥٢٦ ـ ١٥٢٧.

الطغرائي هو مؤيد الدين أبو إسماعيل الحسين بن علي، أديب وكيميائي، وولي ديوان الوزارة. قتل سنة ٥١٣هـ، وأصله من أصبهان. من كتبه في الكيمياء: مفاتيح الرحمة. جامع الأسرار وتراكيب الأنوار في الإكسير. معجم المؤلفين، ٤/٣٦.

والآخر هو ابن أبي الدر نجم الدين البغدادي.

ذلك بالمعاينة أنكروه وقالوا: إنما سمعنا ولم نر. هكذا شأنهم في كل عصر وجيل"[1].

حتى ضرب المثل بهذا المبتغى، فقال الشاعر:

كجوهر الكيمياء ليس نرى   من ناله والأنام في طلبه[2].

وقالوا أيضاً: لو صحت هذه الصناعة لرأينا أهلها أغنى الناس، ولطلبها الملوك وسخَّروا لها جميع الإمكانيات، لكي يحصلوا على الذهب الكثير.

ومن صحَّح هذه الكيمياء، قال: نحن نُجوِّز قيام هذا العلم، ولا نقول بأن الوصول إلى المبتغى منه حاصل لكل أحد وفي كل وقت، بل ذلك لا يحصل إلا في الأعصار المتباعدة[3].

وإذا كانت الكيمياء الخفية مستحيلة على الرأي الثاني، فلِم يدرسها الناس ويجدّون في طلبها، وذلك إلى زمن متأخر، خصوصاً بالعالم الإسلامي، كما يشهد على ذلك استمرار التصنيف في هذا "العلم"؟

الجواب عند ابن خلدون أن "أكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة وانتحالها... العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش، وابتغاؤه من غير وجوهه الطبيعية كالفلاحة والتجارة والصناعة. فيستصعب العاجز ابتغاءه من هذه، ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها، وأكثر من يعنى بذلك الفقراء من أهل العمران"[4].

هل الكيمياء الخفية ممكنة في رأي العلم الحديث؟

أي: هل تجوز نظرياً على الأقل؟

الكيميائيون المحدَثون منذ عهد لافوازييه يحكمون باستحالة تحويل معدن إلى آخر[5].

وبعض العلماء اليوم يختلفون مع هذا الرأي، ويقولون: إن الفيزياء المعاصرة تذهب إلى هذه الإمكانية، فقد فكَّكت أجساماً ـ كنا نظنها بسيطة ـ إلى أجسام أخرى أبسط، بمعنى أن تفكيكها بيَّن لنا أنها مركبة، وقالوا: إن من تجارب الفيزياء الناجحة التي حدثت في عصرنا: تحويل الزئبق إلى الذهب[6].

---

(١) المقدمة، ص ٤١٠.

(٢) ذكره حاجي خليفة في: كشف الظنون، ٢/ ١٥٢٩.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٢٤ إلى ٢٢٦.

(٤) المقدمة، ص ٤١٣.

(٥) Encyclopaedia, article Alchimie, 1 /710.

(٦) Encyclopaedia, article Alchimie, 1/170.

وهذان المعدنان متقاربان ومتجاوران في جدول مِنْدِلْييف (وهو تصنيف للعناصر الكيماوية الطبيعية).

فالزئبق: رقمه الذري ٨٠، وكتلته الذرية: ٥٩ ، ٢٠٠ .

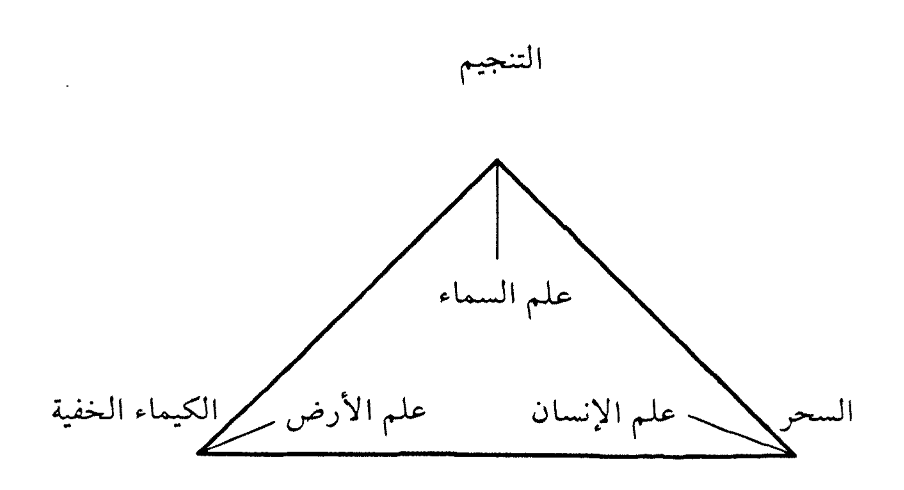
والذهب: رقمه الذري: ٧٩، وكتلته الذرية: ٩٧٦ ، ١٩٦ .

وتبدو المقارنة واضحة مع أبسط عنصر معروف، وهو الهيدروجين: رقمه ١ ، وكتلته ١،٠٠٧[١].

وقد سألت صديقاً لي ـ حاصلاً على دكتوراه في فيزياء الجزيئات ـ عن أبسط مكونات المادة المعروفة إلى اليوم، وهي الكوارك Quark، هل هي نوع واحد أم أنواع؟ فأجابني بالأول، ثم قال: إن العلماء مازالوا في طور الاكتشاف، وإنهم لم يصلوا بعد إلى معرفة المكوِّن النهائي الأبسط للمادة، وعليه لا نستطيع أن نقول: إنه الكوارك يقيناً. انتهى من كلامه. والله تعالى أعلم.

العلاقة الوثيقة بين التنجيم والسحر والكيمياء الخفية:

ثمَّة علاقة تاريخية ثابتة بين أطراف هذا الثالوث: إن التنجيم يمثل علم السماء، والسحر يمثل علم الإنسان، أما الكيمياء الخفية فتمثل علم الأرض[٢]، ويمكن أن نصور هذا الارتباط المتين بهذا الشكل:



(١) عن موسوعة كيد، (قسم الكيمياء): Quid, 4/ 105.

(٢) Encyclopaedia Uni, art astrologie, 3/280-281.



ويعتقد الكيميائيون أن الوجود ينبني على حتمية عامة تنتظم داخل نسقها كل من الظواهر الفلكية والظواهر الكيميائية؛ ولذلك مقابل تراتبية خاصة بالنجوم، توجد تراتبية أخرى تتعلق بالمعادن، فالذهب ـ مثلاً ـ هو مِلِك المعادن، كالشمس سيدة النجوم، قال الجلدكي: "وأما ذهب الحكماء فيطلق عليه اسم الشمس بالمطابقة والمشابهة"(١)... وهذا التقابل في التراتبية سببه وِحدة المادة، التي عنها نشأ النظامان: الكواكب والمعادن(٢).

ولذلك يعتقد بعض الباحثين أن الكيمياء الخفية أكثر ارتباطاً بالتنجيم، لا في أسسها النظرية فقط، بل في جانبها التطبيقي أيضاً(٣).

وابن خلدون ممن يعتقد أن الارتباط أوثق بين السحر وهذه الكيمياء، حتى اعتبرها نوعاً من أنواعه، ولعل هذا الاختلاف يقوم بحسب اختلاف اتجاهات الكيمياء الخفية، واختلاف المدارك العلمية والفكرية لأصحابها.

ويحسن أن نعرض رأي ابن خلدون، يقول: إن الكيمياء ـ إن صح وجودها ـ ليست من باب الصنائع الطبيعية، ولا تتم بأمر صناعي، وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات، إنما هو من منحى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق(٤).

ولذلك فإن الكيمياء من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها في عالم الطبيعة، إما من نوع الكرامة إن كانت النفوس خَيِّرة، أو من نوع السحر إن كانت النفوس شريرة فاجرة. فالساحر لما ثبت إمكان قلبه الأعيان المادية، بالاستعانة بمادة ما... وكانت الكيمياء تخليقاً للذهب في غير مادته الخاصة به، كان من قبيل السحر، والمتكلمون في هذه الصناعة من أكابرهم نحوا هذا المنحى، كمسلمة المجريطي(٥).

وبهذا يفسر ابن خلدون كون هذه الكيمياء ظلت دائماً علماً خاصاً يتناقله أهله في السر، ويتواصوْن بكتمانه عن الناس، وإذا أَلَّفوا فيه ألغزوا، قال: "ولهذا كان كلامهم فيه ألغازاً، حذراً عليها من إنكار الشرائع على السحر وأنواعه، لا أن ذلك يرجع إلى الضنانة بها، كما هو رأي من لم يذهب إلى التحقيق"(٦).

---

(١) مخطوط: غاية السرور، ص ١٠. هو عز الدين علي بن أحمد الجلدكي، نسبة إلى إحدى قرى خراسان. عاش بدمشق والقاهرة. واشتغل بالكيمياء، وصنف فيها: كنز الاختصاص في معرفة الخواص. البدر المنير في معرفة أسرار الإكسير. توفي بعد ٧٤٢هـ. من الأعلام للزركلي، ٥/ ١٥٧.

(٢) Quelques sciences captivantes, p 191.

(٣) L'alchimie, p 118.

(٤) المقدمة، ص ٤١٣.

(٥) المقدمة، ص ٤٠١.

(٦) المقدمة، ص ٤٠١.



لقد كان دائماً للكيمياء الخفية طابع من المعتقد الغامض الذي تحيط به الأسرار، وتجتمع عليه قلة من الخُلَّص، يتذاكرون ويجربون، ويوصي بعضهم بعضاً بإخفاء ما هم عليه عن الناس(١).

وهذه كلها علامات المعتقد الباطني، فهل كانت الكيمياء الخفية باطنية حقيقية في ستار من العلم، وثوب من البحث والمعرفة؟

باطنية الكيمياء الخفية:

تُقدِّم الكيمياء الخفية كثيراً من خصائص الباطنية، فهو فن مستور، لا يُعلم إلا لبعض الخواص الذين يكشف لهم عن أسرار هذا العلم الخفي، والذي تتناقله الأجيال بطريق تقليد بعضها لبعض، شفاهاً أو بالكتابة. وهدف هذه المعرفة الباطنية ـ والتي ينبذها الجمهور ـ ليس اكتشاف شيء جديد، بل هو إعادة اكتشاف الأسرار القائمة(٢).

ومما يُلاحظ أن الكيميائيين يحرصون على نسبة فنِّهم ذاك إلى الشخصية الغامضة المعروفة بـ : هرمس، والتي ترتبط بها كثير من التيارات الباطنية القديمة. ويقال له أحياناً : هرمس الحكيم البابلي؛ لأن أصله ـ قبل أن يستقر بمصر ـ من بابل العراق، كما تقول القصة(٣).

يقول الجلدكي: "هرمس هو أبو الحكماء المنسوب إليه هذه الحكمة الشريفة"(٤). ولذلك يعتبر أصحاب الكيمياء الخفية أنفسهم فلاسفة يدرسون تاريخ العالم ومصيره، وكل ما كشفه في ماض غابر هرمسٌ الغامض(٥).

وكتب الكيمياء الخفية ملغزة فعلاً، وأحياناً يستحيل فهمها، اللهم إلا لمن صرف إليها زماناً من عمره، واعتكف على فك أحاجيها وطلاسمها. وقد جربت أن أقرأ بعضها، فوجدتها كما وصفت لك(٦). قال الجلدكي ـ بعد مدحه نظم "شذور الذهب" ـ : "لكنه اشتمل على معان خفية لا يفهمها إلا من وفقه الله تعالى لفك الرموز"(٧). ثم قال هو نفسه

---

(١) كشف الظنون، ٢/ ١٥٣٠.

(٢) L'alchimie, p 8.

(٣) طبقات الأمم، ص٥١. الفهرست لابن النديم، ص ٤١٨.

(٤) غاية السرور، ص ٢٤٩.

(٥) L'alchimie, p 9. في المبحث بعد هذا شيء عن هرمس.

(٦) انظر مثلا: رسالة ابن بشرون التي نقلها ابن خلدون في مقدمته، ص ٣٩٥ إلى ٤٠١. وكتاب غاية السرور، للجلدكي.

(٧) غاية السرور، ص ٢.



في توصية أصحابه بإخفاء هذا العلم: ".. فالحذر من التفوه به لأحد من أهل الجهالة وعصبة الخذلان، مع المبالغة في السر والكتمان لتفوز من الله بالعناية الشاملة والسعادة الكاملة"[١]. وهم يكثرون من الرمز والكناية، وقد يعبرون بالروح عن الإكسير أو الحجر الكريم، وبالجسد عن أحد المعادن السبعة. وهذه الظاهرة اشتكى منها القدماء أيضاً[٢]. ولكنها ـ على كل حال ـ مفهومة إذا وضعنا هذه الكيمياء في الإطار العام للباطنية؛ ولذلك يقول بعض أصحاب هذا الفن: العالِم مأمور بكشف علمه للناس، إلا علمنا هذا، فالشرط فيه أن لا يظهره بصريح اللفظ أبداً، لما في ذلك من المفاسد الكثيرة[٣].

ومن هذا استنبط ابن خلدون أن الكيمياء ليست بصناعة طبيعية[٤]، أي إن كانت لها نتائج فبطريق غير معتاد، كالسحر والكهانة ونحوهما.

لكن مهما قلنا في باطنية الكيمياء الخفية، فهذه تعتبر قبل كل شيء نوعاً من التقنية والعمل اللذان ينبنيان على بعض نظريات المعرفة الهرمسية[٥].

الغيب في الكيمياء الخفية:

إن هدف الكيمياء هو الحصول على الحجر المكرم.

والمشهور عند الناس ـ قديماً وحديثاً ـ أن ذلك في سبيل الذهب، لكن الغاية الكبرى فعلاً عند الكيميائيين هو أن يصير الإنسان إلى كائن آخر، وحال آخر، هو أن يتحول إلى شيء هو فوق الإنسان، أي ـ بالترجمة الشائعة ـ إلى "سوبرمان"[٦].

وهذا الحجر الكريم يمكّن الكيميائي من التواصل مع قوى السماء، ومن الانتقال السهل إلى كل مكان، إذ يصير غير مرئي للآخرين، ويكون قادراً على إدراك العلة الحقيقية والنهائية لكل شيء[٧].

ومن الواضح أن مما يسمح به هذا الحجر الكريم ـ في وهم أصحاب الصنعة ـ معرفة

---

(١) غاية السرور، ص ٣.

(٢) انظر: الفهرست، لابن النديم، ص ٤١٩. مقدمة ابن خلدون، ص٤٠١ . Encyclopaedia, article Alchimie, 1 /718.

(٣) كشف الظنون، ٢/ ١٥٣٢.

(٤) المقدمة، ص ٤٠١.

(٥) L'alchimie, p 8-9 .

(٦) L'Alchimie, p 99. وهذا التعبير ـ السوبرمان ـ هو من إبداع نيتشه، عبر به عن الرجل الذي تريد الحضارة المعاصرة أن تصنعه.

(٧) L'alchimie, p 92 .

الغيب كله: ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، فلا شيء من ذلك يخفى على السوبرمان، من حيث المبدأ.

لكن الذي يبدو لي أن الكيمياء الخفية لا تهتم بالمستقبل، ولا بمعرفته، وليس لها نظرية محددة في إدراكه، ولا تقترح أسلوباً ـ صحيحاً أو سقيماً ـ في كشفه. أعني ليس لهذه الكيمياء أي "موقف معرفي" خاص تجاه المستقبل، وإن كان لها تعلق بالغيب على العموم، بطموحها إلى بلوغ الإنسان "السوبرمان".

لهذا يظهر لي أن كلًّا من السحر والكيمياء الخفية تركتا "المستقبل" وشؤونه للتنجيم خاصة، فهذا الثالوث كما قسَّم الوجود إلى مناطق نفوذ، قسم الزمان أيضاً.

لكنني أحتفظ من الكيمياء الخفية بأمر واحد له تعلق بقضية المستقبل، وهو أمل من أهم آمالها، بل هو عند بعض المؤمنين بها أملها الأول، ذلك هو:

الخلود، أمل الكيمياء الخفية:

بل أمل البشرية منذ دهور، ولأجله غامر جلجامش، كما تقول الأسطورة السومرية منذ أربعة آلاف سنة[١].

ولقد كان "شن هوانج تي" ـ أول أباطرة أسرة شن التي حكمت الصين قبل الميلاد ـ مهووساً بهذه الرغبة العارمة في الخلود، فجمع حوله كل أنواع السحرة والعرافين والمتنبئين إضافة إلى الأطباء، وجهِد معهم في البحث عن عشبة الخلود، التي كان الاعتقاد بوجودها سائداً[٢].

ويوم ظهرت الكيمياء الخفية تحولت عشبة الخلود إلى الحجر المكرم، ولكن الأمل في الخلود هو هو، لم يتغير، فالكيميائيون المتواضعون فيما يطلبون يأملون بوجدان هذا الحجر في صحة جيدة وعمر طويل، أما الطموحون منهم فغايتهم أن يجدوا الحجر ليخلدوا أبداً. من هنا سمي هذا الحجر المطلوب بـ: إكسير الحياة[٣].

المبحث الثالث: الباطنية

الباطنية مجال واسع من مجالات النشاط الإنساني، الفكري والروحي، ولا يمكن بحال أن نحيط هنا بقضايا هذا المجال وما فيه من إشكالات وما يحيل عليه من التاريخ الفكري والديني لشعوب مختلفة، في قرون متطاولة، فالباطنية اليوم تخصص مستقل.

---

(١) راجع قصة جلجامش في: Encyclopaedia Universalis, Article Gilgamesh, 10/468.

(٢) المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٣٠٦.

(٣) L'alchime, p 92 .



ولذلك فإنني سأحاول فقط أن أقدم للقارئ فكرة عامة عن هذا الميدان، حتى يكون على بينة كافية من الرأي الذي سيقرأه لي في العلاقة بين الباطنية من جهة والغيب، خصوصاً غيب المستقبل، من جهة أخرى.

و"الباطنية" لفظ عام يشمل اتجاهات وأفكاراً وتصورات متنوعة، وتلتقي فيه ظواهر متعددة هي بمثابة الجداول التي تُكون نهراً كبيراً؛ ولذلك فإن أهم ما ينبغي أن يستصحبه القارئ طوال قراءته لهذا المبحث هو أن الباطنية ليست مجالاً دراسياً واضح المعالم، أو حقلاً معرفياً محدد القسمات، بل هو ـ بالأساس ـ أسلوب في التفكير، وشكل من أشكال النظر في الوجود[١].

بعض أهم فروع الباطنية وروافدها:

وهي كثيرة، أذكر منها باختصار، قاصداً مجرد التنبيه:

١ - **الفيثاغورية**: وأساسها الفلسفي هو أن الأرقام تمثل روح الأشياء، وهي لغة الكون، وجميع ما هو كائن أو يكون أمر مرتبط بالأرقام على اختلافها، فالرقم ٣ مثلاً يمثل الزواج، والرقم ٤ هو العدالة، وتوجد أرقام متحابة، وأخرى متباغضة، إلى غير ذلك من "باطنية رياضية"[٢]. وللمسيحيين الذين درسوا الفيثاغورية أعاجيب في رد كل شيء إلى رقم ٣، الذي "يقدسونه" لدلالته على التثليث[٣].

٢ ـ **التصوف العام**: وأعني به النشاط الروحي الداخلي والمتنوع الذي نجده عند شعوب وأديان شتى[٤]. فهذا من مصادر الباطنية، بل هما مجالان متداخلان جدًّا؛ ولذلك يجهد المختصون في التمييز بينهما[٥].

وأكثر ما يوجد هذا التداخل في نوع خاص من التصوف ـ عُرف بالغرب خاصة ـ، يمكن أن نسميه بـ: التصوف التأملي أو الإشراقي، الذي يعتمد على التخيل والرمز، ويحاول أن

---

(١) Antoine Faivre : L'ésotérisme, p 45.

(٢) انظر: Histoire de la philosophie, 1/65-66.

(٣) راجع مثلاً: Papus : Traité élémentaire d'occultisme... p 18 et après.

(٤) أسمي هذا النشاط بالتصوف العام، في غياب اصطلاح أدق. ولا حاجة إلى التنبيه على الفروق الجوهرية بين أنواع التصوف هذه، فالتصوف البوذي يختلف عن التصوف المسيحي، وهو بدوره يختلف عن التصوف الإسلامي، خصوصاً الذي تواطأ الباحثون على تسميته بالسني. والقاعدة تقتضي دائماً أن يتعامل القارئ مع المصطلحات العامة بشيء من الحذر؛ لأنها مظنة للغلط والوهم.

(٥) راجع في تفصيل هذا الفرق: L'ésotérisme, p 17-18.

يغوص في أسرار الغيب والكون، أعني ذاك الذي يسمونه بـ: Théosophie[١] .

٣ ـ الهرمسية: يقصد بهرمس شيئان: هرمس الإله، الذي تعرفه الأسطورة اليونانية[٢]. وهرمس الحكيم ـ الإنسان ـ الذي تنسب إليه مجموعة شتى من العلوم والمعارف تشكل ما يسمى بـ: المدونة الهرمسية[٣]. وهي كتابات ونصوص يونانية وضعت في بداية الألفية الأولى للميلاد[٤].

٤ ـ الغنوص والغنوصية: الغنوص معرفة متعالية على سائر المعارف الأخرى، فهي قد تستخدمها، لكنها تتعالى عنها، وموضوع هذه المعرفة هو أسرار "العالم الغيبي"، والكائنات السماوية، وإدراك العلاقات غير الظاهرة بين مختلف مستويات الوجود (مثلاً بين الخالق والإنسان والعالم)، فالغنوص هي هذه المعرفة بالذات، والتي تضمن لصاحبها سبيل الخلاص، حيث لا فرق بين الإيمان والمعرفة، فأن تعرف، معناه: أن تؤمن، وهنا يحتل الجهد الأخلاقي والعملي مكانة ثانوية[٥].

فكأن الغنوص نوع من الإرجاء الذي نعرفه في علم الكلام، أو لنقل كأن الإرجاء نفسه شكل من الغنوص القديم.

ثم ظهر ضمن عالم الغنوص تيار متميز، هو الغنوصية. وقد نشأ في القرون الأولى للمسيحية، وكان له فكرة خاصة عن الغنوص، هذه المعرفة التي تكفل لصاحبها الخلاص، وهي فكرة قائمة على رفض العالم الحالي باعتباره سيئاً تماماً، ومحكوماً بقوى الشر[٦].

٥ ـ القبلانية: هذه الكلمة أصلها عبري، وتعني اليوم مجموع المعتقدات والأفكار الباطنية والصوفية والرمزية لليهود[٧]، فهو خليط من الاتجاهات والتيارات التي يجمع بينها طابع من الخفاء والغنوص[٨] .

---

(١) انظر: L'ésotérisme, p 30 . وراجع مقال: Ency. Un. Art Illuminisme, 11/917.

(٢) راجع: La mythologie grecque, p 52-53

(٣) L'ésotérisme, p 33-34 .

(٤) راجع: L'ésotérisme, p 32.

(٥) L'ésotérisme, p 30-31. Encyclopaedia, 10/ p 535, article gnostiques .

(٦) L'ésotérisme, p 31. Encyclopaedia, 10/ p 535, article Gnostiques.

(٧) Roland Goetschel :La Kabbale, p 3 .

(٨) راجع: La Kabbable, p 5-6. . وفي هذا الكتاب دراسة مركزة ووافية لهذه الباطنية التي اختص بها اليهود، وعرفها عنهم غيرهم.



والباطنية الحديثة تستفيد من كل هذه الروافد وترجع إليها، وإلى غيرها كذلك مثل: الرواقية، والفكر المسيحي لبعض الرواد، خصوصاً كليمون الإسكندري وأورجينوس، وكذا بعض مدارس الفكر الإسلامي ورجاله[1].

من خصائص الفكر الباطني:

الباطنية طريقة خاصة في النظر إلى الأشياء؛ ولذلك تنفرد ببعض الأساليب التي تميزها عن المعرفة العادية، منها:

١ ـ التناسب والتقابل، الرمزي والحقيقي، بين جميع أجزاء الكون ـ المنظور وغير المنظور ـ، فهي ترتبط فيما بينها بروابط خفية لكنها قابلة للاكتشاف، كما ترتبط المعادن السبعة بالكواكب السبعة، وأطراف جسد الإنسان بالنجوم[2]، وهذه الفكرة لخصها الشاعر بقوله يخاطب الإنسان:

وتزعم أنك جرْم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

٢ ـ الطبيعة من حولنا أشياء وروابط تحمل كلها معاني خاصة يمكن لنا قراءتها، ولمكوناتها المتنوعة تراتبية وحياة[3].

٣ ـ وللخيال في الفكر الباطني نشاط مركزي، فهو الذي يكشف عن أنواع التناسبات في الموجودات، وبه نتعرف على الوساطات بين العالم الغيبي والطبيعة، فالخيال أداة معرفة الذات والعالم، بطريق الإشراق. وتَدين الباطنية الغربية بهذا الأسلوب الفعال ـ أي الخيال ـ إلى المسلمين[4].

٤ ـ التحول والانقلاب: هذه اللفظة المستفادة من الكيمياء الخفية تعني عدم الفصل بين المعرفة الغنوصية، وبين التجربة الداخلية القائمة على المخيلة بالأساس، وهذا شرط لإحداث التحول المطلوب في الذات والعالم[5].

٥ ـ إن لجميع الأديان والمذاهب الاعتقادية جذعاً مشتركاً تتوافق عليه وتتواطأ، وهذا

---

(١) انظر: L'ésotérisme, p 33 à 36. وراجع فيه ظروف هذه الاستفادة التي تمت خصوصاً في عهد النهضة، ص ٩ ـ ١٠. و Origène من فلاسفة المسيحية الكبار. ولد بالإسكندرية، واستقر بفلسطين. وهو يكتب باليونانية، وأهم كتبه شروحه للكتب المقدسة. توفي سنة ٢٥٤م.

(٢) L'ésotérisme, p 16-17.

(٣) L'ésotérisme, p 17.

(٤) L'ésotérisme, p 18 à 20.

(٥) L'ésotérisme, p 20.



يفرض أن نتسامح مع كل الاتجاهات المذهبية، بما أن روحها واحد[١].

٦ ـ يتم نقل المعرفة الباطنية من جيل إلى جيل بطرق معينة من قديم، قائمة على علاقة تربط بين الأستاذ وتلميذه[٢].

هذه الخصائص لا تقدم لنا الباطنية كما هي في الواقع، بل هي تقرب إلينا صورة عالم هلامي الشكل، حدوده ومضامينه متنوعة ومضطربة.

وليس ضرورياً أن تتحقق هذه الخصائص كلها في نسق من الأفكار والرؤى حتى نعتبره باطنياً، بل يكفي بعضها.

أمثلة:

* كان المذهب الإسماعيلي في التاريخ الإسلامي أهم من احتضن الفكر الباطني واعتنى به؛ ولذلك كانت كلمة "الباطنية" تكاد تعني هذا المذهب، خصوصاً في العصر العباسي الأول، وهو الذي يقصده الغزالي بكتابه "فضائح الباطنية"، المعروف أيضاً بالمستظهري[٣].

وقد عقد الغزالي فصلاً لتأويلات الباطنية للظواهر، وذكر استدلالهم بالأعداد والحروف ونسبتهم إليها دلالات خاصة، ومما قال: "هذا فن من الجهالة، اختصت به هذه الفرقة من بين الفرق، فإن طوائف الضلال مع انشعاب كلامهم وانتشار طرقهم في نظم الشبهات لم تتلطخ منهم بهذا الجنس واستَرَكّوها[٤]... فقد قالوا: إن الثقب على رأس الآدمي سبعة، والسماوات سبعة، والأرضون سبع، والنجوم سبعة ـ أعني السيارة ـ وأيام الأسبوع سبعة، فهذا يدل على أن دور الأئمة يتم بسبعة... وأن فصول السنة أربعة، فهذا يدل على الأصول الأربعة... وزعموا أن البروج اثنا عشر، فتدل على الحجج الاثني عشر...[٥] (وقالوا): الآدمي على شكل حروف محمد، فإن رأسه كالميم ورجلاه ويداه مبسوطتان كالحاء... والفصول السبعة تدل من الروحانيات على الأنبياء السبعة، ومن الجسمانيات على الكواكب السبعة... وهكذا تصرفوا في قول محمد رسول الله، وفي الحروف، وفي أوائل

---

(١) L'ésotérisme, p 21.

(٢) L'ésotérisme, p 21.

(٣) راجع في طوائف الباطنية في التاريخ الإسلامي فصلاً طويلاً عقده البغدادي لهذا الغرض في كتابه: الفرق بين الفرق، ص ٢١٣ إلى ٢٣٧.

(٤) استركوها، أي وجدوها ركيكة.

(٥) في النظام الدعوي للإسماعيلية، يأتي بعد الإمام أربعة من كبار الدعاة، وهم: الناطق، والأساس، والسابق، والتال. وهم الأصول الأربعة. وبعدهم اثنا عشر داعية، هم بمثابة نواب الإمام، وهم الحجج.



السور... وأبرزوا ضروباً من الحماقات تُضحك المجانين، فضلاً عن العقلاء"(١).

* يتكون الإنسان من ثلاثة أشياء رئيسة:

١- الجسم المادي، وأصله الأرض.

٢- الجسم النجيمي (أو الأثير)، وأصله الطبيعة.

٣- الروح(٢).

الجسم النجيمي هو "جسم" وسيط يربط بين الجسد المادي والروح، وتأثيرات النجوم في الإنسان تتم عبره(٣)، وهذا الشيء الوسيط يبعث أيضاً إشعاعاً، بسببه نتحرك في العالم بكل حرية، ونتجاوز حدود الزمان والمكان(٤).

وكل هذا يفسر أشياء مما يحدث في الواقع، ولا نعرف علته:

أ ـ توجد ظاهرة يعرفها كل أحد، فنحن أحياناً نذكر أحداً غائباً عنا، ثم فجأة يظهر ويقف أمامنا... ذلك لأننا أبصرناه في عالم الأثير أو الأجسام النجيمية(٥).

ب ـ كثيراً ما تقع بعض الاختراعات أو الاكتشافات في زمن واحد، ومن أشخاص لا يعرف بعضهم بعضاً، وربما تفصل بينهما مسافات طويلة. إننا حين نفكر ونصل إلى بعض الأفكار والآراء، فإنها لا تبقى أسيرة لرؤوسنا فقط، بل تخرج إلى عالم الأجسام النجيمية أو الكوكبية، تسبح في فضائه الواسع، وتزور ناساً كثراً، أي أن أفكارنا تنتقل في الفضاء الذي يزدحم بها(٦).

* ويقرر الباطنيون جملة هائلة من أنواع التشابه بين الإنسان ـ في روحه وجسده ـ وبين العالم: النبات والمعادن، والشموس والكواكب (انظر الصورة).. بحيث كأن الخلق كله تَمَّ على صورة واحدة. ويذكر المحدَثون منهم ـ كبابوس ـ أشياء جديدة، كالتشابه بين الكريات الحمراء ـ في دم الإنسان ـ مع المجموعة الشمسية، وكالتقابل الواضح بين عالم الذرة ـ بنواتها والإلكترونات الدائرة حولها ـ، وبين الشمس وكواكبها.

---

(١) فضائح الباطنية، ص ٦٦ إلى ٦٨.

(٢) Traité élémentaire d'occultisme et d'astrologie, p 39 .

(٣) Traité élémentaire... p 40. راجع التفاصيل في الفصل الثاني من الكتاب، وعنوانه: Le plan astral chez l'homme, 39-61

(٤) Traité élémentaire... p 53 .

(٥) Traité élémentaire... p 53 .

(٦) انظر: Traité élémentaire d'occultisme, p 201-202

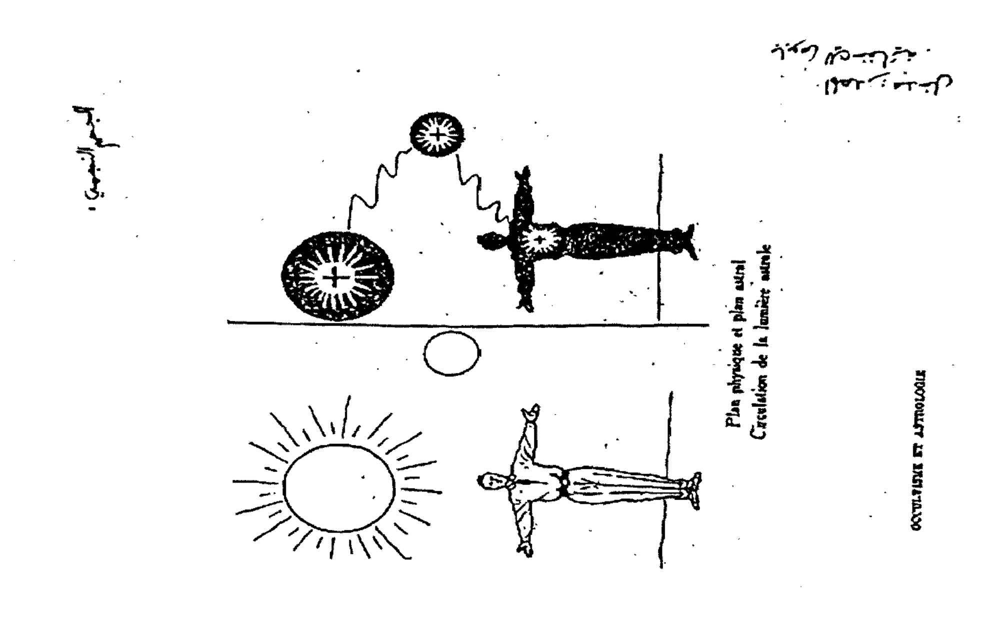
الباطنية في القرن العشرين:

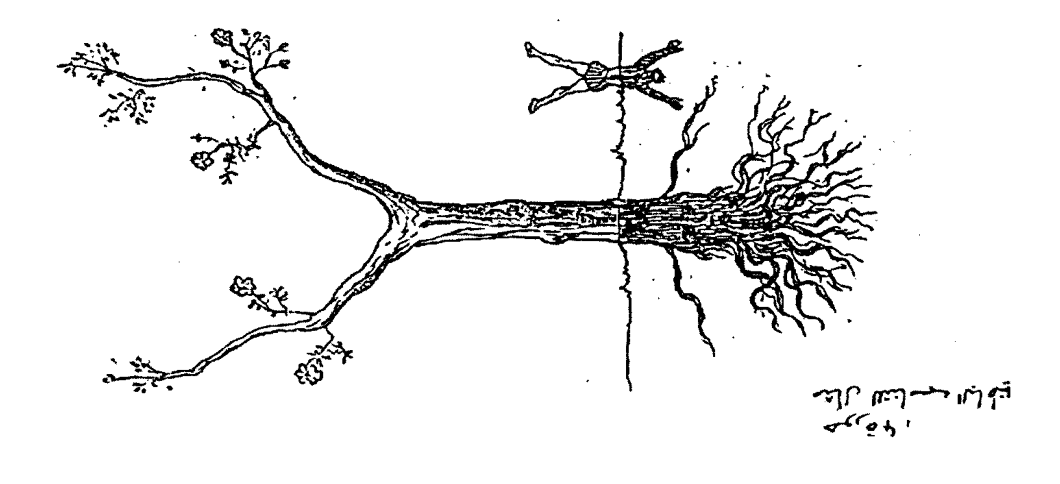
الباطنية مذهبية قائمة، ويخطئ من يظن أنها من الماضي الذي لا يعود، بل هي من الماضي الذي لم يعد؛ لأنه ما انقطع يوماً حتى يعود، فقد كان ولا يزال، وسيستمر في المستقبل المتوسط على الأقل.

في العالم الإسلامي:

مازالت الباطنية وتعاليمها حية في بعض ديار المسلمين، وذلك بطريقين:

مثال للتناسب الباطني





الأول: التشيع، تقريباً بكل فروعه، باستثناء التشيع الزيدي باليمن، وهو الأقرب إلى منهاج أهل السنة، والأسلم من البدع والتحريف.

وأخف فرق التشيع المعاصرة ـ غير الزيدية ـ تأثراً بالباطنية، هي فرقة الإمامية التي تحكم اليوم رسمياً جمهورية إيران.

وتوجد فرقتان باطنيتان من غلاة الشيعة، لكن عدد أتباعهما محدود، وهما: الدروز بلبنان وفلسطين، والطائفة النصيرية ـ وهم من غلاة الإمامية ـ بسوريا.

أما الفرقة الشيعية الباطنية بامتياز، والتي عُرفت بتاريخنا الإسلامي باسم الباطنية، فهي: الإسماعيلية، أتباع إسماعيل بن جعفر الصادق. وذلك أن جعفراً ـ رحمه الله تعالى ـ ترك أولاداً، كان إسماعيل أكبرهم، وكان الشيعة يحسبون أنه هو الإمام بعد وفاة أبيه؛ لكن الذي حدث أن إسماعيل توفي في حياة جعفر، ولذلك انقسم الشيعة إلى طائفتين رئيستين: الإسماعيلية، وقالوا: لا أثر لموت إسماعيل باكراً مادام قد خلف ذرية؛ والإمامية، وهم الذين أبوا ذلك وساقوا الإمامة بعد جعفر إلى ابنه موسى الكاظم.

وقد كانت الإسماعيلية فرقة شديدة الميل إلى الأفكار الباطنية، وعلى المستوى السياسي كان أبرز إنجازاتها هو تأسيسها لما عرف بالدولة العبيدية بمصر.

أما اليوم فيعدون بضع ملايين نسمة، يتوزعون على الهند ـ خصوصاً بنيودلهي ـ، والباكستان، وأفغانستان، وبريطانيا وأمريكا. وإمامهم هو كريم آغاخان[١].

الثاني: التصوف: أو بكلمة أدق بعض اتجاهات التصوف، خصوصاً ذلك الذي اتخذ لنفسه منحى فلسفياً و إشراقياً.

في الغرب:

باراسيلس وسويدنبرغ ودي غويتا أهم الأسماء الأوربية في باطنية العصر الحديث[٢]. ثم نشأت الإخفائية ـ وهي شكل عملي من الباطنية ـ بأوربا في نهاية القرن التاسع عشر، باعتبارها رد فعل للدوغمائية الوضعية والمادية العلموية اللتان سيطرتا على أوربا في تلك الفترة[٣].

---

(١) عن بحث لي غير منشور، عنوانه: العقيدة والإمامة والتاريخ عند الإسماعيلية.

(٢) Paracelse طبيب سويسري، اشتغل بالكيمياء الخفية، ووضع نظريته في الطب على أساس الفكرة الباطنية التي تقابل بين الكون والإنسان توفي سنة ١٥٤١ . و Emanuel Swedenborg عالم ومتصوف سويدي. اشتغل في البداية بالعلوم والرياضيات، ثم قال: إن المسيح قد ظهر له وأمره بتأسيس كنيسة جديدة، فبدأ الدعوة إلى أفكاره، خصوصاً عن طريق الكتابة. توفي بلندن سنة ١٧٧٢.

(٣) Encyclopaedia Universalis, 16/682, article occultisme.

وكان من أهم رجالها ورموزها: بابوس، وبلافاتسكي صاحب كتاب "العقيدة السرِّية"، وليفي[1]. ويعتبر كتاب طومبير: "تأملات في الاثنين والعشرين لغزاً كبيراً للتاروت"، من أهم وأفضل كتب الباطنية المعاصرة[2].

بعد الإخفائية ظهرت مدرسة باطنية هامة، وذلك في الثلاثينيات والأربعينيات، وهي مستمرة إلى اليوم، ومؤسسها هو روني كينو، فهو الذي ميز الباطنية عن الميتافيزيقيا التقليدية، وبسط قواعدها وخصائصها، وكتب فيها مستفيداً من البوذية، والهندوسية، والطاوية، والإسلام[3].

وقد انتهت رحلة التأمل والبحث بهذا الفيلسوف الفرنسي المميَّز إلى اعتناقه الإسلام سنة ١٩١٢، على يد الشيخ عبد الرحمن عليش، المعروف بعليش الكبير، من علماء مصر.

لذا يمكن أن نعتبر يحيى عبد الواحد ـ وهذا اسم روني كينو بعد إسلامه ـ شيخ الباطنية الأوربية المعاصرة، وذلك ليس فقط بسبب قيمة كتبه في هذا المجال، بل أيضاً لكثرة تلامذته وأهمية بعضهم في المجال الفكري والفلسفي[4].

هذا عن الباطنية الصرفة، وتوجد بالغرب تيارات وجمعيات وكنائس كثيرة، ليست حركات باطنية خالصة، ولكنها تستلهم الفكر الباطني، وتتأثر به، فهو من مصادرها الاعتقادية والسلوكية. ومنها:

١ ـ **الماسونية**: وتعد بفرنسا مائة ألف عضو، وبأمريكا أربعة ملايين، وهي تركز الآن بعض جهودها لاسترجاع نفوذها بأوربا الشرقية، بعد انهيار الشيوعية بها، حيث وصلوا إلى اكتساب عشرة آلاف عضو[5].

---

(١) انظر: L'ésotérisme, p 29-30. Encyclopaedia 16/683, art occultisme. الأول هو: La doctrine secrète de: H. B Blavatsky، والثاني هو Eliphas Lévi، راهب وكاتب فرنسي. استقال من وظائفه الكنسية، وتفرغ لأعمال الإخفائية والروحية الحديثة. من كتبه: كتاب الحب. إنجيل الحرية. أعمال الفلسفة الإخفائية. توفي سنة ١٨٧٥.

(٢) L'ésotérisme, p 103، و Valentin Tomber (١٩٠١-١٩٧٣)، مؤرخ وكاتب.

(٣) Article ésotérisme, in : Encyclopaedia Universalis, 8/685 .

(٤) Article ésotérisme, in : Encyclopaedia Universalis, 8/685-686 .

أما René Guénon ففيلسوف فرنسي درس بعمق الباطنيات الهندية والمسيحية والإسلامية، وأسس مجلة "الغنوص"، ثم تحول إلى الإسلام، وتَسمى بـ: عبد الواحد. توفي رحمه الله تعالى بالقاهرة سنة ١٩٥١. من كتبه: أزمة العالم المعاصر. الميتافيزيقيا الشرقية. المدخل.

(٥) راجع المجلة الشهرية "العالم السياسي": Le Monde Diplomatique, article : A l'Est, le retour des francs-maçons, p 11, Avril 2000.



٢ ـ **جماعة "أوبوس داي"**، أي "عمل الإله". وقد تأسست بإسبانيا في بداية الستينيات، لكنها اليوم تعرف بعض التراجع، فبعد أن كانت توجد بعشرات البلدان الغربية واللاتينية، أصبح لها وجود وانتشار فعليان في نحو اثني عشر بلداً. ومركزها الأهم هو إسبانيا، حيث كانت تسيطر ـ بصفة مباشرة وغير مباشرة ـ على نحو "خمس السلطة"، في الحكومة السابقة لرئيسها السيد خوسي ماريا أثنار[١].

٣ ـ **كنيسة التوحيد**، أو طائفة مون، نسبة إلى المؤسس مون سان ميانغ، وقد ولد هذا الرجل بكوريا الشمالية سنة ١٩٢٠، حيث ظهر له ـ أثناء صلاته ـ المسيح عليه السلام سنة ١٩٣٦، وأخبره أن "المخلص الثاني" سيَحُلُّ به، فمون اليوم يعتبر نفسه مثيلاً للمسيح، واكتسب أنصاراً كثيرين، باليابان، والكوريتين، وروسيا، وأمريكا... وأصبح لهذه الطائفة تأثير سياسي حقيقي في تلك المنطقة[٢].

والمقصود أن الباطنية حاضرة اليوم، وبقوة؛ ولذلك تأسست بالولايات المتحدة سنة ١٩٨٠ "الأكاديمية الهرمسية"، المتخصصة في البحوث الباطنية، وهي تضم مائة وخمسين باحثاً مختصًا[٣].

الباطنية والمستقبل:

لا تقْنع الباطنية بالعالم الظاهر الذي نعرفه؛ ولذلك ترنو إلى عالم آخر، غائب عن أنظارنا، تريد أن تعرفه وتتصل أو تتحد به.

ولهذا كان للغيبيات، على اختلاف أنواعها، وسواء كانت موهومة أو حقيقية، وجود هامٌّ في الباطنية.

لذلك تختلط في الباطنية أمور الغيب وقضايا التنبؤ به ـ وبالمستقبل خاصة ـ بالأفكار والمفاهيم الباطنية المحضة.

وربما كان من أسباب هذا الاختلاط تعدد روافد الباطنية، فإن منها التنجيم، والكيمياء الخفية، والسحر[٤]...

والتنجيم بالخصوص ـ ووظيفته الكبرى هي التنبؤ بالمستقبل ـ هو عند بعض الباطنيين

---

(١) Article : Résurrection de l'Opus Die en Espagne, in : le Monde Diplomatique, Juillet 1996, p 3 .

(٢) راجع المقال الطويل عن هذه الكنيسة الجديدة في: Le Monde Diplomatique, avril 1996, article « Les .étranges affinités de la secte Moon »

(٣) L'ésotérisme, p 4 .

(٤) L'ésotérisme, p 11 .



المفتاح الأهم للأسرار الأساسية للباطنية[١]، وعليه يقوم أيضاً السحر الاحتفالي، وقسم كبير من الهرمسية؛ ولذلك ينصح بابوس كل من يريد الاطلاع على العلوم القديمة بدراسة التنجيم أولاً[٢].

ومنذ عهد بابل اعتمد التنجيم الأساس ذاته الذي جعلته الباطنية أحد مفاهيمها الأهم، أعني فكرة انسجام الكون وتناغم مكوناته كلها، وتناسبها بعضها مع بعض[٣].

ولهذا أقول: إن الباطنية ليست عقيدة تتعلق بالمستقبل، ولا فنًّا للتنبؤ به، ولا تقدم طريقة خاصة لاستشرافه... هي لا تدَّعي شيئاً من هذا.

فالغنوصية - مثلاً - ليست أسلوباً لإدراك المستقبل، بل هي النجاة بالمعرفة، وإن كانت تدعي القدرة على الوصول إلى عالم الغيب القائم الآن، ولهذا أختلف مع بول الذي اعتبر أن غاية الإخفائية - وهي شكل هام من الباطنية - هي التنبؤ بالمستقبل، فحصرَها في هذا المجال[٤].

ولكن الباطنية - بالمقابل - بيئة خصبة جدًّا لمختلف فنون التنبؤ بالمستقبل، وأرضية مناسبة لها، بحيث لكل أساليب التنبؤ - تقريباً - مكان ووجود في عالم الباطنية.

ومن ذلك أن الباطنيين اليهود - أعني القبلانيين - كانوا يستعملون أساليب التفرس وقراءة الكف لانتقاء المرشحين للانضمام إليهم[٥].

وفي التاريخ الإسلامي كان بعض الباطنية يستعمل حساب النجوم لإدراك أشياء عن المستقبل[٦].

ولعل من أفضل الأمثلة لهذا الاختلاط بين الباطنية وأساليب التنبؤ بالمستقبل، وبالغيب عموماً، كتاب "التاروت"، والذي يمثل كذلك أساساً لفرع باطني خاص، فهذا الكتاب هو في الوقت ذاته أداة للتنبؤ والتكهن، وفلسفة باطنية خاصة[٧].

نحتفظ إذن من هذا المبحث بهذه الفكرة الرئيسة:

الباطنية - تاريخياً - هي إحدى أهم المجالات المعرفية والروحية التي احتضنت كثيراً من فنون التنبؤ بالمستقبل ورعَتْها واستعملتها، ودورها - من هذه الناحية - يشبه دور الكهانة في التاريخ قبل الميلاد.

---

(١) Papus : Traité élémentaire d'occultisme et d'astrologie, p 268.

(٢) Traité élémentaire d'occultisme et d'astrologie, p 271.

(٣) Encyclopaedia Universalis. 3/282, Article astrologie.

(٤) راجع: Marcel Boll : L'occultisme devant la science, p 127-128, 131

(٥) La Kabbale, p 24-25.

(٦) راجع الفرق بين الفرق، ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٧) Le Tarot والكتاب هو L'Alchimie, p 23.

المبحث الرابع: الروحية الحديثة، أو استحضار الأرواح

هذا المذهب شكل آخر من ادعاء الاتصال بعالم الغيب، بل هو من أحدث هذه الأشكال ظهوراً، ونظراً لأهميته اليوم وكثرة أتباعه وانتشارهم في كل مكان، فقد خصصت له هذه الصفحات، للكشف عنه وبيان علاقته بالشأن المستقبلي.

البداية:

بداية هذا المذهب كانت مع أسرة فوكس حين ظهرت بمنزلها بعض الظواهر الغريبة، كسماع أصوات، وخُطى، وطرقات على الأبواب ونحو ذلك، مما يعود إلى عام ١٨٤٧م[١].

عقب ذلك بدأ الاهتمام بهذا الموضوع، وانطلق البحث فيه، حتى جاء كاردك فدشَّن مذهباً واضح المعالم، وكَتَب: "كتاب الأرواح"، سنة ١٨٥٧م[٢]، وهو شكل من إنجيل الروحية الحديثة.

الوضع الحالي:

منذ ذلك التاريخ كثُر المهتمون بهذا المذهب الجديد، وانتشر أتباعه، وتواصلوا فيما بينهم، ونظموا أنفسهم في جمعيات ومؤسسات.

في سنة ١٩٢٧م ـ مثلاً ـ قُدِّر عدد معتنقي هذا المذهب ببضعة ملايين في العالم، لهم حوالي ١٥٠ مجلة وصحيفة. وفي الستينيات كان هذا العدد بفرنسا وحدها يقدر بمليون إنسان[٣].

وبين معتنقي هذه "الروحية الحديثة" شخصيات كبيرة ورفيعة المستوى، من سياسيين وعلماء وباحثين وتجار ورجال الكنيسة[٤]؛ ولذلك يقول بول: إن هذه الروحية كانت ستبقى مجرد "شعوذة أو طِيَرة" لولا أن بعض الأكابر آمنوا بها ودعموها[٥].

واليوم يعد الأتباع بالملايين، في الأرجنتين وحدها مليونان، وفي البرازيل خمسة

---

(١) (الروحية الحديثة، أو استحضار الأرواح) Yvonne Castellan :Le Spiritisme, p 7.

(٢) الكتاب هو: Le livre des esprits. والكاتب هو: Allan Kardec، فرنسي، من أهم مؤسسي الروحية الحديثة.

(٣) Le Spiritisme, p 87.

يعتمد في هذه التقديرات على بعض العوامل، مثل: عدد المشتركين بالمجلات المتخصصة في فن "استحضار الأرواح"، وعدد الذين يحضرون المؤتمرات والندوات الخاصة، ونحو ذلك. ويضاف إليهم عدد آخر ممن يؤمن بهذا المذهب، ويحضر بعض جلساته، ويكون ذلك في دائرة خاصة وضيقة، فلا يعرف. انظر: Le spiritisme, p 88.

(٤) راجع: Le Spiritisme, p 7 à 11.

(٥) Quelques sciences captivantes, p 148 .



ملايين، خصوصاً بالطبقات الوسطى؛ ولهذه الروحية كنائسها وجمعياتها ومستشفياتها ومكتباتها . . . أما مجلاتها فلا تُعد[١].

تقديم عام:

إن الاعتقاد في وجود مخلوقات أخرى عاقلة غير الإنسان، اعتقاد قديم جدًا، لا يعرف له تاريخ، وهو يكاد يكون عاماً في كل الشعوب[٢]. وعندنا ـ نحن المسلمين ـ عرف الإنسان هذه العقيدة منذ آدم عليه السلام، أبونا الأول، وهذه المخلوقات تسمى بالأرواح أو الجن أو الشياطين ونحو ذلك. فهذا شيء لا تنفرد به الروحية الحديثة، وإنما هي تنفرد بتصورها الخاص لهذا العالم: عالم الأرواح، وهذه هي أهم ملامح هذا التصور:

مكونات الإنسان ثلاثة: الروح، والجسد، وجسم وسيط يربط بينهما، يسمونه périsprit، ويمكن أن نسميه بـ "الغشاء المائع"، وهو جوهر لطيف جدًا، لا يخضع للقوانين الفيزيائية الأرضية، وهو مصدر الطاقة بالإنسان، ونوع من السائل أو التيار الحيوي الذي هو بدوره جزء من التيار الحيوي للكون كله[٣].

ولعل القارئ لاحظ أن هذا "الجسم" الوسيط يعادل عند الباطنيين الجسم، أو الغشاء النجمي[٤].

حين يموت الإنسان يسقط الجسد ويندثر، لكن الروح تبقى، وتقوم بالجسم الوسيط.

وهذا الذي يبقى من الإنسان ـ أعني مجموع الأمرين ـ هو الذي يسميه أرباب المذهب بـ: Esprit[٥]. ولست أدري كيف أترجم هذا المصطلح الخاص، فإن لفظة الروح غير دقيقة، بما أنها لا تدل أيضاً على هذا الجسم الوسيط، (وهم يسمون الروح بـ: âme) لكنني مؤقتاً أترجم هذه الكلمة Esprit بـ: الطيف.

وتثبت الروحية أيضاً أرواحاً أخرى، هي طوائف ثلاثة:

الأرواح الشريرة، وهي ما يقابل ـ نسبياً ـ الشياطين عند غيرهم.

الأرواح الخيِّرة، أي ما يسميه أصحاب الأديان السماوية بالملائكة.

---

(١) Le spiritisme, p 120-121. مقال عن البرازيل Article : Emotion du pauvre au Brésil, d'Andie Corten, in : Le Monde diplomatique, Mars 1996, p 26. ومن أهم المراكز الفرنسية لهذا المذهب (الاسم والعنوان): Centre Spiritualiste de France, ou Maison des Spirites, 8, rue Copernic, Paris 16.

(٢) Eléments de sociologie religieuse, p 49-50.

(٣) Le Spiritisme, p 12.

(٤) Le Spiritisme, p 76 "الجسم" النجمي: Plan astral ou corps astral

(٥) Le Spiritisme, p13.

ثم الخالصة، وهي نوع خاص من الأرواح الخيِّرة[١].

والروحية تتعامل مع الأطياف الإنسانية، فهي المقصودة، لا أرواح الطوائف الثلاثة، وذلك وفق الأسس التالية:

١ ـ الروحية مذهب ينبني على الاعتقاد بوجود آخر غير المادة، أي بوجود روحي.

٢ ـ إن الأطياف تظهر وتحضر عندنا. (وهي لا تبرز لنا بذواتها، لكن بآثارها وأعمالها، فهي غير مرئية).

٣ ـ وهي أيضاً تفيدنا وتعلمنا، فهي تعرف جيداً المصير النهائي للإنسان، بما أنها انتقلت إلى عالم آخر[٢].

لكن شرط بروز هذه الأطياف وظهورها لنا واتصالها بنا هو وجود الوسيط Médium، فهو واحد من الأحياء يكون له استعداد خاص لربط اتصال الأطياف بالناس، وعن طريقه يجيب الطيف عن أسئلتنا، أو يحرك شيئاً، أو يفعل فعلاً، وبدونه لا يقوم شيء من ذلك[٣]. ولا تؤمن الروحية الحديثة بتناسخ الأرواح[٤].

تتميز جلسة استحضار الأرواح بأنها تنعقد بغرفة شبه مظلمة، حيث الوسيط بجانب منها، بينما الحاضرون يشكلون نصف دائرة، يشبكون أيدي بعضهم مع بعض، ثم يأخذ الوسيط في الدخول في حالة من شِبه الغيبوبة كتلك التي تحدث لكاهنة البيثيا، وقد وصفتها في كتابي عن الكهانة، فلتراجع هناك، وحين تتمكن هذه الحالة الخاصة بالوسيط تبدأ "الأرواح" في إظهار بعض الأحداث، وهي في الأكثر: أصوات غريبة، وكلام، وطرقات، وأشياء ثقيلة ـ كالطاولات والمكاتب ـ ترتفع عن الأرض، وأخرى تنتقل في الهواء بين شهود الجلسة، وأخبار عن أمور حادثة، ومثل ذلك[٥]. وهذه الجلسة قد تطول لساعات.

---

(١) Le Spiritisme, p 48 à 49 .

(٢) Le Spiritisme, p 13-14 .

(٣) Le Spiritisme, p 22.

(٤) تناسخ الأرواح عقيدة هندوسية تقول: إن الموت هو عبارة عن انتقال روح الإنسان إلى جسد آخر، إن كانت خيرة فهو جسد إنسان أفضل، وإن كانت خلاف ذلك، ففي جسد حيوان، ولهذا يقدس الهندوس بعض الحيوانات، فلا يأكلونها ولا يتعرضون لها بطرد أو ذبح. انظر في اختلاف مذهبي التناسخ والاستحضار: Le spiritisme, p 110 à 115، وراجع دليل هوسرل Husserl الفلسفي في خطأ عقيدة التناسخ: L'Au-Dela, p 117، وفي الموقف الإسلامي: الفرق بين الفرق، ص ٢٠٣. المواقف وشرحها ٢/ ٦٧٦ إلى ٦٨١.

(٥) راجع: Le Spiritisme, p 15 à 21. تشبه بعض الظواهر السحرية القديمة في العالم اليوناني ـ الروماني أحداثاً تقع في استحضار الأرواح، انظر: Les Grecs et l'irrationnel, p 283.

رأي الكنيسة الكاثوليكية:

تعترف الكنيسة بصحة كثير من الظواهر التي تحدث في جلسات استحضار الأرواح، لكنها تفسرها بأنها من أعمال الشياطين لا أطياف الموتى. ولذلك فإن الكنيسة ترفض "الروحية الحديثة" رفضاً قاطعاً[(١)].

ولا يمكن أن يكون للكنيسة رأي آخر، فهذه ـ كما يقول كاستيلان ـ اعتبرت أن زمن الوحي الغيبي انتهى مع غياب المسيح عليه السلام، بينما يكاد أصحاب الاستحضار يذهبون إلى أنه بدأ سنة ١٨٤٧م، في منزل فوكس[(٢)]. يعني أن الكنيسة لا يمكن أن تقبل أي مصدر للإخبار عن عالم الغيب يجيء بعد المسيح.

آراء المفكرين المسلمين في "استحضار الأرواح":

هذا موضوع حديث، ولا يبدو أن علماءنا في الماضي تعرضوا له، لكن ربما قرأ الناظر في كتاب مثل "تاريخ الأدب العربي" أن للفيلسوف الكندي رسالة في استحضار الأرواح[(٣)]، وهذا مجرد تطابق لفظي؛ لأن المقصود به استحضار الجن. ذكر حاجي خليفة أن من العلوم: "علم استنزال الأرواح واستحضارها في قوالب الأشباح، وهو من فروع علم السحر. واعلم أن تسخير الجن أو المَلَك من غير تجسدها وحضورها عندك يسمى علم العزائم، بشرط تحصيل مقاصدك بواسطتهما، وأما حضور الجن عندك وتجسدها في حسك يسمى علم الاستحضار"[(٤)].

خلود الروح ومستقرها:

الموت في الإسلام ليس تحولاً إلى العدم، بل هو تغيير حال، فالأجسام تفنى، إلا عَجْب الذنَب ففيه خلاف[(٥)]، بينما الروح لا تموت. قال الشيخ السبكي في الروح بعد ذكره لكلام بعض الفلاسفة:

"وأما المشرعون فقد أطبقوا على أنها باقية بعد مفارقة البدن، فإن ذلك ممكن كما قلناه، وقد دلت الشرائع على وقوعه، ولا أعلم بين الشرائع خلافاً في ذلك... فهذا ما يجب اعتقاده. واستقراء الشرائع والكتب المنزلة وآيات القرآن والأخبار المتكاثرة التي لا يمكن تأويلها ويقطع بالمراد منها ما يدل على بقاء النفوس بعد مفارقة البدن، و لا يشك في ذلك

---

(١) انظر: التفاصيل في: Le Spiritisme, p 105 à 109.

(٢) Le Spiritisme, p 15. والكاتب Yvonne Castellan مختص في ميدان الباراسيكولوجيا، ويكتب بالفرنسية.

(٣) كتاب بروكلمان، ٤/ ١٣٠.

(٤) كشف الظنون، ١/ ٨٠.

(٥) فتاوى تقي الدين السبكي، ٢/ ٦٣٦.

أحد من أهل الإسلام لا عالم ولا عامي"[1].

ومما يدل على حياة الروح: حديث النبي ﷺ إلى قتلى بدر من المشركين، فقد روى أنس بن مالك أن رسول الله ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: "يا أبا جهل ابن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة! أليس وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا". فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يسمعوا وأنَّى يجيبوا وقد جيَّفوا؟ قال: "والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا". ثم أمر بهم فسحبوا، فألقوا في قَلِيب بدر[2].

وقال النبي الكريم أيضاً: "إن الميت إذا دفن سمع خفق نعالهم إذا ولَّوا عنه منصرفين"[3].

ويترشح أيضاً من الأحاديث أن الروح تعود إلى قبر الميت وقت السؤال، ولذلك تَعلم بزيارة الأحياء وسلامهم. ثم اختلف المسلمون في مستقر الأرواح فيما بين الموت إلى يوم القيامة، وأهم أقوالهم في الموضوع:

إن الأرواح تكون في الجنة، أو بفِنائها، أو على أفناء القبور، أو في برزخ من الأرض، أو في السماء، أو في مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها (وهو عالم الذر)[4]. وقد رجح ابن تيمية القول الأول[5]، بينما اختار تلميذه ابن القيم أن الأرواح أصناف، بحسب صلاحها في الدنيا أو عدمه، فمنها ما يكون في السماء، ومنها ما يكون في الجنة... في كل موضع مما ذكروه توجد بعض الأرواح. وبهذا تلتئم الأدلة[6].

---

(١) فتاوى تقي الدين السبكي، ٢/ ٦٣٧. وانظر كتاب الروح، لابن القيم، ص ٤٩ فما بعدها. وعلي بن عبد الكافي، أبو الحسن تقي الدين السبكي، عالم مشارك في علوم الدين واللغة. ولد بسبك من أعمال المنوفية بمصر. تفقه على والده وولي قضاء الشام. توفي بالقاهرة سنة ٧٥٦هـ. من تصانيفه الكثيرة: شرح المنهاج للنووي، في الفقه الشافعي. الدر النظيم في تفسير القرآن العظيم. الفتاوى، وقد جمعها ابنه تاج الدين. من معجم المؤلفين، ٧/ ١٢٧.

(٢) أخرجه البخاري: ١٣٧٠، ومسلم: ٢٨٧٣، ٢٨٧٤، وأحمد: ١٨٢. واللفظ لمسلم.
ومعنى جيفوا أي أنتنوا وصاروا جيفاً. والقليب البئر المطوية بالحجارة.

(٣) رواه الطبراني عن ابن عباس، وقال السيوطي في الجامع الصغير، ١/ ٣٢٦: حديث حسن.

(٤) راجع: الروح، لابن القيم، ص ١٠ وما بعدها، ثم ص٢٦ فما بعدها، ثم ص ٥٨ فما بعدها، ثم ص ١٢٥ فما بعدها.

(٥) انظر: الفتاوى ٤/ ٢٢٤ إلى ٢٢٦. وراجع التمهيد لابن عبد البر، ٢٠/ ٢٣٨.

(٦) الروح، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.



والظاهر أن أرواح الموتى المنعمين تتلاقى فيما بينها، وقد تتلاقى مع أرواح الأحياء، لكن في المنامات فقط.

رأيان في مذهب الاستحضار:

الأول: تصحيح هذا المذهب.

والشيخ طنطاوي جوهري من أهم من قال بالتصحيح، حتى إنه وضع كتاباً خاصاً في هذا المذهب، وتكلم فيه في مواضع متعددة من تفسيره[1]. فهو حين فسَّر قصة موسى عليه السلام مع قومه في أمر القتيل الذي ذبحوا له بقرة، قال: "وأما علم تحضير الأرواح فمن هذه الآية استخراجه"[2].

واستدل للاستحضار بآيات أخرى، مثل إحياء الله سبحانه لرجل بعد موته: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]. وإحياء الطير لسيدنا إبراهيم (انظر سورة البقرة، آية ٢٦٠)، وبقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾[3] [البقرة: ٢٤٣]. وقال الشيخ: "إن الكلام مع الموتى الآن أكبر آية أنزلها الله للناس لما فسدت العقائد"[4].

ويضاف تأييد الروحية الحديثة إلى الأستاذ فريد وجدي أيضاً. لكن الذي وجدته فيما كتبه في الموضوع لا يفيد أنه صحَّح الاستحضار تصحيحاً كاملاً. قال: "جمهور العلماء المشتغلين بهذه المباحث مجمعون على صحة الحوادث الروحية... فمال الأكثرون إلى تصديقها في التأكيد بأنها أرواح الموتى، بعدما رأوا بالأدلة على ذلك ما يعد بالألوف، وهم بعد أن رأوا ظهور الروح مجسدة بشكل الميت وهيئته وصوته وكيفية تحيَّته وأسلوبه في كلامه وعلمه تمام العلم بحالة عائلته وجزئياتها، بل وتذكيره لأهله أشياء كانت غائبة عن ذاكرتهم، بعد أن رأوا هذا سلموا بأن تلك الأرواح التي تجسدت هي أرواح الموتى حقيقة. وأما القسم الثاني فقد اعتقد كما قلنا بظهور تلك الأجساد حقيقة، ولكن علق حكمه عليها من حيث إنها أرواح الموتى أو أشخاص عالم آخر ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، ونحن مع هذا القسم نعلق حكمنا عليها حتى نزداد بها علماً، والله يهدينا سواء السبيل"[5].

---

(١) انظر: الجواهر في تفسير القرآن الكريم، ٩/ ٤٧ إلى ٥١. ١٠/ ١٠ إلى ١٢. الشيخ طنطاوي جوهري، مصري، من علماء الأزهر، وعمل مدرساً بمدرسة العلوم، وقد عاش بالنصف الأول من القرن العشرين.

(٢) جواهر القرآن، ١/ ٨٤. والقصة في سورة البقرة، آية ٦٧.

(٣) جواهر القرآن، ١/ ٨٩.

(٤) جواهر القرآن، ٤/ ١٠٥.

(٥) دائرة معارف القرن العشرين، لفريد وجدي، ١/ ٢٥١ ـ ٢٥٢، مقال "اسبرتيزم"، أي استحضار الأرواح. =

وربما مأخذ من نسب الروحية إلى فريد وجدي هو أنه ما كان عليه أن يتوقف في مسألة أن هذه الأرواح ليست بأرواح الموتى.

الثاني: إبطال الروحية الحديثة:

ويظهر لي أن هذا القول هو رأي الأكثرية الساحقة من علمائنا المعاصرين.

يقول الشيخ ابن باز: "لقد تأملت هذا الموضوع كثيراً فاتضح لي أنه علم باطل وأنه شعوذة شيطانية يراد منها إفساد العقائد والأخلاق والتلبيس على المسلمين والتوصل إلى دعوى علم الغيب في أشياء كثيرة"[1].

وهذه هي العناصر الأساسية التي تشكل موقف الجمهور الواسع:

١ ـ إن قسماً كبيراً من جلسات التحضير مجرد حيل للوسيط الذي يتقن الشعبذة، وقد يكون بين شهود الجلسة متواطؤون معه[2].

وقد بين بعض النقاد الغربيين هذا الأمر جيداً. فمارسيل بول مثلاً يشرح كيف أن الظروف العامة للاستحضار ملائمة للتدليس، فالجلسة تكون في الظلام، والتصوير يُمنع، كما يُمنع لمس الشبح أو الطيف، والوقت الذي تستغرقه الجلسة طويل، كما أن الوسيط عادة يكون شخصية نادرة المثال، فهو يتمتع بالقوة والصبر، مع كونه كفؤاً في أمور الشعوذة[3].

٢ ـ إن الأرواح لا تعود بحال إلى الدنيا، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

وفي الحديث السابق حين كلَّم النبي ﷺ قتلى بدر من المشركين، ذكر أنهم يسمعون ولكنهم لا يستطيعون جواباً.

قال ابن باز: "هذا هو الذي عليه السلف من أن أرواح الأموات باقية إلى ما شاء الله وتسمع، ولكن لم يثبت أنها تتصل بالأحياء في غير المنام، كما أنه لا صحة لما يدعيه المشعوذون من قدرتهم على تحضير أرواح من يشاؤون من الأموات ويكلمونها ويسألونها، فهذه ادعاءات باطلة"[4].

= ومحمد فريد بن مصطفى وجدي توفي سنة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م. عالم وكاتب. ولد بالإسكندرية، وتوفي بالقاهرة. عمل بالصحافة فأصدر مجلة الحياة، ثم جريدة الدستور... وتولى تحرير مجلة الأزهر وإدارتها. له ١٤ مؤلفاً منها: على أطلال المذهب المادي. الإسلام دين عام خالد. الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان. صفوة العرفان في تفسير القرآن. عن معجم المؤلفين ١١/١٢٦.

(١) مقال "حكم ما يسمى بعلم تحضير الأرواح"، ضمن "مجموع فتاوى ومقالات متنوعة" لابن باز، ٣/٣٠٩.

(٢) انظر: عالم الجن والشياطين، لعمر الأشقر، ص ٩٠، وفيه مثال لهذا الغش، ص ٩٣ فما بعدها.

(٣) Quelques Sciences captivantes, p 158..., 167.

(٤) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، ٣/٣١١.



٣ ـ وقد يكون في جلسات تحضير الأرواح بعض الصدق، بمعنى أنها ليست جميعاً مجرد حيل وشعوذة. وهنا تكون الأرواح المستحضرة هي الجن والشياطين، فهي التي تجيب وتحرك بعض الأشياء وتفعل الأمور التي ينقلها أصحاب الروحية الحديثة. فهذا شكل جديد من أشكال الاستمتاع المتبادل بين الإنس والجن الذي أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

٤ ـ وهنا إشكال، وذلك أن أصحاب الاستحضار لاحظوا أن ذلك الطيف الذي يزورهم يعرف بعض المعلومات الصحيحة عن الميت، وهذا أحد أهم الأسباب التي أقنعتهم بأن الذي يتصل بهم هو روح الميت فعلاً.

جواب هذا الإشكال عند علمائنا: أن ذلك الجن الذي يجيب بمعلومات صحيحة هو قرين الميت، أي شيطانه الذي صاحبه في حياته[1]، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقال: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧]. وذلك لأن لكل إنسان قرينين: واحد من الملائكة، وآخر من الشياطين، كما قال النبي ﷺ: "ما منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة". قالوا: وإياك يا رسول الله. قال: "وإياي، ولكن الله أعانني عليه، فلا يأمرني إلا بحق"[2]. والقرين يعرف بعض الأشياء عن الميت، لطول مصاحبته له.

يقول الأستاذ مصطفى محمود: "لا أعتقد في صحة هذا الخبر: خبر تحضير الأرواح، ولا أعتقد أن ما يحضر في الجلسات هي الأرواح، إنما الذي يحضر هو الجن، أو القرين، إنه الجن الملازم للإنسان طول حياته وبعد موته. بحكم الله الجنّ مُعمّر، فهو يعيش أكثر من ألف سنة، وهو بحكم ملازمته للإنسان يستطيع أن يقلد صوته ويحكي أسراره"[3].

رايي في الموضوع:

يظهر لي أن "الروحية الحديثة" تمثل الميدان الغربي لدراسة عالم الجن، أعني أن ثقافتنا المتعلقة بالجن يقابلها عند الغربيين ثقافة الأرواح والأطياف، ويبدو أن الموضوع

---

(١) راجع: فتاوى ومقالات متنوعة، ٣/٣١٢. "عالم الجن والشياطين"، للأشقر، ص ٩٦، ٩٩، ١٠٢.

(٢) أخرجه مسلم: ٢٨١٤ (٦٩)، وأحمد: ٣٦٤٨، واللفظ له.

(٣) أورده صاحب "السحر وتحضير الأرواح"، ص ٤٨. ومصطفى محمود كاتب في الفكر الإسلامي من مصر. ولا أدري مستنده في قوله إن الجن يعمر ألف سنة.

واحد، الأسماء فقط هي التي تختلف؛ ولهذا فكثير مما يقولونه عن الأرواح يشبه ما عندنا عن الجن، مثل مسألة لبس الجني للإنسي(١).

لكن الغربيين أرادوا التوسع في دراسة هذا العالم، حتى إنهم حاولوا إدخال كثير من الظواهر التي يعتقد أنها منه في المختبرات.

ومن جهة أخرى، لا أظن أن كل الظواهر التي سجَّلتها "الروحية الحديثة" ولاحظتها، ذات علاقة بالجن، بل أقول: يغلب على ظني أن بعضها كذلك.

ومن الجائز أن يكون من بين هذه الظواهر ما يعود إلى أسباب أخرى، ليست بالضرورة غيبية، وإن كان يحتمل أنها كذلك.

ولهذا يبدو لي أن موقف "الباراسيكولوجيا" المعاصرة سليم حين أقرت بهذه "الأرواح" وقدمت ـ مع ذلك ـ تفسيراً للأحداث الروحية، بمقتضاه تكون هذه الأحداث ـ أو بعضها ـ من آثار مقدرة بشرية غير معروفة جيداً، وهذه المقدرة لا تظهر إلا بشروط خاصة وفي أقلية من الناس، نسميهم بـ: الوسطاء(٢).

الإخبار بالمستقبل في الروحية الحديثة:

مما لوحظ عن الوسطاء ـ في جلسات استحضار الأرواح ـ أن الأطياف حين تُسأل عن عالمها الغيبي، والمفروض أنها تعرف عالم ما بعد الموت، لا تقدم شيئاً مفيداً ودقيقاً، هي تتكلم فقط عن الظلمة والحال المضطربة التي تزعم أنها تعيش فيها، ولا شيء مما تقول يتوافق مع المعتقدات الدينية المشهورة(٣).

إذن فهي لا تفيدنا شيئاً هامًّا يتعلق بالحاضر المحجوب عنا، أي بالغيب الحالي، مع العلم أن أكثر إخبارات هذه الأطياف تكون عن غيب حاضر.

لهذا يظهر لي أن التنبؤ بالمستقبل لا يحتل حيزاً هامًّا في هذا المذهب، فهو لا يقترح طريقة معينة لمعرفة الآتي. نعم، قد يورد حكايات تتضمن التنبؤ، لكن ذلك يأتي عَرضاً، ولا تدعي الروحية الحديثة أنها تستطيع إنتاج التنبؤ متى أرادت. يقول السيد الجميلي: "الذي نلاحظه في حالة الوسيط أنه يجيب على الأسئلة التي توجه إليه إذا كان المحضر أو صاحب

---

(١) انظر في هذا الموضوع :. Le spiritisme, p 24 et après

وقارن بـ: فتاوى ابن تيمية، ١٩/ صفحات: ١٢، ٤٥، ٤٦، ٦٠ إلى ٦٢. مقال ابن باز "إيضاح الحق في دخول الجني في الإنسي، والرد على من أنكر ذلك"، ضمن "مقالات وفتاوى متنوعة"، ٣/ ٢٩٩.

(٢) راجع: .Le spiritisme, p 90 à 95 وسيأتي بعض التفصيل في الفصل الثاني.

(٣) L'Au-délà, p 101 وقارن بـ: Le spiritisme, p 50



السؤال حاضراً ويعرف الإجابة عليه سلفاً، كأن يكتب ورقة ويطلب من الوسيط قراءتها. أما إذا كان في الورقة استطلاع شيء في المستقبل فإنه.. يتأرجح في الإجابة كأرجحة ذهن السائل عن مستقبله"[١].

إذن موضوع التنبؤات ليس غائباً تماماً عن الروحية الحديثة، وهذا المؤسس كاردك من كتبه: "التكوين، والمعجزات، والتنبؤات، وفق الروحية الحديثة"[٢]. لكن موضوع المستقبل عند هؤلاء ثانوي، والذي يشغلهم أكثر هو:

أولاً: الظواهر الفيزيائية، كتحريك الطاولات، وارتفاع الوسيط عن الأرض، والأصوات الغريبة... ونحو ذلك.

وثانياً: مساءلة هذه الأرواح أو الأطياف عن أحوالها وشؤونها.

هذا هو الأساس في الروحية الحديثة. أما الإخبار بالغيبيات فموضوع أقل أهمية، وحين يوجد يكون الإخبار عن المغيب الحاضر أكثر من الإخبار عن المستقبل.

وهذه التنبؤات بالمستقبل ـ حين تكون في جلسات الاستحضار ـ لها مصدران محتملان:

١ ـ إما أنها من الشياطين، وهذا على مذهب الجمهور في رد الظواهر الروحية إلى عمل الجن، وهنا يكون هذا التنبؤ كهانة، وهذا هو السبب في أن بعض علمائنا اعتبر "الروحية الحديثة" شكلاً من الكهانة[٣]، وهذا الرأي لا يستقيم إلا مع المذهب القائل باستمرار الكهانة بوسيط إلى نهاية الدنيا.

٢ ـ وإما أنها من الوسيط نفسه، وهذا بدوره يكون قد اختلقها اختلاقاً واضحاً ومتعمداً، أو ذكرها بناء على قدرة بشرية محتملة في التواصل مع الغيب المقبل.

المبحث الخامس: الخط وعلم الرمل

تعريف عام:

هو علم يعرف به الاستدلال على أحوال المسألة ـ حين السؤال ـ بأشكال الرمل، وهي اثنا عشر شكلاً على عدد البروج[٤]، فهو يجيب عن الأسئلة المتعلقة بالغيب والمستقبل[٥].

---

(١) في كتابه: السحر وتحضير الأرواح، بين البدع والحقائق، ص ٤١.

(٢) صدر هذا الكتاب في يناير سنة ١٨٦٨: La Genèse, les miracles et les prédictions, selon le spiritisme.

(٣) مثلما فعل عبد الرحمن بن زيدان في كتابه: قراضة العقيان، ص ٢٠، وعبد الحي الكتاني، وأحمد سكيرج، وعبد القادر بدران في تقاريظهم على الكتاب، ص ٣٣، ٤١، ٤٣.

(٤) كشف الظنون، ١/ ٩١٢.

(٥) انظر: الأصول والوصول في علم الرمل، لعبد الفتاح الطوخي، ص ١٩ ـ ٢٠.

قال ابن خلدون ـ بعد أن أشار إلى المنجمين، ونحوهم من المتنبئين ـ : "... ومن هؤلاء قوم من العامة استنبطوا لاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سمَّوها خط الرمل، نسبة إلى المادة التي يضعون فيها عملهم، ومحصول هذه الصناعة أنهم صيَّروا من النقط أشكالاً ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيهما، فكانت ستة عشر شكلاً... ميَّزوها كلها بأسمائها وأنواعها إلى سعود ونحوس، شأن الكواكب، وجعلوا لها ستة عشر بيتاً طبيعياً بزعمهم، وكأنها البروج الاثني عشر التي للفلك، والأوتاد الأربعة. وجعلوا لكل شكل منها بيتاً وحظوظاً ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به، واستنبطوا من ذلك فنًّا حاذوا به فن النِّجامة ونوعَ قضائه، إلا أن أحكام النجامة مستندة إلى أوضاع طبيعية كما قال بطليموس، وهذه إنما مستندها أوضاع تحكمية وأهواء اتفاقية، ولا دليل يقوم على شيء منها، ويزعمون أن أصل ذلك من النبوات القديمة في العالم، وربما نسبوها إلى دانيال، أو إلى إدريس ـ صلوات الله عليهما ـ شأن الصنائع كلها... فإذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو رمل أو دقيق، فوضعوا النقط سطوراً على عدد المراتب الأربعة، ثم كرروا ذلك أربع مرات، فتجيء ستة عشر سطراً ثم يطرحون النقط أزواجاً، ويضعون ما بقي من كل سطر ـ زوجاً كان أو فرداً ـ في مرتبته على الترتيب، فتجيء أربعة أشكال يضعونها في أسطر متتالية، ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض، باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذي بإزائه، وما يجتمع منهما من زوج أو فرد فتكون ثمانية أشكال موضوعة في سطر، ثم يولدون من كل شكلين شكلاً تحتهما باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضاً من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها، ثم يولدون من الأربعة شكلين كذلك تحتها، ثم من الشكلين شكلاً كذلك تحتهما، ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول شكلاً يكون آخر الستة عشر، ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعودة والنحوسة، بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك، تحكماً غريباً. وكثرت هذه الصناعة في العمران، ووضعت فيها التآليف، واشتهر فيها الأعلام من المتقدمين والمتأخرين"[1].

وهذه البيوت الستة عشر تكون دورية متصلة، ومن ثم يكون وضعها على شكل دائرة، تسمى دائرة التسكين، كل دائرة منها طالب ومطلوب لغيره، ودال في نفسه ومدلول لغيره. ولبعضها مشاركات ومناظرات، ولها سعودات ونحوسات، وامتزاج وطبائع وحالات. ولكل من ذلك أحكام مخصوصة وإشارات منصوبة، ولكل بيت اسم خاص به، ويدل على

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٨٥ ـ ٨٦.



حال محددة، وذلك على الترتيب: البيت الأول يختص بالنفس والروح. والثاني بابتداء الأمور، المال والكسب، الحركة، والإخاء، العاقبة، والآباء، الأفراح، والبنون، الأمراض والأسقام، الأزواج، والفراش، الموت والمخاوف، الرحيل والسفر والانتقال، الأحكام والمناصب، والأرزاق، وزيادة العمر والجاه، الآمال والرجاء، الضد والعداوة، السر والسؤال، المطلوب والمسؤول عنه، ميزان الرمل، وعاقبته(١).

وقد كان علم الرمل من جملة ما استفاده الأوربيون من المسلمين الذين اشتهروا به عندهم(٢).

استدلال أصحاب الرمل بحديث الخط:

وهؤلاء يصححون صناعتهم هذه ويحتجون على مشروعيتها بحديث السُّلمي، قال: قلت يا رسول الله: ومنا رجال يخطون. قال: "كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك". فهذا دليلهم الأهم(٣)، ولذلك خصصت له هذه الدراسة المختصرة:

نص الحديث:

هذا الحديث جزء من حديث رواه معاوية بن الحكم السُّلمي، وأوله فيه أمر يخص الصلاة علّمه له النبي ﷺ، ثم قال معاوية: يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان. قال: "فلا تأتهم". قال: ومنا رجالاً يتطيرون. قال: "ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنهم". قال: قلت: ومنا رجالاً يخطون.

---

(١) عن مخطوط: المقاصد الأنورية في القواعد الرملية، ص ٦٠ إلى ٦٢، لعبد القادر بن عبد القادر الحسيني الأدهمي، نزيل المدينة. وانظر: الأصول والوصول في علم الرمل، ص ٥٤ فما بعدها.

(٢) Belline : Encyclopédie des arts divinatoires, p 133.

(٣) مخطوط: المقاصد الأنورية، ص ٦٠. فتوى ابن رشد في "الخط" المطبوعة بعنوان "الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الخط، لما روي في ذلك من أحاديث ووجه تأويلها"، ص ٢٣. هذه الفتوى طبعت ضمن كتاب "فتاوى ابن رشد الجد"، ١/ ص ٢٤٩ إلى ٢٦١، والذي حققه المختار بن طاهر التليلي، وصدر عن دار الغرب الإسلامي. وقد استخرج السيد مشهور حسن سلمان هذه الفتوى، وعلق عليها وخرج أحاديثها، ونشرها مستقلة، ولذلك فضلت الاعتماد على رسالة مشهور سلمان، عوض الرجوع مباشرة إلى كتاب فتاوى ابن رشد.

وقد ذكر آخرون أن أصحاب الرمل يستدلون بالحديث، منهم: ابن خلدون في المقدمة، ص ٨٥. أما أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، ففقيه مالكي كبير. توفي ببلده سنة ٥٢٠هـ. من تصانيفه: المقدمات لأوائل كتب المدونة. البيان والتحصيل. مختصر مشكل الآثار للطحاوي.عن معجم المؤلفين، ٨/ ٢٢٨. ويقال له أحياناً ابن رشد الجد تمييزاً له عن حفيده ابن رشد الفيلسوف.

قال: "كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطَّه فذاك". ثم للحديث تتمة هو خبر جارية السلمي، حين قال لها النبي ﷺ: "أين الله" فقالت: في السماء. وهو مشهور.

وهذا الحديث رواه مسلم في الصحيح، في كتاب المساجد، حديث رقم ٣٣. وفي كتاب السلام، حديث ١٢١. ورواه أبو داود في الصلاة، وفي الطب، باب ٢٣. والنسائي في كتاب السهو، باب ٢٠. وأحمد في مسند الصحابي المذكور. واللفظ الذي ذكرته هو لمسلم في باب: تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، من كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

درجته:

فالحديث إذن صحيح؛ لأن الأصل في أحاديث مسلم أن تحمل على الصحة، وزعم ابن رشد الجد وأبو بكر بن العربي أن هذا الحديث لا يصح[1]، ولم يعللا ذلك من حيث السند، وردَّ ذلك محمد القرطبي بقوله: بل "هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السُّلمي، أخرجه مسلم"[2].

رواية أخرى:

وفي مسند الإمام أحمد قال: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنا صفوان بن سليم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمان، عن ابن عباس ـ قال سفيان: لا أعلمه إلا عن النبي ﷺ ـ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]، قال: الخط[3].

فهذا فيه إشكال من حيث رفعه إلى النبي ﷺ؛ لأن سفيان الثوري لم يجزم به. وذكر القرطبي أن النحاس أسنده عن ابن عباس عن النبي الكريم ﷺ، وصحح هذا السند[4]، لكن من طرق أخرى أصح أن ذلك من قول ابن عباس، فالله سبحانه أعلم أي ذلك كان[5].

ولهذا سيتفرع كلامي الآن إلى قسمين: الكلام على الحديث المذكور، ثم على آية: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]. والبداية بالحديث؛ لأنه أقوى أدلة أهل الرمل.

---

(١) "الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الخط"، ص ٤٢. أحكام القرآن، ٤/ ١٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ١٢٠، أول الأحقاف. ورواه أيضاً أحمد عن أبي هريرة بسند رجاله ثقات، كما في مجمع الزوائد، ٥/ ١١٧.

(٣) مسند الإمام أحمد، المجلد الأول، في مسند ابن عباس. "أثرة" قراءة جماعة، وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ١٢٠.

(٥) راجع التخريج الواسع لمشهور سلمان لهذا الخبر في: "الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب..."، ص ٣١ إلى ٣٣.



تأويلات العلماء للحديث:

ولأهل العلم ـ من صحح منهم الحديث، أو لم يصحح ـ تفسيرات شتى له، وهذا أهم ما ذكروه منها:

١ ـ معنى الحديث: إباحة الضرب بالخط؛ لأن بعض الأنبياء كان يفعله[١]، فيكون المقصود بقوله: "فمن وافق خطه فذاك" أي: من أصاب ذلك فقد أصاب[٢].

٢ ـ وقال آخرون ـ وربما هم الأكثرون ـ : بل الحديث ورد في النهي عن الخط، ولهم مذاهب في الكشف عن دلالة النهي في الحديث:

أ ـ قال ابن العربي: إنما أفاد الحديث تحريم الخط؛ لأن النبي ﷺ قال: "فمن وافق خطَّه فذاك"، و"لا سبيل إلى معرفة طريق النبي المتقدم فيه، فإذاً لا سبيل إلى العمل به.

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وحقيقته عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب، فيدل ما يخرج منها على ما تدل عليه تلك الكواكب من سعد أو نحس يحل بهم، فصار ظنًّا مبنًيا على ظن، وتعلقاً بأمر غائب قد درست طريقه، وفات تحقيقه، وقد نهت الشريعة عنه، وأخبرت أن ذلك مما اختص الله به، وقطعه عن الخلق، وإن كانت لهم قبل ذلك أسباب يتعلقون بها في درك الأشياء المغيبة، فإن الله قد رفع تلك الأسباب، وطمس تلك الأبواب، وأفرد نفسه بعلم الغيب، فلا يجوز مزاحمته في ذلك، ولا يحل لأحد دعواه. وطلبه عناء لو لم يكن فيه نهي، فإذ قد ورد النهي فطلبه معصية أو كفر بحسب قصد الطالب"[٣].

فالمعنى باختصار أن خط ذلك النبي صحيح، ومن خطَّ فوافق خطَّ النبيِّ فقد أصاب، لكن كيف يمكن للواحد منا أن يعرف أنه وافق فعلا خط النبي. فلما تعذر معرفة ذلك، منع الشارع الخط من أصله، حسماً للباب وسدًّا للذريعة. قال الخطابي: "وأما قوله: "فمن وافق خطه فذاك" فقد يحتمل أن يكون معناه الزجر عنه إذا كان من بعده لا يوافق خطه ولا ينال حظه من الصواب؛ لأن ذلك إنما كان آية لذلك النبي، فليس لمن بعده أن يتعاطاه طمعاً في نيله. والله أعلم"[٤].

وقال النووي: "الصحيح أن معناه: من وافق خطه فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح. والمقصود أنه حرام؛ لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس

---

(١) أحكام القرآن، لابن العربي، ٤/ ١٢٥.

(٢) المعلم، للمازري، ١/ ٢٧٥.

(٣) أحكام القرآن، ٤/ ١٢٥.

(٤) معالم السنن، ٤/ ٢١٥. وانظر: المعلم، للمازري، ١/ ٢٧٥.

لنا يقين بها، وإنما قال النبي ﷺ: "فمن وافق خطه فذاك" ولم يقل: هو حرام، بغير تعليق على الموافقة، لئلا يتوهم متوهم أن هذا النهي يدخل فيه ذاك النبي الذي كان يخط، فحافظ النبي ﷺ على حرمة ذاك النبي، مع بيان الحكم في حقنا؛ فالمعنى أن ذلك النبي لا منع في حقه، وكذا لو علمتم موافقته، ولكن لا علم لكم بها"(١).

وقال ابن خلدون: "معنى الحديث: كان نبي يخط يأتيه الوحي عند ذلك الخط. ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء، فمن وافق خطه ذلك النبي فهو ذاك، أي فهو صحيح من بين الخط بما عضد من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط، وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجرداً من غير موافقة وحي فلا. هذا معنى الحديث والله أعلم"(٢).

وهو أيضاً رأي الشوكاني(٣).

ب ـ وحمل ابن رشد الجد معنى الحديث على الإنكار، لا الإقرار بأي وجه كان، قال: "إن معنى قول النبي ﷺ: "فمن وافق خطَّه عَلِم"، الإنكار لا الإخبار؛ وذلك أن الحديث خرج على سؤال سائل سمع أن نبيًّا من الأنبياء كان يخطُّ، فاعتقد صحة معرفة المغيبات من جهة الخط على ما كانت تعتقده العرب، فأجابه ﷺ بكلام معناه الإنكار لاعتقاده، والإنباء أن ذلك من خواص ذلك النبي ومعجزاته الدالة على نبوته... ومثل هذا في القرآن وفي السنن... كثير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ۝١٤ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤ ـ ١٥]. فظاهر هذا الكلام الأمر بعبادة ما شاؤوا من دون الله، والمراد به النهي عن ذلك والوعيد عليه..."(٤).

وقال أيضاً: إن في بعض روايات الحديث أن بعض أمور الوحي كانت تأتي لذلك النبي بطريق الخط، فلو كان الخاطُّ اليوم يوافق خط النبي، لكان مشاركاً له في علمه ونبوته(٥). فالخط ـ إذن ـ علم خصَّ الله به ذلك النبي، و"جعل له فيه علامات على أشياء من المغيبات، وعلى ما يأمره به من العبادات، كما جعل فور التنور علامة لنوح على حلول الغرق لقومه، وكما جعل فقد الحوت علامة لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ على لقاء الخضر"(٦).

وقال ابن عطية: "ظاهر الحديث تقوية أمر الخط في التراب، وأنه شيء له وجه إذا

---

(١) المنهاج، شرح صحيح مسلم، ٥/ ٢٣. (في باب تحريم الكلام في الصلاة).

(٢) المقدمة، ص ٨٥.

(٣) نيل الأوطار، ٧/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

(٤) "الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الخط"، ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٥) المرجع السابق: ص ٤٥ ـ ٤٧.

(٦) المرجع السابق: ص ٤٧.

وفِّق أحد إليه. وهكذا تأوَّله كثير من العلماء"[1]، ومنهم: الخطابي، وابن العربي، والنووي... ثم قال:

"وقالت فرقة: بل معناه الإنكار، أي أنه كان من فعل نبي قد ذهب، وذهب الوحي إليه والإلهام في ذلك، ثم قال: فمن وافق خطه، على جهة الإبعاد، أي أن ذلك لا يمكن ممن ليس بنبي ميسر لذلك، وهذا كما يسألك أحد فيقول: أيطير الإنسان؟ فتقول : إنما يطير الطائر، فمن كان له من الناس جناحان طار، أي أن ذلك لا يكون"[2].

آراء المفسرين في آية الأحقاف، بناء على الحديث السابق:

قال عزَّ من قائل: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ١ - ٤].

المعنى الإجمالي:

معنى هذه الآيات على العموم: أن الله تعالى يقول: ما خلقنا السماوات والأرض على وجه العبث والباطل، بل خلقنا ذلك إلى مدة معينة، لا تزيد ولا تنقص، والذين كفروا لاهون عما يراد بهم، وسيعلمون مآل ذلك، ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي لا شرك لهم في السماوات ولا في الأرض، فكيف تعبدون مع الله غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا ودعاكم إليه؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي: هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أي: دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي لا دليل لكم نقلياً ولا عقلياً على ذلك[3].

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾:

وفيه أقوال:

الأول: لعبد الله بن عباس، وجماعة من السلف منهم: مجاهد وأبو بكر بن عياش[4].

---

(١) المحرر الوجيز، ١٥/٩، أول الأحقاف.

(٢) المحرر الوجيز، ١٥/١٠.

(٣) عن تفسير ابن كثير، ٤/١٨٢.

(٤) انظر الروايات عنهم في: جامع البيان، ٢٦/٣. وراجع أيضاً: المحرر الوجيز، ١٥/٩. مفاتيح الغيب، ٢٨/٦. تفسير ابن كثير، ٤/١٨٣.

ودليل هؤلاء الرواية السابقة لسفيان الثوري عن ابن عباس، فقد فسر الأثارة بالخط، وقال: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾، خط كان يخطه العرب في الأرض.

قالوا: المقصود بالآية: "علم الخط، وهو الضرب في التراب لمعرفة الكوائن في المستقبل، أو فيما مضى مما غاب عن الضارب"[1]. فكأنه تعالى يقول للمشركين: "ائتوني بعلم بأن آلهتكم خلقت من الأرض شيئاً، وأن لها شركاً في السماوات، من قبل الخط الذي تخطونه في الأرض، فإنكم معشر العرب أهل عيافة وزجر وكهانة"[2]. قال الرازي: "إن صح تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من باب التهكم بهم وبأقوالهم ودلائلهم، والله تعالى أعلم"[3].

الثاني: ليس المقصود بالأثارة الخط، وهو قول من ردَّ الحديث خاصة. قال ابن العربي: "﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾، يعني أو علم يؤثر، أو يروى وينقل، وإن لم يكن مكتوباً، فإن المنقول عن الحفظ مثل المنقول عن الكتب"[4].

وقيل أيضاً: معنى ذلك أو خاصة من علم. وقيل: أو علم تثيرونه فتستخرجونه. وقيل: أو ببيِّنة من الأمر[5].

الثالث: معنى الأثارة: بقية من علم، على المصدر، كالشجاعة، وهي البقية من الشيء كأنها أثرة[6]. قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الأثارة: البقية من علم؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب... (و) جاز أن تكون تلك البقية من علم الخط، ومن علم استثير من كتب الأولين، ومن خاصة علم كانوا أوثروا به..."[7].

وهذا تفسير ابن رشد، واختاره ابن كثير، وعليه اقتصر أبو السعود، فقال: "﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم العبادة". وكذلك قال القاسمي[8].

وبهذا يظهر أن الاستدلال بالآية على مشروعية الخط لا يتم إلا بتصحيح الحديث وترجيح معناه الظاهري.

---

(١) أحكام القرآن، لابن العربي، ٤/ ١٢٤.

(٢) جامع البيان، ٢٦/ ٣.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٦.

(٤) أحكام القرآن، ٤/ ١٢٤.

(٥) جامع البيان، ٢٦/ ٣. المحرر الوجيز، ١٥/ ٩.

(٦) المحرر الوجيز، ١٥/ ٩.

(٧) جامع البيان، ٢٦/ ٣.

(٨) "الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الخط"، ص ٥٠. تفسير ابن كثير، ٤/ ١٨٣. إرشاد العقل السليم، ٥/ ٦٢. محاسن التأويل، للقاسمي، ١٥/ ٥٣٣٨.



هل الخط المذكور في الحديث هو علم الرمل؟

وهذا ـ في نظري ـ أهم سؤال في الموضوع، وذلك لأننا لوعدنا إلى تفسير ابن عباس وبعض علماء اللغة ـ كابن الأعرابي ـ، للخط الوارد في الحديث، فإننا نجدهم يصفونه هكذا:

"يقعد الحازي ويأمر غلاماً له بين يديه فيخط خطوطاً على رمل أو تراب، ويكون ذلك منه في خفة وعجلة، كي لا يدركها العد والإحصاء، ثم يأمره فيمحوها خطين خطين، وهو يقول: ابنَي عيان أسرعا البيان. فإن كان آخر ما يبقى منها خطان فهو آية النجاح، وإن بقي خط واحد فهو الخيبة والحرمان"(١).

وهذا الأسلوب البسيط يخالف علم الرمل الذي هو صناعة أكثر تعقيداً، ورغم ذلك نقل ابن الأثير عن بعضهم أنه قال: "الخط المشار إليه علم معروف، وللناس فيه تصانيف كثيرة وهو معمول به إلى الآن، ولهم فيه أوضاع واصطلاح وأسام وعمل كثير، ويستخرجون به الضمير وغيره، وكثيراً ما يصيبون فيه"(٢). فساوى بين الخط والرمل.

والمقصود أنا لو فرضنا أن الخط كان علماً لنبي سابق، كما هو ظاهر الحديث، كان يَستدل به على بعض المغيبات، فليس لنا سبيل إلى معرفة هذا العلم؛ لأنه لم ينقل إلينا عن ذلك النبي بطريق متصل، صحيح أو سقيم، ولم ينقله إلينا نبينا الخاتم ولم يعرفنا به، وليس بين أيدينا قواعد تسمح لنا بأن نكتشفه من جديد أو نستنبطه، فكيف نقول: إن ما كتبه الناس من كتب تحت اسم "علم الرمل" أو "الأوفاق".. هو بعينه علم ذلك النبي؟

فهذا كقول من قال: التنجيم من علوم إدريس عليه السلام.

المبحث السادس: الاستقسام بالأزلام

ورد الاستقسام بالأزلام في القرآن الكريم في موضعين: قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣]. وورد في موضع آخر مقرونا بالميسر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]. ثم إنَّ بين الميسر والاستقسام شبهاً؛ ولذلك لابد من كلمة عن الميسر.

الميسر:

كان عرب الجاهلية يطلقون لفظة الميسر في الغالب على المقامرة بالأقداح لاقتسام

---

(١) معالم السنن، ٤/ ٢١٤ ـ ٢١٥. النهاية في غريب الحديث، ١/ ٣٣٨. المعلم، ١/ ٢٧٥. عون المعبود، ١٠/ ٤٠٥. دليل الفالحين، ٤/ ٥١٥. المفصل ٦/ ٧٨٣.

(٢) النهاية، ١/ ٣٣٨.

الجزور بطريقة خاصة، ثم إن الإسلام أطلق لفظ الميسر على جميع ضروب القمار[1]، قال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، [البقرة: ٢١٩]. وكان المتقامرون ـ وهم الأيسار، جمع يسر ـ سبعة في الأكثر، يأخذ كل واحد قدحاً، فيجتمعون ليلاً في نادي القوم، وقد أوقدوا ناراً تهدي المحتاج، ويختارون "الرقيب"، ومهمته إدارة جلسة القمار ومراقبتها. ويؤتى بالحرضة، وهو الرجل المكلف بتقليب السهام في "الخريطة" ثم دفعها من فمها، فيخرج سهم واحد، يأخذه الرقيب فيعلن الفائز الذي يأخذ نصيبه ويعتزل. والخريطة وعاء من الجلد، مثل كنانة سهام الرمي، توضع فيها القداح[2]. وموضوع الميسر هو الجزور، أي الإبل، وكانوا ينحرون النوق في الأكثر، فمن خسر أدّى ثمن الناقة، ثم تركها للفقراء، ولهذا كان الميسر في الغالب لعبة شتوية، حين يحتاج الناس إلى الطعام[3]. وكان العرب يتفاخرون بذلك.

ونظام الميسر ينبني على قاعدة الغنم بالغرم[4]. وهذا مثال: المقامرون سبعة: "أ" ... إلى "ز". وثمن الجزور ٧٢ ديناراً. إذا خرج "ب"، "ج"، "هـ" فائزين، ومجموع حظوظهم: ٢، ٣، ٥، أي عشرة حظوظ، وبذلك تم الميسر، فهنا يكون الغرم على: "أ"، "د"، "و"، "ز". ونسبة مغارمهم: ١، ٤، ٦، ٧. فيغرمون هكذا: أ: ٤ دنانير. د: ١٦. و: ٢٤. ز: ٢٨[5].

قِدَاح الميسر:

يقال للواحد من قداح الميسر قدح، وسهم، وزلم، وقلم، وهي عبارة عن عيدان تتصف بالمتانة واللين، تمَلَّس، وتجعل سواء في الطول، ويخالفون فيما بينها بالأشكال.

وتكون هذه القداح صغيرة، ولها رأس صغير[6]، وهي نوعان، مجموعها عشرة:

---

(١) معالم التنزيل، ١/ ٢٥٢. آية البقرة". الميسر والأزلام: دراسة تاريخية اجتماعية أدبية، ودعوة إلى إصلاح اجتماعي"، لعبد السلام محمد هارون، ص ١٢ ـ ١٤. وراجع: مفاتيح الغيب، ٦/ ٤٩ ـ ٥٠. إرشاد العقل السليم، ١/ ١٦٧.

(٢) معالم التنزيل، ١/ ٢٥٢. مفاتيح الغيب، ٦/ ٥٠. التحرير والتنوير، ٢/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨. الميسر والأزلام، ص ٣٣، ٤٠، ٤٢ فما بعدها.

(٣) معالم التنزيل، ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣. المحرر الوجيز، ٢/ ١٦٢، ٥/ ٢٨، المائدة ٣. مفاتيح الغيب، ٦/ ٥٠. مدارك التنزيل، ١/ ١٠٩. الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٤٠. الميسر والأزلام، ص ٢٢، ٤٢.

(٤) معالم التنزيل، ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣. إرشاد العقل السليم، ١/ ١٦٧. الميسر والأزلام، ص ٤٣.

(٥) المثال عن: الميسر والأزلام، لعبد السلام هارون ص ٤٧.

(٦) معالم التنزيل، ١/ ٢٥٢. التحرير والتنوير، ٢/ ٣٤٧. الميسر والأزلام، ص ٣٤.

١ ـ قداح الحظ: وهي الفذ، والتوأم، والرقيب، والحِلس، والنافس، والمسبل، والمعلى. وهذه الأقداح تتدرج في الحظ، من الواحد للفذ، إلى سبعة حظوظ للمعلى. وكلما اختار المقامر قدحاً حظوظه عالية، كان غُنمه أكبر إن ربح، وغُرمه أثقل إن خسر(١).

٢ ـ القداح التي لا حظَّ لها، وهي الوغد، والسفيح، والمنيح. فهذه مثل القداح السابقة تماماً، غير أنها خالية من العلامات؛ ولذلك تسمى أيضاً: الأغفال. وخروجها في المقامرة كلا شيء(٢).

معنى الأزلام والاستقسام:

الأزلام جمع زُلَم، وهو السهم، أو القدح، بمعنى قطعة من غصن مشذبة، لا ريش لها ولا نصل. وسميت هذه الأقداح بالأزلام؛ لأنها زلِّمت، أي سوِّيت(٣). وكان أبو رافع مولى النبي ﷺ ممن يصنعها في الجاهلية.

أما الاستقسام فهو طلب القسم، أي ما يقسم للإنسان ويقدر. قال الطبري ـ في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ [المائدة: ٣] ـ : أي "وأن تطلبوا علم ما قسم لكم أو لم يقسم بالأزلام"(٤). وفيه وجه آخر ذكره الجصاص: أي "إلزام أنفسهم بما تأمرهم به القداح، كقسم اليمين"(٥).

قال ابن عاشور: "كان العرب، كغيرهم من المعاصرين، مولعين بمعرفة الاطلاع على ما سيقع من أحوالهم، أو على ما خفي من الأمور المكتومة، وكانوا يتوهمون بأن الأصنام والجن يعلمون تلك المغيبات، فسولت سدنة الأصنام لهم طريقة يموهون عليهم بها فجعلوا أزلاماً"(٦).

اختلاف العلماء في الأزلام، هل هي أزلام الميسر، أم أخرى؟

قال القرطبي: الأزلام قداح الميسر(٧). لكن قال الشيخ هارون: "الراجح المعتمد أن

---

(١) معالم التنزيل، ١/ ٢٥٢. المحرر الوجيز، ٢/ ١٦٨. مفاتيح الغيب، ٦/ ٤٩. مدارك التنزيل، ١/ ١٠٩. الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٤٠. الميسر والأزلام، ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) معالم التنزيل، ١/ ٢٥٢. المحرر الوجيز، ٢/ ١٦٩. مفاتيح الغيب، ٦/ ٤٩. مدارك التنزيل، ١/ ١٠٩. الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٤٠. الميسر والأزلام، ص ٣٩.

(٣) معالم التنزيل، ٣/ ١١. التحرير والتنوير، ٦/ ٩٦. صحيح البخاري، باب ١٠ من كتاب التفسير، سورة المائدة. الميسر والأزلام، ص ١٧، ٦٧.

(٤) جامع البيان، ٦/ ٤٢. وانظر: مدارك التنزيل، ١/ ٢٧٠. الميسر والأزلام، ص ٥٥.

(٥) أحكام القرآن، ٢/ ٣٩١.

(٦) التحرير والتنوير، ٦/ ٩٦.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٤٠.



المراد بالأزلام في الكتاب العزيز ضرب آخر من القداح يستعمل في أغراض أخرى غير الميسر... ويرجح ذلك:

١ ـ أنها ذكرت في الآية الأولى بعد (النُّصب) فهناك علاقة بين هذه الأزلام وبين الأنصاب.

٢ ـ وفي الآية الثانية ذكر الميسر، ثم ذكرت الأنصاب، ثم الأزلام، ولو كانت الأزلام والاستقسام بها شيئاً هو الميسر لما ذكرت في الآية مرة ثانية، أو لذكرت بعد الأزلام مباشرة على طريق الترادف أو نحوه"[١]. وهذا قول كثير من علماء اللغة وأهل التفسير، وهو أيضاً ظاهر الأحاديث التي ذكر فيها الاستقسام بالأزلام، وأن ذلك لغاية الاستخبار عن الغيب... ولذلك ينسب هذا القول إلى الجمهور[٢].

أزلام الاستقسام:

يختلف الرواة في عدها، ومن نماذج هذه المرويات: الأزلام ثمانية، كتب على كل واحد منها إحدى هذه العبارات: افعل. لا تفعل. نعم. لا. خير. شر. بطيء. سريع.

وكان في بعض الأزلام: صريح، وفي الآخر: ملصق. وهذا خاص بأمور النسب. وفي أخرى: افعل. لا تفعل. والزلم الثالث غفل. أو: أمرني ربي. نهاني ربي... فالأزلام أنواع من قدحين إلى ثمانية[٣].

يقول عبد السلام هارون: "واختلاف الروايات في ذلك يدلنا على أن العرب ما كانوا يلتزمون في صناعة الأزلام نهجاً معيناً يقسرون عليه أنفسهم، وإنما كان لكل كاهن من كهانهم، ولكل حكم من حكامهم طريقة خاصة فيما يكتب على أزلامه من الإشارات، كما يدل على أن لكل قضية من قضايا الاستفتاء أزلاماً خاصة بها تناسبها وتنهض لها"[٤].

ومن أمثلة استعمال الأزلام قصة استقسام عبد المطلب ـ جد النبي ـ في مسألة النذر الذي نذره.

---

(١) الميسر والأزلام، ص ٥٦ والشيخ عبد السلام محمد هارون من أبرز علماء العربية في القرن العشرين، وحقق كتباً كثيرة من نفائس التراث ـ مثل الحيوان للجاحظ ـ، ولذلك يقال له شيخ المحققين، رحمه الله تعالى.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، ٢/ ١٨. المحرر الوجيز، ٥/ ١٨٢. فتح الباري، ٩/ ١٦٠. الميسر والأزلام ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٣) معالم التنزيل، ٣/ ١١ ـ ١٢. المحرر الوجيز، ٥/ ٢٧ ـ ٢٨. الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٤٠. تفسير ابن كثير، ٢/ ١٧. التحرير والتنوير، ٦/ ٩٧. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٧٧٧ فما بعدها. فتح الباري ٩/ ١٥٩ ـ ١٦٠. الميسر والأزلام، ص ٦٧.

(٤) الميسر والأزلام، ص ٧٠.



أغراض الاستقسام:

الأزلام أنواع، بحسب مواضيع الاستشارة، بحيث كان ـ تقريباً ـ لكل موضوع زُلَم خاصٌ به، وهذه أهم المواضيع:

١- السفر، خصوصاً أنه كان للتنقل في الصحراء مخاطر من الطبيعة، ومن فعل البشر، ولهذا زلمان، في أحدهما الإذن بالسفر، وفي الآخر النهي عنه[١].

٢- التجارة[٢].

٣- النسب، وكان العرب إذا شكُّوا في نسب مولود أو رجل استقسموا بالأزلام[٣].

٤- الحرب[٤].

٥- التحكيم، في حالة الخصومة، كما في دية القتيل[٥].

٦- الحفر عن المياه الباطنية[٦].

٧- الزواج، والختان، والبناء... وسائر شؤون الحياة[٧].

مكان الاستقسام:

أكثر ما كانت العرب تستقسم في المعابد وعند أصنامها التي كانت تعبدها، خصوصاً في الشؤون الكبيرة، وهناك ـ وبعد تقديم مال وذبح جزور ـ يقوم الكاهن أو السادن بإجالة الأزلام وإفاضتها، وإعطاء جواب الآلهة، وعلى رأسها هُبل الذي كان بالكعبة.. وإذا كان الجواب لا، أخَّروا الأمر عاماً، ثم رجعوا مرة أخرى يستقسمون بالأزلام[٨].

---

(١) جامع البيان، ٦/ ٤٣. معالم التنزيل، ٣/ ١١. الميسر والأزلام، ص ٦٥.

(٢) جامع البيان، ٦/ ٤٣. الميسر والأزلام، ص ٦٥.

(٣) جامع البيان، ٦/ ٤٣. معالم التنزيل، ٣/ ١١. التحرير والتنوير، ٦/ ٩٨. الميسر والأزلام، ص ٦٥.

(٤) جامع البيان، ٦/ ٤٣. الميسر والأزلام. ص ٦٦.

(٥) المحرر الوجيز، ٥/ ٢٧. التحرير والتنوير، ٦/ ٩٨. الميسر والأزلام ص ٦٦.

(٦) المحرر الوجيز، ٥/ ٢٧. الميسر والأزلام، ص ٦٦.

(٧) معالم التنزيل، ٣/ ١٢. التحرير والتنوير ٦/ ٩٧. الميسر والأزلام ص ٦٦. وانظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٧٧٩.

(٨) جامع البيان، ٦/ ٤٣ ـ ٤٤ . المحرر الوجيز، ٥/ ٢٧. معالم التنزيل، ٣/ ١٢. الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٤٠. تفسير ابن كثير، ٢/ ١٧. التحرير والتنوير، ٦/ ٩٧. الميسر والأزلام ص ٧١ ـ ٧٢.

على أنه يوجد أيضاً نوع خاص من الأزلام، يكون للإنسان في بيته أو يحمله معه، وكلما حار في أمره استخرجها واستقسم بها، كما في قصة سُراقة رضي الله عنه[1].

الاستقسام بالأزلام في العالم القديم:

وقد عرفت شعوب أخرى ـ غير العرب ـ ما يشبه الأزلام، كالأنصبة ونحوها، وكان اليونان يستعملونها لمعرفة إرادة الآلهة[2].

ويبدو أن هذه الطريقة هجرت في العالم اليوناني الروماني، في نهاية الألفية الأولى قبل الميلاد. قال شيشرون: "على أن هذا النوع من التكهن قد تخلى عنه الناس منذ اليوم.. إذ إن هذه الأنصبة لا يستنبئها حاكم ولا فرد ذو حيثية، ولا تستخدم البتَّة في مكان ما"[3].

لكن هذا النفي العام لا يصح، فقد رأينا أن العرب مثلاً كانوا يستقسمون بالأزلام. وكان بداخل الكعبة صور لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبأيديهما الأزلام، فلما قدم النبي ﷺ ودخل البيت، قال: "قاتلهم الله، لقد علموا ما استقسما بها قط"[4].



(١) المحرر الوجيز، ٥/ ٢٧. تفسير ابن كثير، ٢/ ١٧. فتح الباري، ٩/ ١٥٩ ـ ١٦٠. تفسير آية المائدة. الميسر والأزلام، ص ٨٢. وراجع قصة سراقة في مسند الإمام أحمد، ٤/ ١٧٦.

(٢) Devins et Oracles grecs, p 28-29. وانظر أيضاً: ص، ٧٠ ـ ٧١.

(٣) علم الغيب في العالم القديم، ص ١٨٢.

(٤) كذا بصحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٨، حديثا ٣٣٥١، ٣٣٥٢. وفي كتاب المغازي، باب ٤٧، حديث ٤٢٨٨.. وكلا الروايتين عن ابن عباس. وراجع قصة جرير البجلي رضي الله عنه حين أرسله رسولُ الله ﷺ لتدمير بيت ذي الخَلَصة في اليمن، وكان بيتا للأصنام، وكانوا يستقسمون عنده. صحيح البخاري، باب ٦٢، حديث ٤٣٥٧ .



الفصل الثاني

البحث الفقهي

المبحث الأول: الأحكام العامة للتكهن بالغيب

المبحث الثاني: أحكام السحر.

المبحث الثالث: الأحكام التفصيلية للكهانة والعرافة والتنجيم.. وسائر فنون التنبؤ.

المبحث الرابع: رأي فقهي في علم الباراسيكولوجيا.

المبحث الخامس: التنبؤ بالغيب في القوانين الوضعية.

المبحث السادس: الدراسات المستقبلية المعاصرة.

المبحث السابع: نظرية عن أثر فنون التنبؤ في تأخير البشرية، ودور التوحيد في خلاصها من ذلك.

المبحث الأول: الأحكام العامة للتكهن بالغيب.

تمهيد في حكم العلم على العموم:

الأصل العام في العلوم هو جواز تحصيلها، بل تحبيذ ذلك. قال حاجي خليفة: "العلم من حيث إنه علم فضيلةٌ لا تنكر ولا تذم، فالعلم بكل شيء أولى من جهله"[١].

هذه هي القاعدة العامة، لكن في التفصيل ينقسم العلم إلى نافع مطلوب، وغير نافع مردود، فمن الأول قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٩]. وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤]. ومن الثاني الذي ذكره الله تعالى على جهة الذم له: علم السحر[٢].

ولذلك جاءت السنة بتقسيم العلم إلى نافع وإلى غير نافع، والاستعاذة من العلم الذي لا ينفع، وسؤال العلم النافع، فمن ذلك ما أخرجه النسائي من حديث جابر أن النبي ﷺ كان يقول: "اللهم إني أسألك علماً نافعاً، وأعوذ بك من علم لا ينفع". وقال النبي ﷺ في الأنساب: "علم لا ينفع، وجهالة لا تضر". والأحاديث متعددة في هذا المعنى[٣].

وبهذا يظهر أن الاعتبار ليس بصحة العلم أو فساده فقط، بل أيضاً بفائدته، وبمقدار هذه الفائدة؛ ولهذا قال ابن خلدون: "ليس كل ما حرَّمه الشارع من العلوم بمنكر الثبوت، فقد ثبت أن السحر حق مع حظره، لكن حسبنا من العلم ما علمنا"[٤].

وقد اعتنى الغزالي ببيان علة ذم بعض العلوم، فقال ما ملخصه:

اعلم أن العلم لا يذم لعينه، وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة:

الأول: أن يكون مؤدِّياً إلى ضرر ما، إما لصاحبه أو لغيره، كما يذم علم السحر والطلسمات وهو حق.

الثاني: أن يكون مضرًّا بصاحبه في غالب الأمر، كعلم النجوم، فإنه في نفسه غير مذموم لذاته، إذ هو قسمان: قسم حسابي، وقسم أحكامي، وهذا زجر عنه لأسباب ثلاثة:

أ ـ أنه مضر بأكثر الخلق، فإنه إذا ألقي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير

---

(١) كشف الظنون، ١/ ١٣، مقدمة في أحوال العلوم. وانظر ما قاله ابن الأكفاني في: إرشاد القاصد، ص ٦ ـ ٧. وراجع أيضاً رأي اليوسي في: "أبو علي اليوسي"، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) فضل علم السلف على الخلف، لأبي الفرج بن رجب الحنبلي، ص ٤، ٧ .

(٣) فضل علم السلف، ص ٨ إلى ١٠. وقال ابن رجب ـ في حديث الأنساب ـ: رواه أبو داود في المراسيل، وأبو نعيم في رياض المتعلمين.

(٤) المقدمة، ص ٣٧٦.

الكواكب، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة، وأنها الآلهة المدبرة، وأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة، لا يتجاوزونه إلى مسبب الأسباب.

ب ـ أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص، لا يقيناً ولا ظناً، فيكون ذمه من حيث هو حكم بجهل لا من حيث إنه علم.

ج ـ أنه لا فائدة فيه، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يغني، وتضييع العمر في غير فائدة.

الثالث: الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم، فهو مذموم في حقه، كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها، والبحث في الغيوب والأسرار الإلهية[1].

المصلحة والمفسدة في أنواع التكهن بالغيب:

وإذا أخذنا برأي بعض الفقهاء الذين يقولون بأنه لا توجد مصلحة خالصة ولا مفسدة خالصة، وإنما خليط من الأمرين، ويكون الحكم لأهمهما وأكبرهما، ويحتجون لذلك بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة: ٢١٩] إذا أخذنا بهذا الرأي أمكن لي أن أقول: إن الفوائد في العرافة والكهانة وما إليهما كائنة من جهتين:

الأولى: الربح المادي، وهذا خاص بمن يتخذ من هذه الفنون حرفة يعيش بها.

الثانية: نفسية، إذ يظهر لي أن لبعض أشكال التنبؤ دوراً حقيقياً في الحفاظ على بعض التوازن النفسي لكثير من الناس، بتهدئة مخاوفهم، وإعطائهم الأمل في غد أفضل[2]. ولذلك فإن العراف لا يغالط إلا الذي يبحث بنفسه عن هذه المغالطة، بتعبير لابروير[3].

ولعل هذا يجيب عن سؤال كبير شغلني منذ بداية هذا البحث: لماذا يوجد دائماً في المجتمعات البشرية طبقة مدعي علم الغيب؟ لولا أن لهؤلاء أثراً إيجابياً ما على طبقات من البشر ما وجدنا أن عشرات الملايين منهم تزورهم كل سنة، ولا كانت عمَّرت "علومهم" عمر الإنسانية الطويل.

فإذن، لم حرمت الشرائع السماوية، وخصوصاً الإسلام، هذه العلوم؟

والجواب من وجوه:

١ ـ لأن التنبؤ بالغيب ـ بتلك الأساليب ـ مناف لعقيدة التوحيد، وهذه المنافاة أساسية

---

(١) إحياء علوم الدين، ١/ ٤١ ـ ٤٢. وقارن بـ: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٧/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢) بهذا يفسر دودس مكانة معبد دلفي المتخصص في التكهن في التاريخ اليوناني، رغم أخطائه وفشل نبوءاته. انظر: Les Grecs et l'irrationnel, p 81-82.

(٣) انظر تمام كلامه في: Les caractères, p 346.

وكبيرة، وهذا ما يفسر أن تحريم التكهن والتنجيم والأزلام ثبت وكان من أول وهلة، ولم يراعِ الدين فيه تدرجاً، بخلاف أشياء أخرى كالخمر مثلاً[1].

وفنون التنبؤ هذه تفسد عقائد العوام وتشوش عليهم إيمانهم، سيما إذا صدقت بعض توقعاتها، فيظن الناس اطراد الصدق في سائر أحكامها، فيقعون في رد الأشياء إلى غير خالقها[2].

٢ ـ لأن الباطل أغلب عليها من الحق.

٣ ـ لأن طلب الرزق بهذه الوسائل فاسد ولا يصح، ولذلك عقد ابن خلدون فصلاً في "أن ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي"[3]، وفنون التنبؤ من هذا الباب.

٤ ـ لأن للعرافة ـ وغيرها ـ قدرة فائقة على الإيحاء والتأثير؛ ولذلك يوجد نوع من التخدير يجوز أن نسميه بـ "مخدر العرافة"، فبعض الناس لا يفعلون شيئاً حتى يزوروا العراف، ويسقطون في حالة من شلل الإرادة، وهذا كله يعترف به حتى بعض المتكهنين الذين يمارسون هذه المهنة، يقول دوسوار: إن من الناس من يطلب من العراف أن يتحمل عنه كل مسؤولية، وبعضهم لا شغل له غير مطاردة عرافه في كل مكان. وآخر يسأل عرافَين أو أكثر في أسبوع واحد، حتى يطمئن في الجواب[4].

وبعض فنون التنبؤ لا تتردد في توجيه حياة الإنسان حتى في أدق تفاصيلها، ومنها التنجيم، يقول ابن أبي الرجال مثلاً:

ولا تقلم أبداً أظفارا حتى ترى البدر قد استنارا

وأبعد الكاتب من نور القمر والمشترى أيضاً كذا في ذي النظر[5]

وقد لاحظ ابن خلدون خطورة هذه الفنون على إرادة الإنسان، بل وعلى إرادة الدول أيضاً، فإن توقعاتها تنشر ضعف العزيمة والعجز عن دفع الأعداء، قال: وقد شاهدنا من ذلك كثيراً، "فينبغي أن نحذر هذه الصناعة (أي التنجيم) على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول"[6].

---

(١) انظر في مسألة التدرج في تحريم بعض التقاليد الجاهلية: في ظلال القرآن، ٣/ ٣٠ إلى ٣٩. المائدة ٩٠.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٠٧.

(٣) راجع: المقدمة، ص ٢٨٩ فما بعدها.

(٤) اقرأ: La Voyance, p 18-19, 81-82-83-84 وقارن بـ: L'astrologie, p 109-110

(٥) منظومة ابن أبي الرجال في التنجيم، ص ٢٦٣ في المجموع المخطوط.

(٦) المقدمة، ص ٤٠٧.

٥ ـ لأن في إتيان هؤلاء الكهان والعرافين والمنجمين إضاعة المال وصرفه في الباطل. وينبغي أن نعلم أن آلاف العائلات تخصص ميزانية معينة تذهب إلى المنجمين، وأحياناً تكون ميزانية هامة[١].

البديل:

وقد شرع الدين أشياء يلجا إليها الإنسان، منها: صلاة الاستخارة، وصلاة الحاجة. وجوّز أيضاً الرقى والتمائم بشرط ألا تتضمن شركاً، وأن تكون لغتها مفهومة، وبعض الفقهاء جوَّز تعليقها واستصحابها، وهذه رخصة راعت ضعف الإنسان وحاجته للإحساس بالأمان.

ومن البدائل أيضاً: الدعاء، فإنه من أحسن الأشياء في تفريج الكرب.

دور الدولة اليوم في الحد من فنون التكهن:

ولما كانت الكهانة والعرافة ممارسة عامة، لها مخاطرها وسلبياتها استدعى الأمر تدخل الدولة[٢]، ولذلك يرى فقهاؤنا أن للدولة دوراً هاماً في محاربة كل الأنواع الفاسدة لادعاء الغيب، ولا يستثنى منها إلا ما كان على سنن من العلم واضح ومعروف.

وقالوا: يجب على ولي الأمر وكل قادر السعيُ في إزالة ذلك، ومنعهم (أي العرافين والمنجمين ونحوهم) من الجلوس في الحوانيت والطرقات، أو دخولهم على الناس في منازلهم لذلك[٣].

وبعض الفقهاء يجعل هذه المحاربة من اختصاص الحسبة، مع كون ادعاء علم الغيب منكر، على كل قادر إزالته، لكنهم خصوا المحتسب بزيادة المسؤولية عن ذلك[٤].

ومن جوانب النظر الفقهي في الموضوع: المحاصرة الاقتصادية للكهانة والتنجيم ونحوهما، وأصل ذلك: النهيُ عن حلوان الكاهن، وعلته ـ فيما بدا لي ـ هي أن التنبؤ هو ـ بالدرجة الأولى ـ أسلوب في الاسترزاق، فإذا مُنع العراف والمنجم من أجرته ارتفعت هذه الفنون، أو ـ على الأقل ـ ضعفت واضمحلت، أعني أن الإسلام يراهن أيضاً على محاربة التكهن اقتصادياً.

---

(١) L'astrologie, p 109.

(٢) ذكر محقق كتاب الخطيب: القول في علم النجوم، ص ١١٦، أن بعض حكومات آسيا تعترف رسمياً بالتنجيم. ومنها: النيبال، وسريلانكا، وبورما، والسكيام.

(٣) فتاوى ابن تيمية، ٣٥/ ١٩٥. شرح العقيدة الطحاوية، ٢/ ٧٦٣.

(٤) المنهاج شرح مسلم، للنووي، ١٠/ ١٩٧. تبليغ الأمانة، لعبد الحي الكتاني، ص ٢٠٢. المفهم، لأحمد القرطبي، ٥/ ٦٣٣.

وقد عمم الفقهاء هذا النظر فحرموا على الناس أن يقدموا أي مساعدة للمتكهنين، بما في ذلك أن يكروهم الحوانيت والمحلات والمكاتب حيث يمارسون العرافة(١) .

قال ابن تيمية: "قد تبين بما ذكرناه أن الأجرة المأخوذة على ذلك، والهبة، والكرامة، حرام على الدافع والآخذ، وأنه يحرم على المُلَّاك والنُّظار والوكلاء إكراء الحوانيت المملوكة أو الموقوفة أو غيرها من هؤلاء الكفار والفساق بهذه المنفعة؛ إذا غلب على ظنهم أنهم يفعلون فيها هذا الجبت الملعون"(٢).

وفي هذا الإطار يجوز للقضاء الإسلامي الجنائي أن يصادر ممتلكات العرافين ونحوهم، التي يستعملونها في شؤون التكهن، فتكون ملكاً لبيت المال، وما لا يصلح كسبه يمكن تدميره. أما العقوبة بالمال ففيها خلاف معروف، والراجح اليوم جوازها في الأصل.

وتتأكد أهمية هذه المحاربة الاقتصادية إذا علمنا أن فنون التنبؤ هي قبل كل شيء نوع من التجارة(٣).

ومن مسؤوليات الدولة أيضاً منع الإشهار للتكهن بأنواعه في الصحافة ووسائل الإعلام، فهذه هي المسؤولة الأولى عن الانتشار الواسع لدعاوى الاطلاع على المغيبات(٤). فلا يجوز بحال أن يسمح بنشر أكاذيب العرافين ومغالطة الناس بها، ومن باب أولى لا يجوز أن تصدر بديار المسلمين صحافة متخصصة في أساليب التنبؤ الخفية(٥).

وما يقع في بعض الدول الغربية من وجود شركات متخصصة في التكهن، وكذا آلاف المكاتب للمنجمين والعرافين وقرَّاء الكف ونحوهم، والتي يصنفونها باعتبارها "مكاتب معلومات أو إرشادات"(٦) هذا كله لا يجوز في الإسلام.

ومتى تسبب أحد من مدَّعي مخالطة عالم الغيب بضرر لأحد، فعليه الضمان، إضافة إلى عقوبة التعزير، قال القاضي العقباني: "يجب على كل حاكم تفقد مثل هؤلاء ومنعهم، ومنع من يتعاطى الطب وغيره من الجلوس للناس، حتى يحضر مع من يوثق به من الأطباء

---

(١) انظر: الفتاوى، لابن تيمية، ٣٥/١٩٧.

(٢) الفتاوى، ٣٥/١٩٥.

(٣) انظر: L'occultisme devant la science, p 50-51.

(٤) انظر في الدور السلبي والخطير لوسائل الإعلام في هذا الموضوع: L'occultisme devant la science, p 52. L'astrologie, p 106. Quelques sciences captivantes, p 232-233-234.

(٥) من الصحف الفرنسية المتخصصة في هذا المجال، وهي كثيرة:
Astral. Astres. Horoscope. L'Inconnu et l'Autre. Monde. Magie. Nostra..

(٦) Quelques sciences captivantes, p 232-233. L'astrologie, p 106.



العلماء ويختبرونه بحضرته، فإن من اقتحم على شيء من ذلك بغير استحقاق، فقتل أحداً أو أتلف له عضواً على غير منهاج الطب، فهو متعد يجب ضربه وسجنه، ولزوم الدية"[1].

حكم ادعاء علم الغيب والمستقبل:

لا يجوز ادعاء علم الغيب على وجه التفصيل والإحاطة، ولا على وجه الجزم أيضاً. قال بعض العلماء: ومن فعل ذلك يكفر؛ لأنه بهذا يزعم مشاركة الله سبحانه في صفة من صفاته الخاصة، وهي علم الغيب[2]، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] "فمن ادَّعى علم ما أخبر الله ورسوله أن الله تعالى منفرد بعلمه فقد كذَّب الله ورسوله، وذلك كفر من قائله"[3]. ومن عِلل هذا التكفير أن الكاهن لا يتوصل إلى مقصده إلا بخدمة الجن وعبادتهم، وذلك كفر بالله وشرك به سبحانه[4].

قال ابن قدامة ـ بعد بحثه في حكم الساحر ـ "فأما الكاهن الذي له رَئِيٌّ من الجن يأتيه بالأخبار، والعراف الذي يحدس ويتخرص، فقد قال أحمد في رواية حنبل في العراف والساحر والكاهن: أرى أن يستتاب من هذه الأفاعيل، قيل له: يقتل؟ قال: يحبس لعله يرجع، قال: والعرافة طرف من السحر، والساحر أخبث؛ لأن السحر شعبة من الكفر. وقال: الساحر والكاهن حكمهما القتل أو الحبس حتى يتوبا؛ لأنهما يلبسان أمرهما، وحديث عمر: اقتلوا كل ساحر وكاهن، وليس هو من أمر الإسلام. وهذا يدل على أن كل واحد منهما فيه روايتان: إحداهما: أنه يقتل إذا لم يتب، والثانية: لا يقتل؛ لأن حكمه أخف من حكم الساحر، وقد اختلف فيه فهذا بدرء القتل عنه أولى"[5].

حكم تصديق وإتيان مدعي علم الغيب:

وكذلك لا يجوز تصديق من يدعي معرفة الغيوب المقبلة بطريق الكهانة، أو العرافة، أو التنجيم، أو نحو ذلك.

---

(١) نقله عبد الحي الكتاني في مخطوطه: تبليغ الأمانة في مضار الإسراف والتبرج والكهانة، ص ٢٠٤. والعقباني جماعة من علماء تلمسان يعرفون بهذا الاسم، والمذكور لعله قاضي تلمسان إبراهيم بن قاسم المتوفى سنة ٨٨٠هـ. عن معجم المؤلفين، ١/ ٧٦.

(٢) مجموع فتاوى ابن باز، ٣/ ٢٧٥.

(٣) الكواكب الدراري، ٦/ ١٢٦، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، من كتاب الاستسقاء. وانظر: المقدمات الممهدات، ٣/ ٤٢٠.

(٤) مجموع فتاوى ابن باز، ٣/ ٢٧٥.

(٥) المغني، لابن قدامة، ١٠/ ١١٤. وهو أبو محمد، موفق الدين، عبد الله بن أحمد، الدمشقي الحنبلي. فقيه من القرن السابع، له المغني الذي شرح فيه مختصر الخرقي. التبيين في أنساب القرشيين. الروضة في أصول الفقه.. وغير ذلك. عن معجم المؤلفين، ٦/ ٣٠.

ولا يمكن أن يجتمع في قلب رجل واحد تصديق هؤلاء مع الإيمان بأن الغيب لا يعرفه إلا الله تعالى؛ ولذلك صرَّح بعض العلماء بأن من صدق مدعي الغيب كفر بدوره[1]. وقد يستدل لهذا الحكم بقول النبي ﷺ: "ليس منا من تَطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهن له، أو تسحر أو تسحر له"[2].

وقد قال تعالى جل جلاله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]. قال رشيد رضا: "يدخل في هذا ما يقع كثيراً من تحاكم الخصمين إلى الدجالين، كالعرافين وأصحاب المندل والرمل ومدعي الكشف"[3].

وقد فسر بعض العلماء كلمتي الجبت والطاغوت بأن الجبت: العيافة والطرق، والطاغوت: هو الكاهن[4]. واستدلوا لذلك بحديث النبي الكريم: "العيافة والطيرة والطرق من الجبت[5]". وقالوا: العيافة هي زجر الطير، والطرق الضرب بالحصى، فهذه من أنواع الكهانة[6]. وهذه الأمور إنما كانت من الجبت والشرك؛ لأنها مظنة للتعظيم الجالب للاعتقاد الفاسد"[7].

وقد بين الشوكاني علة هذا النظر الفقهي، فقال: "العلة الموجبة للحكم بالكفر ليست إلا اعتقاد أنه مشارك لله تعالى في علم الغيب، مع أنه في الغالب يقع غير مصحوب بهذا الاعتقاد، ولكن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه"[8].

لكن يظهر لي أن في الحكم تفصيلاً، فيكون طلب علم الغيب - بهذا الطريق - معصية، أو كفراً، بحسب قصد الطالب، كما قاله ابن العربي[9].

---

(١) انظر: المقدمات الممهدات، ٣/ ٤١٩ - ٤٢٠. مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، ٢/ ١٢١، ٣/ ٢٧٥.

(٢) رواه الطبراني عن عمران بن حصين. انظر السراج المنير شرح الجامع الصغير، ٣/ ٢٤٣. ورواه أيضاً البزار، ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع، وهو ثقة. وروى ابن عباس مثل هذا الحديث، وهو عند البزار والطبراني في الأوسط، وفيه زمعة بن صالح، ضعيف. انظر: مجمع الزوائد، ٥/ ١١٧.

(٣) تفسير المنار، ٥/ ٢٢٣.

(٤) تفسير المنار، ٥/ ١٥٧. وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]. وانظر: المفصل، لجواد علي، ٦/ ٧٥٦ - ٧٥٧.

(٥) رواه أبو داود: ٣٩٠٧، وأحمد: ١٥٩١٥ وإسناده ضعيف.

(٦) معالم السنن، ٤/ ٢١٤.

(٧) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، ص ١٣. ضمن مجموعة الرسائل السلفية، للشوكاني.

(٨) الدر النضيد، ص ١٣.

(٩) أحكام القرآن، ٤/ ١٢٥.



هل يكفر من أتى الكاهن أو العراف؟

وقع في بعض الأحاديث كفر من سأل الكاهن والعراف، فمن ذلك:

١ - روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: "من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد"(١).

٢ - ولأبي هريرة أيضاً رفعه: من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برئ مما أنزل على محمد(٢).

٣ - ولابن مسعود عن الرسول ﷺ: "من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً فسأله فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد" (٣).

قال العلماء: الكفر هنا كفران:

١ - الكفر الحقيقي، وذلك في حالتين:

أ - استحلال سؤال الكهنة والعرافين، مع ورود النهي عن ذلك.

ب - تصديقهم فيما يقولون، واعتقاد أنهم يطلعون فعلاً على الغيب.

٢ - الكفر المجازي، أي كفر النعمة، وذلك إذا لم يصدقهم، وآمن بأن الله جل جلاله هو الذي يعلم الغيب وحده(٤).

ودليل هذا التفصيل ما روي عن الرسول ﷺ أنه قال: "من أتى كاهناً فسأله عن شيء حجبت عنه التوبة أربعون ليلة، فإن صدقه بما قال كفر"(٥). وكذا أحاديث عدم قبول صلاته مدة معينة.

ففي صحيح الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: "من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلةٍ"(٦). والمعنى أنه لا يؤجر على صلاته ولا يثاب، لكن الفرض يسقط عنه،

---

(١) رواه أحمد والحاكم، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير، ٢/ ٥٤٩.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الكهانة والتطير، باب في الكهان، ١. وفي عون المعبود، ١٠/ ٣٩٩، أن الحديث ضعيف عند بعض العلماء، من قبل حكيم الأثرم.

(٣) قال الهيثمي: رواه البزار في مسنده. ورجاله رجال الصحيح خلا هبيرة بن مريم، وهو ثقة. مجمع الزوائد، ٥/ ١١٨.

(٤) راجع: السراج المنير، ٣/ ٣١٤. حاشية الحفني على السراج، ٣/ ٣١٤. نيل الأوطار، ٧/ ٣٦٧. المفهم، ٥/ ٦٣٥.

(٥) رواه الطبراني عن واثلة بن الأسقع، كما في الجامع الصغير، وضعفه الحافظ المنذري بحسب ما في شرحه: السراج المنير، ٣/ ٣١٤. وعلته سليمان بن أحمد الواسطي، وهو متروك، كما في مجمع الزوائد، ٥/ ١١٨.

(٦) مسلم: ٢٢٣٠، وأحمد: ١٦٦٣٨ عن بعض أزواج النبي ﷺ.



فلا يلزم من أتى العراف إعادة صلوات أربعين ليلة، باتفاق العلماء[1]؛ وذلك لأنهم يفرقون بين القبول والصحة، فالقبول عبارة عن حصول الثواب على الفعل، والصحة عبارة عن سقوط الأداء، فالأول أخص من الثاني[2].

قال أحمد القرطبي في تقريب هذا المعنى: "ويتضح ذلك باعتبار ملوك الأرض ـ ولله المثل الأعلى ـ وذلك أن المُهْدي: إما مردود عليه، أو مقبول منه، والمقبول: إما مقرب مكرم مثاب، وإما ليس كذلك، فالأول: هو المبعد المطرود، والثاني: هو المقبول القبول التام الكامل، والثالث: لا يصدق عليه أنه مثل الأول، فإنه لم تردَّ هديته، بل قد التُفت إليه، وقبلت منه، لكنه لما لم يُثَب ولم يُقرَّب صار كأنه غير مقبول منه؛ فيصدق عليه أنه لم يقبل منه إذ لم يحصل له ثواب ولا إكرام"[3].

قال العزيزي: خص الصلاة بالذكر لكونها عماد الدين، فصومه كذلك[4]. يعني وكذلك سائر عباداته.

أما معنى "الأربعين" في هذا الحديث، فمسألة فيها آراء:

١ ـ قيل خرج هذا على عادة العرب في التكثير، فيقولون: أربعين، وسبعين، وتسعين... يريدون الكثرة. وجاء ذكر "الليلة"؛ لأن عادة العرب أيضاً ابتداء الحساب بالليالي[5].

٢ ـ وقيل: بل هو سرٌّ من أسرار الشريعة لم نطلع عليه[6].

٣ ـ وبعض العلماء حاولوا الاجتهاد في تفهم هذا السر، فقالوا: إن هذا العدد في هذه المواضع إنما خص بالذكر؛ لأنه مدة يَكمل فيها ما ضُربت له، فينتقل إلى غيره، ويحصل فيها تبدله.

بيانه ـ عند القاضي عياض ـ أنه" قد جاء مثل هذا العدد في شارب الخمر، وجاء أيضاً عدد الأربعين في تنقل أطوار الخلق في الرحم من النطفة والعلقة والمضغة، وجاء حدًّا أيضاً في قص الأظفار والشارب وحلق العانة، وجاء أيضاً فيمن أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت

---

(١) المنهاج للنووي، ١٤/ ١٩٠. المفهم، ٥/ ٦٣٥ ـ ٦٣٦. دليل الفالحين، ٤/ ٥١٢. السراج الوهاج، لصديق خان، ٨/ ٤٠٥. نظير هذه المسألة: الصلاة في الدار المغصوبة.

(٢) المفهم، ٥/ ٦٣٦.

(٣) المفهم، ٥/ ٦٣٦.

(٤) السراج المنير، ٣/ ٣١٣

(٥) السراج المنير، ٣/ ٣١٣.

(٦) المفهم، ٥/ ٦٣٦. إكمال الإكمال، للأبي، ٦/ ٤٨.



ينابيع الحكمة في قلبه ولسانه. فيحمل شارب الخمر على تبديل اللحم الذي نشأ عن شربه، وذكر أهل المعرفة أن السمن في الحيوان يظهر في أربعين يوماً، وكذلك من أخلص الأربعين فإنها التي تتغير فيها طباعه وانتقال صفاته، وكذلك يتغير فيها نبات الشعر والأظفار "[١].

ومن لازِم تحريم إتيان العراف تحريم إعطائه أجراً على تكهنه:

النهي عن حلوان الكاهن ومن في معناه:

عن أبي مسعود الأنصاري أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن[٢]. أي أجرته.

وقد صرح ابن عبد البر بأن حلوان الكاهن مجتمع على تحريمه[٣]. وكذلك قال البغوي[٤]؛ ولذلك عمد أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى الاستقاء، حين أخبره غلامه بأن الشيء الذي أكله كان أجرته على التكهن[٥].

قال القرطبي ـ في حديث النهي عن حلوان الكاهن ـ: "وفيه ما يدل على تحريم ما يأخذه الحسَّاب والمنجمون، في الرمل والخط، وغير ذلك؛ لأن ذلك كله تعاطي علم الغيب، فهي في معنى الكهانة، وما يؤخذ على ذلك محرم بالإجماع "[٦].

فالحديث إذن شامل لكل الطرق غير المشروعة في الإخبار عن الغيبيات:

تعليل النهي عن أجرة المتنبئ بالغيب:

التعليل ثابت من وجهين:

١ ـ لأن هذا التنبؤ غير مشروع، فالنهي عام عن التكهن والعرافة والتنجيم والخط والزجر. ونحو ذلك، والعوض عن الحرام حرام[٧].

٢ ـ لأنه من أكلِ المال بالباطل. قال الخطابي: حلوان الكاهن محرم؛ لأن قوله زور، وفعله باطل[٨]. وقال العيني: "أخذ العوض على مثل هذا ـ ولو لم يكن منهيًّا عنه ـ من أكل

---

(١) نقله كلًا من القرطبي في: المفهم، ٥/٦٣٦ ـ ٦٣٧، والأبي في: إكمال إكمال المعلم، بشرح مسلم، ٦/٤٨، وأقرَّاه.

(٢) أخرجه البخاري: ٢٢٣٧، ٢٢٨٢، ومسلم: ١٥٦٧، وأحمد: ١٧٠٧٠ .

(٣) التمهيد، ٨/٣٩٩ .

(٤) المنهاج، ١٠/١٩٦. تبليغ الأمانة، ص ١٩٥. وانظر: فتح الباري، ٧/ ٥٤٠. المفهم، ١/١٥٦.

(٥) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية، حديث رقم ٣٨٤٢.

(٦) المفهم، ٤/٤٤٦، كتاب البيوع، باب النهي عن ثمن الكلب والسنور وحلوان الكاهن...

(٧) المنهاج، ١٠/١٩٦. عمدة القاري، ١٢/ ٦٠، كتاب البيوع. إحكام الأحكام، لابن دقيق العيد، ٣/ ١٣٥.

(٨) أعلام السنن، ١/ ٦٢٤.



المال بالباطل؛ ولأن الكاهن يقول ما لا ينتفع به، ويُعان بما يُعطاه على ما لا يحل "[1].

ولا عبرة هنا بالتراضي بين المتنبئ والسائل، قال الشوكاني - في خبر استقاء أبي بكر -: "فيه متمسك لتحريم ما أخذه الكهان ممن يتكهنون له، وإن دفع ذلك بطيبة من نفسه "[2].

وقد سبق قبل قليل أن الإسلام يستعين بهذا الأسلوب في محاصرة التكهن اقتصادياً.

وإذ انتهيت الآن من بسط الأحكام العامة لفنون التنبؤ، أنتقل إلى البحث التفصيلي لكل فن على حدة، وأبدأ بحكم السحر؛ لأنه أهم العلوم الخفية التي حظيت ببحث الفقهاء؛ ولأن غيره ينبني على حكمه.

المبحث الثاني: أحكام السحر.

الإجماع على تحريم السحر:

قال النووي: "عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع "[3].

مذاهب العلماء في حدِّ الساحر وحكمه:

ذهب المالكية والحنفية، وهي رواية عن أحمد، إلى أن حدَّ الساحر أن يقتل. وقال الشافعي وأحمد - في رواية أخرى - لا يقتل، بل يعزر فقط. وهو مذهب الظاهرية. وقالوا: إن الساحر يقتل إذا كان في كلامه كفر، فيصير مرتداً[4].

وبعض من حكم بحد الساحر قتلاً لم يكفره، فهو كحد زنا المحصن أو حد القصاص إذا طبقا على مسلم[5]. وقال أبو حنيفة: يقتل الساحر، أما المسلمة الساحرة فتحبس ولا تقتل[6].

---

(١) عمدة القاري، ١٢/ ٦٠.

(٢) نيل الأوطار، ١/ ٣٧٠.

(٣) المنهاج، ١٤/١٤٧، باب السحر من كتاب السلام. الإعلام بقواطع الإسلام، للهيتمي، ص ٩٩.

تنبيه: سئل النووي عن الطلسمات - أي الرقى - التي تكتب للمنافع، وهي مجهولة المعنى، هل تحل كتابتها أم لا؟ فأجاب تكره، ولا تحرم. المسائل المنثورة، ص ٢٧٨.

وليس كما قال رحمه الله تعالى - إذا صح عنه ما في فتاويه تلك - بل تحرم؛ لأنها مجهولة المعنى، والغالب في أمثالها تضمنها للشرك وكلام الكفر؛ ولذلك قال مالك في الرقى المكتوبة بالعجمية: وما يدريك لعلها كفر؟

انظر: الفتاوى الحديثية، لابن حجر الهيتمي، ص ٩٠ - ٩١. الفروق، لشهاب الدين القرافي، ٤/ ١٤٧.

(٤) أحكام القرآن، للجصاص، ١/ ٦٠. المغني، لابن قدامة، ١٠/ ١١١. المحلى، ٨/ ٣٩٤. فتح المجيد، ص ٢٦٨. فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك، لمحمد عليش، ٢/ ٣٠٠ - ٣٠١.

(٥) تفسير ابن كثير، ١/ ١٨١.

(٦) أحكام القرآن، للجصاص ١/ ٦١. عمدة القاري، ١٤/ ٦٣، كتاب الوصايا.



تحرير محل النزاع:

الخلاف الفقهي قائم في الساحر الذي لم يأت في سحره بكلام أو عمل هو كفر، قال النووي: السحر "قد يكون كفراً، وقد لا يكون كفراً، بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر؛ كفر"[1]. فهذا لا خلاف فيه، بل هو إجماع، لكن ما الحكم إذا تصورنا سحراً ليس فيه كلام كفر؟

أسباب الاختلاف في تكفير الساحر:

١ ـ القرآن الكريم:

فإن من قال بكفر الساحر استدل بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾[البقرة: ١٠٢]، أي ما كان سليمان ساحراً كفر بسحره، وكذلك قوله تعالى - حكاية عن الملكين -: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فسمى الله تعالى السحر كفراً، واستدل أيضاً بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[البقرة: ١٠٢] [2].

ومن أبى ذلك قال إن الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ تامة، وقوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، ابتداء كلام، لا بدل عن الآية الأولى، فالشياطين كفروا قبل تعليم السحر، وهذا التعليم مجرد ضلال زائد[3]. وقال الرازي: هذا محمول على من يعتقد إلهية النجوم[4].

قال ابن حزم: ولو صح قولهم: إنه بدل. لم يلزمنا؛ لأنه خبر عن غير شريعتنا، ثم إن أحكام الجن غير أحكام الإنس. وقال أيضاً: إن قول الملكين: لا تكفر، نهي عن الكفر جملة، ولم يقولا فلا تكفر بتعلمك السحر ولا بعلمك السحر، فهذا ما لا يفهم من الآية أصلاً[5].

---

(١) المنهاج، ١٤/١٤٧، باب السحر من كتاب السلام. وانظر: إرشاد العقل السليم، ١/١٠٧. فتاوى السبكي، ٢/٣٢٥. تفسير ابن كثير، ١/١٨٥.

(٢) المغني، ١٠/١٠٨. المعلم، للمازري، ٣/٩٤. المحرر الوجيز، ١/٣٠٦. الجامع لأحكام القرآن، ٢/٣٣. أحكام القرآن، لابن العربي، ١/٤٨. أحكام القرآن، للجصاص، ١/٦٣. عارضة الأحوذي، شرح سنن الترمذي، لابن العربي، ٦/٢٤٧. فتح المجيد، ص ٢٦٩.

(٣) المحلى، لابن حزم، ٨/٣٩٨.

(٤) مفاتيح الغيب، ٣/٢٣٤، البقرة ١٠٢.

(٥) المحلى، لابن حزم، ٨/٣٩٨.

أما الاستدلال بآية ﴿مَا لَهُ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ فمردود أيضاً. قال ابن حزم: إن هذه الصفة قد تكون في مسلم، كما في حديث: "إنما يلبس الحرير من لا خلاق له في الآخرة"(١).

٢ ـ الحديث:

مما يدل على كفر الساحر وقتله ما رواه(٢) جندب بن عبد الله الصحابي أن النبي ﷺ قال: "حدُّ الساحر ضربة بالسيف"(٣).

لكن قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.. والصحيح عن جندب موقوف. وقال ابن المنذر: في إسناد حديث جندب هذا مقال؛ لأن الذي رواه إسماعيل بن مسلم، وهو ضعيف عندهم. وقال أيضاً: لو صحَّ هذا؛ لاحتمل أن يكون أمراً بقتل الساحر الذي يكون كفر(٤).

وعارض هذا أيضاً حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "اجتنبوا السبع الموبقات" قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات"(٥). فالسحر كبيرة كالربا وأكل مال اليتيم...

وكذلك قول الرسول ﷺ: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: بكفر بعد إيمان، أو بزنا بعد إحصان، أو بقتل نفس بغير نفس"(٦). فمن كفَّر الساحر قال: هذا كفر بعد إيمانه، فيدخل في مسمى الحديث. ومن لم يكفره قال: ليس في الحديث ذكر الساحر(٧).

---

(١) المحلى، ٨/ ٣٩٩. والحديث رواه السبعة ـ عدا الترمذي ـ كلهم عن عمر رضي الله عنه ـ كما في الجامع الصغير، ١/ ٤٠١.

(٢) المغني، ١٠/ ١١٢. أحكام القرآن، للجصاص، ١/ ٦٥. فتح المجيد، ص ٢٧٣.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الحدود، باب ما جاء في حد الساحر، حديث ١٤٦٤.

(٤) الإشراف على مذاهب أهل العلم، لابن المنذر، ٢/ ٤٠٩، وهو أبو بكر محمد بن إبراهيم النيسابوري، الفقيه. من كتبه: تفسير القرآن. إثبات القياس. المبسوط في الفقه. توفي بمكة سنة ٣٠٩هـ. عن معجم المؤلفين، ٨/ ٢٢٠. أما إسماعيل بن مسلم المكي البصري فمن رواة الحديث بالقرن الثاني.

(٥) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة. عن الجامع الصغير، ١/ ٣٢.

(٦) رواه البخاري في الديات ٦، ومسلم في القسامة حديث ٢٥، ٢٦. وأبو داود في الحدود، باب ١. والترمذي في الحدود ١٥. والنسائي في التحريم، ٥، ١١، ١٤. والدارمي في السير ١١. وأحمد. كما في معجم ونسنك.

(٧) المغني، ١٠/ ١١١. الإشراف، لابن المنذر، ٢/ ٤٠٩. فتاوى السبكي، ٢/ ٣٢٤.



قال ابن حزم ـ في حديث السبع الموبقات ـ: "كان هذا بياناً جلياً بأن السحر ليس من الشرك، ولكنه معصية موبقة كقتل النفس وشبهها"[1].

ومن أسباب الخلاف أيضاً قصة سحر لبيد اليهودي للنبي ﷺ، وليس فيها قتل[2]. ولذلك حين سئل ابن شهاب الزهري: أعلى من سحر من أهل العهد قتلٌ؟ قال: بلغنا أن رسول الله قد صُنع له ذلك فلم يقتل من صنعه، وكان من أهل الكتاب[3]. فمن حكم بقتل الساحر حمل الحديث على الاستثناء، وقال: صحَّ كفر الساحر وقتلُه، واستثنى الحديث الساحر الذمي، فبقي غيره على الحكم الأول. أما من لم يكفِّر الساحر، فقد استدل بهذا الحديث، ولم ير أن الفرق بين المسلم والذمي مؤثر في المسألة[4].

وجمع الشوكاني بين الرأيين، فقال: إن غاية ما تدل عليه قصة لبيد جواز ترك قتل الساحر، لا عدم جواز الفعل، فيمكن الجمع ـ على فرض عدم علم التاريخ ـ بأن القتل للساحر جائز لا واجب[5]. وعلل عدم قتل النبي ﷺ لبيداً بأنه من باب ترك مصلحة لخوف مفسدة أعظم[6].

٣ ـ اختلاف فعل الصحابة:

فقد نقل عن بعضهم قتل الساحر، وجاء عن غيرهم خلاف ذلك[7]، وأهم الأخبار هنا:

أ ـ عن عمر رضي الله عنه أنه أرسل إلى بعض ولاته أن اقتلوا كل ساحر وساحرة.

ب ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها باعت ساحرة كانت سحرتها، وجعلت ثمنها في تحرير الرقاب[8].

---

(١) المحلى، ٨/ ٤٠٠،

(٢) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٤.

(٣) ذكره البخاري معلقاً بصيغة الجزم في باب هل يعفى عن الذمي إذا سحر؟ من كتاب الجزية والموادعة.

(٤) راجع في مسألة الساحر الذمي والمناقشات الدائرة حولها: المحلى، ٨/ ٤٠١. الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٤. فتح الباري، ٦/ ٤١٤. عمدة القاري، ١٥/ ٩٧ ـ ٩٨. المغني، ١٠/ ١١٥

(٥) نيل الأوطار، ٧/ ٣٦٤.

(٦) نيل الأوطار، ٧/ ٣٦٧. وقارن بـ: المفهم، ٥/ ٥٧٣ ـ ٥٧٤. فتاوي السبكي، ٢/ ٣٢٥.

(٧) راجع في هذا الاختلاف: الإشراف، ٢/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨. المحلى، ٨/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥. المغني، ١٠/ ١١١ ـ ١١٢. تفسير ابن كثير، ١/ ١٨١. أحكام القرآن، للجصاص، ١/ ٦٠.

(٨) كانت هذه الساحرة أَمَةً لعائشة، وكانت عائشة قد دبَّرتها، والتدبير: هو عتق السيد عبده دبر موته، أي بعد موته، فسحرتها استعجالاً لموت السيدة عائشة وتحررها بعد ذلك. والقصة في مصنف عبد الرزاق وسنن البيهقي.



قال من لم ير كفر الساحر: فعلت عائشة هذا بمحضر من الصحابة، ولو كفرت الساحرة لصارت مرتدة يجب قتلها لا استرقاقها[١]. وما روي عن الصحابة في قتل الساحر، محمول على إرادة الساحر المشرك، والسحر الذي فيه كفر. وبهذا تلتئم الأدلة وتتوافق[٢].

استتابة الساحر:

في المسألة رأيان:

الأول: يستتاب وتقبل توبته؛ لأن السحر ليس بأعظم من الشرك، والكفر والقتل يكونان بسبب عمله للسحر لا علمه به، وقد آمن سحرة فرعون، وصحَّ إيمانهم. وهذا قول الشافعي ورواية عن أحمد[٣].

الثاني: لا يستتاب، ولا تقبل توبته؛ لأنه لم ينقل عن أحد من الصحابة أنه استتاب ساحراً. وهذا قول مالك وأحمد ـ في الرواية الأخرى عنه ـ وأبي حنيفة[٤].

وهذا بحسب أحكام الدنيا، أما فيما بينه وبين الله سبحانه فالتوبة ممكنة لا يمنعها شيء[٥].

قال ابن العربي المالكي: "إذا قلنا: إن الساحر يقتل فإنه لا يرثه ورثته المسلمون، وإنما حكمه حكم المرتد"[٦].

انبناء هذه المسألة على حكم الزنديق:

قال المازري: "الساحر عندنا إذا سحر بنفسه قُتل، فإن تاب لم تقبل توبته، خلافاً للشافعي، وهذه المسألة مبنية على الخلاف في قبول توبة الزنديق؛ لأنه مسرٌّ لما يوجب قتله كالساحر"[٧]. وقال أحمد القرطبي: "الساحر عند مالك كالزنديق؛ لأن العمل عنده بالسحر كفر مستسر به، فلا تقبل توبة الساحر، كما لا تقبل توبة الزنديق، إذ لا طريق لنا إلى معرفة صدق توبته"[٨].

---

(١) المغني، ١٠/١٠٧.

(٢) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥. تفسير ابن كثير، ١/ ١٨١. فتاوى السبكي، ٢/ ٣٢٥. أحكام القرآن، للجصاص، ١/ ٦٢ ـ ٦٣.

(٣) المغني، ١٠/ ١١٣. عمدة القاري، ١٤/ ٦٤، ٢١/ ٢٧٩، كتاب الطب. فتح المجيد، ص ٢٧٤.

(٤) المغني، ١٠/ ١١٣. عمدة القاري، ١٤/ ٦٣، ٢١/ ٢٧٩. فتح المجيد، ص ٢٧٤.

(٥) المغني، ١٠/ ١١٣.

(٦) عارضة الأحوذي، ٦/ ٢٤٧.

(٧) المعلم، ٣/ ٩٤. وانظر: نيل الأوطار، ٧/ ٣٦٣. المنهاج، للنووي، ١٤/ ١٤٧.

(٨) المفهم، ٥/ ٥٧٤.



وهذا المذهب ـ أي عدم قبول توبة الزنديق ـ مشهور عن المالكية، وغيرهم يقبلها. لكن "قال مالك: إن جاء الساحر أو الزنديق تائباً قبل أن يشهد عليهما قبلت توبتهما. والحجة لذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]. فدلَّ على أنه كان ينفعهم إيمانهم قبل نزول العذاب، فكذلك هذان"[١].

ورأي الحنفية في توبة الزنديق قريب من مذهب المالكية[٢].

في ترجيح مذهب الشافعي في حكم الساحر:

وقد أحسن الشيخ السبكي عرض هذا المذهب، فقال: مذهب الشافعي أن للساحر ثلاثة أحوال:

١ ـ الحالة التي يقتل فيها كفراً، قال الشافعي: وهي أن يعمل بسحره ما يبلغ الكفر، وشرح أصحابه ذلك بثلاثة أمثلة: **أحدها**: أن يتكلم بكلام هو كفر، ولا شك في أن ذلك موجب للقتل، ومتى تاب منه قبلت توبته، وسقط عنه القتل، وهو يثبت بالإقرار والبينة. **المثال الثاني**: أن يعتقد ما اعتقده من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل بأنفسها، فيجب عليه أيضاً القتل، كما حكاه ابن الصباغ، وتقبل توبته، ولا يثبت هذا القسم إلا بالإقرار. **المثال الثالث**: أن يعتقد أنه حق يقدر به ـ أي بالسحر ـ على قلب الأعيان[٣]. وحكمه مثل حكم المثال الثاني.

٢ ـ الحالة التي يقتل فيها قصاصاً، إذا اعترف أنه قتل بسحره إنساناً، وأنه مات به، وأن سحره يقتل غالباً. ولا يثبت هذا القصاص إلا بالإقرار، ولا تسقطه التوبة.

٣ ـ الحالة التي لا يقتل فيها أصلاً، ولكن يعزر، وهي عدا ما تقدم. وإذا اعترف أنه أتلف بسحره شيئاً يضمنه[٤]، أو عضواً ففيه الدية.

فهذا النظر سليم، وقد رأينا أن السحر أنواع، فلا يصح أن يعمم الحكم الواحد على جميعها، والأولى أن ينظر في كل نوع على حدة ويستخرج له حكمه، كما فعل الرازي في تفسيره[٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٤.

(٢) أحكام القرآن، للجصاص، ١/ ٦٤. وانظر في موضوع حكم الزنديق: التمهيد، لابن عبد البر، ١٠/ ١٤٩ فما بعدها. الإشراف، لابن المنذر، ٢/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨. نيل الأوطار، ٨/ ٦ ـ ٧.

(٣) حكى ذلك الماوردي وغيره. لكن يظهر لي أنه غير سديد؛ لأن مسألة قدرة الساحر على قلب الأعيان خلافية بين العلماء، كما تقدم في مبحث السحر. ومأخذ التكفير هنا أن المعتقد لذلك لا يفرق بين المعجزة والسحر. راجع: الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٢.

(٤) فتاوى السبكي، ٢/ ٣٢٤. وانظر المغني، ١٠/ ١٠٧. تفسير ابن كثير، ١/ ١٨٥.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٣ إلى ٢٣٥.



قال ابن المنذر: "إذا أقرَّ الرجل أنه يسحر بكلام يكون ذلك الكلام كفراً، وجب قتله إن لم يتب؛ لقول رسول الله ﷺ: " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: بكفر بعد إيمان. . . ". وكذلك لو ثبت عليه به بيِّنة، ووصفت البينة كلاماً يكون كفراً. فإذا أوجبنا قتله لما ذكرنا، ثم تاب، وجب قبول توبته.

وإن كان الكلام الذي ذَكر أنه سَحر به ليس بكفر، لم يجز قتله. فإن كان أحدث في المسحور جناية توجب القصاص، اقتصَّ منه إن كان عمد ذلك، وإن كان ذلك مما لا قصاص فيه، ففيه دية ذلك"[1].

قال النووي: "قال أصحابنا: فإذا قتل الساحر بسحره إنساناً واعترف أنه مات بسحره وأنه يقتل غالباً لزمه القصاص، وإن قال: مات به ولكنه قد يقتل وقد لا، فلا قصاص، وتجب الدية والكفارة، وتكون الدية في ماله لا عاقلته؛ لأن العاقلة لا تحمل ما ثبت باعتراف الجاني. قال أصحابنا: ولا يتصور القتل بالسحر بالبينة، وإنما يتصور باعتراف الساحر، والله أعلم"[2].

استشكال بعض فقهاء المالكية مذهب مالك في تكفير الساحر:

من هؤلاء الطرطوشي[3]، والقرافي، قال: "أطلق المالكية وجماعة معهم الكفر على الساحر، وأن السحر كفر. ولا شك أن هذا قريب من حيث الجملة، غير أنه عند الفتيا في جزئيات الوقائع يقع فيه الغلط العظيم المودي إلى هلاك المفتي. والسبب في ذلك أنه إذا قيل للفقيه: ما هو السحر، وما حقيقته حتى يقضي بوجوده على كفر فاعليه؟ يعسر عليه ذلك جدًّا، فإنك إذا قلت له: السحر والرقى والخواص والسيميا والهيميا وقوى النفوس شيء واحد وكلها سحر، أو بعض هذه الأمور سحر وبعضها ليس بسحر، فإن قال: الكل سحر. يلزمه أن سورة الفاتحة سحر؛ لأنها رقية إجماعاً، وإن قال: بل لكل واحدة من هذه خاصية تختص بها. فيقال: بيِّن لنا خصوص كل واحدة منها، وما به تمتاز. وهذا لا يكاد يعرفه أحد من المتعرضين للفتيا، وأنا طول عمري ما رأيت من يفرق بين هذه الأمور، فكيف يفتي أحد

---

(١) الإشراف على مذاهب أهل العلم، ٢/ ٤٠٨.

(٢) المنهاج، ١٤/ ١٤٨. وليس في قتل الساحر عقوبة بالمماثلة، لتعذرها. انظر: معالم السنن، ٤/ ١٥. باب ما يقاد من القاتل بحجر مثل ما قتل.

(٣) انظر: الفروق، للقرافي، ٤/ ١٥١ فما بعدها. والطرطوشي: هو أبو بكر محمد بن الوليد، المعروف أيضاً بابن أبي رندقة. نشأ بالأندلس ورحل إلى الشرق، وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٢٠هـ. من تآليفه: سراج الملوك. الحوادث والبدع. شرح رسالة القيرواني. عن معجم المؤلفين، ١٢/ ٩٦.



بعد هذا بكفر شخص معين، أو بمباشرة شيء معين بناء على أن ذلك سحر، وهو لا يعرف السحر ما هو؟ "[١].

ولهذا عقد القرافي الفرق الثاني والأربعين بعد المائتين: بين قاعدة ما هو سحر يكفر به، وبين قاعدة ما ليس كذلك. فبدأ بالكلام على أنواع السحر، والفحص عن كل نوع منها، عن حقيقته وحكمه وهل فيه كفر، أم لا[٢].

وذكر القرافي من أساليب السحر ما جمعه لبيد بن الأعصم ـ من المشط والطلع.. وأشياء أخرى ـ ثم جعلها في بئر. وقال: إن جمع هذه الأمور وجعلها في بئر أمر مباح، إلا من جهة ما يترتب عليه؛ فلذا ينبغي النظر هل مع هذه الأمور الموضوعة في البئر كلمات أخرى أو شيء آخر؟ وهو الظاهر، وحينئذ ينظر فيها هل تقتضي كفراً أم هي أمور مباحة؟ قال: "وللسحرة فصول كثيرة في كتبهم يقطع من قبل الشرع بأنها ليست معاصي ولا كفراً، كما أن لهم ما يقطع بأنه كفر. فيجب حينئذ التفصيل كما قاله الشافعي رضي الله عنه، أما الإطلاق بأن كل ما يسمى سحراً كفر فصعب جدًّا "[٣].

قال الطرطوشي: قال مالك وأصحابه: الساحر كافر يقتل ولا يستتاب... ومن قول علمائنا القدماء: لا يقتل حتى يثبت أنه من السحر الذي وصفه الله تعالى بأنه كفر. قال أصبغ: يكشف ذلك من يعرف حقيقته.. قال الطرطوشي: أو نقول: إن السحر علامة الكفر بإخبار الشرع، فهذا معنى قول أصحابنا: إن السحر كفر، أي دليل الكفر، لا أنه كفر في نفسه. ثم ذكر بعض التفاصيل الفقهية على رأي تكفير الساحر، وحكى مذاهب المخالفين، ومسألة حكم تعلم السحر[٤].

وعلَّق على هذا القرافي، فقال: "هذه المسألة في غاية الإشكال على أصولنا، فإن السحرة يعتمدون أشياء تأبى قواعد الشريعة تكفيرهم بها، كفعل الحجارة المتقدم ذكرها قبل هذه المسألة، وكذلك يجمعون عقاقير ويجعلونها في الأنهار والآبار أو في قبور الموتى أو في باب يفتح إلى المشرق، ويعتقدون أن الآثار تحدث عند تلك الأمور بخواص نفوسهم

---

(١) الفروق، ٤/ ١٣٥ ـ ١٣٦. أحمد بن إدريس، شهاب الدين أبو العباس، القرافي. عالم مالكي كبير. له في الفقه وأصوله: الذخيرة. شرح المحصول للرازي. شرح التهذيب.... توفي سنة ٦٨٤، بمصر. معجم المؤلفين، ١/ ١٥٨.

(٢) راجع تفصيل القرافي لأنواع السحر في: الفروق، ٤/ ١٣٧ فما بعدها، وهي أحد عشر نوعاً. وهذا التفصيل يشبه تفصيل الجصاص والرازي، على وجه الإجمال.

(٣) الفروق، ٤/ ١٤١.

(٤) نقله القرافي في: الفروق، ٤/ ١٥١ إلى ١٥٣.



التي طبعها الله تعالى على الربط بينها وبين تلك الآثار عند صدق العزم، فلا يمكننا تكفيرهم بجمع العقاقير ولا بوضعها في الآبار ولا باعتقادهم حصول تلك الآثار عند ذلك الفعل؛ لأنهم جربوا ذلك فوجدوه لا ينخرم عليهم لأجل خواص نفوسهم، فصار ذلك الاعتقاد كاعتقاد الأطباء حصول الآثار عند شرب العقاقير لخواص طبائع تلك العقاقير وخواص النفوس. ولا يمكن التكفير بها؛ لأنها ليست من كسبهم، ولا كفر بغير مكتسب.

وأما اعتقادهم أن الكواكب تفعل ذلك بقدرة الله فهذا خطأ؛ لأنها لا تفعل ذلك ولا ربط الله تعالى ذاك بها، وإنما جاءت الآثار من خواص نفوسهم التي ربط الله بها تلك الآثار عند ذلك الاعتقاد، فيكون ذلك الاعتقاد في الكواكب خطأ، كما إذا اعتقد طبيب أن الله تعالى أودع في الصبر والسقمونيا عقد البطن وقطع الإسهال، وأما تكفيرهم بذلك فلا. وإن اعتقدوا أن الكواكب تفعل ذلك والشياطين بقدرتها لا بقدرة الله تعالى، فقد قال بعض علماء الشافعية: هذا مذهب المعتزلة في استقلال الحيوانات بقدرتها دون قدرة الله تعالى، فكما لا تكفر المعتزلة بذلك لا يكفر هؤلاء، ومنهم من فرَّق بأن الكواكب مظنة العبادة، فإذا انضم إلى ذلك اعتقاد القدرة والتأثير كان كفراً.

وأما قول الأصحاب: إنه علامة الكفر فمشكل؛ لأنا نتكلم في هذه المسألة باعتبار الفتيا، ونحن نعلم أن حال الإنسان في تصديقه الله تعالى ورسوله بعد عمل هذه العقاقير كحاله قبل ذلك، والشرع لا يخبر على خلاف الواقع، وإذا أرادوا الخاتمة فمشكل؛ لأنا لا نكفِّر في الحال بكفر واقع في المآل"[1].

وأخيراً قال القرافي: "الذي يستقيم في هذه المسألة ما حكاه الطرطوشي عن قدماء أصحابنا أنه لا يكفر حتى يثبت أنه من السحر الذي كفَّر الله به، أو يكون سحراً مشتملاً على كفر، كما قاله الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه"[2].

مآخذ من أقوال بعض المالكية في تعضيد رأي القرافي:

فمن ذلك أن مناط التكفير في مسألة الساحر غير ظاهرة في المذهب ولا متفق عليها. فبعضهم قال: السحر كفر لذاته؛ لأن الشرع وصفه بذلك، وحكم عليه به. وقال آخرون ـ كالطرطوشي ـ: هو دليل على الكفر وعلامة. قال ابن باز: "لأنه لا يتوصل إليه إلا بعبادة

---

(١) الفروق، ٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥، ثم ١٦٠ إلى ١٦٤.

(٢) الفروق، ٤/ ١٦٤. وقد اضطرب ابن الشاط في تعليقه على بحث القرافي، ولم أفهم موقفه ما هو بالضبط، انظر: إدرار الشروق على أنواء الفروق، ٤/ ١٥٢ فما بعدها. وابن الشاط شديد التعقب للقرافي، غير أنه لا يُسلم له كل ما انتقده على صاحب الفروق.

الجن والتقرب إليها بما يطلبون من ذبح وغيره من أنواع العبادة"[1]. وقال ابن العربي ـ وقد أدخل مالك السحر في باب الغيلة من الموطأ ـ : "إنما جعله مالك في باب الغيلة؛ لأن المسحور لا يعلم بعمل الساحر حتى يقع فيه. وقد قال مالك: إن من الغيلة سقي السم بالمرقد لأخذ أموال الناس، وهو ظاهر"[2]. فكأنه جعل السحر من الحرابة والفساد في الأرض. وقال في أحكام القرآن: "قال الشافعي: السحر معصية إن قتل بها الساحر قُتل، وإن أضرَّ بها أُدِّب على قدر الضرر. وهذا باطل من وجهين: أحدهما: أنه لم يعلم السحر، وحقيقته أنه كلام مؤلف يُعظَّم فيه غير الله تعالى، وتنسب إليه فيه المقادير والكائنات. والثاني: أن الله سبحانه قد صرح في كتابه بأنه كفر..."[3] ومفهوم الوجه الأول أن السحر الذي خلا من تعظيم غير الله ليس بكفر، وغاية ما فيه أنه لا يسمى سحراً.

ولهذا لما حكى القرطبي كلام ابن المنذر في تفصيل حكم الساحر، وهو على مذهب الشافعي، أعقبه بقوله: "هذا صحيح، ودماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين، ولا يقين مع الاختلاف"[4].

ثم إن الإمام مالكاً قال فيمن يعقد الرجال عن النساء: يعاقب ولا يقتل[5]، وقال في المرأة تعقد زوجها: تنكل ولا تقتل[6]. وهذا كله من السحر.

والعلامة ابن عاشور من الذين ذهبوا إلى رأي القرافي، قال: "لاشك أن السحر الذي جعل جزاؤه القتل هو ما كان كفراً صريحاً مع الاستتار به، أو حصل به إهلاك النفوس... فهذا هو مراد مالك بأن جزاءه القتل، أي إن قَتل؛ ولذلك قال: لا تقبل توبته. وبدون هذا التأويل لا يصح فقه هذه المسألة، فقول مالك في السحر ليس استناداً لدليل معين في خصوص السحر، ولكنه من باب تحقيق المناط بتطبيق قواعد التعزير والإضرار"[7].

ولهذا الاشتباه قال الشيخ اللقاني: إن ما أصَّله القرافي من التفريق بين أنواع السحر

---

(١) مجموع مقالات وفتاوى متنوعة، ٢/ ١٢٠ وانظر: الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٤.

(٢) القبس، شرح الموطأ، ٣/ ١٠٠٢، باب ما جاء في الغيلة والسحر. وقارن بـ: أحكام القرآن، للجصاص، ١/ ٦٤. وانظر رأي ابن خلدون في مقدمته، ص ٣٧٠. وقتل فلان غيلة أي خدعة، بإيصال الشر والقتل إليه من حيث لا يعلم ولا يشعر. كما في لسان العرب، مادة غيل.

(٣) أحكام القرآن، ١/ ٤٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٤.

(٥) المحرر الوجيز، ١/ ٣٠٦.

(٦) المفهم، ٥/ ٥٧٥.

(٧) التحرير والتنوير، ١/ ٦٣٧ ـ ٦٣٨.

والطلسمات والخواص... ينبغي أن يكون عليه مدار المذهب المالكي[1].

وكما اختلف العلماء في حكم ممارسة السحر، اختلفوا في تعلمه:

في تعلم السحر:

قال ابن قدامة الحنبلي: "تعلم السحر وتعليمه حرام، لا نعلم فيه خلافاً بين أهل العلم. قال أصحابنا: ويكفر الساحر بتعلمه وفعله، سواء اعتقد تحريمه أو إباحته"[2].

هذا قول أكثر العلماء. لكن بعض أهل العلم جوّز تعلم السحر إذا كان ذلك لغرض شريف[3]. ومن أشهر هؤلاء المجوزين: الفخر الرازي، وكلامه في ذلك مردد معلوم، قال ـ في مسائل آية ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢] ـ:

"المسألة الخامسة: في أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور: اتفق المحققون على ذلك؛ لأن العلم لذاته شريف، وأيضاً لعموم قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٩]؛ ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجز، والعلم بكون المعجز معجزاً واجب، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب، فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً، وما يكون واجباً كيف يكون حراماً وقبيحاً"[4].

وقال بعض الحنفية: إن تعلَّمه ليتَّقيه أو ليجتنبه فلا يكفر، ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه ينفعه، كَفَر[5].

وقال ابن الأكفاني: علم السحر "منفعته أن يُعلم ليحذَر، لا ليُعمل، ولا نزاع في تحريم عمله. أما مجرد علمه فظاهر الإباحة، بل ذهب بعض النظار إلى أنه فرض كفاية، لجواز ظهور ساحر يدعي النبوة، فيكون في الأمة من يكشفه ويقطعه، وأيضاً يعلم منه ما يقتل، فيقتل فاعله قصاصاً"[6].

---

(١) نقله عنه المدني كنون في كتابه المخطوط: حديقة الأزهار المهداة لسيد الأبرار في التحذير من تعاطي علم الكيمياء والكنوز والنار، ص ٣٣١. واللقاني هو إبراهيم برهان الدين، المالكي المصري، عالم مشارك، شرح نخبة الفكر لابن حجر، وجوهرة التوحيد، وله حاشية على مختصر خليل... توفي سنة ١٠٤١هـ. عن معجم المؤلفين، ١/ ٢.

(٢) المغني، ١٠/ ١٠٦.

(٣) ممن حكى الاختلاف في تعلم السحر الوزير أبو المظفر ابن هبيرة في كتابه "الإشراف على مذاهب الأشراف"، كما نقله ابن كثير في تفسيره. وصرح الهيتمي في: الإعلام بقواطع الإسلام، ص ٩٩، بأن الحرمة مذهب الأكثرين.

(٤) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٢.

(٥) ذكره ابن هبيرة في الإشراف، ونقله عنه: ابن كثير في تفسيره، ١/ ١٨٥، والعيني في عمدة القاري، ١٤/ ٦٤.

(٦) إرشاد القاصد، ص ٦٧.



وممن جوز تعلم السحر، وربط ذلك بمقاصد المكلف: القرافي، واليوسي[1].

واستدل الجمهور بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[البقرة: ١٠٢]. قالوا: "ظاهر الآية يقتضي أنهم إنما كفروا لأجل أنهم كانوا يعلمون الناس السحر؛ لأن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية، وتعليم ما لا يكون كفراً لا يوجب الكفر، فصارت الآية دالة على أن تعليم السحر كُفر"[2].

وقال ابن كثير ـ في الرد على الرازي، بعد أن ذكر كلامه ـ: "هذا الكلام فيه نظر من وجوه: أحدها: قوله: العلم بالسحر ليس بقبيح، إن عنى به ليس بقبيح عقلاً، فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا، وإن عنى أنه ليس بقبيح شرعاً، ففي هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر، وفي الصحيح: "من أتى عرَّافاً أو كاهناً، فقد كفر بما أنزل على محمد". وفي السنن: "من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر". وقوله: "ولا محظور، اتفق المحققون على ذلك". كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث؟! واتفاق المحققين يقتضي أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة العلماء، أو أكثرهم، وأين نصوصهم على ذلك؟ ثم إدخاله السحر في عموم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فيه نظر؛ لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين بالعلم الشرعي، ولم قلتَ إن هذا منه؟ ثم تَرقِّيه إلى وجوب تعلمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به، ضعيف بل فاسد؛ لأن معظم معجزات رسولنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ هي القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلاً. ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرقون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يعلمون السحر، ولا تعلموه ولا علَّموه، والله أعلم"[3].

وقال الرملي ـ بعد أن أفتى بتحريم تعلم السحر ـ: "السحر ـ أو نحوه ـ إن لم يبلغ حدَّ الإعجاز الذي هو كفلق الرمل وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، كما هو مذهب جميع العقلاء، فظاهر أنه لا يلتبس السحر بالمعجزة، فلا إشكال، وإن بلغ السحر حدَّ الإعجاز، فإما أن يكون بدون دعوى التحدي، فظاهر أنه لا التباس؛ أو يكون معه، فلا بد من أحد

---

(١) "الفروق"، ٤/ ١٦٤ ـ ١٦٥. "أبو الحسن اليوسي"، ص ١٧٥. وقارن بـ: فتح العلي المالك، ٢/ ٣٠١. وراجع كذلك: روح المعاني، ١/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠. تفسير المنار، ٩/ ٤٦.

(٢) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٥، وراجع فيه كيف وجه الرازي معنى الآية في هذا الموضوع. وانظر أيضاً: تفسير ابن كثير، ١/ ١٧٩.

(٣) تفسير ابن كثير، ١/ ١٨٢. وقد نقل العيني معظم هذا الكلام وأقره، في شرحه على البخاري، ١٤/ ٦٤.

أمرين: أن لا يخلق الله (ذلك) على يده، أو أن يُقدر غيره على معارضته، وإلا كان تصديقاً للكاذب، وإنه محال على الله سبحانه وتعالى"[1]. فعلى جميع الوجوه لا يحتاج التفريق بين السحر والمعجزة إلى تعلم السحر.

والظاهر أن رأي الجمهور في حظر تعلم السحر هو من باب سد الذرائع، ولذا وقع الاختلاف، فالمسألة اجتهادية إذن.

هل يسأل الساحر حل سحره ؟

اختلف في ذلك الفقهاء، فقال بعضهم: لا يسأل؛ لأن النبي ﷺ، نهى عن إتيان الساحر، ولا يدفع الحرام بالحرام.

وقال آخرون: بل ذلك النهي على التصديق له، فيسأل الساحر حل سحره رفعاً للضرر النازل. وبعض الفقهاء ـ كأحمد ـ توقف في المسألة.

والمسألة اجتهادية متقاربة المآخذ؛ ولهذا بوَّبها البخاري هكذا: باب هل يَستخرج السحر[2]؟

المبحث الثالث: الأحكام التفصيلية للكهانة والعرافة والتنجيم.. وسائر فنون التنبؤ.

تحريم فنون التنبؤ بالغيب:

وأعني بهذه الفنون تلك التي لا تقوم على منهاج العلم وسننه، وتهدف إلى الإخبار المفصل عن الغيبيات.

فالكاهن، والعراف، والرمال، والمنجم، والزاجر، والمستقسم بالأزلام والناظر في الكتف، والمستعمل للقرعة، لهم الحكم نفسه، فالكل مذموم شرعاً محكوم عليهم وعلى مصدقهم بالكفر[3]، أو بما يقرب منه.

فهذه الفنون مترابطة من قديم[4]. وحكى بعضهم الإجماع على تحريمها جميعاً[5].

---

(١) فتاوى الرملي، ٤/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(٢) راجع: صحيح البخاري، باب ٤٩ من كتاب الطب. المفهم، ٥/ ٥٧٥. تفسير ابن كثير، ١/ ١٨٥. عمدة القاري، ١٤/ ٦٣، ٢١/ ٢٧٩. المغني، لابن قدامة، ١٠/ ١١٤. الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٥.

(٣) مخطوط: تبليغ الأمانة في مضار الإسراف والتبرج والكهانة، لعبد الحي الكتاني، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ ـ ١٩٧. فتاوى ابن الصلاح، ١/ ٣٣٩. شرح العقيدة الطحاوية، ٢/ ٧٦٠. حديقة الأزهار، للمدني كنون، ص ٣٦٩، ٣٧٢.

(٤) L'astrologie, p 56.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، ٢/ ٧٦١.



قال الشيخ زروق - في فصل الاشتغال بعلم المغيبات وتحصيلها بطريقة الكسب.. -: "وهذا الفن هو مفتاح كل فتنة في الدنيا والدين، وقلَّ من تعلق به فأفلح؛ لأن مرجعه إلى الكهانة، وهي ضد الحق... قال علماؤنا: ولو لم يكن في ذلك إلا التجسس على رب العالمين لكان كافياً، ومن تجسس على أقل الخلق ماذا ترى يلقى منه من السوء، فكيف بمن تجسس على ملك السماوات والأرض..."[1].

هذا على العموم، وإليك تفصيل أحكام أهم هذه الفنون:

الكهانة:

تحريم إتيان الكهان:

قال الشيخ الكتاني: "قد تظافرت الأحاديث الصحاح بالنهي عن إتيان الكهان وتصديقهم فيما يقولون"[2]. ومن هذه الأحاديث:

١- قول النبي ﷺ لمعاوية السلمي حين سأله عن الكهان: "لا تأتهم". وهو في باب الكهانة من صحيح مسلم.

٢- وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: "ليس منا من تَطير أو تُطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له"...[3]

الإجماع على هذا التحريم:

ولما كان الكاهن يخبر عن الغيوب التي لا يعلمها إلا الله سبحانه، وكان النبي ﷺ قد نهى عن إتيانهم وتصديقهم.. فقد حرَّم العلماء الكهانة من جميع النواحي، فحرموا ممارستها وادعاءها والذهاب إلى أهلها وسؤالهم، وأوجبوا أن يعتقد المرء أن كل ذلك باطل ليس بشيء، كما قال النبي الكريم حين سئل عن الكهان: "ليسوا بشيء"[4].

ومن أهمّه أمر - من مرض أو نحوه - فليسلك السبل المشروعة إليه، من اللجوء إلى الأطباء ونحوهم[5].

---

(١) عدة المريد الصادق، ص ٤٩٥ - ٤٩٦.

(٢) تبليغ الأمانة في مضار الإسراف والتبرج والكهانة، ص ١٩٤.

(٣) تقدم في حكم تصديق مدعي علم الغيب، في المبحث الأول.

(٤) المفهم، للقرطبي، ٥/ ٦٣٣، كتاب الطب. السراج المنير، ٣/ ٢٤٣، ٤٥٤. تبليغ الأمانة... ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٥) مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز، ٣/ ٢٧٤.



تحريم التنجيم:

التنجيم صناعة محرمة بإجماع المسلمين، ومن ابتلي بشيء منها وجب عليه المبادرة بالتوبة منه[1].

وذكر بعض العلماء أن هذا التحريم كان في جميع الشرائع والملل السماوية[2].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ نهى عن النظر في النجوم[3]. أيضاً عن ابن مسعود أن الرسول الكريم قال: "إذا ذكرت النجوم فأمسكوا"[4]. قال النووي: "معناه: أمسكوا عن الخوض في علم النجوم، والعمل به، وتصديق قائله"[5]. والمقصود هنا هو التنجيم، أي علم التأثير[6]، وهو يقابل الهيئة، وهي علم التسيير.

ونصوص العلماء في تحريم التنجيم كثيرة[7].

جواز علم الهيئة:

قال الشيخ الخطابي: "علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان... فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس، كالذي يعرف به الزوال، ويعلم به جهة القبلة، فإنه غير داخل فيما نهي عنه، وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً فالشمس بعد صاعدةٌ نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من

---

(١) فتاوى النووي، ص ٢٣٠، ٢٣٣، وهي المسماة بـ "المسائل المنثورة". الفتاوى، لابن تيمية، ٣٥/ ١٩٢، ١٩٧. المعيار، للونشريسي، ١٢/ ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) المفهم، لأحمد القرطبي، ٥/ ٦٣٨. الفتاوى، لابن تيمية، ٣٥/ ١٩٢. شرح العقيدة الطحاوية، ٢/ ٧٦٢.

(٣) أخرجه الخطيب في القول في علم النجوم، ص ١٧٧. وذكر المحقق بالهامش قوماً آخرين رووا الحديث، منهم: العقيلي في الضعفاء، وابن حبان في المجروحين، والطبراني في المعجم الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان.. وكلام المحقق معتمد؛ لأنه من أهل الاختصاص.

(٤) في الجامع الصغير أن الحديث رواه الطبراني عن ابن مسعود وثوبان مولى النبي، ورواه أيضاً ابن عدي في الكامل عن عمر. وهو حديث حسن، ١/ ٩٥. وحسنه أيضاً الحافظ العراقي في: المغني عن حمل الأسفار، ١/ ٤١.

(٥) المسائل المنثورة، ص ٢٥٧.

(٦) السراج المنير، ١/ ١٢٩.

(٧) انظر: القول في علم النجوم، ص ١٦٨. فتح المجيد، ٣٠٦. مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، لابن باز، ٢/ ١٢٣. فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب الحنبلي، ص ١٢ - ١٣. رسالة: تحذير المسلمين من تصديق الكهان والعرافين والمنجمين، لمحمد بن عبد الباري الأهدل، ص ٧ - ٨.



وسط السماء نحو الأفق الغربي. وهذا علم يصحُّ دركه من جهة المشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته.

وأما ما يُستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة فإنما هي كواكب أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين، ومعرفتهم بها، وصدقهم فيما أخبروا به عنها، مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ويشاهدوها في حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم: الدلالة عنها بالمعاينة، وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم إذا كانوا غير متهمين في دينهم ولا مقصرين في معرفتهم"[١].

وهذه التفرقة بين التنجيم وعلم الفلك أساسية في الفقه الإسلامي، ويكاد يذكرها كل من تعرض لهذا الموضوع[٢]. وبها بدأ الخطيب البغدادي كتابه في النجوم، فقد نبَّه أولاً على أن العلم بالكواكب ومنازلها وحركاتها، وبالأمطار والمواقيت.. ونحو ذلك، علم مباح، بل تعلُّمه فضيلة[٣]. واحتج لذلك ببعض الآيات، وكذا ببعض الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين، ومنها ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "أحب عباد الله إلى الله رعاء الشمس والقمر، الذين يحبِّبون عباد الله إلى الله، ويحبِّبون الله إلى عباده«[٤].

ولذلك جوّز كثير من التابعين النظر في النجوم على طريقة علم الفلك، ويروى هذا عنهم[٥]. كما يروى عن بعض الأئمة مثل أحمد وإسحاق بن راهويه[٦].

---

(١) معالم السنن، ٤/ ٢١٢ ـ ٢١٣، كتاب الطب.

(٢) ممن نقل نص الخطابي وأقره: الشيخ العزيزي، في: السراج المنير، ٣/ ٣٣٨. الشوكاني في: نيل الأوطار، ٧/ ٣٦٩ فما بعدها. الشيخ الطيب آبادي في كتابه: عون المعبود، ١٠/ ٤٠٠. عبد الرحمان آل الشيخ في: فتح المجيد، ص ٣٠٦. القرضاوي في: العقل والعلم في القرآن الكريم، ص ١٤٠ ـ ١٤١. وانظر في هذه التفرقة نصوصاً أخرى في: فضل علم السلف، ص ١٢ ـ ١٣. إحياء علوم الدين، ١/ ٤١. فتوى في علم النجوم، للشيخ محمد البناني، ص ٤١٨. (والفتوى مخطوطة). مخطوط: حدائق الأزهار المهداة لسيد الأبرار في التحذير من تعاطي علم الكيمياء والكنوز والنار، للمدني جلون، ص ٣٨٩ إلى ٣٩٣.

(٣) القول في علم النجوم، ص ١٢٦.

(٤) راجع: القول في علم النجوم، ص ١٢٧ فما بعدها. والآيات مثل: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ...﴾ و﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ونحوها. أما الحديث فقد ذكر المحقق أنه من إخراج الحافظ عبد بن حميد في "المنتخب من المسند"، ٣/ ٢٠٤، وكذا البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب مراعاة أدلة المواقيت. ومعنى رعاء الشمس والقمر أنهم يلاحظونهما ليستنتجوا مواقيت العبادة.

(٥) راجع: القول في علم النجوم، ص ١٣١ إلى ١٣٣. فتح المجيد، ص ٣٠٧.

(٦) فتح المجيد، ص ٣٠٧.

فهذا العلم علم صحيح لا ريب فيه، كما قال ابن تيمية[1]. واسمه في تراثنا العلمي هو علم الهيئة، وصفه ابن خلدون بأنه صناعة شريفة وعلم جليل[2]. وقال ابن حزم: هو علم حسن صحيح رفيع يشرف به الناظر فيه على عظيم قدرة الله عز وجل ...[3]

بل يوجد في الفقه الإسلامي موضوع خلافي بين العلماء، وهو: هل يجوز العمل بالحساب الفلكي في بعض أنواع العبادة، كالصوم؟ ومن لم يجز هذا العمل لم يقل إن هذا الحساب باطل، بل قال: إن في رؤية الهلال بالعين المجردة وانبناء مسألة بداية رمضان وانتهائه على هذه الرؤية.. معنًى تعبديًا ينبغي الحفاظ عليه وعلى صورته[4]. لكن الجمهور قال: إذا ادعى أحد رؤية الهلال، وحكم علم الفلك باستحالة الرؤية في الزمان والمكان المعينين.. رفضت دعواه، وحملت ـ إن كان المدعي ثقة ـ على التوهم[5].

توقعات الأرصاد الجوية:

ولذلك فإن هذا التوقع جائز لا حرج فيه، فمادام يقوم على منهاج من العلم واضح فلا بأس به، وإنما منع الإسلام الكهانة؛ لأنها دخول في عالم الغيب بغير دليل ولا سبيل صحيح. فليس يوجد أي إشكال في الجهود العلمية التي تبغي تحسين مقدرة الإنسان على توقع مستقبل الظواهر الجوية، ولا ينبغي للعالم المسلم أن يشعر بأنه يتطفل على علم الغيب، أو يحاول التعرف على علم استأثر الله تعالى به. وليتذكر القاعدة الذهبية التي سبق أن قدمتها في الفصل الأول من الباب الأول: الغيب ما لا دليل عليه. وليتذكر أيضاً أن الغيب الذي لا سبيل إليه هو علمه على وجه اليقين، أما على وجه الظن والتغليب فأمر ممكن[6].

وكل توقع ينبني على دليل ويسير على هدى من العلم، لا حرج فيه؛ ولذلك يقول التفتازاني: "العلم بالغيب أمر تفرد به الله تعالى، لا سبيل إليه للعباد، إلا بإعلام منه تعالى، وإلهام بطريق المعجزة أو الكرامة، أو إرشاد إلى استدلال بالأمارات فيما يمكن

---

(١) الفتاوى، ٣٥/ ١٨١.

(٢) المقدمة، ص ٣٦٣.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٥/١٤٨.

(٤) راجع: المقدمات الممهدات، لابن رشد، ٣/ ٤١٥. مفاتيح الغيب، ٢٠/ ١٢، النحل ١٦. إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، ٤/ ٢٠٦.

(٥) راجع التفاصيل في كتاب: قضايا فقهية معاصرة، لمحمد السنبهلي، ص ٨٨ إلى ٩٠.

(٦) وهذا أيضاً قول كثير من االعلماء المعاصرين، ومنهم الشيخ القرضاوي في: العقل والعلم في القرآن الكريم، ص ١٤١.



ذلك فيه، ولهذا ذكر في الفتاوى أن قول القائل عند رؤية هالة القمر: يكون المطر، مدَّعياً علم الغيب لا بعلامة، كُفر"[1].

بل أقول: إن هذا العلم من فروض الكفاية على الأمة، وهو يعتبر اليوم أحد المجالات العلمية الاستراتيجية؛ ولذلك تعتبر بعض قضايا هذا العلم من أسرار الدول الكبرى، والمنافسة فيه قائمة على أشدها بين الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة، وهذا ما يفسر رفض الدول الغربية بيع الحواسيب الكبيرة ـ المستعملة في مجال التوقع الجوي ـ لغيرها من دول الجنوب. واليوم إذا أراد بلد مثل المغرب معلومة ما في هذا المجال، فعليه أن يقدم طلباً رسمياً يرسل إلى باريس، ويعالج هناك في المختبرات المختصة، ثم يتلقى جواباً محدداً.

ويؤكد صحة هذا الحكم، أعني أن علم الأرصاد والتوقع من فروض الكفاية على الأمة، كثرة فوائده وأهميتها. فالتوقع اليوم مطلوب في مجالات كثيرة، حيث يعين على تجنب مشاكل وكوارث، ويساهم في رفع المردود وتخطيط الأعمال...ومن هذه المجالات:

ـ الفلاحة.

ـ الصناعة الكهربائية: إذ من المهم معرفة قدر الاستهلاك المتوقع للكهرباء في فصل الشتاء، فذلك يتغير بحسب شدة الفصل أو اعتداله.

ـ النقل الطرقي والنهري.

ـ التلوث.

ـ حالة الطقس بالمرتفعات الجبلية التي تكسوها الثلوج، فانهيارات الثلوج تكون أحياناً خطرة، ويمكن أن تدفن قرية بأكملها.

ـ يحتاج إلى هذا التوقع أيضاً: العاملون بالبحار، وربابنة السفن، فهو يعينهم على اختيار الطريق الأمثل، وتجنب المناطق التي طقسها رديء، وهذا التوقع ينفع كذلك سفن الصيد، خصوصاً بالسواحل؛ وكذا المحطات البحرية التي تستخرج النفط من أعماق البحر.

ـ ويعتمد الطيران الجوي بدوره على توقعات الأرصاد المختصة. ويكفي أن نعرف أنه في بعض أنواع الغيوم يمكن لتيارات جوية عمودية أن تحطم أكثر الطائرات صلابة، ولهذا يتتبع الطيار في رحلته خريطة جوية تتغير باستمرار، بحسب المعلومات التي ترسلها إليه المحطات الأرضية، فيغير تبعاً لذلك مسار الرحلة.

ـ وتسمح بعض التوقعات أحياناً بإنقاذ آلاف السكان ـ أو عشرات الآلاف ـ من الرياح والأعاصير المدمرة.

---

(١) شرح العقائد النسفية، ص ١٠٨.

وعلى العموم يوجد إقبال متزايد على معرفة توقعات الأرصاد الجوية، ومن مختلف الطبقات[1].

حكم الخط:

قال ابن حجر الهيتمي: "تعلم الرمل وتعليمه حرام شديد التحريم، وكذا فعله، لما فيه من إيهام العوام أن فاعله يشارك الله في غيبه وما استأثر بمعرفته." [2] وكذلك قال آخرون من العلماء[3].

وربما استدلوا على تحريم الرمل بحديث النبي ﷺ: "العيافة والطيرة والطرق من الجبت"[4]. وقالوا: الطرق هو الخط. والجبت في الأصل الفشل الذي لا خير فيه، ثم استعير لما يعبد من دون الله، فهي كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر، ونحو ذلك[5].

وسئل أحمد القباب عمن يشتغل بضرب الخط، وغيره من أنواع الكهانة... فأجاب: أما المشتغل بالكهانة بضرب الخط وغيره فذلك من أكبر المناكر، ولا يجوز تصديق صاحبه، ولا يحل، وهو فاسد، ويؤدب[6].

وفي المعيار: "سئل أبو القاسم بن سراج عن إمام يشتغل بضرب الخط، هل يقدح ذلك في إمامته أم لا؟ فأجاب لا تجوز الصلاة خلف الإمام الموصوف في سؤالك، ويؤخر عن الإمامة؛ لأن ضرب الخط غير جائز، وكذلك الحسابة والكهانة والتنجيم والقرعة والحب، وغير ذلك مما يشبه هذه الأشياء.." [7].

الاستقسام بالأزلام، وما شابهه:

جاء الكتاب الكريم بتحريم هذا الاستقسام، وأجمع على ذلك الفقهاء، لكن يبقى للاجتهاد مجال في تعليل هذا المنع.

---

(١) اعتمدت في بيان فوائد التوقع الجوي تلك على: La Météorologie, p 111 à 118. وانظر:
Article : Prévision numérique, p 45 à 49, in : Futuribles

(٢) الفتاوى الحديثية، ص ٨٨. شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد. عالم مصري مشارك، توفي بمكة سنة ٩٧٣هـ. له: شرح منهاج النووي في الفقه. وكتب في مناقب الأئمة الأربعة، وفي التربية، والرد على المبتدعة. عن معجم المؤلفين، ٢/ ١٥٢.

(٣) انظر: المنتقى، للباجي، ٧/ ٢٩٧. تحذير الإخوان المسلمين من تصديق الكهان والعرافين والمنجمين، ص ٩ إلى ١١. دليل الفالحين، ٤/ ٥٠٩.

(٤) تقدم في المبحث الأول.

(٥) عون المعبود، شرح سنن أبي داود، ١٠/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤. دليل الفالحين، ٤/ ٥١٥. فتح المجيد، ص ٢٧٧.

(٦) المعيار، ١٢/ ٥٥.

(٧) المعيار المعرب، لأحمد الونشريسي، ١/ ١٣٣.



علة التحريم:

ويظهر لي من خلال ما قرأت لعلمائنا في تفسير آية المائدة أن اجتهاداتهم في التعليل مختلفة، وإن كانت متقاربة. ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة آراء:

١ ـ الاستقسام بالأزلام محرَّم؛ لأنه محاولة لعلم الغيب. قال ابن العربي: "هو محرمٌ فسقٌ ممن فعله، فإنه تعرض لعلم الغيب، ولا يجوز لأحد من خلق الله أن يتعرض للغيب ولا يطلبه، فإن الله سبحانه قد رفعه بعد نبيه إلا في الرؤيا"(١).

وقال الزمخشري: "فإن قلت: لم كان استقسام المسافر وغيره بالأزلام لتعرف الحال فسقاً. قلت: لأنه دخول في علم الغيب الذي استأثر به علام الغيوب ... واعتقاد أن إليه طريقاً وإلى استنباطه. وقوله: أمرني ربي ونهاني ربي، افتراء على الله وما يدريه أنه أمره أو نهاه. والكهنة والمنجمون بهذه المثابة"(٢).

٢ ـ الاستقسام بالأزلام محرم؛ لأنه تعرض لعلم المستقبل بطريق فاسد. قال الشيخ محمود شلتوت: "لما كان هذا الاستقسام منشؤه الوهم الفاسد، كما أن تحليل المحرم منشؤه الوهم الفاسد والهوى الضال، نظما معاً في سلك واحد، وأخذا حكم التحريم بقوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾ [المائدة: ٣]. ولا ريب أن الاعتماد على مثل هذا في معرفة ما يكون في مستقبل الإنسان، وهو غيب لا يعلمه إلا الله، اعتمادٌ على وهم يأباه دين العقل والبرهان الذي لا يرضى أن يخضع الإنسان ويقيد حياته وتصرفه بمثل هذا الوهم الباطل، وأن يلغي عقله ويتطلع إلى معرفة الغيب بما لا يمت إليه بصلة"(٣).

وقال ابن عاشور: "ليس الاستقسام سبباً عادياً مضبوطاً، ولا سبباً شرعياً، فتمحض لأن يكون افتراء، مع أن ما فيه من توهم الناس إياه كاشفاً عن مراد الله بهم، من الكذب على الله؛ لأن الله نصب لمعرفة المسببات أسباباً عقلية: هي العلوم والمعارف المنتزعة من العقل، أو من أدلته، كالتجربة، وجعل أسباباً لا تعرف سببيتها إلا بتوقيف منه على لسان الرسل: كجعل الزوال سبباً للصلاة. وما عدا ذلك كذب وبهتان، فمن أجل ذلك كان فسقاً، ولذلك قال فقهاؤنا بجرحة من ينتحل ادِّعاء معرفة الغيوب"(٤).

---

(١) أحكام القرآن، ٢/ ٣١.

(٢) الكشاف، ١/ ٥٩٣. وهذا النص نقله القاسمي بلفظه في: محاسن التأويل، ٦/ ١٨٢٦، وأبو السعود بمعناه في: إرشاد العقل السليم، ٢/ ٥.

(٣) تفسير القرآن الكريم، لمحمود شلتوت، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠. والشيخ رحمه الله من علماء الأزهر في القرن العشرين، وله مصنفات في الدين والفكر. وسبق أن تولى مشيخة الأزهر.

(٤) التحرير والتنوير، ٦/ ٩٨.

وربما كان هذا الرأي الثاني بياناً وتقييداً للرأي الأول.

٣ ـ وقال آخرون: إن العرب كانوا يحملون تلك الأزلام عند الأصنام ويعتقدون أن ما يخرج من الأمر والنهي على تلك الأزلام فبإرشاد الأصنام وإعانتهم، فلهذا السبب كان ذلك فسقاً وكفراً[١]. ولهذا جاء ذكرها مقروناً بالأنصاب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾. [المائدة: ٩٠].

قال الرازي: وهذا القول عندي أولى وأقرب، وبيان ذلك أن "لقائل أن يقول: لو كان طلب الظن بناء على الأمارات المتعارفة طلباً لمعرفة الغيب، لزم أن يكون علم التعبير غيباً أو كفراً؛ لأنه طلب للغيب، ويلزم أن يكون التمسك بالفأل كفراً؛ لأنه طلب للغيب، ويتعين أن يكون أصحاب الكرامات المدعون للإلهامات كفاراً، ومعلوم أن ذلك كله باطل. وأيضاً فالآيات إنما وردت في العلم، والمستقسم بالأزلام نسلم أنه لا يستفيد من ذلك علماً وإنما يستفيد من ذلك ظنًّا ضعيفاً، فلم يكن ذلك داخلاً تحت هذه الآيات"[٢].

ونحى ابن عاشور إلى التعليل بأكثر من علة، بما في ذلك شبه الأزلام بالقمار[٣].

أشكال جديدة من الاستقسام بالأزلام:

وقد اكتشف الناس أساليب بديلة عن الاستقسام الجاهلي القديم، ومن أشهرها ببلاد المسلمين فتح المصحف ـ أو كتاب آخر كديوان الحافظ الشيرازي ـ بطريقة عشوائية، ثم النظر إلى أول جملة تقابلك منه، والعمل وفق "إيحاءاتها"[٤]. ومن هذا الباب رقاع يكتب فيها، فتطوى، ثم يؤخذ منها واحدة، ويقرأ ما فيها، ويعمل بحسب ذلك[٥].

وهذه العادة وجدت أيضاً في العالم المسيحي، فكانوا يأخذون الفأل من فتح الكتب المقدسة عندهم، كالإنجيل، وقراءة أول ما يصادف العين في الصفحة[٦].

وكل هذا حرام يجب اجتنابه. قال ابن العربي: "إن قيل: هل يجوز طلب ذلك ـ أي الفأل ـ في المصحف؟ قلنا: لا يجوز، فإنه لم يكن المصحف ليعلم به الغيب، وإنما بينت

---

(١) مفاتيح الغيب، ١١/١٣٦. (نسخة المطبعة البهية).

(٢) مفاتيح الغيب، ١١/١٣٦. والصواب ـ فيما ظهر لي ـ: لزم أن يكون علم التعبير فسقاً أو كفراً. فلعله خطأ الناسخ.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ٦/٩٨.

(٤) المحرر الوجيز، ٥/١٨٢. الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٢٨٥. (نسخة دار الكتب المصرية). السراج الوهاج، ٨/٣٩٢.

(٥) المنتقى، ٧/٢٩٧.

(٦) انظر: Histoire des Oracles, p 135 à 142



آياته ورسمت كلماته ليمنع عن الغيب، فلا تشتغلوا به، ولا يتعرض أحدكم له"[1]. وأيضاً؛ لأنه قد يخرج له ما لا يريد فيؤدي ذلك إلى التشاؤم بالقرآن[2].

وقال الشيخ شلتوت ـ بعد ذكره للاستقسام بالأزلام ـ: "ويلحق بهذا النوع الذي حرمه الله على الإنسان احتفاظاً بعقله: ما يشبهه من وسائل الاستقسام التي يعتادها الناس اليوم، كالطرق بالحصا، وضرب الفول والرمل، والاستخارة بحبات السبحة. ومن أقبح أنواع الاستخارة: الاستخارة بالقرآن الكريم الذي جرت به عادة بعض المسلمين وصار شأناً معروفاً حتى عند أهل العلم والدين، وما كان الله ليرضى أن يكون كتاب هدايته وإرشاده للتي هي أقوم في الحياة العقلية والروحية والعملية، أداة لشعوذة أو لعبة في يد عابث أو مضلل أو محتال.." [3].

فهذا أيضاً يدخل في حكم حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ: " لن ينال الدرجات العلى من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر تطيراً"[4].

ليست القرعة من باب الأزلام:

لكن القرعة مشروعة، ويجوز استعمالها عند تساوي الحالات أو اشتباه الأمور، فهذا أصل عام صحيح، وإن كان الفقهاء يختلفون أحياناً في تطبيق القرعة على جزئيات الوقائع. وقد عقد البخاري في صحيحه باباً عن القرعة في المشكلات، وهو في كتاب الشهادات، فراجعه مع شروحه.

والذي يهمنا هنا هو الفرق بين القرعة والأزلام[5]، وقد بينه الكيا الهراسي في أحكامه، وهو كلام سليم، وإن كان فيه بعض الحدة على المخالفين، وأحسب أنهم بعض الحنفية .

قال: "ومعنى استقسام: طلب علم ما قسم له بالأزلام، وإلزام أنفسهم ما تأمرهم به

---

(١) أحكام القرآن، ٢/ ٣١.

(٢) الفواكه الدواني، ٢/ ٤٤٥. شرح ابن ناجي للرسالة، ٢/ ٤١٢. وقد جوز قلة من الفقهاء استخراج الفال من المصحف، منهم ابن بطة الحنبلي، كما في: حديقة الأزهار، ص ٣٧٣. وقال الهيتمي بالكراهة: الفتاوى الحديثية، ص ١٦٩.

(٣) تفسير القرآن الكريم، ص ٣٠٠. وانظر: المنتقى، ٧/ ٢٩٧. السراج الوهاج، ٨/ ٣٩٢.

(٤) رواه الطبراني بإسنادين أحدهما رجاله ثقات، كما في مجمع الزوائد، ٥/ ١١٨.

(٥) القرعة المقصودة هنا هي القرعة الفقهية، وليس علم القرعة الذي عرفه حاجي خليفة بأنه "علم يعرف به الاستدلال على الأحوال الحادثة في الاستقبال بكتابة الحروف على شكل من الأشكال، ثم يستدل بوقوعه على وقوع المطلوب، وهو كالرمل". كشف الظنون، ٢/ ١٣٢٦. فهذا النوع من القرعة تكهن خالص.



القداح بقسم اليمين... وهذا إنما نهى الله تعالى عنه فيما يتعلق بأمور الغيب، فإنه لا تدري نفس ما يصيبها غداً، فليس للأزلام في تعريف المغيبات أثر.

فاستنبط بعض الجاهلين من هذا الرد على الشافعي في الإقراع بين المماليك في العتق، ولم يعلم هذا الجاهل أن ما قاله الشافعي ـ بناء على الأخبار الصحيحة ـ ليس مما يعترض عليه بالنهي عن الاستقسام بالأزلام، فإن العتق حكم شرع، فيجوز أن يجعل الشرع خروج القرعة علماً على حصول العتق قطعاً للخصومة، أو لمصلحة يراها، ولا يساوي ذلك قول القائل: إذا فعلت كذا أو قلت كذا، فذلك يدل في المستقبل على أمر من الأمور، فلا يجوز أن يجعل خروج الإقراع علماً على شيء يتجدد في المستقبل، ويجوز أن يجعل خروج العتق علماً على العتق قطعاً، فظهر افتراق البابين"[1].

الكيمياء الخفية:

الذي وقفت عليه من أقوال الفقهاء المالكية في حكم الكيمياء رأيان مختلفان:

الأول: تحريم الكيمياء الخفية. فقد نص بعض المالكية على تجريح المشتغل بعلم الكيمياء مطلقاً، وقال أبو الحسن المنتصر المالكي بمنع إمامته[2].

وقد بين الشيخ زروق بعض أسباب هذا الحكم. قالوا: إن هذا العلم يؤدي إلى محرمات منها تأذي المشتغل بها ببعض السموم والمواد أثناء التجارب، ومنها: حرق ما لا يحل حرقه من شعر أو عظم أو تقطير حيوان، ومنها: إتلاف المال في أمر غير محقق ولا مظنون السلامة. ومنها: تعريض سمعته لما لا ينبغي؛ لأن المشتغل بهذه الكيمياء يُتهم عند الناس بالغش والتدليس[3].

ورأى الشيخ زروق أن مجرد معرفة هذا الفن لا بأس به، لما فيه من الاطلاع على أسرار العالم[4].

---

(١) أحكام القرآن، ٣/ ٢١ ـ ٢٢، المائدة ٣. وهو عماد الدين أبو الحسن علي بن محمد، فقيه وأصولي، من تلامذة الجويني، قدم بغداد ودرّس بها. له تعليقة في أصول الفقه، وكتب في الحديث... توفي سنة ٥٠٤هـ. عن معجم المؤلفين، ٧/ ٢٢٠.

(٢) مخطوط: حديقة الأزهار المهداة لسيد الأبرار في التحذير من تعاطي علم الكيمياء والكنوز والنار، لمحمد المدني بن جلون الكومي، ص ٣٤٦. الفواكه الدواني، ٢/ ١٢١. شرح زروق على رسالة القيرواني، ٢/ ١١٥.

(٣) عدة المريد الصادق، ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠، لأحمد زروق، وهو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن عيسى البرلسي، الشهير بزروق. فقيه ومحدث، ولد بفاس وتوفي بطرابلس الغرب سنة ٨٩٩هـ. كثير التأليف، من آثاره: قواعد التصوف، شرح الحكم العطائية. اغتنام الفوائد في التنبيه على معاني قواعد العقائد للغزالي. عن معجم المؤلفين، ١/ ١٥٥.

(٤) عدة المريد الصادق، ص ٤٩٠.



والخلاصة أن هذا الرأي الفقهي يرى تحريم الاشتغال بالكيمياء الخفية، ومن مآخذه في ذلك ما في هذه الصنعة من شبهة السحر والباطنية، ثم يختلف أصحاب هذا الرأي في حكم تعلم هذا الفن دون ممارسته، وهذا نظير اختلافهم في تعلم السحر.

الثاني: جواز الاشتغال بالكيمياء الخفية. وهذا رأي القاضي عياض، ومما قال: إن هذا العلم من الممكن الموجود، كما يدل على ذلك صنعة الزجاج وتحليل اللؤلؤ، وليس على مثبت هذا الفن أو منكره جنحة(١).

ومن الواضح أن هذا الاختلاف الفقهي مبناه على مسألة: هل الكيمياء الخفية ممكنة أو مستحيلة؟ فمن جوَّزها أباحها، ومن أحالها حرَّمها.

لكن الفقهاء متفقون على أن استعمال الكيمياء الخفية لإنتاج عملات مالية تشبه العملات الذهبية والفضية، بحيث يتوهم الناس أنها ذهب أو فضة حقيقة.. لا يجوز، ويحرم. وهنا يكون مناط التحريم هو تزييف النقود، لا الكيمياء في حدِّ ذاتها(٢).

المبحث الرابع: رأي فقهي في علم الباراسيكولوجيا.

تمهيد عن حكم الاتصال بعالم الجن:

في حكم سؤال الجن واستخدامهم:

رأينا أن الكهانة بوسيط هي استعانة بالجن، وقد انعقد الإجماع على تحريم هذه الاستعانة في الاستخبار عن المستقبل، وبقي الاحتمال في الغيوب الماضية والحاضرة، وفيه رأيان:

١ ـ عقد العلامة الشبلي الحنفي باباً عنوانه: في جواز سؤال الجن عن الأحوال الماضية والأشخاص النائية دون الأمور المستقبلة. وذكر آثاراً عن بعض الصحابة تعضد هذا التفصيل(٣). ثم قال: "ولا شك أن الله تعالى أقدر الجن على قطع المسافة الطويلة في الزمن القصير بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩] فإذا سأل السائل عن حادثة وقعت أو شخص في بلد بعيد، فمن الجائز أن

---

(١) نقله الشيخ عليش في: فتح العلي المالك، ٢/ ٢٦٣.

(٢) راجع: حديقة الأزهار، ص ٣٥٢ إلى ٣٥٦. شرح زروق على الرسالة، ٢/ ١١٥. فتح العلي المالك، ٢/ ٢٦٣.

(٣) مخطوط: التبيان فيما يتعلق بالجان، ص ٥٢. وانظر بعض هذه الأخبار في الفتاوى، لابن تيمية، ١٩/ ٦٣، ومنها سؤال أبي موسى الأشعري لامرأة لها قرين من الجن عن بعض أحوال عمر، فأخبره أنه تركه يسم إبل الصدقة.
والشبلي هو محمد بن عبد الله، فقيه حنفي، ولي قضاء طرابلس الشام. توفي سنة ٧٦٩هـ. عن معجم المؤلفين، ١٠/ ٢١٩.

يكون عنده علم من تلك الحادثة، وحال ذلك الشخص، فيخبر، ومن الجائز أن لا يكون عنده علم فيذهب فيكشف ثم يعود فيخبر. ومع هذا فهو خبر واحد لا يفيد غير الظن، ولا يترتب عليه حكم غير الاستئناس. وأما سؤالهم عما لم يقع فهو حرام، وتصديقهم فيه بناء على أنهم يعلمون الغيب كُفر، وعليه يحمل قوله عليه الصلاة والسلام: "لا تاتوهم"، وقوله ﷺ: "من أتى عرافاً..." الحديث"[(١)].

وقال ابن تيمية: "وأما سؤال الجن، وسؤال من يسألهم، فهذا إن كان على وجه التصديق لهم في كل ما يخبرون به والتعظيم للمسؤول فهو حرام... وأما إن كان يسأل المسؤول ليمتحن حاله ويختبر باطن أمره، وعنده ما يميز به صدقه من كذبه، فهذا جائز..."[(٢)] واستدل له بخبر سؤال الرسول ﷺ ابن صياد، وهو من قبائل المدينة، وكان النبي الكريم شك فيه هل هو الدجال أم مجرد كاهن من الكهان؟[(٣)].

وقسم ابن تيمية أنواع استخدام الجن إلى ثلاثة أقسام: استخدامهم في المحرمات، فهذا حرام. واستخدامهم في أمور مباحة، إما إحضار مال المستخدم أو دلالته على شيء أو دفع من يؤذيه، فهذا كاستعانة الإنس بعضهم ببعض. وأخيراً استعمالهم في طاعة الله ورسوله، كما يستعمل الإنس في ذلك[(٤)].

٢ ـ الرأي الثاني: سد الذريعة مطلقاً ومنع سؤال الجن واستحضارها. قال الشيخ ابن باز ـ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨] ـ : و"ذكر علماء التفسير أن استمتاع الجن بالإنس بعبادتهم إياهم بالذبائح والنذور والدعاء، وأن استمتاع الإنس بالجن قضاء حوائجهم التي يطلبونها منهم وإخبارهم ببعض المغيبات التي يطلع عليها الجن في بعض الجهات النائية، أو يسترقونها من السمع أو يكذبونه وهو الأكثر. ولو فرضنا أن هؤلاء الإنس لا يتقربون إلى الأرواح التي يستحضرونها بشيء من العبادة فإن ذلك لا يوجب حل ذلك وإباحته؛ لأن سؤال الشياطين والعرافين والكهنة والمنجمين ممنوع شرعاً وتصديقهم فيما يخبرون به أعظم تحريماً وأكبر إثماً، بل هو من شعب الكفر؛ لقول النبي ﷺ: "من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة"، وفي مسند أحمد والسنن عن النبي ﷺ أنه قال: "من أتى كاهناً فصدقه بما

---

(١) التبيان فيما يتعلق بالجان، ص ٥٤.

(٢) الفتاوى، ١٩/ ٦٢.

(٣) قصة ابن صياد في كتب السنة -بما فيها الصحيحان ـ، وقد بحثتها بتفصيل في كتابي: "النظرية الإسلامية في الكهانة"، ص ٢٤٤ إلى ص ٢٥٩.

(٤) راجع التفاصيل في: الفتاوى، ١٠/ ٨٧ إلى ٨٩. ١٩/ ٣٤ ـ ٣٥.



يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ". فلا يجوز سؤالها (أي الجن) ولا استحضارها ولا تصديقها، بل كل ذلك محرَّم ومنكر، بل وباطل..."[1].

ويظهر لي أن الأولى منع الاتصال بالجن والاشتغال بشؤونها، إلا في الضرورة كما في حالة المصروع، فهذا الاشتغال ليس من شأن المؤمن، و"من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه". ومازلت أذكر شكوى المرحوم محمد الغزالي من كثرة اهتمام المسلمين بعالم الجن، وتساءل هل اختصت الجن بالمسلمين، حتى إنه لا يتكلم عنها غيرهم من الأمم؟ ومن مظاهر هذا الغلو في الاهتمام بالموضوع كثرة الكتب التجارية عن الجن، وبعضها على شكل حوارات مطولة... وأكثر هذه الكتب لا تفيد، ولو قلت: الأولى منعها وحظر نشرها، لكان ذلك مذهباً، وكان دليله جواز تصرف الإمام في المباحات بالتقييد. ويكفي في هذا الباب كتب العقائد، فكثير منها يعقد فصولاً عن الاعتقاد الواجب في موضوع الجن، ويكفي أيضاً بعض الكتب الجامعة ككتاب الشبلي. والله تعالى أعلم وأحكم، إن نظن إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين.

ذبائح الجن:

ومما يتعلق بهذا الموضوع ـ أعني حكم الاتصال بالجن ـ: الذبائح التي تقدم إليها، قال الأستاذ جواد علي: "ولإرضاء الجن وإسكاتها، وتجنب أذاها، قام الجاهليون بتقديم الذبائح لها. فإذا أراد إنسان السكن في بيت جديد، أو استخراج الماء من بئر احتفرها أو من عين ماء، أو ما شاكل ذلك وخاف من وجود الجن فيها ذبح ذبيحة، يرضي بها الجن، فلا تتحرش عندئذٍ به ولا تصيبه بأذى؛ لأنه قد تقرب بالذبيحة إليها وبيَّن لها أنه صديق لها، فيعيش عندئذ قرير العين في بيته الجديد، لا يمس عماره بسوء"[2].

وهذه العادة كانت عامة في البشرية، ومازالت منها بقايا. ويعتقد كثير من الناس ـ عندنا بالمغرب ـ بأنه لابد من "إسالة الدم" عند باب المنزل الجديد، ويتم ذلك غالباً بذبح طير أو دجاج[3].

وهذا لا يجوز ـ فيما أحسب ـ حتى لو لم يقترن بنية الذبح للجن، سدًّا للذريعة وحسماً لهذا الباب، وقد روى البيهقي في السنن الكبرى أن النبي ﷺ نهى عن ذبائح الجن[4].

---

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، ٣/ ٣١٢ ـ ٣١٣.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٧٤٧.

(٣) ذكر جواد علي أيضاً استمرار هذه العادة إلى اليوم. المفصل، ٦/ ٧٢٠.

(٤) عن الجامع الصغير، ٢/ ٦٩٨، وفيه أنه مرسل عن ابن شهاب الزهري. وانظر في: شرح الحديث، وهو يوافق ما تقدم من كلام جواد علي: السراج المنير، ٣/ ٤٣٠، مع حاشية الحفني. ومن ذبائح الجن أيضاً ما يكون لدفع العين.



والبديل عن هذه العادة استدعاء بعض أهل الفضل والدين والعلم، وقراءة شيء من القرآن، وتدارس أمر من أمور العلم، ونحو ذلك، ولا أرى بأساً بإكرامهم. والمهم في هذا الموضوع أنه لابد من تقديم بديل عن هذه العادة الجاهلية القديمة، والتي هي ذبائح الجن، فطبيعة الإنسان هي هي، ولم يتغير فيها شيء عبر العصور، ولا يستسيغ كثير من الناس أن يدخلوا منزلاً جديداً ـ مثلاً ـ دون أن يقدموا بين يدي ذلك "شيئاً".

وهذا البحث في حكم إتيان الجن يفيدنا في بيان حكم علم الباراسيكولوجيا.

رأي فقهي في الباراسيكولوجيا:

تنقسم الظواهر الغريبة التي تدرسها الباراسيكولوجيا إلى نوعين:

الأول: ظواهر ذات علاقة بمخلوقات عاقلة، يسميها أكثر أهل الاختصاص بـ: الأرواح Esprits، في حين يقول بعضهم: إنها الجن الذين جاء ذكرهم في الأديان السماوية.

الثاني: ظواهر ذات علاقة بقدرات إنسانية خاصة وغير عادية.

ولا أرى أي حرج شرعي في دراسة **الظواهر الثانية**، فالبحث في مواهب الاستشفاف والجلاء البصري وتأثير الفكر في المادة، مثله مثل البحث المعروف في علم النفس التربوي عن قدرات الذكاء والذاكرة والانتباه، ونحو ذلك.

فهذا كله جائز، بل ومستحب. وإذا ثبت أن الأمة تحتاج إلى هذا البحث، فإنه يصبح من فروض الكفاية.

وكما يجوز أن يدرس المسلم هذا العلم، يجوز أيضاً أن تخصص له الدولة مركزاً للبحث أو قسماً من أقسام التعليم الجامعي.

لكن على الباراسيكولوجي المسلم أن يراعي بعض الأشياء:

١ ـ لابد من الوقوف عند دلالة النصوص الثابتة، فلا يفسر ظاهرة ما ـ مثلاً ـ بأنها من فعل روح الميت التي عادت لتختلط بالأحياء، اللهم إلا في الرؤى والمنامات.

٢ ـ في بعض كتابات الباراسيكولوجيا روح من الوضعية لا تخفى، فهي تسعى جاهدة إلى تفسير كل شيء بالقدرات غير العادية (ESP + PK)، قطعاً للطريق أمام تفسير بعض الظواهر بخلق آخر كالجن[١]... أو ربما حتى الملَك.

٣ ـ لا تطرح عندنا مشكلة توثيق الأخبار على نحوما تطرح عند الباراسيكولوجيين الغربيين[٢]؛ ولذلك ينبغي استعمال منهج الجرح والتعديل ودراسة الروايات، سواء تعلق ذلك بأحداث مضت أو بأخرى معاصرة لنا.

---

(١) انظر: Le spiritisme, p 90 à 95.

(٢) انظر: Amadou : La parapsychologie, p 27-28, 81.



٤ ـ ينبغي أيضاً أن يكون الدين أحد مصادر الباراسيكولوجيا؛ ولذلك فإن الرؤية المفقودة في الربط بين علم النفس والباراسيكولوجيا، وفي تقديم نظرية عامة لهذا العلم[١]... هذه الرؤية يمكن تلمس كثير منها في الإسلام وفي التراث البشري الذي دار حوله.

٥ ـ ويجب على الباحث المسلم في ميدان الباراسيكولوجيا أن لا يحصر أسباب الظواهر الغريبة في القدرات الباطنية للإنسان، وفي الجن، فقد يكون لبعض الظواهر علاقة بأشكال من الغيب لا نعرفها، ولم يخبرنا بها الوحي، كما لم يخبرنا عن جميع الغيبيات التي لها اتصال ما بحياتنا على الأرض، ولا يوجد في النصوص ما يمنع من إمكانية وجود مخلوقات أخرى أو ظواهر غير عادية لا نعرفها الآن. إذن ينبغي ترك الباب مفتوحاً لطريق ثالث لا أدري ما هو، فالمقصود هو عدم الجمود على نظر واحد وأسلوب واحد في هذا البحث.

أما **الظواهر الأولى** ذات العلاقة بالجن، وربما بشيء آخر، فيمكن أن نستخرج لها الحكم من خلال ما تقدم عن حكم الاتصال بعالم الجن، وقد رأينا أن في ذلك قولين: الجواز بشروط، أو التحريم.

والذي يظهر لي أن في الباراسيكولوجيا المهتمة بهذه الظواهر شائبتين:

١ ـ من حيث إن هذا البحث علم ودراسة، فهو جائز، بل مستحب، وقد تقدم في بداية هذا الفصل أن التحبيذ حكم عام للعلوم، وفي العلم تغتفر أشياء لا تغتفر في غيره.

وعلى هذا لا يدخل الباحث في هذا الميدان في الوعيد النبوي على إتيان الكهان والعرافين، وفي الباراسيكولوجيا يتم قسم من التجارب مع هؤلاء وبمعونتهم.

٢ ـ من حيث إنه اتصال بالشياطين وعالمها، فهذا بحث غير محبذ، وفي الحديث أن النبي ﷺ لما عرض له جِني ليُشوش عليه صلاته أمسك به وأراد أن يكتِّفه حتى الصباح ليراه الناس، ثم بدا له أن يطلق سراحه[٢]. وأنا أفهم من هذا الحديث رغبة المشرِّع في الفصل بين العالمين: الإنس والجن. فهذان عالمان مستقلان ومنفصلان بعضهما عن بعض، برغم الاتصال النادر أو القليل بينهما.

ولذلك أقول: إن البحث في هذه الظواهر الأولى ما هو بمباح ولا هو بحرام، فهو مكروه. وهذا الحكم هو مراعاة للخلاف، قبل الوقوع. والله تعالى أعلم وأحكم.

---

(١) راجع في هذه المسألة: Amadou : La parapsychologie, p 32, 36.

(٢) راجع تمام الحديث في: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٤٠. حديث: ٣٤٢٣ .



المبحث الخامس: التنبؤ بالغيب في القوانين الوضعية.

البحث السابق كله يتعلق بالفقه الإسلامي وآرائه. والآن أقدم للقارئ نظرة عن القوانين الوضعية في هذا المجال، في القديم وفي العصر الحاضر... وسيلاحظ القارئ أنها فقيرة في هذا الموضوع بالمقارنة مع التراث الفقهي:

قديماً:

في التاريخ القديم ثمَّة وعي نسبي بخطورة أنواع التكهن والسحر، ففي مدونة حمورابي - ألفي سنة قبل الميلاد -: إذا أصاب رجل إنساناً آخر بضرر ولعنة، فإنه يعاقب بالإعدام(١). والمقصود هنا هو السحر.

وفي سنة ٨١م أصدر سيلا قانوناً يعاقب على استعمال السحر في أغراض القتل، والإجهاض، والحب.. خصوصاً إذا تم ذلك بالسموم. وعقاب الساحر هو الإعدام حرقاً. بعدها في سنة ١٣٩ صدر مرسوم يمنع على المنجمين الاستقرار بإيطاليا، حيث يمكن نزع ممتلكاتهم وممتلكات السحرة أيضاً، وكل أحد يتصل بالكهان والعرافين، ويسألهم عن حياة الحاكم، أو عن قضية تخص الحياة العامة... يعاقب بالإعدام.

أما مجرد معرفة الفنون الخفية فجريمة يمكن أن يعاقب عليها بالموت، أو النفي، أو الأشغال الشاقة.

لكن هذا التشدد كله لم ينفع في إيقاف انتشار كل أشكال التكهن والسحر والتطير، فالإمبراطور أغسطس الذي أمر بإحراق كتب التنبؤ و"العلوم" الخفية، هو نفسه كان يهتم بطالعه الفلكي، كما كان لتيبريوس منجم خاص(٢).

وكان بروما كلية خاصة بالعيافة تضم مجموعة من كبار رجال الدولة الذين يفسرون حركات الطيور، ويستنتجون منها أموراً عن المستقبل. وبروما أيضاً كانت طائفة الخمسة عشر كاهناً تحتكر حق قراءة كتب سيبايل وتأويل نبوءاتها، وذلك بإذن من مجلس الشيوخ(٣).

أما على عهد الأباطرة القسطنطينيين فقد منعت كل أشكال الإخبار بالغيبيات، بما فيها تفسير الرؤى(٤).

---

(١) La Magie, p 35. الملك حمورابي ـ مؤسس الإمبراطورية البابلية الأولى ـ ينسب إليه قانون يعرف باسمه، وهو من أقدم القوانين المدونة، أو أقدمها، وقد اكتشف سنة ١٩٠١ ـ ١٩٠٢.

(٢) La Magie p, 47 à 49.

(٣) انظر: علم الغيب في العالم القديم، ص ١٩٧. المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٩٨.

(٤) Histoire des Oracles, p 165.

العصر الوسيط:

لا أعتقد أنه يمكننا أن نتحدث ـ جديًا ـ عن القوانين الخاصة بالكهانة والسحر وما إليهما... في العصر الوسيط الأوربي. وذلك لسبب بسيط، هو أن محاربة السحرة ـ وكذلك الكهنة، وإن بدرجة أقل ـ في تلك الفترة لم تكن عملاً يمت إلى القانون والقضاء بصلة، بل كانت مجزرة خالصة، ولا يخفف من هذا الوصف أنه كان على رأسها "قضاة".

في قراءاتي عن السحر وتاريخه بأوربا.. اطلعت على كثير من القصص الحزينة التي تبين كيف يمكن للجهل والخبط أن يؤديا إلى كثير من المآسي والظلم، وإلى خبط وفوضى لا حدود لهما، مما يبين بجلاء إلى أي حد يمكن أن يصل جنون البشرية(١).

وقد قاد التفتيش الكنسي هذه الحملة الدموية ضد السحرة، واستغلها لمعاقبة "المبتدعين" أيضاً. ولم تكن القوانين المدنية أقل بشاعة وشدة من قوانين الكنيسة(٢).

ويكفي لمعاقبة أحد أن يتهمه أي كان بالسحر، بل تكفي حتى الإشاعة مجهولة المصدر. وكان المفتشون يرون أن كل مريض مصاب بمرض لا يفسره الطب ولا يعرف دواءه، فهو بالضرورة سُحِر.. والحل هو تعذيب المريض لتخليص روحه من الشيطان. هكذا اعتبرت أمراض مثل الصرع العصبي والهستيريا والاكتئاب الحاد ...(٣).

وقد تم إحراق سبعين شخصاً بإشراف الملك جيمس الأول بناء على اعتراف فتاة صغيرة بالسحر، وهو الاعتراف الذي انتزع منها بالتعذيب(٤).

أما "وسائل الإثبات" والعقاب، فهي: الحبس إلى غير أجل، ونزع الملكية، والتعذيب للحصول على الاعترافات، أو في حالة التراجع عنها، والحرق في أكثر الحالات ...(٥).

ومن الوسائل الطريفة، أنهم كانوا يرمون بالمتهم في الماء، فإن نزل إلى القاع فهو بريئ، وإن طفى فوق الماء فهو مذنب(٦).

وهذه بعض نتائج هذه المطاردة الشاملة للشيطان:

---

(١) انظر مثلاً: La sorcellerie, p 72 à 87. وراجع: الإنسان وقواه الخفية، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) La Magie, p 59, 61.

(٣) La Magie, 58-59.

(٤) الإنسان وقواه الخفية، ص ١٤٢.

(٥) La sorcellerie, p 41 à 45. La Magie, p 60.

(٦) La sorcellerie, p 50.



١ ـ نيكولاس ريمي، القاضي الأكبر بجهة اللورين بفرنسا، حكم بالإعدام حرقاً على ثلاثة آلاف "ساحر وساحرة"، بين سنتي ١٥٧٦ و١٥٩١.

٢ ـ القاضي هنري بوكوييت، المتوفى سنة ١٦١٩، أعدم ستمائة "ساحر".

٣ ـ أما قاضي بوردو دولونكر فكان يعجبه أن يتهم بالسحر الفتيات والأطفال، ووصل عدد ضحاياه إلى خمسمائة واحد.

٤ ـ وكانت الحال بألمانيا أفظع، فمن بداية القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر تم إعدام ثلاثين ألف إنسان بتهمة السحر، وفي الضحايا أطفال "سحرة" أعمارهم تتراوح بين سنتين وأربع سنوات!

٥ ـ ويظهر أن عميد هؤلاء القضاة هو كاربزو، بمنطقة ساكس الألمانية، فقد أعدم آلاف الأشخاص[١]. وهو يستحق لهذا أن يسجل في موسوعة "جينس" للأرقام القياسية!

ومن الغريب أن قسماً من جنوب أوربا لم يعرف انتشاراً كبيراً للسحر كالذي عرفته شمال أوربا، خصوصاً إسبانيا فهي أهم البلدان الأوربية التي نجت من لعنة السحر[٢].

وبالمقابل كان في فقهائنا وقضاتنا ـ عبر التاريخ الإسلامي الطويل ـ تهيُّب ثابت في موضوع الدماء. وكانوا يسقطون العقوبة حتى في حال قيام الدليل، متى كانت فيه شبهة، وقرروا قاعدة: تدرأ الحدود بالشبهات.

أورد ابن قتيبة بسنده أن عامل عمان كتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز: "إنا أتينا بساحرة، فألقيناها في الماء، فطفت". فكتب إليه عمر: لسنا من الماء في شيء، إن قامت البينة، وإلا فخل سبيلها[٣].

لقد حدد الفقه الإسلامي حالات الإعدام، تبعاً لحديث: "لا يحل دم المسلم إلا بثلاث.." وشدد في وسائل الإثبات، ثم ترك الباب واسعاً للتعزير الذي لا يصل ـ على العموم ـ إلى درجة الحدود، واعتبر أن الأصل براءة المتهم.

ولا يعرف هذا الفقه التعذيب والحرق، ولا قتل الأطفال أو حبسهم.. ولا شيئاً من فظائع قضاة أوربا في العصر الوسيط.

---

(١) عن: La sorcellerie, p 64 à 70 أسماء القضاة بالحرف اللاتيني: Nicolas Rémy. Henri Bouguet. De Lancre Carpzow.

(٢) اقرأ: ١٨/٨٠٧، Article possession, in : Encyclopaedia وهل لهذا علاقة بالوجود الإسلامي السابق بإسبانيا؟

(٣) تأويل مختلف الحديث، ص ١٧٣.

وقد كان على أوربا أن تنتظر بزوغ القرن ١٩ لتتخلص نهائياً من آثار هذه الحرب الدموية الخاطئة، كما تراه مثلاً في القانون الجنائي الفرنسي لسنة ١٨١٠.

القانون الفرنسي المعاصر في الموضوع:

أصل النصوص القانونية الحالية المتعلقة بالتنبؤ هو: قانون ١٢ شباط ١٨١٠.

واليوم يقسم القانون الجنائي الفرنسي(١) الجرائم التي يعاقب عليها إلى ثلاثة أقسام:

١- الجرائم.

٢- الجنح.

٣- المخالفات.

وادعاء مطالعة الغيب يدخل ـ في القانون الفرنسي ـ في قسم المخالفات، ولذلك لا يشدد القانون في العقاب عليه.

ثم قسم الفقهاء الفرنسيون المخالفات إلى خمسة درجات:

١- المخالفات التي يعاقب عليها بغرامة تتراوح بين ٣ و٢٠ فرنكاً فرنسياً.

٢- مخالفات عقوبتها الغرامة من ٢٠ إلى ٤٠ ف. ف.

٣- من ٤٠ إلى ٦٠ ف. ف.

٤- الغرامة من ٦٠ إلى ٤٠٠ ف. ف، مع الحبس مدة لا تزيد عن ثمانية أيام.

٥- الغرامة من ٤٠٠ إلى ١٠٠٠ ف. ف، مع الحبس مدة تتراوح بين ١٠ أيام و٣٠ يوماً.

ويقع التنبؤ وممارسته بين الدرجتين الثالثة والرابعة؛ ولأجل ذلك خصه القانون الجنائي الفرنسي ببعض الفصول، وهي كالآتي:

الفصل ر، ٣٤: يعاقب بغرامة تتراوح بين ٤٠ و٦٠ ف. ف:

٧ ـ الأشخاص الذين يمتهنون التنبؤ وتوقع المستقبل، أو تفسير الأحلام.

الفصل ر، ٣٥: يمكن ـ وذلك بحسب الظروف ـ الحكم بالسجن مدة خمسة أيام على الأكثر:

٤ ـ ضد مفسري الأحلام.

الفصل ر، ٣٦: إضافة إلى ذلك تتم مصادرة:

---

(١) Code pénal. 2ème partie : Règlements d'administration publique et décréts en conseil d'Etat .
Décrét nº 58-1303 du 23 décembre 1965. Livre IV. Chapitre II : Contraventions et peines.



٢ ـ الآلات والأدوات والألبسة التي تستعمل في مهنة العراف، أو المتنبئ، أو مفسر الأحلام.

الفصل ر، ٣٧: يمكن الحكم بالحبس لثمانية أيام على الأكثر على الأشخاص المشار إليهم في الفصل ر، ٣٤، وذلك في حالة العود(١).

ملاحظات عامة:

لا يشدد القانون الفرنسي في منع فنون التنبؤ والاتجار بها؛ ولذلك اعتبرها من مخالفات الدرجة الثالثة والرابعة. وتبدو المقارنة واضحة مع أحكام هذا القانون فيما يخص - مثلاً - ألعاب اليانصيب واللوطو والقمار... غير المسموح بها(٢).

ورغم ذلك يعرف الوسط القضائي الفرنسي نوعاً من التسامح والتساهل تجاه العرافين والمنجمين، على اختلاف أصنافهم(٣)؛ ولذلك حتى هذه الأحكام المخففة لا تطبق دائماً. ومن جهة أخرى تتعامل مكاتب الضرائب مع هؤلاء باعتبارهم واقعاً مفروضاً، وتحصِّل منهم الضرائب؛ لأن مكاتبهم "مكاتب معلومات". وكذلك الشرطة لا تضايقهم، بل هي نفسها تستعين بهم أحياناً... هذا كله يساهم في تسامح القضاء مع هذه الممارسات(٤).

لكن القضاء يتجاوز هذا أحياناً إلى التعاطف مع المتنبئين، فمن ذلك أن محكمة الجنح لبوردو-بفرنسا-اعترفت مراراً بحق المنجمين في جذب الزبائن عن طريق الإشهار في الصحافة(٥). وقد توبع أحد المنجمين بتهمة النصب والاحتيال والغش، وصرح بأنه لا يعرف عن التنجيم شيئاً، وبأن الطوالع الفلكية التي يرسلها إلى الناس كان يأخذها عن مؤسسة جدية مختصة في التنجيم؛ ولهذا حكم عليه القضاء بأنه منجم غير حقيقي. ومفهومه أنه يوجد منجم حقيقي(٦).

---

(١) هذا كله من مدونة القانون الجنائي الفرنسي الحالية: Code pénal, p 277 à 279 والفصول المذكورة تعرف أيضاً بأرقام أخرى، هي على التوالي: ٤٧٩ (٧)، ٤٨٠ (٤)، ٤٨١ (٢)، ٤٨٢. حالة العود récidive هي تكرار الشخص للمخالفة نفسها داخل أجل زمني محدد، وعادة تكون العقوبة أهم في هذه الحالة.

ولا تعليق على هذه الفصول من "غايات المشرع وفلسفته وأصوله" في الموضوع، أي ما يسمى في القانون الفرنسي بـ: Jurisprudence. انظر: Code pénal, p 278-280.

(٢) راجع: Code pénal, article 410, p 230

(٣) Quelques sciences captivantes, p 232, 235. L'astrologie, p 119.

(٤) Quelques sciences captivantes, p 236. L'occultisme devant la science, p 55.

(٥) Quelques sciences captivantes, p 236. L'occultisme devant la science, p 44. ومن ذلك حكم يوم ٣ كانون الثاني ١٩٣٨.

(٦) Quelques sciences captivantes, p 230. L'occultisme devant la science, p 56. المنجم هو Gaspard Toudon والمحاكمة كانت في تموز ١٩٣٩، وفي الحكم وصفه بأنه غير حقيقي: Faux astrologue.

ويوجد بالقانون الجنائي الفرنسي فصل يمكن أن يكون من مشمولاته فنون التكهن، وهو الفصل ٤٠٥ الذي يقول ما ملخصه:

يعاقب بالحبس من سنة إلى ٥ سنوات، وبغرامة تتراوح بين ٣٦٠٠ ف. ف. و ٣٦,٠٠٠ ف. ف من يتوصل بالغش والتدليس إلى حيازة مال الغير، وذلك بادعاء اسم مزور، أو صفة غير حقيقية، أو مقدرة وهمية وخيالية ...(١).

لكن دلالة هذا الفصل عامة، وهو يهم في الأكثر شؤون التأمين والأبناك ومهنة الطب.. وفي الشرح أن الكذب، ولو كان مكتوباً، لا يعتبر بمجرده جريمة غش، ولابد لاعتباره كذلك أن تصحبه أعمال تدليس وحيل مقصودة(٢).

ولهذا ـ كما لاحظ ذلك دوسوار ـ يبقى حكم التكهن مشمولاً بالفصول الأولى، غير الفصل ٤٠٥، وحتى هذه الفصول المخففة لا تطبق؛ ولذلك فإن لا أثر واقعياً للمنع القانوني، وإدانة العرافين نادرة، ولا تكون إلا إذا رفع المدعي دعوى الغش والتدليس(٣). بينما تستمر وزارة المالية الفرنسية في تحصيل الضرائب منهم وإدماجهم في قانون كانون الثاني ١٩٧٩ حول الضريبة على القيمة المضافة، حيث يقدر رقم أعمال الكهانة بأنواعها بحوالي سبعين مليار فرنك فرنسي قديم(٤).

القانون الجنائي المغربي:

تبع القانون المغربي(٥) مثيله الفرنسي، وقسم العقوبات إلى جنائية وجنحية وضبطية (الفصول ١٤ إلى ١٧). وحكم في العقوبات الضبطية الأصلية بالاعتقال لمدة تقل عن شهر، والغرامة من ثلاثين درهماً إلى ألف ومائتي درهم. (الفصل ١٨)

ثم قسم المخالفات إلى درجتين:

ـ الدرجة الأولى: الحبس من يوم إلى ١٥ يوماً، والغرامة من ٢٠ درهماً إلى ٢٠٠ درهم، أو بإحدى هاتين العقوبتين فقط.

ـ الدرجة الثانية: وفيها الغرامة من ١٠ دراهم إلى ١٢٠ درهماً، دون الحبس. ومن الأشخاص الذين تشملهم هذه العقوبة:

فقرة ٣٥ ـ من احترف التكهن والتنبؤ بالغيب، أو تفسير الأحلام.

---

(١) Code pénal, article 405.

(٢) Code pénal, (La jurisprudence), p 219, paragraphe 9.

(٣) La Voyance, p 97.

(٤) La Voyance, p 61.

(٥) اعتمدت على مدونة القانون الجنائي المغربي العام، رقم ١١,٩٩. وهي المدونة الجاري بها العمل حالياً.



هذا كله من الفصل ٦٠٨، ظهير ٦ أيّار ١٩٨٢.

وفي الفصل ٦١٠: تصادر الأدوات والأجهزة، أو الملابس المستخدمة أو التي أعدت لاستخدامها في مهنة التكهن أو التنبؤ بالغيب.

ويقول الفصل ٨٩: إن هذه المصادرة ممكنة حتى لو لم يصدر حكم بالإدانة.

وفي الفصل ٦١٠ أيضاً الزيادة في العقوبة في حالة العود، فالمخالفون (ومنهم المتكهنون) الذين سبق عليهم الحكم بالعقوبة، إذا عادوا إلى المخالفة خلال مدة اثني عشر شهراً السابقة على ارتكاب المخالفة، يعتبرون في حالة العود. وهنا يجوز أن ترفع الغرامة إلى ٢٠٠ درهم، وأن يضاف إليها عقوبة الاعتقال مدة لا تتجاوز ستة أيام. وهذا معناه أن المشرع المغربي يعتبر هذه المخالفة . في حالة العود . مخالفة من الدرجة الأولى، لكنه نص على الأمد الأقصى للاعتقال.

نقد القانون المغربي في الموضوع:

لعله من الواضح أن القانون المغربي في موضوع التكهن هو ترجمة حرفية للقانون الجنائي الفرنسي. وهذا ما أوقعه في خطأين أساسيين، في نظري، وهما:

١ ـ اعتباره تفسير الأحلام من المخالفات المعاقب عليها، رغم أن الرؤيا حق، وهي جزء من النبوة، فلا وجه لوضعها مع الكهانة في موقف واحد، ولو أراد المشرع المغربي أن يمنع تفسير الأحلام بغير طريق تقره الشريعة الإسلامية، لقال مثلاً في الفقرة ٣٥ من الفصل ٦٠٨: من احترف التكهن والتنبؤ بالغيب، أو احترف تفسير الأحلام أو فسرها ـ من غير احتراف ـ وهو لا يملك شهادة في العلوم الشرعية.

٢ ـ تسامحه الكبير مع المتكهنين والعرافين والمنجمين، فمخالفات الدرجة الثانية لا يحكم فيها إلا بغرامة مالية بسيطة دون حبس. والمفروض أن يكون القانون الجنائي المغربي أكثر تشدداً مع ممارسات الكهانة، خصوصاً بالنسبة للذين يتخذون من التنبؤ بالغيب مهنة وعملاً. وينبغي كذلك أن تشمل العقوبة الذين يزورون العراف ويسألونه.

القانون المصري:

اطلعت على قانون العقوبات ولم أجد فيه أثراً للكلام على حكم التكهن[1]. وهذا أطم.

---

(١) راجعت كتاب: قانون العقوبات. وفق التعديلات التي أدخلت عليه حتى كانون الثاني سنة ١٩٦٥، مع المذكرات الإيضاحية الخاصة به وبالقوانين المعدلة له. من إصدار محكمة النقض بمصر، المكتب الفني.

النتيجة:

يجب على القوانين العربية، ومنها القانون الجنائي المغربي، أن تستلهم الدين الإسلامي، والتراث الفقهي، في وضع قوانين تفصيلية للتكهن بأنواعه. وكما يقول الأستاذ باتيفول، فإن "الأمل يبدو منعدماً في تأسيس قانون ما، بمنأى عن أية مناقشة حول التصور العام للحياة"(١).

المبحث السادس: الدراسات المستقبلية المعاصرة.

أكثر البحث السابق ـ في الفقه والقانون ـ تعلق بالعلوم الخاطئة التي تدعي استشراف المستقبل، وقد رأيت الآن أن أبحث باختصار نموذجاً معاصراً لعلم ناشئ اتخذ لنفسه هدفاً، هو استشراف المستقبل وحصر أهم احتمالاته، واتبع في ذلك منهجاً علمياً مقبولاً على العموم.

نشأة الدراسات المستقبلية:

عرف النصف الثاني من القرن العشرين نشوء "علم" جديد أطلق عليه: علم المستقبل، أو الدراسات المستقبلية.. ويعتبر هذا "العلم" الوليد أحد أهم التطورات التي حدثت في مجال العلوم الإنسانية في النصف الثاني من هذا القرن.

ولقد ساعدت علوم كثيرة على استواء هذا العلم ونضجه وتمييزه عن سائر التخصصات الإنسانية؛ ولهذا تلاحظ أن الدراسات المستقبلية تستفيد من العلوم البحتة ـ وخصوصاً الرياضيات ـ كما تستفيد من العلوم الإنسانية كعلوم الاجتماع والتاريخ والاستراتيجيا..

لم تعد الدراسات المستقبلية حلماً جميلاً، ولا مجرد خيال يشتط به العقل هارباً من ثقل الواقع المعيش، ولا ـ كذلك ـ ترفاً فكرياً يمارسه بعض العلماء ممن يحب كل جديد وغريب، لقد استقلت هذه الدراسات بمناهج وقضايا وأفكار، وأصبح لها الآن تاريخ يخصها، بل تجاوزت كثير من الأمم هذا المستوى لتدخل هذا النوع من الدراسات في كل مجالات حياتها: في العلوم العسكرية، وفي القضايا السياسية والاستراتيجية، وفي الإشكالات الاقتصادية، وفي مسائل التربية والتعليم.

لقد أصبحت هذه الدراسات شرطاً في اتخاذ القرار المناسب، ومرجعاً لابد من استشارته والاستعانة به(٢)؛ ولذلك لابد لمجتمعات الجنوب ـ وخصوصاً منها المجتمعات

---

(١) (فلسفة القانون)Henri Batiffol : La Philosophie du droit, p84. هو أستاذ زائر بجامعة باريس ٢، وعضو المعهد الفرنسي.

(٢) هذا مثل يبين أن الدراسات المستقبلية ليست ترفاً فكرياً، أو ـ في أحسن الأحوال ـ علماً لا ضرورة له، بل لها فوائدها العملية والتطبيقية: =

الإسلامية والعربية ـ من أن تولي لها عناية خاصة، وكذلك فإن الفكر الإسلامي الحديث سيستفيد كثيراً منها إذا اهتم بها وأدخلها في دائرة بحوثه وأحسن قراءتها والاقتباس منها[١].

وسأحاول في هذه الصفحات أن أقدم إلى القارئ فكرة عن هذا النوع من الدراسات وأن أفسر له أهميته، رغم ما أنا مقتنع به من أن الاقتراب من هذا المجال والاطلاع على بعض ما كتب فيه بتفصيل هو الكفيل بتوضيح الأمر؛ والتصور يسبق التصديق كما يقول المناطقة.

التعريف بالدراسات المستقبلية:

يعرف بعض الباحثين "المستقبلية" بأنها "مجموعة من الأبحاث حول التطور المستقبلي للإنسانية تمكن من استخلاص عناصر التوقع"[٢].

وتختلف أسماء هذا العلم باختلاف اللغات والمدارس المستقبلية[٣]، وفي العربية يستعمل كثير من الخبراء مصطلح "الاستشراف"[٤]. وتروج مصطلحات أخرى لكنها لا تتطابق تماماً مع مفهوم البحث المستقبلي، وأهمها: الاستراتيجيا، والتخطيط، والتوقع، والإدارة بالأهداف[٥].

إن المدى الزمني للدراسات المستقبلية لا يتجاوز ـ في الغالب ـ ثلاثين سنة، وهو

= تعرف المجتمعات المتقدمة ارتفاع نسبة الشيخوخة بين الساكنة. ويتضح من خلال دراسات إحصاء السكان أن نسبة المتقاعدين ستكون كبيرة جدًّا في المستقبل المتوسط. ونعرف أيضاً ـ بالاستناد إلى علم السكان ـ أن معدل الحياة في هذه المجتمعات ارتفع كثيراً وهو الآن يقارب الثمانين بالنسبة إلى الرجال.
أما الأعضاء النشطون من الشباب الذين يتحملون تكاليف التقاعد (المعاش، والتطبيب، والسكن، والنقل...) فهم يقلُّون.. هذا كله يؤثر على نظرتنا ـ الآن ـ إلى أنظمة التقاعد والتأمين والضمان الاجتماعي ونحوها.. ولا يمكن لمؤسسات الضمان الاجتماعي ـ مثلاً ـ أن تتجاهل أنها ستعرف بعد عشرين سنة ـ مثلاً ـ مشكلة تتمثل في كثرة من يسحبون الأموال منها ـ وهم المتقاعدون ـ وقلة من يضع المال فيها احتياطاً للتقاعد الآتي ـ وهم السكان النشطون ـ.. فهذا ظن غالب لا نملك إلا أن نأخذ به في قرارتنا الحالية، وإن كان هذا النظر يتعلق بالمستقبل.

(١) راجع مقالة الأستاذ محمد بريش في مجلة "المستقبل العربي" عدد ١٤٤، بعنوان: حاجتنا إلى علوم المستقبل. وخصوصاً صفحة ٤٤ فما بعدها.

(٢) راجع مقال: حاجتنا إلى علوم المستقبل، وخصوصاً صفحات ٣٦ إلى ٤٥. وتعريف هذا العلم بدقة أمر صعب، وفيه أخذ ورد بين أهل الاختصاص.

(٣) راجع مقال: حاجتنا إلى علوم المستقبل ص ٢٥ فما بعدها، وص ٣٦ فما بعدها. وانظر مقال د. أحمد الدجاني: "دراسة المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة" بمجلة المسلم المعاصر، عدد ٦٢، ص ١١٧ فما بعدها.

(٤) مقال حاجتنا إلى علوم المستقبل، ٢٦ ـ ٢٧.

(٥) حاجتنا إلى علوم المستقبل، ص ٢١ ـ ٢٢.



المستقبل البعيد، وثمة نقاش واسع بين أصحاب الاختصاص حول صحة اعتبار هذه الدراسات علماً أو لا.

وتعرف الدراسات المستقبلية أنماطاً مختلفة للبحث أهمها[١]:

النمط الحدسي، والنمط المعياري، والنمط الاستطلاعي؛ ونمط الأنساق الكلية، وهو أكثرها تطوراً وتعقيداً.

أما طرق الاستشراف المعتمدة فأذكر منها:

١ ـ طريقة دلفي[٢]. ٢ ـ طريقة السيناريو[٣]. ٣ ـ طريقة النموذج[٤]. ٤ ـ طريقة الاستكمال الخارجي[٥].

ويعتبر كتاب المفكر الإنجليزي توماس مور (١٤٧٨ ـ١٥٣٥): "يوتوبيا"، من أوائل ما كتب في المستقبل[٦]. ثم تبعه فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ١٦٢٦) في كتابه "أطلنطا الجديدة". ثم كتب توماس مالتوس (١٧٦٦ ـ١٨٤٣) دراسته حول السكان التي تعد أهم بحث مستقبلي في القرون الأخيرة. وللكاتب جورج ويلز (١٨٦٦ ـ١٩٤٦) دراسات كثيرة حول المستقبل ساهمت في لفت النظر إلى هذا الحقل المعرفي الجديد. وكذلك فعل الروائي الفرنسي جول فيرن (١٨٢٨ ـ١٩٠٣)[٧]. وهذه المرحلة تسميها ماسيني: ما قبل تاريخ الدراسات المستقبلية[٨].

---

(١) انظر التفاصيل في كتاب: (الدراسات المستقبلية، لماذا؟)، Eleonora Masini : Why Futures Studies, p 78, 80, 115, 116.

(٢) انظر التفصيل في: الدراسات المستقبلية في العلاقات الدولية، لوليد عبد الحي ص٥٠ .Why futures studies, p 79, 107 to 110. وانظر أيضاً: مقال: استقراء المستقبل، دراسة أولية في علم وليد، لعطية أفندي. مجلة منبر الحوار، عدد ٢١/ ٢٢، ص ٩١.

(٣) راجع: ..Why futures studies, p 77-78, 90 to 101 . الدراسات المستقبلية ص ٩٤. مقال: "استقراء" المستقبل ص ٩١.

(٤) انظر: كتاب "الدراسات المستقبلية" ص ٢٣. مقال استقراء المستقبل ص ٩١ .Why futures studies, p 80.

(٥) مقال استقراء المستقبل ٩١. فيما يخص تقنيات المستقبليات وطرائقها، راجع: كتاب الدراسات المستقبلية في العلاقات الدولية، وخصوصاً صفحات ٢٣ إلى ١٠٢ . Applying methods and techniques of futures research. Why futures studies.

(٦) انظر حول هذه اليوتوبيا مقالة: "L'utopie de Thomas More revisitée", de Nicole S. Morgan في مجلة: Futuribles, nº 205, page 5.

(٧) انظر حول بعض هذه الكتب مقال: Le passé du futur في مجلة: .Futuribles, nº 204, p 65 وراجع في التاريخ العام لهذه المرحلة: نحن والمستقبل، لقسطنطين زريق.

(٨) .Why futures studies, p 4 وماسيني هي رئيسة المجلس التنفيذي للفيدرالية العامة للدراسات المستقبلية، وأستاذة "التوقع الاجتماعي" في الجامعة الجريجورية البابوية بروما.

ولذلك فإن إخضاع المستقبل للبحث العلمي والمنهجي إنما بدأ في أربعينيات القرن العشرين بفضل جهود مؤسسة عسكرية أمريكية اسمها "راند". ومنذ هذا التاريخ كثرت البحوث المستقبلية وانتشرت وظهر خبراء كثر يهتمون بهذا المجال وتأسست مئات المراكز والهيئات والمجلات والمؤسسات التي جعلت من المستقبل مجال اختصاصها. وبين يديَّ كتاب أصدرته الجمعية الدولية للمستقبل يضم أهم المعلومات المتعلقة بـ: ١٨٧ مؤسسة أو جمعية تهتم بالمستقبل، وكذا ١٢٤ مجلة في الإطار نفسه. وهذا في ٣٨ دولة[١].

ولقد ساعدت عوامل كثيرة على إنجاز هذا التطور الكبير. إنَّ توفر رصيد معرفي هائل ـ يتضاعف كل سبع سنوات ـ وضع بين أيدي المستقبليين كمًّا من المعارف لا يتصور، كما أن تقدم وسائل معالجة المعلومات ـ وخصوصاً الكمبيوتر ـ مكَّن من الاستفادة من هذا الكم المعرفي. وجاء علم تحليل النظم ـ وهو علم رياضي جديد ـ ليجعل من تحليل المعلومات المتوفرة عملية تفيد في الوصول إلى نتائج قيمة في التطبيق.

وتعتبر المدرسة الأمريكية ـ ورائدها هو العالم الألماني أوسيب فلتخهايم ـ أهم مدارس المستقبليات. وبعدها تأتي المدرسة السوفيتية (الروسية حالياً) والفرنسية[٢].

أهمية هذا العلم:

ومن أهم مبادئ الدراسات المستقبلية أن المجال الذي يمكن للإنسان أن يؤثر فيه هو المستقبل[٣]، بالأساس.

ولهذا يطرح الأستاذ المهدي المنجرة مفهوم: استعمار المستقبل، ويقول: إن العالم الإسلامي إذا لم يخطط لمستقبله، فإنه يوشك أن يُستعمر بدوره، كما استعمر ماضيه وحاضره[٤].

إن المستقبل ليس مجالاً للاستكشاف فقط، بل هو أيضاً مجال للعمل والتأثير، ولا تسعفنا الدراسات المستقبلية بمناهج كشف الآتي ومعرفة بعض ملامح المستقبل فقط، بل إنها تعيننا لما نطرح على أنفسنا هذا السؤال: كيف نستطيع أن ننشئ مستقبلنا وأن نخضعه

---

(١) Lane Jennings : The futures research directory : Organisations and periodicals, 1993-94. World Future Society.

(٢) راجع: Why futures studies, p 56 to 72 . "الدراسات المستقبلية"، ص ٨ إلى ١٣. مقال: استقراء المستقبل، صفحات ٨٢ إلى ٨٧.

(٣) Why futures studies, p 7.

(٤) Dr Mahdi El Mandjra : Première guerre civilisationnelle, p 176. الأستاذ المنجرة مفكر مغربي، وواحد من أهم المستقبليين في العقود الأخيرة، عمل باليونيسكو، ورئيساً للجمعية الدولية للمستقبل، وأستاذاً بكلية الحقوق بالرباط.



لآمالنا وتطلعاتنا وأفكارنا وعقائدنا؟ ولهذا تعرف أهم الأمم المتقدمة انشغالاً مستمراً بالمستقبل: كيف سيكون، ومن الذي سيتحكم فيه، وما السبيل إلى أن يكون لنا موقع بين دوله المؤثرة؟ وغيرها من أسئلة كثيرة[١].

وهذا الانشغال الدائم بقضية المستقبل من أهم ما يدل على عمق الفروق بين العالم المتقدم والعالم الثالث كما يبينه الجدول الآتي[٢]:

الدراسات المستقبلية

سنة ١٩٨٩	الدول المصنعة	الدول الإسلامية	النسبة التي تمثل الفرق
المنظمات والجمعيات	٥٠٠	١٣	٤٠ × ١
المختصون والباحثون (ممن أحصي)	٢٥٠٠	٤٠	٦٠ × ١
عدد مشاريع البحث	٧٥٠	١٥	٥٠ × ١
عدد الكتب والتقارير المنشورة	١١٠٠	٢٥	٤٥ × ١
المجلات والدوريات	١٦٠	٤	٤٠ × ١
الأفلام التربوية (موضوعها المستقبل)	٦٥٠	٠	-
الدروس الجامعية	٣٥٠	٥	٧٠ × ١

لا تدعي الدراسات المستقبلية معرفة الغيب[٣]، لكنها تفيد في تقليل الاحتمالات الواردة في المستقبل بحيث يغلب على ظننا أن مجموعة "أ" من صور المستقبل (السيناريوهات) مستبعدة الوقوع، ومجموعة "ب" راجحة الوقوع، وفي المجموعة "ب" يمكن للبحث المستقبلي أن يرجح بعض الاحتمالات على بعض[٤]، وهذا كله يساهم في جعل صورة المستقبل أقل غموضاً واضطراباً، ولهذا فائدة محققة.

---

(١) انظر المقالة الهامة للأستاذ د. المنجرة: في: Futurs du monde islamique. Etude du futur : nécessités, réalités et horizons : Première guerre civilisationnelle, pp 165-190, et surtout pages 166 à 171.

(٢) Première guerre civilisationnelle, p 185.

(٣) راجع في ظنية الدراسات المستقبلية: Article : Cautious science remains the smart way ahead. by : Dr. Robert L. Park. In : Herald Tribune, 1 January 1998. p 8. Why futures studies, p 32.

(٤) راجع: Chapter of R. Heydinger and R. Zentner : Multiple Scénario Analysis : Introducing uncertainty into the planing process. In : Applynig methos and techniques of futures research; p 51 to 68.

يقول توفلر : "كل مجتمع يجد نفسه أمام سلسلة من المستقبلات المحتملة، وكذا أمام مجموعة من المستقبلات الممكنة، وكذلك أمام مجموعة من المستقبلات المفضلة، كل هذه المستقبلات تتنافس باستمرار. لمَّا نقنن التغيير وننظمه فنحن في الحقيقة نسعى إلى أن نحول بعض هذه المستقبلات الممكنة إلى مستقبلات أكثر احتمالاً، وذلك لنحقق أمانينا التي تشكل مطلبا يتمتع بإجماع عام"(١).

والذي ظهر لي أن هذا العلم صحيح، ومفيد أيضاً؛ ولذلك فهو من فروض الكفاية على الأمة.

من آداب التوقع:

ومادام وضع توقعات عن المستقبل أمراً جائزاً من حيث الأصل، كما تبين في الباب الأول، فما هي آداب هذا التوقع؟

١ ـ من ذلك عدم استعمال السجع في صياغة هذه التوقعات، حتى لو كانت صحيحة، أعني قائمة على منهج علمي واضح؛ وذلك لأن السجع ارتبط بالكهانة عبر التاريخ، ولذلك كرهه النبي ﷺ(٢).

فقياساً على ذلك واحتياطاً أقول بكراهة السجع في كل توقع، حتى لو كان ـ مثلاً ـ توقعاً اقتصادياً. اللهم إلا إذا كان قليلاً، وجاء عفوياً، وفي غير معارضة حق، فقد يجوز.

أما في غير مجال التوقعات المستقبلية فالأصل جواز السجع وأنه لا حرج فيه(٣).

٢ ـ ومن ذلك أيضاً: الاستثناء في التوقع، والعزم، وهذا من الآداب التي أرشد الله سبحانه إليها نبيه الكريم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

قال الزمخشري: أي "لا تقولن لأجل شيء تعزم عليه ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيء ﴿غَدًا﴾ أي فيما يستقبل من الزمان، ولم يرد الغد خاصة"(٤). وقال ابن العربي في الآية: "قال علماؤنا: هذا تأديب من الله لرسوله، أمره فيه أن يعلق كل شيء بمشيئة الله، إذ من دين

(١) (صدمة المستقبل).. Alvin Toffler : Le choc du futur, p 513 توفلر أحد أبرز علماء الدراسات المستقبلية في العقود الثلاثة الأخيرة. اشتهر بثلاثيته: صدمة المستقبل. الموجة الثالثة. السلطات الجديدة. وهو أمريكي، وعمل بالتدريس العالي. ومازال يكتب لليوم.

(٢) راجع كتابي: النظرية الإسلامية في الكهانة، ص ٢١٢ فما بعدها.

(٣) انظر في حكم السجع على العموم: إحكام الأحكام لابن دقيق العيد، ٤/ ١٣٠.

(٤) الكشاف، ٢/ ٤٧٩.



الأمة ومن نفيس اعتقادهم: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن"[١].

وهذا الأدب لا يجوز تركه كلية. ومثاله من يشتغل بالتوقعات الجوية أو يقدمها في وسائل الإعلام.. ولا يستثني في ذلك أبداً، أي عادته عدم الاستثناء، فهذا آثم، لاشك في ذلك، لمخالفته الآية. أما من تركه أحياناً، ولم يكن هذا الترك له عادة، فهذا لا حرج فيه، وقد يقال فيه: هو خلاف الأولى. ودليل رفع الحرج فيه القياس على الصلاة على النبي، فهي ليست واجبة كلما ذكر الرسول، مع أمر الله سبحانه بهذه الصلاة، ولذلك قال بعض العلماء: إنها واجبة مرة في العمر.

المبحث السابع: نظرية عن أثر فنون التنبؤ في تأخير البشرية، ودور التوحيد في خلاصها من ذلك.

يعتقد بعض الكتاب أن التكهن الصنعي ساهم في نشأة العلم وفي بروز العقل العلمي، كما كان السحر أول جهد عقلي للبشرية، باعتبار أنه يسير وفق منطق خاص[٢]، ولكن الرأي الراجح عند الأنثروبولوجيين وعلماء تاريخ الفكر غير هذا.

العلم وفنون التنبؤ: أية علاقة؟

لقد كانت فنون السحر والكهانة والتنجيم والرمل... عوائق حقيقية في وجه التقدم العلمي للإنسان. وبيان هذا من خلال مثالين:

الأول: السحر. يقول باستيد: لقد كان السحر أكبر عرقلة لظهور العلم؛ ولذلك ضاعت بسببه كل فائدة ممكنة للمعارف الإمبريقية، الطبية مثلاً، والتي كان الإنسان الأول قد بدأ في اكتسابها. وهذا رأي فيبر أيضاً[٣].

ولقد دلت الاكتشافات الأثرية ـ من الأواني والرسوم... ونحو ذلك ـ كم كان يمتلك الإنسان الأول خصائص الحيوية والإبداع والانطلاق، قبل أن يظهر السحر في التاريخ[٤].

إن السحر هو المسؤول عن توقف تطور الشعوب البدائية، حيث حكم عليها بالجمود على نمط واحد من الفكر والحياة[٥]. ويشهد لهذا ـ فيما بدا لي ـ حالة شعوب إفريقيا السوداء التي لا يزال السحر منتشراً فيها بقوة، وهي أكثر أمم العالم تخلفاً على كل الأصعدة.

---

(١) أحكام القرآن، ٣/ ٢٢٨.

(٢) Eléments de sociologie religieuse, p 16 à 23. Article : Divination, in : Encyclopaedia, 7/576.

(٣) Eléments de sociologie religieuse, p 30.

(٤) Eléments de sociologie religieuse, p 39.

(٥) Eléments de sociologie religieuse, p 39.



الثاني: التنجيم. وهو المسؤول الآخر ـ بعد السحر ـ عن قتل العقل العلمي في البشرية طيلة مئات السنين، فقد عرقل نمو الطب، وأفسد علم الفلك، وفي اليوم الذي تركت فيه الكيمياء الخفية التنجيم نشأت الكيمياء التجريبية(١).

وليس صحيحاً أن التنجيم أب علم الفلك، فنحن نتوفر على معلومات عن الفلك ترجع إلى الألفية الثانية قبل الميلاد، في حين تاريخ أقدم طالع فلكي نعرفه هو ٤١٩ ق. م(٢).

لقد ضيعت البشرية عمراً طويلاً بسبب هذه العلوم الخاطئة، فقط في الطور الحضاري من التاريخ الإنساني، كانت للكهانة وملحقاتها الهيمنة الكاملة طيلة أكثر من عشرين قرناً(٣).

ولم تكن في العالم القديم أية مقاومة حقيقية لهذه الفنون، وإذا كان الحاكم الروماني قد أصدر سنة ١٣٩ ق. م مرسوماً يقضي بطرد المنجمين من روما، فإنما كان ذلك بسبب حسد أصحاب الفنون التنبؤية الأخرى، كأهل العيافة، ومفسري الأحلام، والنذر، والخطاطين في الرمل، فهؤلاء سعوا إلى استصدار هذا القرار، في منافسة "غير شريفة" مع المنجمين(٤).

التوحيد: خلاص البشرية.

عاشت الإنسانية إذن دهراً طويلاً أسيرة للسحر والكهانة والتنجيم، وجاء خلاصها من قبل ديانات التوحيد، خاصة، وكان في ذلك تحرير كبير لعقل الإنسان.

لقد أثبت علم الاجتماع الديني أنه في الشعوب الإنسانية لابد أن يتغلب أحد الاتجاهين: الدين، أو السحر وما إليه يمكن أن يوجدا معاً في مجتمع واحد، ويجوز أن يتعايشا، لكن الغلبة والهيمنة لابد أن تكون لأحدهما(٥).

وقد كانت المعركة بين دعوة التوحيد وأديان الشرك التي احتضنت كل أنواع السحر والكهانة والتنجيم، كانت هذه المعركة شديدة وقاسية، ودارت سجالاً بين الفريقين، كما حكاها القرآن، وبعض كتب العهدين القديم والجديد. ومن قرأ عن التاريخ القديم، عن دياناته واعتقاداته ومعابده وأساليبه في التنبؤ من قرأ عن ذلك كله ـ أو بعضه ـ يدرك كم كانت مهمة الأنبياء صعبة في هدم ذلك كله، وإقامة عقيدة بديلة.

---

(١) L'astrologie, p 104.

(٢) انظر: L'astrologie, p 104. article astrologie, in Encyclopaedia, 3/279

(٣) Article : Divination, in : Ency. Uni. 7/577.

(٤) L'astrologie, p 95.

(٥) Eléments de sociologie religieuse, p 37.



إن التوحيد عقيدة واضحة وبسيطة، ولكن آثارها على الوجود الإنساني عميقة وكبيرة، التوحيد يقول: ليس في الكون أرواح تُسير كل أمر وتسري في كل شيء، بل الخالق الواحد، أبدع العالم على نظام لا يتخلف، وكثير من هذا النظام بمقدورك ـ أيها الإنسان ـ أن تدركه. هذه فكرة بسيطة في الظاهر، ولكن كل العلوم التجريبية والنظرية ومقوماتها توجد في هذا المبدأ العظيم. وهذا ما حاول الأنبياء أن يبلغوه للبشرية منذ بدايتها.

نأخذ موضوع الغيب مثلاً. لقد قال أول رسول لقومه، وهو نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [هود: ٣١]. وقال آخر رسول ـ محمد ﷺ ـ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقد كانت دعوة إبراهيم مقاومة للتنجيم البابلي، كما كانت دعوة موسى إبطالاً للسحر المصري.

اليهودية:

لقد كانت اليهودية جزيرة تقاوم السحر الذي عم العالم وأغرقه، ورغم دخول بعض العناصر الوثنية والشركية، ومنها السحر، في هذا الدين السماوي، خصوصاً عن طريق القبلانية، وهذا الدخول من وجوه التحريف الذي أصاب هذا الدين[1]، رغم ذلك، في الحساب النهائي تعتبر اليهودية مقاومة هامة للسحر والتنجيم والتكهن. يقول روني: "رغم كل الارتدادات التي عرفتها اليهودية نحو الوثنية والطيرة، فإن فكرة إله واحد "ومجرد" للكون، يمكن للإنسان أن يعرفه ويحبه، دون أن يفرض عليه إرادته... هذه الفكرة جعلت من إسرائيل جزيرة مقاومة ضد السحر.."[2].

ولذلك فإن التنجيم لم يلق قبولاً عامًّا وسهلاً في المجتمعات اليهودية، سواء أثناء مقامها بفلسطين، أو حتى حين أسرها إلى بابل[3].

وربما لو وفّى بنو إسرائيل بعهود الله تعالى عليهم، وحافظوا على التوحيد الخالص الذي جاءتهم به أنبياؤهم... ربما تغير مسير تاريخ البشرية كلية.

دور المسيحية:

ثم جاء عيسى عليه السلام برسالة عظيمة، وهي وإن دخلها التحريف، وبقايا الوثنية،

---

(١) انظر في تأثر اليهودية بالسحر والتنجيم والكهانة: La Magie, p 39 à 43. Traité élémentaire d'occultisme, p 303.

(٢) La Magie, p 43-44.

(٣) Art, Divination. Ency, 7/577.

إلا أن دورها في محاربة العلوم الخاطئة ـ من السحر والكهانة والتنجيم ـ كان إيجابياً، على وجه الإجمال.

لقد حافظت الكنيسة على الاعتقاد التوحيدي الكبير، وهو أنه لا أحد غير الله تعالى يعلم الغيب والمستقبل، وأنه يجوز أن يعلم به من يشاء من عباده؛ ولهذا لما طرح على الكنيسة مشكلة وجود تنبوءات صحيحة لبعض الأفراد، أجابت بالإمكان، لكن في حدود جد ضيقة(١).

وليس الإنسان وحده من لا يعلم الغيب، بل الشياطين أيضاً، فهي - في الرأي الكنسي - قد تعرف بعض الغيوب الماضية أو الحاضرة، لكن لا سبيل لها إلى علم الغيوب المستقبلة(٢).

مثال التنجيم:

وقد كان الاعتقاد في التنجيم ـ حين ظهر المسيح عليه السلام ـ راسخاً بين الناس، وكان إنكاره أمراً نادراً، يشبه اليوم إنكارك صعود الإنسان إلى القمر، ولهذا فإن نموذج شيشرون يعد شاذًا بالقياس إلى رأي الأغلبية الساحقة من المثقفين والمتعلمين.

وبظهور المسيحية أصبح للتنجيم ـ ولأول مرة في تاريخه ـ خصم كبير وقوي(٣).

وعلى العموم كان موقف الكنيسة من التنجيم هو الرفض المطلق، فاعتبرته مجرد طيرة من بقايا الوثنية لا تأخذ في حسابها الرعاية الإلهية للإنسان، وتشجع على السلوك الجبري(٤).

وقد كان من أهم أسباب إدانة الكنيسة لروجر بيكون والحكم عليه بالسجن سنة ١٢٧٨ هو ذهابه إلى أن أساس التنجيم الأحكامي صحيح(٥).

ولوحظ اليوم بأوربا أنه كلما كان الشخص أقوى ارتباطاً بالكنيسة وأكثر حرصاً على

---

(١) Castellan: La parapsychologie, p 119 وقارن بـ: La Voyance, p 93-94

(٢) Maigron in: Histoire des oracles, p 52 , note 1. وانظر حول دور المسيحية في الحد من هيمنة السحر على الإنسان: "الإنسان وقواه الخفية"، ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٣) راجع: Devins et oracles grecs, p 30 والكاتب نقل هذه الفكرة عن F. Cumont وهو مختص في الاعتقادات والأديان القديمة، عند الرومان واليونان بالخصوص، ويكتب بالإنجليزية، وقد عاش في بداية القرن العشرين.

(٤) L'astrologie, p 95 وقارن بـ: Quelques sciences captivantes, p 206, 208

(٥) Histoire de la philosophie, 3/210.



دينه.. إلا وكان أبعد عن التنجيم وعن الاهتمام به واللجوء إليه، بل من المفارقات أن أهم خصوم التنجيم في الصحافة طرفان اثنان: الكنيسة، والأحزاب الشيوعية(١).

الإسلام:

في هذا الدين تجلت أكمل صورة لموقف ديانات التوحيد من التكهن وأساليبه؛ ولذلك كان العالم الإسلامي بمنأى عن مخاطر هذه الممارسات.. بصفة عامة.

يقول ابن خلدون في صناعة التنجيم: " إن الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها، وصار المولع بها من الناس وهم الأقل وأقل من الأقل إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته متستراً عن الناس وتحت ربقة الجمهور، مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم، فكيف يحصل منها على طائل ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه ديناً ودنيا وسهلت مآخذه من الكتاب والسنة، وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه، ثم بعد التحليق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعددها إنما يحذق فيه الواحد بعد الواحد في الأعصار والأجيال، فكيف يعلم مهجور للشريعة مضروب دونه سد الحظر ـ والتحريم مكتوم عن الجمهور صعب المآخذ محتاج ـ بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه ـ إلى مزيد حدس وتخمين.. من الناظر، فأين التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها، ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك، لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته "(٢).

وكان من أهم آثار هذا الموقف الإسلامي من العلوم الخاطئة التي تدعي الاطلاع على الغيوب.. أن ظهر بالعالم الإسلامي المنهج التجريبي في العلم، والذي أدى لاحقاً إلى ثورة هائلة في مجالي المعرفة والتقنية مازالت مستمرة إلى عهدنا هذا.

وكان من العلوم التي طورها المسلمون بعض علوم تنبني كثيراً على التوقع، أو تنتجه. ومن ذلك علم الفلك، فقد اطلع المسلمون على التراث اليوناني والهندي فيه، ثم تجاوزوه بمراحل عديدة، وصححوا أخطاء بطليموس. ولم يبق اليوم شك في أن كوبرنيكوس عرف نظريات الفلكيين المسلمين بكل تفاصيلها واستفاد منها في إنشاء نظريته التي هدمت نظام بطليموس(٣).

وكذلك طور المسلمون علم المناخ، والذي كان يسمى بـ : علم الآثار العلوية، فاكتشفوا قانون انبساط الأجسام، وعللوا نشأة المطر، وكيف يتكون الثلج والبرد، وفسروا

---

(١) Article : Horoscope, in : Ency. Universalis, 11/693.

(٢) المقدمة، ص ٤٠٧.

(٣) راجع في هذا الموضوع: تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ٧٨ إلى ١٠٢.



اللون اللازوردي الذي يُرى في الأفق، وعللوا حادثتي المد والجزر بجاذبية القمر، ووضعوا آلات لقياس ارتفاع الغيوم والأبخرة.. وغير ذلك كثير[1].

الابتلاء سبب وجود التكهن:

ولعل القارئ لاحظ أن في بعض أنواع "علوم" تعاطي الغيب.. شيئاً من الصحة والصواب؛ فالكهانة ـ بنوعيها ـ تصيب أحياناً، خصوصاً الكهانة بوسيط، وهذا بشهادة النبي ﷺ، والتنجيم كذلك، والخط كذلك، والسحر حق، كما بينه جمهور العلماء، بل قال بعضهم: إن منه ما نزل به الملكان.

وهذا الشيء القليل من الصواب في هذه الفنون هو أحد أهم أسباب إقبال الناس عليها، واستمرار وجودها. فإن الكذب الخالص لا يدوم.

فكيف أذن الله تعالى بذلك كله؟

الجواب أن هذه الفنون من جملة الاختبارات والامتحانات التي تعرضت لها البشرية منذ القديم، ومازالت تتعرض لها. فالغاية هي الابتلاء: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، فهذا كله فتنة للناس تحقيقاً للحكمة الكبيرة من وجودهم: الابتلاء والاختبار.

ولا ينافي هذا أن الدين نهى عن هذه العلوم وأبطلها، فالحكم إنما يكون للغالب، والغالب على هذه الفنون هو الكذب والباطل، ثم وجود هذه الأشياء أمر موضوعي، والنهي عنها حكم قيمي، فهذا كوجود الخمر مع النهي عنها، وتوفر دواعي الزنا مع تحريمه، وإمكان الربا مع حظره، ووجود الخنزير مع تحريمه... وهكذا. فالابتلاء واحد، وإنما تختلف صوره وتتنوع.

يدلك على هذا أن في مقدور الباري جل وعلا أن يمنع الشياطين من استراق السمع، ويمنع العرافين من الاطلاع على بعض المغيبات، ولا ينزل ـ على قول بعض المفسرين ـ شيئاً من السحر.. لكنه سبحانه لم يفعل، تحقيقاً لحكمة الابتلاء.

ولذلك قال ابن العربي ـ في قصة ابن صياد وتكهنه ـ : "إخراج الضمير من ابن صياد فتنة ابتلاه الله بها وغيرَه من الزائفين حتى شكوا، وابتلى بها المؤمنين بلاء حسناً ليعلموا أن الله قد يطلع الكاهن على الغيب ليضل به كثيراً من الخلق ويلبّس بها على القلوب التي كتب عليها الزيغ"[2]. ويظهر أن أكثر البشرية في بدايتها فشل في هذا الامتحان، وما زال هذا الفشل ملازماً لقسم كبير منها إلى اليوم.



---

(١) انظر: تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ١٠٣ إلى ١١٣.

(٢) عارضة الأحوذي، ٩/٩٨. كتاب الفتن.

الخاتمة العامة

"الدين والمستقبل" موضوع واسع المدى متشعب الجوانب، حتى لو حصرناه في الناحية المعرفية أو الابستمية فقط. لقد صرفت حوالي سبع سنين في دراسة قضية استشراف المستقبل في الإسلام، دراسة أكاديمية دقيقة، فاستفدت أشياء كثيرة وتعلمت ما لم أكن أعلم، وظهر لي من حكمة هذا الدين وتميز مذهبيته في الموضوع ما جعلني أشد اقتناعاً وأكثر إيماناً بإلهية مصدر هذا الدين العظيم.

ورغم ذلك أشعر بأنني لم أحط إلا بجانب فقط من حقيقة هذا الموضوع، فيما تنتظر الجوانب الأخرى جهود الباحثين واهتمامهم... إنه يستحيل على فرد واحد أن يحيط بجميع أطراف الموضوع، مهما أوتي من علم وذكاء وصبر على البحث والدرس؛ ولذلك قررت أن أترك هذا المحور: "الدين والغيب والمستقبل"، وأن أوقف البحث فيه، فإن العمر محدود، والقضايا العلمية والإسلامية التي تنتظر جهود الباحثين كثيرة جدًّا، ولبعضها اليوم أهمية استثنائية، ولعلَّ في الكاتبين والدارسين الشباب من يواصل المهمة ويبدأ من حيث انتهيت ويستكمل ما تركت.

لكنني حين أودِّع هذا الموضوع ـ الذي كتبت فيه قريباً من ألف وخمسمائة صفحة ـ فإنما أفعل ذلك على مضض، إذ هذه الرحلة لم تشف غليلي كله ولا أجابت عن أسئلتي جميعها، فحالي كسيبويه الذي كان يقول في نهاية حياته: أموت وفي نفسي شيء من "حتى".

إنني على يقين من أن ألغاز الوجود من حولنا كثيرة لا نهاية لها، وأن قدَرنا أن نعرف بعضها ونصبر على جهل أكثرها، لقد كنت أيام الطلب شديد التشوف للمعرفة، لا أرضى أن أجهل شيئاً، فلا أزال أجدّ وأكدّ حتى ينجلي لي الموضوع وأفهم حقيقته، لكنني اليوم أكثر هدوءاً وتواضعاً، أتعلَّم ما وسعني جهدي، وأقبل جهل أمور كثيرة، ولا يزعجني ذلك، بل ما لم أفهمه وأعرف حقيقته تركت أمره للآخرة، فأنا مؤمن بأن جميع الألغاز أو الأسئلة التي تنتصب اليوم أمامنا متحدية ومستفزة، سنجد لها جواباً في الحياة الأخرى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق: ٢٢].

ولا أحب أن أكرر في هذه الخاتمة ما سبق في غضون الكتاب، لكنني أسجل هنا بعض النتائج التي توصلت إليها.

لقد بيَّن هذا البحث أن من مقاصد الدين بيان قضية المستقبل للإنسان، بإرشاده إلى ما يمكن له علمه منه وما لا يمكن، وبرسم الطريق إلى إدراك بعضه؛ ولذلك فإن تمييز علمائنا

الغيب بما لا دليل عليه، ومنع الإخبار عنه بغير دليل وحجة، حتى اعتبروا بعض الإخبارات عن المستقبل يكفر بها، هذا التمييز موقف ابستمولوجي عظيم؛ لأنه يفتح الطريق للعلم القائم على الحجة والبرهان، ولذلك فكل معرفة تخضع لمنهج علمي سليم لا تعتبر توقعاتها من الغيب في شيء، هذا عدا التفرقة الهامة التي يعقدها علماؤنا بين علم الغيب وظن الغيب.

إن العقيدة الإسلامية الواضحة والحاسمة في تقرير أن الله تعالى وحده من يعلم الغيب حق العلم، عقيدة لا تعرقل النمو العلمي ولا الفضول المعرفي، بل تشجع ذلك؛ لأنها تقطع الطريق على علوم موهومة وخاطئة، كالتنجيم والكهانة والسحر، وتدفع بالإنسان إلى اكتشاف نظام الكون، وإلى قيام علوم حقيقية، يقرر الدين أن ما فيها من صحة التوقع ليس من الغيبيات في شيء، ولهذا فإن علوم التوقع السليمة لا تعتبر بأي حال من الأحوال تعديًا على مجال الغيب، وكل ما يشترطه الدين هو أن تقوم هذه العلوم على منهج علمي صحيح، وأن تراعي بعض الآداب في الاعتقاد والقول، والتي سميتها بـ: "آداب التوقع".

ولكن عقيدة الغيب ـ ككل عقيدة أو فكرة أخرى ـ يمكن في بعض الأحوال والظروف أن يساء استخدامها فترفع سلاحاً في وجه علوم سليمة، وليس الذنب هنا ذنب الدين، بل الذنب للجهل.

ولابد أن أسجل هنا ملاحظة بدت لي من خلال تعرفي على بعض الكتابات الباطنية والخفية للغرب، وهي أن كثيراً من أصحاب هذه الاتجاهات يكنون احتراماً خاصًا للإسلام ولحضارته. بابوس مثلاً يعتبر أن الإسلام هو الذي حرر العقل الإنساني من إسار التحالف الروماني المسيحي، ويقول: إن من حسن حظ العرق الأبيض أن العالم الإسلامي ـ المدعوم بعالم الغيب ـ صمد جيداً في وجه أشكال من الحملات الصليبية التي تعرض لها[1].

واليوم لا تزال توجد بالغرب تيارات كثيرة متأثرة بالباطنية على اختلاف أنواعها وروافدها[2]، وهي تنتقد الحضارة الغربية كثيراً؛ ولذلك يلزم الاستفادة منها.

وقد تبين من خلال هذا البحث أن الإنسان المعاصر ـ والغربي خاصة ـ يعيش أزمة نفسية وروحية هامة، وهي التي تفسر ـ بالدرجة الأولى ـ إقباله المتزايد على أساليب التعرف

---

(١) راجع: Traité élémentaire d' occultisme, p 174 à 178 . وما في الصلب يوجد بصفحة ١٧٨. وانظر أيضا: Le spiritisme, p 70.

(٢) Quelques sciences captivantes, p 198.

على المستقبل، لكن الملاحظ أن هناك مصدراً يلهم كثيراً من التيارات والشخصيات والأفكار الغربية المهتمة بالبحث عن خلاص لهذه الأزمة الروحية، وهذا المصدر هو المعتقدات الهندية خاصة، والأسيوية عامة.

والسؤال الذي ينتظر الإجابة هو: لماذا الهند بالضبط دون حضارات أخرى ؟ ولماذا لم يكن الإسلام هو مصدر هذا الإلهام المطلوب، خصوصاً أنه غني بهذه الناحية الروحية التي يحبها الغربيون؟.

وهذا يحيلنا أيضاً على مشكلة أخرى، هي قضية التصوف، فالتصوف هو المدخل الرئيس للغربيين إلى الإسلام.

إن الذي أتمناه في المرحلة الحالية من الضياع والبحث عن طريق نحو الهدوء النفسي والروحي، هو ألا ينحرف الطريق بالإنسان المعاصر ـ خصوصاً الغربي ـ إلى مذاهب أخرى كالبوذية، أو الروحية الحديثة، فهذه متاهات قد تبعدهم عن أفضل البدائل الروحانية للعالم اليوم، أعني الإسلام. وقد لوحظ ـ منذ سنوات ـ انتشار كبير للبوذية في الأوساط الغربية، والتي يقدمها البعض على أنها ديانة الحداثة بامتياز.

إن كلام سيد قطب رحمه الله تعالى ـ المتكرر في عدد من كتبه ـ عن الإنسانية المتعبة، وأنها سترجع لا محالة إلى الدين... كلام صحيح، ولكن أي دين، فأنا أخشى أنها ستختار شيئاً آخر غير الدين الخاتم، وأتكلم هنا عن المستقبلين: القريب والمتوسط.

من آفاق البحث:

ومن القضايا التي كشف هذا البحث عن حاجتها إلى دراسات مستقلة: التاريخ العلمي عند المسلمين، فأنى وليت وجهك وجدت فراغاً كبيراً، ووجدت أننا عالة على مؤرخي العلم الغربيين، وعلى سبيل المثال يلزم إفراد "الكيمياء الخفية" بمؤلف خاص، وهذه مهمة المختصين في العلوم التجريبية، فهم أقدر الناس على بحث بعض القضايا التي تحتاج ـ بحكم طبيعتها ـ إلى تكوين علمي تجريبي؛ ولذلك فإن موضوع "مفاتح الغيب" مثلاً يحتاج إلى جهود هؤلاء وآرائهم، وأنا على يقين أن علماء علم المناخ والأرصاد الجوية أقدر الناس على فهم لِمَ كان توقع بعض الظواهر الجوية ـ وخصوصاً شؤون المطر ـ من مفاتح الغيب، ولذلك أوجه من هنا دعوة إلى هؤلاء لبحث هذه الناحية في أمور الغيب، وقضية "مفاتح الغيب الخمسة" هامة، وأظن أنها بيان قرآني لحدود علوم التوقع البشرية.

ويجب أيضاً دراسة ظاهرة "التأطير الإيديولوجي للمستقبل" بتوسع، وقد حاولت هذا في حديثي عن الجماعات الألفية بالغرب، وعن مشكلة المهدوية، وكذا حين عرّفت ببعض التوقعات الخاطئة لبعض علمائنا في تحديد عمر الدنيا، وفي تعيين زمن لسيطرة الإسلام



على العالم. لكن هذا كله يحتاج إلى توسع في الدرس، وخصوصاً قضية المهدوية.

ويمكن أن أضيف إلى هذا مواضيع أخرى تستحق البحث، وهي:

١ ـ تفسير التاريخ، خصوصاً الذي يحمل رؤية عن المستقبل، كآراء دوفلور وماركس ...

٢ ـ فكرة التقدم Progrès.　　　　٣ ـ فكرة النهاية والانحطاط.

وفي هذا الإطار ينبغي دراسة النصوص المتعلقة بالمستقبل، في القرآن والسنة؛ خصوصاً الأحاديث التي تشير إلى وقائع قادمة، أو يجوز أن بعضها يحدث الآن؛ ولذلك فإن الباحث عبد الواحد الإدريسي أحسن عملاً حين اختار لبحثه موضوع: "فقه الفتن، أصوله واتجاهاته". (وهي رسالة مسجلة بكلية الآداب بأكادير المغربية). وظني أن هذا الموضوع يحتمل أكثر من بحث، فإن أحاديث الفتن خطرة إذا أسيء فهمها.

ومن أهم القضايا التي كشف بحثي هذا عن ضرورة دراستها بعمق: سؤال: لماذا هذا الإقبال الكبير على فنون التنبؤ، وبالغرب خاصة؟ ما الذي يبحث عنه الإنسان المعاصر، مما يظن أنه لم يجده في الأديان السماوية؟ ما أسباب هذا الإقبال، وما مظاهره؟ هذه الأسئلة وغيرها تشغل اليوم كثيراً من المختصين الغربيين في شؤون الاعتقادات والأديان، ولا ينبغي أن يغيب المسلمون عن هذا الانشغال.

خاتمة الخاتمة:

التوحيد: روح التقدم في الحضارة الإنسانية:

فهذا من أهم نتائج البحث، لقد أضاع الشرك على البشرية آلافاً طويلة من السنين، ضاعت في الجهل والتخلف والتطير والتعلق بالأوهام...

إن التوحيد عقيدة بسيطة، ولكنها خطيرة الشأن، وبعيدة الأثر في رسم صورة مميزة للحياة الإنسانية:

١ ـ الله سبحانه هو الخالق الوحيد والرب الوحيد للكون والحياة والإنسان.

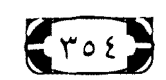
٢ ـ لا يعرف الغيب إلا هذا الخالق العظيم.

٣ ـ السحر والكهانة والتنجيم ... كل ذلك محرَّم.

٤ ـ وقد خلق الله سبحانه الكون والحياة وفق نظام يجريان عليه.

٥ ـ هذا النظام بإمكان الإنسان أن يدركه، بل هو مدعو إلى ذلك.

وبهذا حرر التوحيد عقل الإنسان بتوجيهه نحو الكون، كما حرر نفسيته بعقيدة القضاء والقدر، كل عناصر التقدم العلمي والحضاري موجودة في هذه المبادئ التوحيدية البسيطة.



إن التشدد الملاحظ في الديانات السماوية تجاه ممارسات السحر والكهانة والتنجيم، والذي رأينا بعض مظاهره في الحكم الفقهي للسحر مثلاً، هذا التشدد مفهوم جدًّا في إطاره التاريخي، فهذه الاعتقادات الخاطئة كانت متجذرة في البشرية، وكانت عوائق كبرى في وجه التوحيد، وهي مع الشرك جسم واحد، كما كانت آثارها السلبية على حياة البشرية كبيرة وخطيرة؛ لذا كانت هناك حاجة إلى مواجهتها بحزم كبير.

وما زالت هذه الاعتبارات قائمة، فالبشرية يمكن أن ترتد دائماً إلى الشرك القديم، الذي يمكن أن تختلف صوره، ولكن روحه واحدة وثابتة.

وقد تعلمت من هذا البحث كم كانت مهمة الأنبياء صعبة ونبيلة في آن، واحترمتهم أكثر بالنظر إلى سببين:

الأول: شدة المقاومة التي واجهوها، والتي قادتها الكهانة.

الثاني: الآثار الكبيرة والإيجابية التي كانت دعوتهم تحملها للناس لو آمنوا بها.

وإن من جوانب عظمة الدين الخاتم أنه نجح في هذه المهمة، فحطم الكهانة وملحقاتها، وحرر العقل الإنساني، وأرشده إلى طريق الصواب، وبهذا انفتحت أمام الإنسان آفاق من الحياة غير مسبوقة.

أحمد الله سبحانه أن وفقني لإتمام هذا العمل، فله الحمد والمنَّة. وأُصلِّي وأسلِّم على نبيه الكريم وآله. وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.





فهرس الفهارس



فهرس الآيات القرآنية

سورة البقرة

آل عمران



النساء

المائدة

الأنعام



الأعراف

التوبة

يونس

هود



يوسف

الرعد

الحجــر

النحــل

الكهــف

مريــم

طــه

الأنبيـــاء





فاطـــر

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[١٨]: ٤٩

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣٨]: ٣٩

يــــس

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [١٠-١١]: ٤٨

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٨٢]: ٢٣٩

الصافـــات

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[١٦٤]: ١٣٨

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[١٧١]: ١٦٣

الزمـــر

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٩]: ٢٩٤، ٣١٤، ٣١٥

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾[١٤]: ٢٨٣

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٤٢]: ٢٧٥

غافـــر

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾[٨٥]: ٣٠٩

فصلـــت

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ﴾[٢٢]: ٣٦

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [٤٧]: ٢٠، ٩٨

الشـــورى

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [١٧]: ١٥٧

الزخـــرف

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [٣٦]: ٢٧٦

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾[٦٦]: ٧٩

الجاثية

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [٣٢]: ٢٢

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٢٩]: ٥٣



الأحقـــاف

الفتـــح

ق

الذاريـــات

الطــور

النجــم

القمــر





فهرس الأحاديث النبوية، والآثار [1]

ـ أ ـ

---

(١) المقصود بالأثر هنا فعل الصحابي أو التابعي، أو قولهما.



— ب —

— ت —

— ج —

— ح —





— ك —

— ل —

— م —







فهرس الأعلام

أ ـ الأعلام العربية والإسلامية:











ب - الأعلام الأجنبية:







قائمة المصادر و المراجع

أولا ـ بالعربية:

I ـ المطبوعات:

١ ـ القرآن وعلومه:

القرآن الكريم، برواية حفص.

أ ـ التفسير العام:

١ ـ الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار إحياء التراث العربي. بيروت. دون ذكر الطبعة والتاريخ.

٢ ـ البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود: معالم التنزيل. حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش. دار طيبة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٣. الرياض

٣ ـ البقاعي برهان الدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. طبع بعناية محمد عبد الحميد. دائرة المعارف العثمانية، تصوير عام ١٩٨٤.

٤ ـ البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. مطبعة مصطفى محمد. الناشر المكتبة التجارية. القاهرة. د. ط. ت.(أي دون ذكر الطبعة والتريخ).

٥ ـ الرازي، محمد فخر الدين: مفاتيح الغيب (أو التفسير الكبير). دار الفكر. ط ١٩٩٣. بيروت. نسخة ثانية: المطبعة البهية المصرية. ط.١، سنة ١٩٣٨. اعتمدت هذه النسخة في مواضع محددة هي بين سورة آل عمران آية رقم ١٧٩ والأنعام ٥٠.

٦ ـ رشيد رضا، محمد: تفسير القرآن الحكيم، دار المعرفة. ط: ٢. بيروت.

٧ ـ الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. طبع بطهران. د. ط. ت.

٨ ـ أبو السعود، محمد بن مصطفى العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. المطبعة المصرية، الناشر المكتبة الحسينية المصرية. ط١، ١٩٢٨. صححها حسن محمد المسعودي.

٩ ـ سيد قطب: في ظلال القرآن. دار إحياء التراث العربي. ط ٥. ١٩٦٧. بيروت.

١٠ ـ السيوطي، عبد الرحمن: الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور. المطبعة الإسلامية بطهران، سنة ١٣٧٧هـ.

١١ ـ الصاوي، أحمد بن محمد: حاشية على تفسير الجلالين المحلي والسيوطي. راجعها عبد العزيز الأهل. مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، القاهرة، ١٣٨١هـ.

١٢ ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. المطبعة الميمنية بمصر، وهي طبعة قديمة، واعتمدت أحيانا على طبعة دار المعرفة. ط ٣. ١٩٧٨. بيروت.

١٣ ـ طنطاوي، جوهري: الجواهر في تفسير القرآن. مطبعة: انتشارات آفتاب، طهرن، ط٢، ١٣٥٠هـ.

١٤ ـ ابن عاشور، محمد الطاهر: تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد.



اختصره المؤلف بـ: التحرير والتنوير من التفسير. نشر مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة. د. ط. ت.

١٥ ـ ابن عطية، أبو محمد عبد الحق: المحرر الوجيز. طبعت أجزاؤه بين ١٩٧٥ و١٩٨٩. طبعة وزارة الأوقاف. ط ١. المغرب.

١٦ ـ القاسمي، محمد جمال الدين: محاسن التأويل. اعتنى به محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية. ط ١ . ١٩٥٧. القاهرة.

١٧ ـ القرطبي، أبو عبد الله محمد: الجامع لأحكام القرآن. ١٩٨٨، دار الكتب العلمية، بيروت. النسخة الثانية: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠. القاهرة. وهي نسخة معتمدة فيما بين آل عمران آية ٧ إلى الأنعام آية ٥٠.

١٨ ـ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم. دار ابن كثير. ط١. ١٩٩٤. دمشق.

١٩ ـ الماتريدي، أبو منصور محمد السمرقندي: تأويلات أهل السنة. تحقيق وتعليق: د. إبراهيم عوضين والسيد عوضين. مطابع الأهرام التجارية، صدر بعناية المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. ١٩٧١. القاهرة.

٢٠ ـ محمود شلتوت: تفسير القرآن الكريم. (الأجزاء العشرة الأولى). دار القلم. ط٢ . ١٩٦٠. القاهرة.

٢١ ـ ابن المنير، أحمد: الانتصاف من الكشاف، طبع بهامش الكشاف.

٢٢ ـ النسفي، عبد الله بن أحمد أبو البركات: مدارك التنزيل وحقائق التأويل. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. د. ط. ت.

ب ـ التفسير الفقهي:

٢٣ ـ الجصاص، أبو بكر: أحكام القرآن. اعتنى به عبد السلام شاهين، ط١، ١٩٩٤. دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٤ ـ ابن العربي، أبو بكر: أحكام القرآن. اعتنى به محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. ١٩٨٨. بيروت. د. ط. واعتمدت أحيانا على النسخة التي حققها علي البجاوي. مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٤.

٢٥ ـ الكيا الهراسي، عماد الدين بن محمد الطبري: أحكام القرآن. دار الكتب العلمية . ط٢ . ١٩٨٥ . بيروت.

ج ـ علوم القرآن:

٢٦ ـ الزركشي، محمد بدر الدين: البرهان في علوم القرآن. اعتنى به مصطفى عبد القادر عطا. دار الفكر، بيروت. ط١، ١٩٨٨.

٢٧ ـ مشهداني، عبد الكريم: الإعجاز بالنظم، وأثره في الدراسات القرآنية. دكتوراه دولة بدار الحديث الحسنية، سنة ١٩٩٢.

٢ ـ الحديث وعلومه:

أ ـ الحديث وشروحه:

٢٨ ـ آبادي، عبد العظيم الطيب: عون المعبود شرح سنن أبي داود. ضبطه عبد الرحمن عثمان. دار الفكر، ط٣، ١٩٧٩.

٢٩ ـ الأبي، أبو عبد الله محمد بن خلفة: إكمال المعلم. دار الكتب العلمية. د. ط. ت.

٣٠ ـ أحمد بن حنبل: المسند. صححه محمد الزهراوي الغماري. المطبعة الميمنية بمصر، ١٣١٣هـ.

٣١ ـ الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف: المنتقى شرح الموطأ. دار الكتاب العربي. بيروت. د. ط. ت. (طبعة مصورة عن طبعة مطبعة السعادة بالقاهرة، سنة ١٣٣١هـ).

٣٢ ـ البخاري، أبو عبد الله محمد: الجامع الصحيح. مطبوع مع شرحيه: فتح الباري، وعمدة القاري.

٣٣ ـ ابن عبد البر، أبو عمر يوسف: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. تحقيق جماعة بإشراف الجهة الناشرة، وهي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بالمغرب. طبع على مدى سنوات متفرقة من نهاية السبعينيات إلى أواسط الثمانينيات.

٣٤ ـ البنا، أحمد عبد الرحمان: الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني. مطبعة الإخوان المسلمين. ط ١. مصر.

٣٥ ـ الترمذي، أبو عيسى بن سورة: الجامع (مطبوع مع شرحه عارضة الأحوذي). دار الكتب العلمية.

٣٦ ـ ابن أبي جمرة، أبو محمد عبد الله الأزدي الأندلسي: بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها. (شرح مختصر صحيح البخاري). دار الجيل. ط٢ . ١٩٧٢ . بيروت.

٣٧ ـ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري. طبعة مصححة على عدة نسخ، ومنها النسخة التي حققها وأجازها الشيخ عبد العزيز بن باز. دار الفكر. ط ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥. بيروت. واعتمدت أحيانا على نسخة ابن باز.

٣٨ ـ ٣٩ ـ الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد البستي:

* معالم السنن شرح سنن أبي داود. اعتنى به عبد السلام عبد الشافعي محمد. دار الكتب العلمية. ١٩٩٦. بيروت.

* أعلام السنن في شرح صحيح البخاري. دراسة وتحقيق د. يوسف الكتاني. مطابع منشورات عكاظ. ١٩٩١. الرباط.

٤٠ ـ ابن دقيق العيد: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام. دار الكتب العلمية، بيروت.

٤١ ـ الشوكاني، محمد بن علي: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار. دار الفكر. د. ط. ت.

٤٢ ـ ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد: الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار. تقديم وضبط كمال يوسف الحوت. دار التاج. ط١. ١٩٨٩. بيروت.

٤٣ ـ صديق خان، أبو الطيب القنوجي البخاري: السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج. وهو شرح على ملخص صحيح مسلم للحافظ المنذري. تحقيق الشيخ عبد التواب هيكل. إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بقطر. ١٩٩٤. طبع بالمطبعة الأهلية بالدوحة.

٤٤ ـ العزيزي، علي بن أحمد: السراج المنير شرح الجامع الصغير. دار الفكر. د. ط. ت. ومعه حاشية الشيخ سالم الحفني.

٤٥ ـ ابن علان، محمد الصديقي: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين. دار الفكر، بيروت.



٤٦ ـ ٤٧ ـ ابن العربي، أبو بكر:

* عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي. دار الكتب العلمية. د. ط. ت.

* القبس في شرح موطأ مالك بن أنس. دراسة وتحقيق: د. محمد عبد الله ولد كريم دار الغرب الإسلامي. ط١. ١٩٩٢. بيروت.

٤٨ ـ العيني، بدر الدين محمود بن أحمد: عمدة القاري بشرح صحيح البخاري. دار الفكر. د. ط. ت.

٤٩ ـ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: تأويل مختلف الحديث. دار الكتب العلمية. ط ١. ١٩٨٥. بيروت.

٥٠ ـ القرطبي، أحمد أبو العباس: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. تحقيق محيي الدين مستو، ويوسف بديوي، وأحمد السيد، ومحمود بزال. دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، كلاهما بدمشق. ط١، ١٩٩٦.

٥١ ـ الكرماني: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري. المطبعة البهية المصرية. ط٢. ١٩٣٩. القاهرة.

٥٢ ـ المازري، أبو عبد الله محمد بن علي: المعلم بفوائد مسلم. تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي النيفر. دار الغرب الإسلامي. ط٢. ١٩٩٢. بيروت.

٥٣ ـ مسلم، بن الحجلج: الجامع الصحيح. تحقيق وتعليق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة. ط١، ١٩٥٥.

٥٤ ـ ٥٥ ـ النووي، يحيى بن شرف:

* رياض الصالحين. (مطبوع مع شرحه دليل الفالحين). دار الفكر. بيروت.د. ط. ت.

* المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. اعتنى به محمد فؤاد عبد الباقي. دار الكتب العلمية، بيروت. طبعة أولى، ١٩٩٥.

ب ـ كتب تخريج الأحاديث:

٥٦ ـ السخاوي، محمد شمس الدين: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. تصحيح عبد الله بن الصديق. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٩٧٩.

٥٧ ـ ٥٨ ـ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر:

* اللآليء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة. دار المعرفة، بيروت. ط٢، ١٩٧٥.

* الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير. دار الفكر، بيروت. ط١، ١٩٨١.

٥٩ ـ العراقي، زين الدين عبد الرحيم: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار. مطبوع بهامش إحياء علوم الدين. ط٢، ١٩٩٢. دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٠ ـ لفيف من المستشرقين: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي. نشره الدكتور أي، ونسنك. طبع مكتبة بريل بمدينة ليدن بهولندا. ١٩٣٦.

٦١ ـ الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. بتحرير الحافظين: العراقي وابن حجر. دار الكتب العلمية، ط ١٩٨٨.



٣ ـ السيرة النبوية:

٦٢ ـ السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام. علق عليه ووضع حواشيه: مجدي بن منصف بن سيد الشورى. منشورات محمد بيضون. د. ط. ت. دار الكتب العلمية، بيروت. واعتمدت أحيانا على النسخة التي أخرجها طه عبد الرؤوف سعد. دار المعرفة، بيروت. ١٩٧٨.

٦٣ ـ عياض، أبو الفضل اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى. ومعه "مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا"، لأحمد بن محمد الشمني. دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٤ ـ ابن كثير، إسماعيل أبو الفداء: السيرة النبوية. تحقيق مصطفى عبد الواحد. ١٩٩٠. دار الفكر، بيروت.

٤ ـ كتب الكلام والعقائد والفرق:

٦٥ ـ الإيجي، عضد الدين: المواقف، في علم الكلام. تحقيق: عبد الرحمن عميرة. دار الجيل، بيروت. ط١، ١٩٩٧.

٦٦ ـ بارندر، جفري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ترجمه عن الإنجليزية: إمام عبد الفتاح إمام. سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٧٣، ١٩٩٣. الكويت.

٦٧ ـ البوطي، محمد سعيد رمضان: كبرى اليقينيات الكونية. ١٩٩٩. دار الفكر. دمشق.

٦٨ ـ التفتازاني، سعد الدين: شرح العقائد النسفية. تحقيق أحمد حجازي السقا. ط١، ١٩٨٧. مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

٦٩ ـ الجرجاني، علي بن محمد: شرح المواقف في علم الكلام. تحقيق عبد الرحمان عميرة. دار الجيل، بيروت. ط١، ١٩٩٧.

٧٠ ـ جلال شرف، محمد: الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامي. دار النهضة العربية، بيروت. ١٩٨٠.

٧١ ـ ابن حزم، علي بن أحمد: الفصل في الملل والأهواء والنحل. تحقيق محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة. دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥.

٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٤ ـ الرازي، فخر الدين:

* لباب الإشارات والتنبيهات. تحقيق أحمد حجازي السقا. الناشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة. ط١، ١٩٨٦.

* محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، من العلماء والحكماء والمتكلمين. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد. الناشر دار الكتاب العربي، بيروت. ط١، ١٩٨٤.

* المطالب العالية من العلم الإلهي. اعتنى به أحمد حجازي السقا. مطبعة دار الكتاب العربي، بيروت. ط١، ١٩٨٧.

٧٥ ـ عبد الرحمن، آل الشيخ: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد. راجع حواشيه وصححها وعلق عليها عبد العزيز بن باز. دار الحديث بالقاهرة. ط٢، ١٩٩٢.

٧٦ ـ ٧٧ ـ ابن رشد، أبو الوليد محمد:



* ضميمة العلم الإلهي. مطبوعة مع كتاب "فصل المقال" لابن رشد أيضا. تحقيق محمد عمارة. دار المعارف، القاهرة. ط٢، ١٩٨٣.

* الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة. المطبعة الجمالية بمصر، ط٢، ١٩١٠.

٧٨ ـ الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد: اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر. دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء. وهي نسخة مصورة عن طبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة، سنة ١٩٥٩.

٧٩ ـ صبحي، أحمد محمود: الزيدية. الناشر: الزهراء للإعلام العربي، القاهرة. مطبعة الجبلاوي. ط٢، ١٩٨٤.

٨٠ ـ عبده، محمد: رسالة التوحيد. دار الكتب العلمية، بيروت.

٨١ ـ ابن أبي العز، علي بن محمد: شرح العقيدة الطحاوية. تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط١، ١٩٨٧.

٨٢ ـ ٨٣ ـ الغزالي، أبو حامد:

* فضائح الباطنية. تحقيق عبد الرحمن بدوي. مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت.

* الاقتصاد في الاعتقاد. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٩٨٨.

٨٤ ـ عبد القاهر، البغدادي: الفرق بين الفرق. دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٥ ـ النوبختي، الحسن بن موسى: فرق الشيعة. تحقيق عبد المنعم الحفني. دار الرشاد، القاهرة. ط١، ١٩٩٢.

٥ ـ الفقه الإسلامي:

٨٦ ـ ابن حزم، علي أبو محمد: المحلى. طبعة مقابلة على النسخة التي حققها أحمد شاكر. دار الفكر.

٨٧ ـ ٨٨ ـ ابن رشد الجد، أبو الوليد محمد:

* البيان والتحصيل. تحقيق محمد حجي وآخرين. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ١٩٨٤.

* المقدمات الممهدات. تحقيق: محمد حجي. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط١، ١٩٨٨.

٨٩ ـ زروق، أحمد البرنسي: شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني. دار الفكر، بيروت، ١٩٨٢.

٩٠ ـ السنبهلي، محمد برهان الدين: قضايا فقهية معاصرة. دار القلم، دمشق، ودار العلوم، بيروت. ط١، ١٩٨٨.

٩١ ـ ابن الشاط، أبو القاسم: إدرار الشروق على أنواء الفروق. طبع مع فروق القرافي. عالم الكتب، بيروت.

٩٢ ـ ابن قدامة، عبد الله موفق الدين: المغني. دار الفكر، بيروت. ط١، ١٩٨٤.

٩٣ ـ القرافي، إدريس شهاب الدين: الفروق. عالم الكتب، بيروت.

٩٤ ـ القيرواني، ابن أبي زيد: الرسالة. ١٩٩٣، دار الفكر.

٩٥ ـ ابن المنذر، محمد بن إبراهيم: الإشراف على مذاهب أهل العلم. تحقيق محمد نجيب سراج الدين، بإشراف عبد الغني عبد الخالق. إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بقطر، ط٢، ١٩٩٣.



٩٦ ـ ميارة، محمد بن أحمد: الدر الثمين شرح المرشد المعين. دار الفكر، بيروت.

٩٧ ـ ابن ناجي، قاسم التنوخي: شرح رسالة القيرواني. دار الفكر، ١٩٨٢. مطبوع مع شرح زروق.

٩٨ ـ النفراوي، أحمد بن غنيم: الفواكه الدواني، شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني. المكتبة الثقافية، بيروت.

٦ ـ الفتاوى:

٩٩ ـ ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة. أشرف على تجميعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر. ط١، ١٩٨٨. طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة، الرياض.

١٠٠ ـ ابن تيمية، أحمد تقي الدين: مجموع الفتاوى. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. الناشر: المكتب التعليمي السعودي بالمغرب.

١٠١ ـ ابن حجر، الهيتمي: الفتاوى الحديثية. مطبعة أحمد الحلبي، القاهرة، ١٣٠٧ هـ.

١٠٢ ـ الرملي، محمد بن أحمد شهاب الدين: الفتاوي. تصوير عن طبعة المطبعة الميمنية بالقاهرة لسنة ١٣٠٨هـ. مؤسسة التاريخ العربي، بيروت. وهذه الفتاوى مطبوعة بهامش الفتاوى الفقهية الكبرى، لابن حجر الهيتمي.

١٠٣ ـ السبكي، علي تقي الدين: الفتاوى. زعم المسمى حسام الدين القدسي أنه حققه. ط١، ١٩٩٢. دار الجيل، بيروت.

١٠٤ ـ السيوطي، عبد الرحمن: الحاوي للفتاوي. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط٣، ١٩٥٩. مطبعة السعادة. توزيع المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.

١٠٥ ـ ابن الصلاح: الفتاوى. تحقيق عبد المعطي قلعجي. دار المعرفة، بيروت. ط١، ١٩٨٦.

١٠٦ ـ عبد الله، بن زيد آل محمود: مجموعة رسائل. مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر، ط٣، ١٩٩٢، الدوحة، قطر.

١٠٧ ـ عليش، محمد: فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك. مطبعة التقدم العلمية، مصر. ط١، ١٣١٩هـ.

١٠٨ ـ النووي، يحيى شرف الدين: المسائل المنثورة. ترتيب تلميذه علاء الدين بن العطار. تحقيق وتعليق محمد الحجار. ط٥، ١٩٩٠. دار البشائر الإسلامية، بيروت.

١٠٩ ـ الونشريسي، أحمد بن يحيى: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب. اعتنى به مجموعة من أهل العلم، بإشراف محمد حجي. طبع دار الغرب الإسلامي. نشر وزارة الأوقاف المغربية. ١٩٨١.

٧ ـ القانون:

١١٠ ـ القانون الجنائي المغربي. القانون رقم ٩٩.١١ـ سلسلة النصوص التشريعية المغربية. تقديم وتحيين عبد العزيز توفيق. دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٩.



١١١ ـ محكمة النقض بمصر، المكتب الفني: قانون العقوبات. وفق التعديلات التي أدخلت عليه حتى يناير سنة ١٩٦٥. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية. ١٩٦٥، القاهرة.

٨ ـ الفلسفة والفكر والاجتماع:

١١٢ ـ ١١٣ ـ إلياس بلكا:

*الغيب والعقل، دراسة في حدود المعرفة البشرية. المعهد العالمي .

*الوجود بين مبدئي السببية والنظام، بحث في الأساس الشرعي والنظري لاستشراف المستقبل. نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

١١٤ ـ امزيان، محمد: منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية. بيت الحكمة للترجمة والنشر، وجدة، بالمغرب. ط٣، ١٩٩٦.

١١٥ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. مطبعة محمد عاطف، القاهرة.

١١٦ ـ ابن رشد، أبو الوليد: تهافت التهافت. تقديم وضبط: محمد العريبي. دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٣.

١١٧ ـ الطوسي، علاء الدين خواجه زاده: تهافت الفلاسفة. الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. ط٢، ١٩٨٣.

١١٨ ـ ١١٩ ـ الغزالي، أبو حامد:

*تهافت الفلاسفة. تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٥٥، سلسلة ذخائر العرب، رقم ١٥.

*المنقذ من الضلال. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت. ط٣، ١٩٩١.

١٢٠ ـ القرضاوي، يوسف: العقل والعلم في القرآن الكريم. مطبعة المدني، الناشر مكتبة وهبة، كلاهما بالقاهرة. ط١، ١٩٩٦.

٩ ـ دراسات مستقلة في قضايا مختلفة من الغيب، والتكهن والتنجيم، والفنون الخفية:

١٢١ ـ الأشقر، عمر سليمان: عالم الجن والشياطين. دار الكتب العلمية، بيروت. ط٢.

١٢٢ ـ ١٢٣ ـ إلياس، بلكا:

*مقدمة في التنجيم وحكمه في الإسلام. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣.

*النظرية الإسلامية في الكهانة، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠٣.

١٢٤ ـ الأهدل، محمد بن أحمد: تحذير الإخوان المسلمين من تصديق الكهان والعرافين والمنجمين. مطابع الوحيد، السعودية. ط١، ١٩٩٨.

١٢٥ ـ الجميلي، السيد: السحر وتحضير الأرواح، بين البدع والحقائق. ١٩٨٧، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

١٢٦ ـ الخطيب، أبو بكر علي بن أحمد: القول في علم النجوم. حققه يوسف بن محمد السعيد. دار أطلس، الرياض. ط١، ١٩٩٩.



١٢٧ ـ ابن رشد الجد، محمد بن أحمد: الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الخط، لما روي في ذلك من أحاديث ووجه تأويلها. خرج أحاديثه وعلق عليه مشهور سلمان. دار ابن حزم، بيروت. ط١، ١٩٩٢.

١٢٨ ـ الشعراوي، محمد متولي: الغيب. مطابع دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٨ .

١٢٩ ـ الطوخي، عبد الفتاح: الأصول والوصول في علم الرمل. المكتبة الثقافية. بيروت. ط١، ١٩٩٢.

١٣٠ ـ الندوي، عبد الرحمن: نبوءات الرسول، ما تحقق منها وما يتحقق. دار السلام، القاهرة. ط٢، ١٩٩١.

١٣١ ـ ابن الزبير، أحمد الثقفي: الزمان والمكان. وعنوانه الأصلي: كتاب تعيين الأوان والمكان للنصر الموعود به في آخر الزمان، مستقرأ من صحيح السنة ومحكم القرآن. تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء. ط١، ١٩٩٣.

١٣٢ ـ ابن زيدان، عبد الرحمن: قراضة العقيان في تحقيق استمرار أفراد من الكهانة لآخر الزمان. المطبعة الجمالية بمصر، ١٩١٤.

١٣٣ ـ شيشرون: علم الغيب في العالم القديم. ترجمه وعلق عليه: توفيق الطويل. مطبعة الاعتماد، الناشر مكتبة الآداب بالجمامين، كلاهما بمصر. ١٩٤٦.

١٣٤ ـ العلمي، محمد: الغيب في القرآن الكريم. رسالة دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية، رقم: ر - ج ٧١.٢١١ علم، كلية الآداب بالرباط.

١٣٥ ـ هارون، عبد السلام: الميسر والأزلام. دراسة تاريخية اجتماعية أدبية ودعوة إلى إصلاح اجتماعي. مكتبة السنة، القاهرة. ط٣، ١٩٨٧.

١٣٦ ـ ويلسون، كولن: الإنسان وقواه الخفية. ترجمة خليل حنا تادرس. طبعة ٢، ١٩٧٩. الجهة الناشرة غير مذكورة.

١٣٧ ـ وليد، عبد الحي: الدراسات المستقبلية في العلاقات الدولية. الناشر: عيون المقالات. مطبعة دار تينمل بمراكش، بالمغرب، ط ٢، ١٩٩٣.

١٠ ـ العلوم: تصنيفها وتاريخها.

١٣٨ ـ ابن الأكفاني، محمد بن إبراهيم السنجاري: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد. تحقيق محمود فاخوري، ومحمد كمال، وحسين الصديق. ط١، ١٩٩٨. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت.

١٣٩ ـ بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي. نقله إلى العربية السيد يعقوب بكر، وعبد الحليم النجار، ورمضان عبد التواب. دار الكتاب الإسلامي، قم، إيران. ط٢. وأحيانا اعتمدت على: طبعة دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٤.

١٤٠ ـ حاجي خليفة، كاتب جلبي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. تصوير سنة ١٩٩٠ عن طبعة دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٨٢.

١٤١ ـ سزكين، فؤاد: محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية. ١٩٨٤. منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية التابع لجامعة فرانكفورت بألمانيا.



١٤٢ ـ صاعد، بن أحمد أبو القاسم: طبقات الأمم. مطبعة التقدم. توزيع المكتبة المحمودية التجارية، كلاهما بالقاهرة.

١٤٣ ـ طاش كبرى، زاده: مفتاح السعادة، ومصباح السيادة. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٩٨٥.

١٤٤ ـ ابن النديم، أبو الفرج الوراق: الفهرست. تحقيق رضا تجدد الحائري. ط١، ١٩٧١، إيران. دار النشر غير مذكورة.

١١ ـ التاريخ:

١٤٥ ـ ابن الأثير، علي عز الدين: الكامل في التاريخ. ط٢، ١٩٦٧. دار الكتاب العربي. بيروت.

١٤٦ ـ جواد، علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار العلم للملايين، بيروت. مكتبة النهضة، بغداد. ط٢، ١٩٧٦.

١٤٧ ـ الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤٨ ـ المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط٣، ١٩٥٨. مطبعة السعادة بمصر. توزيع المكتبة التجارية الكبرى.

١٢ ـ المعاجم وكتب الغريب:

١٤٩ ـ ابن الأثير، أبو السعادات المبارك: النهاية في غريب الحديث. المطبعة الخيرية، القاهرة. ط١، ١٣٢٢هـ.

١٥٠ ـ التهانوي، محمد علي: كشاف اصطلاحات الفنون. دار صادر، بيروت.

١٥١ ـ الراغب، الأصفهاني: مفردات غريب القرآن. مطبوع مع النهاية لابن الأثير.

١٥٢ ـ الزبيدي، محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس. دار ليبيا، بنغازي. عن نسخة المطبعة الميمنية بمصر، ١٣٠٦هـ.

١٥٣ ـ الفيروز أبادي، محمد مجد الدين: القاموس المحيط، والقابوس الوسيط. مطبعة السعادة بمصر، ١٣٢٦هـ.

١٥٤ ـ الكفوي، أيوب أبو البقاء: الكليات. ط١، ١٩٩٢. مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٥٥ ـ ابن منظور، جمال الدين بن مكرم: لسان العرب. دار صادر، بيروت، وكذلك دار بيروت. ١٩٥٥.

١٣ ـ التراجم:

١٥٦ ـ ١٥٧ ـ ابن حجر، أحمد العسقلاني:

*الإصابة في تمييز الصحابة. تحقيق علي البجاوي. دار نهضة مصر، القاهرة. ١٩٧٢.

*تهذيب التهذيب، تصويردار صادر بلبنان عن نسخة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط ١، ١٣٢٥هـ.

١٥٨ ـ الزركلي، خير الدين: الأعلام. القاهرة. ط٣، ١٩٦٩.

١٥٩ ـ عمر، رضا كحالة: معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٦٠ ـ مخلوف، محمد بن محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر.



١٤ ـ الأدب:

١٦١ ـ الباجوري، إبراهيم: حاشية على شرح خالد الأزهري لبردة البوصيري. دار الفكر. د. ط. ت.

١٦٢ ـ زهير، بن أبي سلمى: ديوانه. بصنعة الأعلم الشنتمري. تحقيق فخر الدين قباوة. الآفاق الجديدة، بيروت. ط٣، ١٩٨٠.

١٥ ـ الموسوعات:

١٦٣ ـ دائرة المعارف الإسلامية. نقلها إلى العربية جماعة من الباحثين. دار: انتشارات جهان. طهران.

١٦٤ ـ دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي. دار المعرفة، بيروت. ط٣، ١٩٧١.

١٦ ـ كتب متنوعة:

١٦٥ ـ ابن رجب، الحنبلي: فضل علم السلف على الخلف. عنى به محمد أغا النقلي. إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة. ط ٢، ١٣٤٧هـ.

١٦٦ ـ الريسوني، أحمد: نظرية التقريب والتغليب، وتطبيقاتها في العلوم الإسلامية. ط ١، ١٩٩٤. مطبعة مصعب، مكناس، المغرب.

١٦٧ ـ زروق، أحمد: عدة المريد الصادق. تحقيق ودراسة إدريس عزوزي. نشر وزارة الأوقاف بالمغرب، ط ١، ١٩٨٩.

١٦٨ ـ الشوكاني، محمد بن علي: الرسائل السلفية. دار الكتب العلمية، نسخة مصورة عن طبعة ١٩٣٠.

١٦٩ ـ ١٧٠ ـ الغزالي، أبو حامد:

* إحياء علوم الدين. ط ٢، ١٩٩٢. دار الكتب العلمية، بيروت.

* الإملاء في إشكالات الإحياء. ملحق بإحياء علوم الدين، المجلد الخامس، ص ١٥ إلى ٤٩.

١٧١ ـ القرطبي، محمد أبو عبد الله: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة. اعتنى به فواز أحمد زمرلي. ط ٤، ١٩٩٥. دار الكتاب العربي، بيروت.

١٧٢ ـ ١٧٣ ـ ابن القيم، شمس الدين:

*مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة. ١٩٩٨. دار الكتب العلمية، بيروت.

*الروح. تحقيق محمد إسكندر يلدا. ط ٣، ١٩٩٢. دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧٤ ـ عبد الكبير، العلوي المدغري: أبو الحسن اليوسي. نموذج من الفكر المغربي في فجر الدولة العلوية. منشورات وزارة الأوقاف بالمغرب.

١٧٥ ـ مغنية، محمد جواد: الخميني والدولة الإسلامية. ط ١، ١٩٧٩. دار العلم للملايين، بيروت.

١٧٦ ـ الهيتمي، أحمد بن حجر: الإعلام بقواطع الإسلام. ١٩٨٧. دار الكتب العلمية، بيروت.

II ـ المخطوطات:

١٧٧ ـ الأدهمي، عبد القادر: المقاصد الأنورية في القواعد الرملية. الخزانة العامة.

١٧٨ ـ البناني، محمد بن الحسن: فتوى في علم النجوم. ضمن مجموع أوله متن الأجرومية، ورسالة البناني هي الخامسة في الترتيب، (ص ٤١٦ إلى ٤١٨) وهي مكتوبة بخط مغربي زمامي، وغير مذكور فيها تاريخ النسخ،

ولعلها بخط المؤلف. رقم المخطوط بالخزانة العامة بالرباط، قسم المخطوطات: د٢٨٨١.

١٧٩ ـ ١٨٠ ـ التجموعتي، عبد الملك أبو مروان:

* ملاذ الطلب في جواب أستاذ حلب. نسخة الخزانة الحسنية بالرباط: ١٢٢١١ (ضمن مجموع، وهو الكتاب الثاني). نسخة الخزانة العامة: ١٤١٨ك، ضمن مجموع.

* خلع الأطمار البوسية بدفع الأسطار اليوسية. رقمه بالخزانة الحسنية: ١٢٤٥٠، ضمن مجموع: ص ١٨٧ إلى ٢٤٨. نسخة الخزانة العامة رقم: ١١٥ح، ضمن مجموع، ص ٣٧٣ إلى ٤٤٥.

١٨١ ـ الجلدكي، علي بن محمد أبو الحسن: غاية السرور في شرح الشذور. وهو شرح لمنظومة برهان الدين علي بن أبي القاسم بن رافع الأندلسي المسماة: "شذور الذهب". المخطوط بخط مغربي، صفحاته ٥٠٩. ورقمه بالخزانة العامة: ٤٢ ك.

١٨٢ ـ ابن أبي الرجال، علي أبو الحسن: منظومة في التنجيم. ضمن مجموع، ص ٢٣١ إلى ٢٧٤. أوله:

قال علي بن أبي الرجال *** الحمد لله العظيم العـــالي

وآخره:

ثم صلاة ربنا العلي *** على النبي أحمد الزكـي

رقمه بالخزانة العامة: ٢٠٦٠ د.

١٨٣ ـ الشبلي، محمد بن عبد الله: التبيان فيما يتعلق بالجان. وهو ملخص لآكام المرجان للشبلي، ومنقول عن نسخة مقابلة على أصلها كتبت سنة ٨٩٨هـ، والناسخ عبد الحي موسى، سنة ١٢٦٧هـ. رقمه بالخزانة العامة: ك٢٣٧٥.

١٨٤ ـ ابن الصديق، أحمد بن محمد: المرشد المهدي لرد طعن ابن خلدون في أحاديث المهدي. (أو إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون). خط مغربي عادي، وكتبت عناوينه بمداد أحمر. ليس فيه اسم الناسخ ولا تاريخ نسخه. عدد صفحاته ١٦٩. أوله: الحمد لله الوهاب الودود، الواسع الكرم والجود، الذي يوفق من يشاء من عباده ويهديه.. آخره: وقد تكلمنا على هذا الحديث ولله الحمد بما لم يتكلم عليه أحد بمثله ولا تجده في كتاب، وسبق منا بيان حاله في تخريجنا لأحاديث الشهاب. والله الموفق لا رب غيره. رقمه بالخزانة العامة: ١٨٧٨ د.

١٨٥ ـ الكتاني، عبد الحي: تبليغ الأمانة في مضار الإسراف والتبرج والكهانة. خط متوسط، والمخطوط كتب بخطين مختلفين، صفحاته ٢٤٣، وينقص منه الفصل الأخير، أي الثالث والعشرون. أول المخطوط: الحمد لله الذي أحيى قلوب المؤمنين بتبصرته وزجر الغافلين عن تذكرته بزواجر موعظته.. أما بعد فيقول خادم السنة وأهلها محمد عبد الحي... وآخره: وأما حكم سماع غير القرآن من هذه الآلة الفتوغرافية.. وأبيات. رقمه بالخزانة العامة: ك ٣١٨٥.

١٨٦ ـ المدني، محمد بن جلون الكومي: حديقة الأزهار المهداة لسيد الأبرار في التحذير من تعاطي علم الكيمياء والكنوز والنار.

الكتاب ١٥ ضمن مجموع: ص ٣٣٠ إلى ٤٢٦. تاريخ نسخه ١٢٨٧هـ، وعليه خط المؤلف. أو له: الحمد لله رفع عماد السنة وأعلى منارها وخفض البدعة وكسف أنوارها... آخره: ولا تتوقفوا عن الاستضاءة بنور فجرها. قاله وجمعه عبيد ربه أفقر الورى وأحقر من يرى محمد المدني بن علي بن جلون، كان الله له. رقمه بالخزانة الحسنية ١١٩٧٣.



١٨٧ ـ اليوسي، أبو الحسن: رسالة في العلم النبوي. يوجد منها عدد من النسخ بالخزانتين العامة والحسنية بالرباط. ومن أرقامها بهما: ١١٥ ح.

III ـ المجلات والصحف.

١ ـ المجلات:

ـ العربي: مجلة شهرية تصدر من الكويت. عدد ٢٤٢، يناير، ١٩٧٩.

ـ المستقبل العربي: شهرية، يصدرها مركز الدراسات العربية، بيروت. عدد ١٤٤ فبراير ١٩٩١. وعدد ٨١، نونبر ١٩٨٥.

ـ المسلم المعاصر: فصلية تصدرها مؤسسة المسلم المعاصر. رئيس التحرير: جمال الدين عطية. عدد ٦٥/ ٦٦.

ـ منبر الحوار: فصلية، تصدر من باريس. العددان ٢١ و٢٢، ١٩٩١.

٢ ـ الصحف اليومية:

ـ الاتحاد الاشتراكي: المدير المسؤول: عبد الرحمن اليوسفي. المغرب.

ـ الحياة: رئيس التحرير جهاد الخازن. تصدر من لندن.

ـ الشرق الأوسط: يومية عربية دولية.

ثانيا ـ بالفرنسية.

I - Livres :

1- Divination :

188-189 - Boll, Marcel :

* L'occultisme devant la science.

Collection : Que sais - je ? 2ème édition, 1947. Presses universitaires de France. Paris

*Quelques sciences captivantes. (Ondes humaines ? Délires collectifs. Hypnotisme. Psychanalyse. Suggestion. Métapsychie. Astrologie. Spiritisme. Radiesthésie). Editions du Sagittaire. Marseille, France. 1941.

190 - Castellan, Yvonne : Le spiritisme.

QSJ. 7ème édition, 1987.

191 - Couderc, Paul : l'astrologie.

Presses de France, QSJ, 1er éd, 1951.

192 - Dessuart, Joseph : La Voyance.

QSJ. 1er édition, 1980.

193 - Faivre, Antoine : L'ésotérisme.



Presses de France. 1993, Paris.

194 - Flacelière, Robert : Devins et Oracles grecs.

P.U.F. Collection QSJ, nº 939. 1er éd, 1961.

195 - Fontenelle, et Van Dale : Histoire des Oracles.

Edition critique, publiée par Louis Maigron. E. Cornély et Cie, Editeurs. Paris. 1908.

196 - Goetschel, Roland : La Kabbale.

PUF. 3er éd, 1993.

197 - Hutin, Serge : L'Alchimie.

QSJ. P.U.F. 8ème éd, 1991.

198 - Mehren, A,F : Vues d'Avicenne sur l'astologie

Louvain, librairie Peeters, 1885, Belgique.

199 - Palou, Jean : La sorcellerie.

P.U.F. Collection QSJ. 8ème éd, 1992.

200 - Papus, Gérard : Traité élémentaire d'occultisme et d'astrologie. Initiation à l'étude de l'Esotérisme hermétique.

Editions Dangles, Paris, 1936.

201 - Rony, Jérôme-Antoine : La Magie.

QSJ. Imprimé in : P.U.F. 1er éd, 1950.

2- Philosophie :

202 - Bréhier, Emile : Histoire de la philosophie.

Cérès Editions. Tunis. 1994 (Première édition entre 1930 et 1938, chez Presses de France)

203 - Dodds, E. R : Les Grecs et l'irrationnel.

Traduit d'anglais par : Michael Gibson.

Aubier, Editions Montaigne, Paris, 1965.

204 - Grimal, Pierre : La mythologie grecque.

Presses universitaires de France. Collection Que sais-je ?

16ème édition, 1995. Paris.

205 - Pascal, Blaise : Pensées.

Collection : Grands écrivains. Imprimerie Brodard et Taupin à la Flèche (Sarthe), 1986.



206 - Piettre, Bernard : Philosophie et sciences du temps.

QSJ , 1ER éd, 1994.

3 - La science et son épistémologie :

207-Le Dantec, Félix : Les limites du connaissable.

(La philosophie zoologique de Lamarck. La place de la vie dans les phénomènes naturels. Les limites de la biologie. Le Divin. Le mouvement rétrograde en biologie. L'évolution et les apologistes. La connaissance de l'avenir. Darwin. La maturation de l'œuf. L'hérédité).

Editeur Félix Alcan. 2ème éd, 1904. Paris.

208 - Gleick, James : La théorie du chaos. Vers une nouvelle science.

Traduit de l'anglais par : Christian Jeanmougin. Collection : Sciences d'aujourd'hui. Editions Nouveaux Horizons, Paris, 1989.

209 - Granger, Gilles-Gaston : La Raison.

QSJ, nº 680. 10ème éd, 1993.

210 - Scheps, Ruth : Les sciences de la prévision.

Ensemble d'entretiens, sous la direction de R. Scheps.

Editions du Seuil, coll : Point-sciences. 1996.

4 - Psychologie, Parapsychologie, et anthropologie culturelle :

211 - Amadou, Robert : La parapsychologie. Essai historique et critique.

Editions Denoël, Paris, 1954.

212 - Bastide, Roger : Eléments de sociologie relgieuse.

Collection Armand Colin. (Section de philosophie), 1935.

213 - Bouthoul, Gaston : Les Mentalités.

P.U.F. Collection QSJ. 4ème éd, 1966. Paris.

214 - Castellan, Yvonne : La parapsychologie.

Collection QSJ. 7ème édition, 1991.

215 - Deutsh, Hélène : La psychologie des femmes.

Traduit d'anglais par : Hubert Benoit. 1ère édition en français 1987. Imprimerie de P.U.F. Collection Quadrige.

5 - Météorologie :

216 - Berroir, André : La météorologie.



QSJ. Imprimé in : P.U.F. 3ème édition, 1995.

217 - Pagney, Pierre : Les catastrophes climatiques.

QSJ nº 2878. 1er édition, 1994.

6 - Droit positif :

218 - Code Pénal , (Annoté d'après la doctrine et la jurisprudence). Collection Dalloz, 74ème édition (1er édition en 1832). Paris, Librairie Dalloz. 1966-67.

219 - Batiffol, Henri : La philosophie du droit.

QSJ. 9ème éd. 1993.

7 - Littérature :

220 - La Bruyère, Jean de : Les caractères.

Collection : Grands textes classiques, 1993.

221 - La Fontaine, Jean : Les Fables.

Illustrés par Grandville.

Editions Marabout. 1987.

8 - Livres et Etudes divers :

222 - Choucroun, I. M : Le Judaïsme, doctrines et préceptes.

Collection : Mythes et religions. P.U.F. Paris, 1er édition, 1951.

223 - El Mandjra, Mahdi : Première guerre civilisationnelle.

Editions Toubkal. 1993, 2eme éditions. Maroc.

224 - Grégoire, François : L'Au-Delà.

P.U.F. Collection QSJ. 3ème édition, 1965.

225 - Houtin, Albert : Courte histoire du christianisme.

F. Reider et Cie, éditeurs. Paris, 1ère édition, 1924.

226 - Toffler, Alvin : Le choc du futur.

Folio essais, 1987, Paris. Editions Denoël.

9 - Encyclopédies et dictionnaires :

227 - Encyclopédie des arts divinatoires. Par : Belline, le voyant. Marabout. Editions Robert Laffont, 1977.

228 - Encyclopaedia Universalis. Editeur : Ency. Uni, Paris, 1996. Président d'encyclopédie : Alain Aubry.

229 - Petit Robert. Dictionnaire de la langue française. 1995.

230 - Petit Robert. Noms propres. 1995.

231 - Quid : Grand Quid illustré. Editeur Guy Schoeller, 1982. Editions Robert Laffont. Paris.

II - Revues :

——— Futuribles. (Analyse - Prévision - Prospective).
Revue mensuelle, directeur : Hugues de Jouvenel. Paris.

——— Le Monde diplomatique. Mensuelle. Directeur. Ignaciot Ramonet, Paris.

ثالثاً - بالإنجليزية.

1- Books of Futurology :

232 - Applying methods and techniques of futures research. By a group of researchers. The association for institutional research. San Francisco, 1983, U.S.A.

233 - The futures research directory : Organizations and periodicals, 1993-94.
Edited by : Lane Jennings. Compiled and édited by :
The World future society. Bethesda, Maryland 20814. U.S.A.

234 - Why futures studies ? By : Eleonora Barbieri Masini. Publisher : Grey Seal, London, England. First published 1993.

2 - Rviews :

——— Arab News. صحيفة يومية سعودية .

——— International Herald Tribune. - صحيفة دولية يومية ، الطبعة الأوربية.

——— Saudi Gazette. جريدة يومية تصدر من جدة بالسعودية .



الفهرس التفصيلي لموضوعات الكتاب








رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com